يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

عدد مزدوج
٤٠٠
صفحة كبرى

Б. ПАСТЕРНАК
"ДОКТОР ЖИВАГО"

الجزء الثاني والأخير



دكتور چيڤاجو

بوريس پاسترناك



جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٨

الجزء الثانى

من النص الحرفى الكامل لملحمة العصر

دكتور چيڤاجو

للأديب الروسى المعاصر: "بوريس باسترناك"

الفائز بجائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٥٨

Б. Пастернак „Доктор Живаго"



اشترك فى ترجمتها ، بتكليف من « مطبوعات كتابى » :

يحيى حقى ـ محمد بدر الدين خليل

ثابت أمين ـ بهجت عبد الفتاح

راجعها وحققها ، وترجم القصائد الشعرية : حلمى مراد

٤٠٠ صفحة ـــ ٣٠ قرشا

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

شخصيات القصة

(مرتبة حسب الحروف الابجدية)

أنتيبوف : انظر « باشا » و « بافيل » و « ستريلنيكوف » .
أنتيبوفا : أنظر « لارا » و « لاريسا » .
أوسيب : انظر « جاليولين » و « يوسوبكا » .
الكسندر الكسندروفيتش : انظر « جروميكو » .
آنا ايفانوفنا كروجر : زوجة الكسندر الكسندروفيتش جروميكو ، ووالدة « تونيا » ، وحماة دكتور جيفاجو . وهى ابنة أحد ملوك الحديد فى الاورال ، المدعو « ايفان أرنستوفيتش كروجر » .
أنتونينا : انظر « تونيا » .
ايفجراف جيفاجو : أخ غير شقيق للدكتور جيفاجو .
أوليا ديمينا : فتاة نشطة من عاملات مصنع مدام جيشار ، وصديقة لابنتها « لارا » ، وقد صار لها شأن بعد الثورة .
ايفان ايفانوفيتش فوسكوبوينيكوف : انظر فوسكوبوينيكوف .
أجريبينا سيفيروفنا تونتزوف : انظر « تونتزوف » و « ميكوليتسين » .
أورليتسوفا (خريستينا) : ابنة الكاهن «بونيفاتسى» ، وخطيبة « نيكى دودوروف » . بطلة من بطلات الحرب المقاتلات .
باشا : (أو « باشكا » ، أو « باشنكا ») ـ واسمه الكامل **« بافيل بافلوفيتش أنتيبوف »** ـ ابن عامل السكة الحديد « بافيل فيرابونتوفيتش أنتيبوف » وزوجته « داريا فيليمونوفنا » . كان مدرسا ، ثم صار قائدا فى جيش الثورة أطلق عليه لقب « ستريلنيكوف » .
بريكين : انظر « فاسيا » .
بافيل « فيرابونتوفيتش » أنتيبوف : هو زوج « داريا فيليمونوفنا » ووالد « بافيل بافلوفيتش أنتيبوف » المعروف باسم

« باشا » . وقد صار الوالد زميلا لـ « تيفرزين » فى محكمة الثورة .

باليخ (بامفيل) : جندى قديم بالجيش القيصرى ، وقاتل « قوميسار » جيوش « هينز » .

بامفيل : انظر « باليخ » .

تيفرزين (أو « كوبريان » ، « كوبرينكا » ، سافيليفتش) : ابن « سافيلى نيكيتيش تيفرزين » من زوجته « مارفا جافريلوفنا » . وكان من عمال السكك الحديدية ، (مثل أبيه) ، ثم صار عضوا فى احدى محاكم الثورة مع صديقه بافيل «فيرابونتوفيتش» أنتيبوف ، (والد بافيل « بافلوفيتش » أنتيبوف ، المعروف باسم « باشا ») .

تيفرزينا (أو « مارفا جافريلوفنا ») : زوجة « سافيلى » ووالدة « تيفرزين » .

تشكيفيتش : عازف موسيقى كان جارا فى الفندق لاسرة « جيشار » .

تونيا (أو « أنتونينا ») : ابنة الكسندر الكسندروفيتش من زوجته « آنا » . وزوجة دكتور جيفاجو .

تانيا بيزوتشيريديفا : ابنة « لارا انتيبوفا » والدكتور جيفاجو (من علاقتهما غير الشرعية .)

تونتزوف (الاخوات) : « ايفدوكيا » (افدوسيا) ، و «جلافيرا» (جلاشا) ، و «سيرافيما» (سيما ، أو سيموشكا ، أو سيموتشكا) سيفيرينوفنا : شقيقات « أجريبينا » ، الزوجة الاولى لميكوليتسين (الاب) ، وخالات ميكوليتسين الابن (ليبريوس) .

تياجونوفا (بيلاجيا ـ أو « بالانشا » ، أو « بوليا » ـ نيلوفنا) : اخت « أولجا نيلوفنا جالوزينا » ، وصديقة « فاسيا بريكين » .

جاليولين (أو «أوسيب» ، أو «ايوسوب» ، أو « يوسوبكا ») : ابن « جيمازيدين » من زوجته « فاتيما » . كان ميكانيكيا ثم صار قائدا لجيش البيض خلال الثورة البلشفية .

شخصيات القصة

جيمازيدين : والد « جاليولين » . (انظر : جاليولين) .

جاليولينا (أو « فاتيما ») : والدة جاليولين .

جوردون (أو « ميشـا » أو « ميخـائيل ») : ابن المحامى « جريجورى أوسيبوفيتش جوردون » ، وصديق يورا (أو الدكتور جيفاجو) .

جروميكو (الكسندر الكسندروفيتش) : شقيق نيكولاى الكسندروفيتش ، وزوج « آنا ايفانوفنا كروجر » ، ووالد « تونيا » زوجة الدكتور جيفاجو . (وكان يورا جيفاجو قد قضى صباه فى منزل آل جروميكو) .

جيشار (أماليا كارلوفنا) : والدة الفتاة (لارا ـ لاريسا ـ أنتيبوفا) والفتى (روديا ـ روديون) . وهى أرملة مهندس بلجيكى كان يعمل فى الاورال ، وكانت فرنسية ثم اكتسبت الجنسية الروسية .

جيفاجو (أو « يورا » ، أو « يورى » ، أو « يوروتشكا ») أندريفيتش : هو الدكتور جيفاجو بطل القصة ، ابن ثرى من رجال الصناعة فى سيبريا ، مات منتحرا .. وأمه « ماريا نيكولاييفنا (المولودة بلقب « فيدينيابين ») . تزوج من تونيا جروميكو (أو أنتونينا) وأنجب منها ابنا وابنة (« ساشا » ، و « ماشا ») . وكان له أخ غير شقيق يدعى « ايفجراف جيفاجو » ، أو « جرانيا » .

جالوزين (تيرينتى ، أو تيريشا ، أو تيريشكا) : ابن التاجر « فلاس (فلاسوشكا) باخوموفيتش جالوزين » من زوجته « أولجا (أوليا) نيلوفنا » .. وابن أخت « بيلاجيا نيلوفنا تياجونوفا » . أحد المجندين الهاربين من الجيش الابيض الذين لجأوا الى « الانصار » .

جيفاجو (ايفجراف ـ أو جرانيا ـ أندريفيتش) : أخ غير شقيق للدكتور «يورى جيفاجو» بطل القصة .

خريستينا : انظر « أورليتسوفا » .

دودوروف : انظر : « نيكى » .

شخصيات القصة

داريا فيليمونوفنا : زوجة بافيل « فيرابونتوفيتش » ووالدة بافيل « بافلوفيتش » (باشا) .

روديون (أو « روديا ») : ابن مدام جيشار وشقيق (لارا ــ لاريسا ــ أنتيبوفا) ، وقد التحق بالكلية الحربية .

روديا : أنظر « روديون » .

ستريلنيكوف : انظر « باشا » و « بافيل » .

ساشا (أو « ساشنكا » ، « سانتشكا » ، « شورا » ، « شوروتشكا » .. وكلها تصغير لاسم « الكسندر ») : ابن دكتور جيفاجو من زوجته « تونيا » .

سافيلي : والد « تيفرزين » وزوج « مارفا » .

سيفيرينوفنا : انظر « تونتزوف » .

ساميديفياتوف (انفيم ايفيموفيتش) : احد كبار المسئولين البلشفيك ، صديق و « حامى » عائلات « ميكوليتسين » و « جيفاجو » .

شتشابوف : (انظر « مارينكا ») .

شليزنجر (شورا) : صديقة « آنا ايفانوفنا » زوجة الكسندر الكسندروفيتش جروميكو .

شورا : (انظر : « شليزنجر ») .

فاسيا : (أو « بريكين ») ، هارب من جيش العمال المجندين ، كان زميلا للدكتور جيفاجو فى رحلته الى الاورال ، وبات تحت حمايته .

فاتيما (أو جاليولينا) : والدة جاليولين .

فيكتور ايبوليتوفيتش : أنظر « كوماروفسكى » .

فوسكوبوينيكوف (ايفان ايفانوفيتش) : أديب ومؤلف كان يقطن فى ضيافة كولوجريفوف فى ضيعة (دوبليانكا) ، وكانت له مناقشات فلسفية مع الخال كوليا .

فيدينيابين (نيكولاى ــ كوليا ــ نيكولايفيتش) خال الدكتور

جيفاجو . انظر « نيكولاى نيكولاييفتش » .

كروجر : لقب أسرة « آنا » زوجة الكسندر الكسندروفيتش .

كاتيا (أو « كاتنكا » ـ تصغير « ايكاتيرينا ») : ابنة (لارا ـ لاريسا ـ انتيبوفا) من زوجها (باشا ـ بافيل ـ انتيبوف ـ ستريلنيكوف)

كولوجريفوف (لافرينتى ميخائيلوفيتش) ثرى من رجال الصناعة يملك ضيعة (دوبليانكا) ، وهو شغوف برعاية الادب والفنون . له ابنتان هما « ناديا » و « ليبا » ، صديقتا « لارا » فى سنوات المراهقة .

كوماروفسكى (فيكتور ايبوليتوفيتش) : محام (ثم صار فى عهد الثورة من رجال السياسة) ، وكان صديقا للمهندس البلجيكى وراعيا لارملته مدام جيشار ، ثم عشيقا لابنتها « لارا » .

كوليا : أنظر « نيكولاى نيكولاييفتش » .

كوبريان : (انظر : تيفرزين)

كوبرينكا : (انظر : تيفرزين)

لارا : (أو لاريسا ، أو انتيبوفا) ، ابنة مدام « جيشار » وشقيقة « روديا » أو « روديون » ، تزوجت من « باشا » ، أو « أنتيبوف » أو « ستريلنيكوف » ، وأنجبت منه ابنتهما « كاتيا » .

لاريسا : أنظر « لارا » ، و « أنتيبوفا » .

ليسنيخ : الاسم « الحربى » للمدعو « ليبريوس أفيركييفتش ميكوليتسين » .

ليبا كولوجريفوف : ابنة صاحب ضيعة (دوبليانكا) ، وتلميذة « لارا » .

مارينكا : (أو « مارينا ماركيلوفنا » ، أو « شتشابوف ») ، ابنة حارس الباب أو النجار « ماركل شتشابوف » من زوجته « اجافيا تيخونوفنا » . ستصير لها علاقة هامة مع شخصية كبيرة من شخصيات الرواية وتنجب منه ابنتين : كابيتولينا (كابا) ،

و كلافديا (كلافا) .

ماركل : والد الفتاة « مارينكا » . (انظر « مارينكا »)

ميشا : أنظر « جوردون »

ماريا نيكولاييفنا : والدة يورا (الدكتور جيفاجو)

مارينا : أنظر « مارينكا » .

مارفا جافريلوفنا (أو « تيفرزينا ») : والدة « تيفرزين » وزوجة « سافيلى » .

ماشا (تصغير ماريا) : ابنة دكتور جيفاجو من زوجته «تونيا» .

ميكوليتسين (الاب) ــ واسمه الكامل « أفيركى ستيبانوفيتش ميكوليتسين » ــ مشرف سابق فى مصانع « كروجر » للحديد والصلب . وله ابن ــ « ليبريوس » ــ منزوجته الاولى « أجريبينا سيفيروفنا تونتزوف » . وقد تزوج بعد ذلك من زوجته الثانية « ايلينا (لينوتشكا) بروكلوفنا » .

ميكوليتسين (الابن) ــ واسمه الكامل « ليبريوس (ليفكا) أفيركييفتش » : ابن ميكوليتسين الاب ، ورئيس الانصار « أخوة الغابة » ، وكان يعرف باسمه الحربى المستعار « ليسنيخ » .

نيكى ديمنتى دودوروف (أو « اينوكنتى » ، أو « اينوتشيك » أو « نوتشينكا ») : ابن الفوضوى « ديمنتى دودوروف » والاميرة جيورجيين نينا جالاكتيونوفنا . نشأ فى منزل المؤلف « فوسكوبوينيكوف » وكان صديقا ليورا (يورى ــ جيفاجو)

نيكولاى نيكولاييفيتش (أو « الخال كوليا » ، أو « فيدينيايين») : كان من رجال الكنيسة ثم هجر الدين ليصبح كاتبا وفيلسوفا . وهو خال الدكتور جيفاجو .

ناديا كولوجريفوف : ابنة صاحب ضيعة (دوبليانكا) وصديقة « لارا »

يوسوبكا : أنظر « جاليولين » و « اوسيب » .

يورا : أنظر « جيفاجو » .

يورى : انظر « جيفاجو » .

الفصل الثامن الوصول



« .. أواه ، أيها الرفيق الطبيب .. لو لم تكن هذه الحرب الأهلية ، ووباء الثورة على الثورة ، فهل ترانى كنت اضيع وقتى بوجودى فى الغربة فى هذا الموسم ؟.. ان حرب الطبقات شقت ما بيننا كخط اسود ، وهذه هى.. انظر ماذا فعلت بنا ! »

الفصـــل الثـــامن

الوصــول

— ١ —

• كان القطار الذى أقل أسرة جيفاجو لا يزال واقفا فى المحطة ، وقد حجبته القطارات الاخرى . ولكن الاسرة شعرت فى ذلك الصباح - ولاول مرة - بأن صلتها بموسكو قد انفصمت ، بل انتهت .. لقد أصبحت الاسرة ، منذ ذاك الوقت ، فى أرض أخرى .. فى عالم ريفى جديد ومختلف عن ذلك الذى كانوا فيه .. عالم له خصائصه و « مركز ثقله » الذى لا يشاركه فيه عالم آخر !

وبدا من الواضح لاول وهلة ان الناس هنا يعيشون فى ترابط . انهم أقرب الى بعضهم البعض منهم فى موسكو او بطرسبورج ورغم أن منطقة المحطة كانت معزولة ، ودخولها محرما على المدنيين ، فقد عمل المسافرون بالقطارات المحلية - بطريقة أو بأخرى - على أن يتسللوا منها (كما يمكن أن نقول الآن) . كانت العربات مفعمة بهم، وقد احتشدوا على الابواب ، أو وقفوا يتسكعون أمامها .

وتعارف الجميع بدون استثناء . كانوا يلوحون وينادون حين يلمح بعضهم بعضا ، وكانوا يتبادلون التهانى كلما مر أحدهم بالآخر . **وكانت طريقة حديثهم ، وزيهم ، وطعامهم ، وتصرفاتهم ، تختلف بعض الشىء عن تلك التى يتصف بها سكان الحواضر والعواصم ..**

وراح « يورى » يسأل نفسه : « ترى كيف يحصلون على معاشهم ؟ ما هى مواردهم المادية ، وما هى مصادر دخلهم واهتماماتهم ؟ وكيف يسايرون مصاعب الزمن ، بل كيف يروغون من القانون ؟ »

ولم يمض وقت طويل حتى عرف الاجابة على أسئلته !

— ٢ —

• وعاد « يورى » الى العربة ، يتبعه الديدبان الذى كان يجر بندقيته ، ويتوكأ عليها كأنها عصا .. وكان اليوم حارا تشيع فيه الرطوبة ، وبدت القضبان وأسطح العربات وكأنها كانت تنصهر .. كما بدت الارض – التى اسود لونها من الزيت – تلمع وكأنها كسيت بطبقة معدنية !.. وأخذت بندقية الديدبان تثير الغبار كأنها محراث يشق الخطوط فى أرض جافة . وبين حين وحين ترتطم ب « الفلنكات » الخشبية التى بين القضبان .

وقال الديدبان : « لقد استقر الجو ، وجاء أوان بذر الحنطة والشوفان والذرة العويجة .. انه خير جو مناسب للمحصولات . ولكنه مبكر بالنسبة للحنطة السوداء ، فنحن – فى البلد الذى جئت منه – نبذر الحنطة السوداء فى عيد « اكوالينا » . اننى لست من هذه المنطقة ،بل أنا من (مورزانسك) ، بالقرب من (طمبوف) . أواه ، أيها الرفيق الطبيب .. لو لم تكن هذه الحرب الاهلية ، ووباء الثورة على الثورة ، فهل ترانى كنت أضيع وقتى بوجودى فى الغربة فى هذا الموسم ؟.. ان حرب الطبقات شقت ما بيننا كقط أسود (١) ، وهذه هى .. انظر ماذا فعلت بنا ! »

— ٣ —

• وامتدت الايدى من العربة لتعاون « يورى » على الصعود ، فشكر الذين تطوعوا لمساعدته ، وطمأنهم الى أنه قادر على الصعود بنفسه .. وحين دخل العربة ضم زوجته الى صدره وهو يقول : « ها نحن أخيرا !.. الحمد لله ، لنشكر الله على أن انتهى الامر بهذا الشكل ! » .. وكانت زوجته تردد مرة بعد أخرى : « الواقع اننا كنا نعرف انك على حق .. كنا نعرف أنك على حق ! »

– ماذا تقصدين بقولك أنكم كنتم تعرفون أننى على حق ؟

(١) يعتقد الروس أن مرور قط اسود بين اثنين نذير بعراكهما .

ـ لقد جاء الحراس وعرفونا بما كان يجرى .. كيف كان يمكننا أن نحتمل الشك ؟ .. لقد كدنا ـ أبى وأنا ـ أن نجن . ها هو ذا ينام ملء جفنيه ، فلا تستطيع أن توقظه . لقد نام ككتلة من الخشب ، بعد كل ما مر بنا من أحداث مثيرة . ان هناك ركابا جددا كثيرين ، وسأعرفك بالجميع فى لحظات .. ولكن ، انصت الى ما يتحدثون عنه : انهم جميعا يهنئونك بنجاحك فى الفرار . وهذا هو ..

ودارت فجأة ، ثم قدمت زوجها ـ من خلف كتفيها ـ الى واحد من المسافرين الجدد ، كان الزحام قد حشره فى مؤخرة العربة . وقدم الغريب نفسه ، وهو يرفع قبعته الطرية فوق رؤوس من كانوا حوله ، مناضلا لكى يتقدم بين الاجساد المتلاصقة بسبب الزحام .. فقال : « اسمى سامديفياتوف » .. وردد يورى الاسم فى ذهنه : « سامديفياتوف !.. مثل هذا الاسم قمين بأن ينبىء بأن صاحبه قادم لتوه من احدى الاساطير الشعرية الروسية القديمة ، وانه ذو لحية ضخمة ، وعباءة ، وحزام مرصع بأزرار حديدية .. ولكن هذا الرجل يبدو كأنه أحد أعضاء نادى الفنانين المحلى ، بشعره المجعد الذى دب فيه الشيب ، وشاربه ، ولحيته ! »

وقال سامديفياتوف : « قل الحق .. هل أخافك ستريلنيكوف ؟ »

ـ أبدا .. بل اننا استمتعنا بحوار طريف .. ان له شخصية قوية فى الواقع !

ـ أعتقد هذا ، فقد كونت لنفسى فكرة عن شكله ، اذ انه ليس من هذه المنطقة .. **انه واحد منكم يا أهل موسكو .. كمعظم « تقليعاتنا » ومستحدثاتنا ، فهى جميعا مستوردة من العاصمة ، وما كان لنا نحن أن نفكر فيها .**

وقالت تونيا : « يا عزيزى يورى ، ان « سامديفياتوف » يعرف كل الناس ، وقد سمع عنك وعن والدك .. انه يعرف كل الناس !.. ما أحسبك الا قد قابلت المدرس يا انتيبوفا » .. وبدا كأن لسانها قد أفلت عفوا ، فقال سامديفياتوف بنبرة خاصة : « ما شأن أنتيبوفا ؟ » . وكان يورى يسمع الحديث ، ولكنه لم

يشترك فيه . بينما واصلت تونيا كلامها قائلة لزوجها :

ـ ان « سامديفياتوف » بلشفيكى ، فخذ حذرك منه يا عزيزى ، ان عليك أن تلزم أحسن سلوك !

فقال يورى للرجل : « أحق هذا ؟ .. ما خطر ببالى اطلاقا .. بل لقد كنت خليقا بأن أحسبك فنانا ، فى أى لون من ألوان الفنون » .

ـ ان لابى حانة تؤجر العربات ، وعندنا نحو سبع عربات تعمل على الطريق .. ولكنى التحقت بالجامعة ، وأنا فعلا « ماركسى » ..

ـ انصت يا « يورا » الى ما قاله « سامديفياتوف » لى .. وبهذه المناسبة ، أرجو أن لا يضايقك ان اقول ـ يا سامديفياتوف ـ ان اسمك واسم عائلتك يلويان اللسان حقا .. أنصت يا عزيزى الى ما قاله لى : « لقد كنا سعداء الى أقصى حدود السعادة ! » .. ان (يورياتين) الوسطى لن تؤوى القطار ، اذ أن جزءا من البلدة يحترق ، كما نسفت القنطرة ، ولم يعد فى الامكان المرور . وهكذا سيحول قطارنا الى خط آخر .. ومن المصادفة أن يكون هذا الخط هو عين ما نبغى ونتمنى .. انه الخط الذى يوصلنا الى محطتنا ، الى (تورفيانايا) .. أليس هذا بديعا حقا ؟.. لم يعد علينا أن ننتقل بكل متاعنا هذا من محطة الى اخرى ، بل اننا سنبقى فى القطار . ويقول « سامديفياتوف » ـ من ناحية أخرى ـ ان هذا القطار سيقضى ساعات فى مناورات ، ذهابا وجيئة ، قبل أن يتأهب للرحيل !

— ٤ —

• وكانت تونيا على حق ، فقد ازدوجت العربات تارة ، ثم فصلت عن بعضها تارة أخرى ، وراح القطار يتنقل الى غير نهاية على مختلف الخطوط المزدحمة ، فقد كانت عليها قطارات أخرى تقف حائلا دون انطلاقه الى الريف المكشوف . وكانت المدينة هناك على مرمى البصر ، تكاد تكون مختفية بين الاراضى الزراعية . تبدو أسطح بيوتها ، ومداخن مصانعها ، وصلبان كنائسها ، من بعيد بين الحين والحين . وكانت احدى ضواحيها تحترق ، وقد راح الدخان ينعقد فى السماء ،

فبدا كعرف الفرس تعبث به الرياح .

وجلس يورى وسامديفياتوف على أرض العربة وقد تدلت ارجلهما من حافتها ، وراح سامديفياتوف يشير الى الافق ويشرح ليورى ما يشاهدانه من مناظر ، وبين الفينة والفينة أخذ القطار يزيد من سرعته ، فيضيع الصوت فى زحمة الضجيج .. واذ ذاك كان الرجل يميل الى جانبه ، مقربا فمه من أذن يورى ، ليعيد ما قال فى صراخ مبحوح :

ــ هذه هى السينما الكبرى التى أحرقوها ، كان طلبة المدرسة الحربية يعسكرون فيها ، ولكنهم سرعان ما سلموا ، وعلى العموم فالحرب لم تنته بعد . هل ترى تلك النقط السوداء على أبراج الكنائس ؟ انهم رجالنا يتصيدون التشيكوسلوفاكيين (١)

ــ لست أرى شيئا . لعمرى كيف تستطيع أن تراهم على هذا البعد ؟!

ــ وهذا حى الصناع ، المعروف باسم « خوكريكى » ، انه يحترق أيضا . أما حى « خولوديفو » ــ حيث الحوانيت ــ فيقع بعده . ويرجع اهتمامى بهذه المنطقة الى ان حانتنا هناك . ومن حسن الحظ ان النيران لم تلتهم الا الضواحى ولم تصل الى مركز المدينة ..

ــ ماذا تقول ؟

ــ أقول ان مركز المدينة لم يمس بعد .. أعنى وسط المدينة .. الكاتدرائية والمكتبة ، ان اسم « سامديفياتوف » هو اسم روسى من سان دوناتو ، والمفروض اننا من سلالة ديميدوف (٢) .

ــ ما زلت لا أستطيع أن أسمعك .

ــ قلت أن « سامديفياتوف » من سان دوناتو . ويقولون اننا

---

(١) اشترك الفيلق التشيكوسلوفاكى فى الأحداث فى روسيا الشرقية وسيبيريا بين عامى ١٩١٨ ، ١٩٢٠

(٢) افتتح « ديميدوف » أول مناجمه فى منطقة الأورال بعد أن حصل على امتياز من « بطرس الأكبر » وأنعم الفاتيكان على خلفه فى القرن التاسع عشر بلقب أمير سان دوناتو .

فرع من أسرة ديميدوف ، الامير « ديميدوف سان دوناتو » ، ولكنها قد تكون احدى أساطير الاسرة . وهـذه المنطقة يطلقون عليها اسم « وادى سبيركا » ، وهى مليئة بالفيلات الـجميلة ، ويأتى الناس اليها لقضاء ساعات مرحة .. ان اسمها عجيب .. أليس كذلك ؟

وكان فى مواجهتهم واد تقاطعه دروب متفرعة ، وكانت أعـمدة التلغراف تبدو فى الافق كما لو كانت مردة يبعد كل منها عن الآخر بمسافات متساوية . وكان الطريق المتعرج ينافس فى جماله شريط السكة الحديد . وبدا كأنما اختفى الطريق على مدى البصر ، ثم عاد يبدو واضحا فى منعطف ، ثم اختفى مرة أخرى .

ــ هذا هو طريقنا الشهير ، انه يسير قدما حتى يخترق سيبريا ، ولقد اعتاد المنفيـون أن يذكروه فى أغانيهم ، وأصـبح الآن قاعدة لعمليات الصناع . سيعجبك الحال هنا . انه كما ترى لا بأس به ، وستعتاد عليه و تهفو اليه نفسك ، بل ستستوحشه اذا غادرته . وستجد فى المدينة طابعا قديما يميزها : هناك طلمبـات المياه مثلا ، وصفوف النســاء التى تقف فى طوابير فى مفـارق الطـرق . انهن يعتبرن تلك الوقفة بمثابة « ناد » فى الهواء الطلق يجتمعن فيه طوال الشتاء !

ــ اننا لن نقيم فى المدينة ، وانما نقصد ضاحية (فاريكينو) .

ــ أعلم ذلك . لقد حدثتنى به زوجتك . لكن ذلك لا يغير من الامر شيئا ، فسوف تأتى الى المدينة لقضاء مصالحك . لقد خمنت من تكون زوجتك بمجرد ان لمحتها . انها الصورة الحية لكروجر : العينان ، الانف ، الجبهة ، صورة طبق الاصل من جدها . ان كل أهل المنطقة يذكرونه .

وظهرت فى الافق مجموعات من صهاريج البترول الحمراء ، ولوحات اعلانية ضخمة ترفعها أعمدة طويلة من الخشب ، اجتـذب احدها نظر يورى . كان مـكررا مرتين وقـد كتب عليـه : « مـورو و فيتشينكين . بذارات . آلات دراس » .

ــ كانت مؤسسة مفيدة .. آلاتها الزراعية من أعلى درجة .

ـ لست أسمعك .. ماذا تقول ؟

ـ قلت مؤسسة مفيدة .. ألا تسمع ؟ مؤسسة مفيدة . كانت تصنع الآلات الزراعية . كانت شركة ذات مسؤولية محدودة وكان والدى من المساهمين فيها .

ـ أظنك قلت انه صاحب حانة ..

ـ نعم ، انه لكذلك . ولكن ذلك لا يمنعه من أن يساهم فى الشركات . انه استثمار ناجح لامواله بلا شك . وكان يساهم أيضا فى السينما الكبرى .

ـ يبدو من طريقة حديثك انك فخور بذلك ؟

ـ بنجاح أبى وذكائه ؟ .. لا شك انى فخور !

ـ وماذا عن ماركسيتك ؟

ـ يا الهى .. ! وما صلة هذا بذاك ؟ بحق الارض لماذا ينبغى أن يكون الرجل مغفلا اذا اعتنق الماركسية ؟ ان الماركسية علم ايجابى ، انها عقيدة واقعية ، وفلسفة للتاريخ .

ـ الماركسية علم ؟ ! انها مخاطرة أن يقول المرء ذلك .. ان يتناقش فيه مع رجل بالكاد يعرفه ! ولكن ، فليكن ما يكون . ان الماركسية لم تتحكم فى ذاتها الى الدرجة التى تجعلها علما ، فالعلم أكثر اتزانا . وأنت تتحدث عن الماركسية موضوعيا . اننى لا اعرف تعاليم تركز همها حول ذاتها وتتباعد عن الحقائق مثل الماركسية . وقد جرت عادة الناس ان يهتموا باختيار نظرياتهم عمليا ، وأن يتعلموا من التجربة ، **ولكن أولئك الذين يدينون بالقوة يتوقون الى بناء خرافة لا يأتيها الباطل ، ويولون ظهورهم بعدها الى الحق بقدر استطاعتهم . ان السياسة لا تعنى شيئا بالنسبة لى . غير انى لا أحب الناس الذين لا يبالون بالحق .**

واعتبر « سامديفياتوف » كلمات « يورى » من قبيل سفسطة رجل عنيد ، فاستمع اليها وعلى فمه ابتسامة ! .. وكان القطار لايزال يحاور ويناور . وفى كل مرة كان يصل فيها الى قرب الاشارة الخاصة بالتحرك كانت هناك امرأة ـ ربطت وعاء اللبن فى خصرها ـ

تتوقف عن تحريك ابر « التريكو » بين يديها وتنحنى لتدوس على صمام الاشارة ، فيعود القطار مرة أخرى فى اتجاه المدينة . وحين أخذ يتحرك فى بطء جلست وراحت تهز قبضتها كما أو كانت تهدده ..

وبدا اهتمام « سامديفياتوف » شخصيا بما تفعل ، فراح يتساءل : لماذا ياترى تفعل هذا ؟ ان وجهها مألوف لى . لعلها « جلاشا تونتسيفا » ؟ كلا .. لا أعتقد انها يمكن أن تكون جلاشا . انها تبدو مسنة جدا . وعلى كل حال ، أى ضغينة فى نفسها ضدى ؟ لعلها تعتقد اننى السبب فيما يحيق بروسيا الأم من كرب وانشقاق ، ولذلك تلومنى وتهز قبضتها فى وجهى ! ؟ ولكن ، مهما كان الامر فلتذهب الى الجحيم .. يبدو كأن ليست هناك أشياء أخرى أفكر فيها !

ومرت فترة طويلة هزت المرأة بعدها علمها ، وصاحت بشىء الى سائق القاطرة ، ثم تركت القطار يعبر الاشارة ، فخرج الى الريف الطلق .. ولكن حين مرت القاطرة الرابعة عشرة ، أخرجت لسانها الى « البالونتين » الجالستين على الارض ، وقد بدا انها مشمئزة من منظرهما . وعاد سامديفياتوف فاستغرق فى التفكير مرة أخرى .

— ٥ —

• **واختفت** ضواحى المدينة المحترقة ، بخزانات بترولها المستديرة ، وأعمدة التلغراف ، والاعلانات الضخمة . وحين توارت لتحل محلها الاراضى الشاسعة التى تتخللها الغابات والتلال المنخفضة ، والطريق الرئيسى الذى يبدو على مرمى البصر بين الفينة والفينة ، قال سامديفياتوف :

— هيا بنا الى مقاعدنا ، اذ لابد لى من النزول قريبا . كما ان محطتك هى القادمة ، فلتتنبه اليها لئلا تفوتك .

— أعتقد انك تعرف هذه المنطقة جيدا ؟

— انى أعرفها كما اعرف فناء دارى ، فى حدود دائرة مائة ميل .

أنا محام كما تعلم ، أمارس المهنة منذ عشرين عاما ، وأرتحل كثيرا بسبب عملي .

ــ حتى الآن ؟

ــ طبعا . .

ــ ولكن أى نوع من العمل هذا الذى يمكن أن تمارسه فى هذه الايام ؟

ــ اى شيء يروق لك : صفقات قديمة لم تتم ، عمليات تجارية ، فسخ عقود . . أى قدر من العمل أستغرق فيه الى قمة رأسى . ان لدى من الاعمال ما يقف من هوله شعر رأسك !

ــ ولكن هل لم تلغ كل هذه الاشياء ؟

ــ طبعا ألغيت اسميا ، ولكن اذا جاء دور التطبيق وجدنا كثيرا من المطالب غير القانونية ، وكل فرد يريد أن يعيش . هذه هى خصائص مراحل الانتقال ، حيث تكون هناك ثغرة باقية بين النظريات وبين تطبيقها العملى . ففى مثل هذا الوقت تمس الحاجة الى اناس مثلى من ذوى الخبرة والامكانيات . وطوبى للرجل الذى لا يرى أكثر من اللازم ! . . وقد اعتاد والدى أن يقول بوجوب وضع كل شيء فى موضعه . ان نصف المديرية يعتمد على فى معاشه . وسوف أزور (فاريكينو) فى أحد الايام ، فى موسم قطع الاشجار . وهو موعد ليس قريبا على أية حال . انك لا تستطيع الوصول الى هناك الا بالحصان ، وحصانى أعرج ويا للأسف ــ والا لما استطعت أن تلحق بى وأنا أنطلق عبر اكوام هذه الانقاض ! ــ هل ترى الطريقة التى يزحف بها هذا الوحش ؟ انه يسمى نفسه قطارا ! . . وعلى فكرة ، قد أكون ذا نفع لك فى (فاريكينو) ، فانى أعرف آل « ميكوليتسين » أقاربك . . اعرفهم ظهرا لبطن .

ــ هل تعرف لماذا نحن ذاهبون الى هناك ، وما هى مشروعاتنا ؟

ــ أستطيع التخمين على وجه التقريب : انك عائد الى الارض ، نداء الطبيعة الابدى . الحلم الذى يراودك بأن تعيش بعرق جبينك !

ــ وماذا فى ذلك من خطأ ؟ يبدو من كلامك انك تعارض ذلك ! ؟

ـ انه كلام ساذج ومثالى ، ولـكن لا عليك .. أتمنى لك حظا سعيدا . وان كنت لا أومن بذلك العالم الخيـالى . لكم دينـكم ولى دينى !

ـ وكيف تظن « ميكوليتسين » سيستقبلنا ؟

ـ لن يسمح لك بعبور العتبة ، سيطردك بمكنسة ، وسوف يكون على حق ! انه فى ورطة من الدرجة الاولى : فالمصانع معطلة ، والعمال هربوا ، ووسائل الحياة منقطعة ـ فلا طعام ولا شراب ـ ثم تهبط أنت عليه ! انني لا ألومه لو قتلك !

ـ هذا أنت دائما ! انك « بولشفيكى » ، ومع ذلك فأنت تعترف بأن ما يجرى ليس حياة .. انه جنون ، انه كابوس سخيف !

ـ طبعا انى أسلم بذلك . ولكن ألا ترى أن هذه مرحلة يحتمها التاريخ ، ولا بد لنا من المرور بها ؟

ـ أين هذه الحتمية ؟

ـ هل أنت طفل ؟ او انك تتصنع ؟ هل هبطت من القمر ؟ ان جماعة النهمين والطفيليين يركبون على ظهور العمال الذين يموتون جوعا ، وهم يقودونهم الى الموت . ثم تتصور ان الامور يمـكن ان تستمر هكذا ؟ وماذا عن الالوان الاخرى من الظلم والبغى ؟ ألا تفهم مدى أحقية الجماهير فى السخط ، ورغبتهم فى حياة تظللها العدالة ، ومدى تطلعهم الى الحق ؟ أم هل كنت تظن ان تغييرا أساسيا يمكن أن يأتى من طريق « الدوما » ، من طريق التدابير « البرلمانية » ؟ ! هل تعتقد بامكان تسيير دفة البلاد بدون ديكتاتورية ؟

ـ نحن نتكلم ولـكل منا هدفه الذى يتعارض مع الآخر . واذا واصلنا النقاش مائة سنة فلن نرى الاشياء بذات المنظار ! لطالما كنت أفكر بعقلية متطرفة الثورة ، ولكنى أعتقد الآن انه لا يمكن كسب شىء بالعنف . يجب أن تشد الناس الى الخير بالخير . ولـكن دعنا من هذا الموضوع ، ولنعد الى « ميكوليتسين » . اذا كان سيحدث لنا ما تتوقع ، فلماذا اذن نذهب ؟ ينبغى علينا أن نعود ..

ـ هراء ! فأولا أقاربك هؤلاء الميكوليتسين ليسوا كل من على

وجه الارض ، وثانيا يمتاز ميكوليتسين بشفقة فظيعة ، شفقة ليس لها حدود . سيثير شجارا وسيرفس وسيقاوم ، وأخيرا سيذوب . سيخلع قميصه لترتديه وسيقاسمك آخر لقمة لديه . انى أعرفه كما أعرف ظهر يدى !

وقص سامديفياتوف على يورى قصة ميكوليتسين :

— ٦ —

• — **جاء** ميكوليتسين الى هذه المنطقة منذ ٢٥ عاما من بطرسبورج . كان طالبا فى معهد (التكنولوجيا) واشترك فى بعض المتاعب ، فنفى وارسل الى هنا تحت رقابة البوليس . ثم عمل مديرا فى مصانع كروجر ، وتزوج . وفى تلك الايام كانت هناك اخوات أربع — بزيادة واحدة عن مسرحية تشيكوف — هن : اجريبينا ، وأفدوتايا ، وجلافيرا (جلاشا) ، وسيرافيما (سيما) . وكان شبان المنطقة كلهم يطاردونهن . وتزوج ميكوليتسين من كبراهن .

« وقبل أن يمضى وقت طويل أنجبا ولدا . ومن فرط حب والده للحرية — ذلك المخبول ! — أطلق على الوليد عند تعميده اسم « ليبريوس » ، (أى المتحرر) ! وشب ليبريوس — أو « ليبى » ، كما كانوا يدللونه — مستوحش الطبع بعض الشىء ، ولكنه كان صاحب مواهب غير معتادة . وحين جاءت الحرب كان قد بلغ الخامسة عشرة ، **فزور التاريخ فى شهادة ميلاده وقصد الى الجبهة ، كمتطوع ! وكانت والدته من الرقة بحيث لم تحتمل الصدمة فلزمت فراشها ، ولم تغادره مرة أخرى .. فلقد ماتت فى السنة قبل الماضية ، قبل الثورة مباشرة .**

« وعاد « ليبريوس » عقب الحرب كبطل ، يحمل ثلاثة نياشين .. عاد بالطبع كمندوب كامل « البلشفة » من الجبهة . هل سمعت عن « أخوان الغابة » ؟

— كلا .. أخشى ألا أكون قد سمعت عنهم .



– لا جدوى من حكاية القصة لك اذن . لقد ضاع بذلك نصف طرافة الموضوع . وليس هناك ما يدعو الى تحديقك هكذا من النافذة الى الطريق . ماذا هنالك يجتذب نظرك فى الطريق الآن ؟ الحزبيون . ومن هم هؤلاء الحزبيون ؟ انهم العمود الفقرى لجيش الثورة فى الحرب الاهلية . انهم قوة نشأت من ارتباط عاملين : فمن ناحية كانت هناك التنظيمات السياسية التى أخذت على عاتقها قيادة الثورة ، ومن الناحية الاخرى كان الجنود وضباط الجيش الذين رفضوا اطاعة اوامر السلطات القديمة بمجرد الهزيمة فى الحرب . وجاء جيش الحزبيين من نتاج هذين العاملين ، فكان أفراده من الفلاحين متوسطى الحال (١) ، ولكنك تجد فيه جميع أصناف الناس : من فلاحين فقراء ، وقساوسة خلعوا مسوحهم، وأبناء (الكولاك) الذين يحملون السلاح ضد والديهم .. وهناك فوضويون مثاليون ، ومتشردون بلا جوازات سفر ، وصبيان طردوا من المدارس

(١) تقول نظرية لينين ان الفلاحين كانوا يقسمون الى ثلاث فئات : الفلاحون الأغنياء وهم طبقة الكولاك ، وأولئك المتوسطو الموارد وهم الفلاحون المتوسطون .. ثم الفلاحون الفقراء أو المعدمون .

بسبب مغامراتهم مع النساء ! .. وهناك أسرى الحرب من الالمان والنمسويين ، الذين جذبتهم وعود الحرية والعودة الى الوطن . و « اخوان الغابة » هم احدى وحدات جيش الشعب العظيم ، ويقودهم الرفيق « فوريستر » .. وما الرفيق فوريستر سوى « ليبى » بعينه ، ليبريوس أفير شيفيتش ابن أفيرشياس ميكوليتسين

ـ انك لا تعنى ما تقول ! ؟

ـ بل أعنيه بلا شك ! ولكن لنعد الى أفيرشياس : فبعد ان ماتت زوجته تزوج مرة أخرى . وكانت الزوجة الثانية « هيلين » على ذكاء فطرى ، وتفتح ذهنى . لقد خرجت من المدرسة رأسا الى الهيكل ! وهى لا تزال صغيرة السن ، ولكنها تدعى انها أصغر من سنها ، وهى ثرثارة ، « لا ينسلى الزبد من فمها » . وبمجرد أن تراك ، تأخذ فى امتحانك ، كأن تسألك : « متى ولد سوفوروف ؟ متى يتساوى ضلعا المثلث مع أضلع الثالث ؟ » .. واذا استطاعت أن توقع بك ، قهقهت فى مرح . لكنك سترى بنفسك مصداق قولى بعد بضع ساعات .

« أما الرجل المسن ، فله بدوره خصائصه . كان سيصبح بحارا ـ وقد درس الهندسة البحرية بالفعل ـ وهو حليق الذقن دائما ، لا يخرج غليونه من فمه أبدا ، ويتحدث من بين أسنانه بصوت بطىء تشيع فيه نغمات الود ، وقد برز فكه الاسفل الى الامام كجميع مدخنى الغليون ، وله عينان رماديتان باردتان . أوه .. وهناك بعض التفاصيل الاخرى التى كدت أنساها : انه اشتراكى ثائر ، وقد انتخب مندوب منطقة للجمعية التأسيسية . (١)

ـ هذا أمر غاية فى الاهمية ، ان الاب والابن يرفعان السلاح كل فى وجه الآخر ؟ ان كلا منهما يعارض الآخر سياسيا ؟

ـ نعم . ان الامر كذلك من الناحية النظرية . ولكن ليس هناك

---

(١) شكلت الجمعية التأسيسية عقب ثورة أكتوبر فى ظل الحكومة المؤقتة التى أسقطها البولشفيك حين لم يحصلوا فيها على الأغلبية .

نزاع بين « اخوان الغابة » وبين (فاريكينو) . ما علينا ، لنعد الى القصة : ان الاخوات « تونتسيف » الباقيات – أخوات زوجة ميكوليتسين الاولى – يعشن فى يورياتين حتى هذه اللحظة ، وقد بقين عانسات ، ولكن الزمن قد تغير ، وكذلك تغيرت الفتيات . فكبراهن « أفدوتايا » تعمل مساعدة فى المكتبة العامة ، وهى حسناء سمراء خجول، يحمر وجهها من أى تلميح ! وهى تقضى وقتاعصيبا فى المكتبة . ان السكون هناك مميت ، وقد أصيبت المسكينة بانفلونزا مزمنة ، وهى تصاب بنوبات عطس تجعلها تبدو كما لو كانت ستسقط على الارض . انها الاعصاب .

« أما جلاشا – التالية – فهى تعويذة الاسرة ! ان نشاطها لا حد له ، وهى عاملة ممتازة ، وان كانت لا تهتم بما تعمل – ويبدو ان « ليبى » ، اعنى الرفيق فورستر ، قد ورث طباع خالته جلاشا ! – فانك تجدها يوما تعمل بالحياكة ، ويوما عاملة فى مصنع للجوارب، ثم تجدها فجأة قد أمست مصففة شعر ! لعلك رأيت تلك السيدة التى كانت عند التحويلة ، تلك التى وحت انا بقبضتها ؟ لقد خمنت انها جلاشا ، ذهبت لتعمل فى السكك الحديدية ! ولكى لا أظنها هى ، فهذه تبدو مسنة جدا ..

« وأخيرا هناك صغراهن ، « سيما » . انها نقيضتهن ، اذ تسبب لهن متاعب لا نهاية لها . وهى فتاة متعلمة ، تقرأ كثيرا ، وتتابع أحدث الانتاج فى الشعر والفلسفة . ولكنها منذ الثورة – ورغم النهضة العامة ، والخطب والمظاهرات – يبدو انها مست فى عقلها ، فقد أصيبت بهوس دينى ! ان اخواتها يغلقن عليهـا الابواب قبل ذهابهن الى العمل ، ولكنها تقفز من النافذة ، الى الشارع ، فتجمع الجماهير ، وتروح تبشرهم بالمخلص الذى سيعود ، وبيوم القيامة . والآن يبدو أن الوقت قد حان كى أتوقف عن الكلام ، فها نحن قد اقتربنا . هذه هى المحطة التى سأنزل فيها ، ومحطتك أنت هى التالية ، وأحذر بك ان تستعد من الآن . »

وبعد ان ذهب الرجل ، قالت « تونيا » ليورى :

ــ لست أعرف رأيك . ولكنى أشعر أن القدر بعث به الينا ، وأعتقد أنه سيلعب دورا مفيدا فى حياتنا .

ــ أرجو ذلك يا عزيزتى ، ولكن ما أحمل همه هو معرفة الناس جميعا انك حفيدة كروجر ، وشهرة كروجر الى هذا الحد . حتى « سترلنيكوف » ، بمجرد أن لفظنا اسم ضاحية (فاريكينو) سألنى بطريقته غير المستساغة ما اذا كنا ورثة كروجر ؟!.. ويبدو لى اننا بعد ان بارحنا موسكو لنتفادى الانظار ، سنصبح « مكشوفين » هنا أكثر مما كنا هناك . وليس هناك ما يمكن عمله فى هذا الشأن، اذ لاجدوى فى البكاء على اللبن المسكوب ! ولكن يحسن بنا أن نتواضع وأن نتصرف ببساطة . ان البداية ليست طيبة على أية حال ، ولكن علينا أن نصل الى هناك فى أقرب وقت . هيا نوقظ والدك ونستعد .

— ٧ —

• وقفت «تونيا» على رصيف محطة (تورفيانايا) تحصى أفراد أسرتها وامتعتهم ، المرة بعد المرة ، لتستوثق من انها لم تترك شيئا فى القطار . وكانت أرض الرصيف الرملية مدكوكة جيدا ، وصلبة تحت أقدامها ، ولكن القلق خشية تفويت المحطة لم يكن قد زايلها . وكان دوى العجلات لا يزال يرن فى أذنيها رغم أن القطار كان واقفا بلا حراك أمام عينيهـــا . وقد حرمها ذلك القلق من الرؤية ، أو السمع ، أو التصرف فى أى شىء كما ينبغى !

وكان المسافرون الذين سيواصلون رحلتهم يودعون الذين نزلوا ، ويلوحون لها من العربة ، ولكنها لم تلاحظهم مطلقا .. كما انها لم تلاحظ أيضا ان القطار قد أخذ يتحرك ، ولم تدرك أنه ذهب فعلا الا لما وجدت نفسها تتطلع الى الحقول الخضراء والسماء الزرقاء عبر القضبان الخالية .

وكانت المحطة مبنية بالحجارة وبها مقاعد على جانبى المدخل . وكانت أسرة جيفاجو هى الوحيدة التى نزلت فى (تورفيانايا) ، ووضع أفرادها أمتعتهم على الارض وجلسوا على أحد تلك المقاعد .

ولم يلبث أن صدمهم سكون المحطة وفراغها ونظافتها ، وبدا غريبا انها لا تصخب بأصوات الغوغاء ولعناتهم . ان الاحداث لم تلق ظلها على هذا الاقليم النائى ، ولكن سيأتى الوقت الذى تصبح الحياة فيه موحشة كما فى العواصم !

وكانت المحطة تختفى فى حضن غابة ، حتى ان القطار حين دخلها أظلمت العربات كما لو كان النهار قد انقلب ليلا . ولكن ما عتمت الاشجار ان ألقت ظلالها المتحركة فى خفة على وجوههم وأيديهم ، بل على الارض وحوائط المحطة وسقوفها ، وعلى رصيفها برمله النظيف الرطب ولونه الاصفر . وكان الجو فى ظل الاشجار رطبا ، وزقزقة العصافير ترسل أنغاما هادئة تتسق والجو . أنغاما صافية - كالبراءة - لا تشوبها شائبة ، تخترق الغابة متماوجة من أقصاها الى أقصاها . وكان الخط الحديدى والطريق البرى يقاطعان الغابة فى اتجاهين مختلفين ، وان كانت فروع الاشجار المتشابكة تغطيهما.

وفجأة تنبهت « تونيا » الى ماحولها ، فسمعت ورأت . ووصل كل شىء الى وعيها دفعة واحدة ، فى وقت واحد : زقزقة العصافير ونداءاتها ، والنقاء الذى تمتاز به عزلة الارض المعشوشبة . وفيض السكون الذى لا يعكره شىء .. وكانت قد أعدت كلاما فى ذهنها لتقوله ، كانت تريد أن تقول : « لا أكاد أصدق اننا وصلنا الى هنا فى أمان يا عزيزى ! فكما تعلم ، كان يحتمل أن يكون «ستريلنيكوف» ذاك قد أبدى أمامك رجولته ، وفى الوقت ذاته بعث ببرقية ليلقوا القبض علينا جميعا بمجرد نزولنا من القطار . انى لا أومن بعواطفهم النبيلة تلك يا عزيزى . انها كلها رياء ! »

ولكن تونيا لم تنطق بهذا ، فقد تدفقت من فمها كلمات جد مختلفة حين تطلعت الى المنظر الاخاذ حولها ، فصاحت : « ما أبدع هذا ! » .. ثم انفجرت باكية ، فلم تستطع أن تزيد !

وجاء على صوت نحيبها رجل مسن فى ثياب ناظر محطة ، أخذ يقترب منهم ، ثم قال وهو يلمس حافة قبعته الحمراء محييا فى أدب : « هل تحتاج الشابة الى دواء من صيدلية المحطة لتهدئة أعصابها ؟ »

فقال والدها الكسندر الكسندروفيتش : « أشكرك . الامر بسيط وليس بنا من حاجة لشيء من ذلك . ستعود الى حالتها الطبيعية حالا . »

ــ انها متاعب الرحلة وما حف بها من قلق ، وهذا أمر معروف . ثم هذه الحرارة الافريقية التي لا نكاد نعرفها في مناطقنا ، لاختلاف خط العرض ! وأخيرا ، وفوق هذا كله ، تلك الاحداث التي تجري في (يورياتين) .

ــ لقد رأينا النيران المشتعلة ونحن في القطار ، خلال سيره بنا . .

ــ انتم من روسيا (١) ، اذا لم أكن مخطئا ؟

ــ من قلبها بالذات .

ــ من موسكو ! لا عجب اذن ان ترهق أعصاب السيدة . يقال انه لم يبق هناك حجر على حجر !

ــ لم تصل المسألة الى هذا الحد من السوء . ان الناس تبالغ . ولكنا بلا شك اجتزنا وقتا عصيبا . هذه ابنتي وهذا زوجها ، وذاك طفلهما الصغير ، وهذه « نيوشا » .

ــ كيف الحال ؟ كيف حالكم ؟ كنت أتوقع حضوركم ، فلقد تحدث « انفيم يفيموفيتش سامديفياتوف » الى تليفونيا من (ساكما) فقال ان الدكتور جيفاجو قادم من موسكو مع أسرته ، ورجاني أن أقدم للأسرة ما أستطيع من مساعدة . وهكذا ، انتم اذن الذين انتظرهم ؟

ــ ان الدكتور جيفاجو هو زوج ابنتي ، وهذا هو . وأنا لست طبيبا ولكني أستاذ في الزراعة واسمي « جروميكو » .

ــ لا تؤاخذني . انه خطأي . اني سعيد بمعرفتكم .

ــ اذن أنت تعرف « سامديفياتوف » ؟

ــ من الذي لا يعرف « انفيم يفيموفيتش » ، العامل العجيب !

---

(١) يعني روسيا الأوروبية ، وهي تختلف في طبيعتها عن سيبيريا .

انه أملنا الوحيد الذى نعتمد عليه . لولاه لكنا متنا منذ زمن بعيد . قال لى أن أقدم لكم كل مساعدة ممكنة . وقلت له : « طبعا » ، ووعدته بأنى سأفعل ، فاذا كنتم فى حاجة الى جواد ، أو أى شيء آخر ؟ الى أين تقصدون ؟

ـ اننا نريد الذهاب الى (فاريكينو) . هل هى بعيدة من هنا ؟

ـ (فاريكينو) ؟ ! هذا مايجعلنى أسائل نفسى : ترى بمن تذكرنى ابنتك ؟ اذن هى (فاريكينو) التى تقصدونها ! ان ذلك يفسد كل شيء ! لقد بنينا ـ ايفان ارنستوفيتش كروجر ، وأنا ـ هذا الطريق معا. سأجد لكم فرسا حالا. سأنادى أحد الرجال وسندبر لكم عربة . «دونات» !.. «دونات» !..خذ هذه الحاجات الى غرفة الانتظار فى الوقت الراهن . كيف لنا بحصان ؟ اذهب الى مشرب الشاى وابحث ماذا يمكن عمله ؟ كان « باكوس » يتسكع هنا فى هذا الصباح . ابحث ما اذا كان لا يزال هناك . قل لهم أن هناك اربعة مسافرين الى (فاريكينو) ، وهم قد قدموا حديثا . قل لهم انهم لا يحملون متاعا كثيرا . ابحث جيدا عن حل .. **والآن يا سيدتى ، أتسمحين بقبول نصيحة أبوية ؟ لقد تعمدت ألا أسألكم ماهى صلة القرابة بينكم وبين « ايفان ارنستوفيتش كروجر » ، ولكن ينبغى أن تكونى على حذر فى كل ماتقولين . لا تتوقعى أن يرحب بك الجميع فى أوقات كهذه !**

وحين ذكر اسم « باكوس » نظر المسافرون احدهم الى الآخر فى عجب . لقد تذكروا حكايات « آنا » عن الحداد الخرافى الذى صنع لنفسه طاقما من الآنية الصلب التى لا تفنى ، وغيرها من الاساطير المحلية العديدة التى كانت تقصها عليهم ..

ـ ٨ ـ

• **كان** الجواد الذى أتوا به فرسا وضعت حديثا ، أما السائق فرجل مسن ، مقطوع الاذن ، كث الشعر أبيضه ـ كما لو كان بومة بيضاء ! ـ كان كل شيء يلوذ به فى الواقع أبيض اللون : فحذاؤه الطويل الجديد لم يتسخ لونه بعد ، وقميصه التيلى وبنطلونه ، حال لونهما

من طول مامر بهما من زمن .

.. وكان المهر يجرى وراء أمه ، وتتصادم أرجله التى لم تزل طرية العظام ، ببعضها البعض . وكان شعره المجعد يبدو فى سواد الليل أشبه بلعبة مدهونة .

وتشبث المسافرون بجانبى العربة وهى تتعثر فى الاخاديد . كان فى قلوبهم سلام . ان حلمهم أخذ يصبح حقيقة ، وها هم اولاء تكاد رحلتهم أن تقارب نهايتها . وأخذت الساعات الاخيرة من النهار الصحو الساكن تتهادى فى كرم وبهاء مفرط .

وكان طريقهم يشق الغابات أحيانا ، وأحيانا أخرى يمر بالحقول المكشوفة . وحين كانوا يخترقون الغابة كانوا يتكومون على بعضهم كلما مرت العجلات على غصن مكسور .. وقد جلسوا وأكتافهم متقلصة ، متماسكين ، عابسين . ولكنهم ، فى الحقول المكشوفة حيث الفضاء ذاته يبدو كما لو كان يحييهم من صميم قلبه ، كانوا يجلسون بقامات معتدلة ، وقد تركوا أجسامهم على طبيعتها ورفعوا رؤوسهم ..

وكانوا يمرون بمنطقة كثيرة التلال ، وللتلال دائما تعبير خاص بها . كانت تبدو شامخة ضخمة قاتمة على خط الافق ، كظلال أشباح متكبرة ترقب المسافرين فى صمت ، ولكن ضوءا ورديا مريحا غمرهم عبر الحقول ، فرفه عنهم ومنحهم الامل .. وقد أعجبهم كل ما رأوا وأثار عجبهم ، ولعل اغربه كان ثرثرة سائقهم المسن الذى كان حديثه مليئا بالتعبيرات التى اكل عليها الدهر وشرب ، تشوبه آثار التتار ، ومساوىء اللهجة المحلية مختلطة بتعبيرات ابتكرها هو نفسه !

وكلما تخلف المهر خلف الركب ترفقت أمه عن المسير الى أن يلحق بها . وسرعان ما كان يلحق بها فى قفزات رشيقة كالامواج ، فيصل الى العربة على أرجله الطويلة المتقاربة ثم يمد رقبته الطويلة ، ويدفع برأسه تحت العريش ليرضع من حلمات ثدى أمه .

وصاحت تونيا موجهة حديثها الى « يورى » ـ وكان صياحها فى بطء خشية أن تعض لسانها بأسنانها ، التى كانت تصطك من

اهتزاز العربة ، حين تهتز فجأة فى مطب :

ــ هل يمكن أن تكون هذه هى أم باكوس التى اعتدت ان تحدثنا عنها ؟ انك تذكر كل ما قيل عن الحداد الذى تفتتت امعاؤه فى معركة فصنع لنفسه طاقما حديديا بدلها ؟ باكوس ذو البطن الحديدية . بالطبع انى أعلم انها مجرد حكاية ، ولكن ألم يكن فى الامكان أن تحكى عن هذا الرجل بالذات ؟

ــ لا بالطبع . فكما تقولين ، أولا وقبل كل شىء ، انها مجرد حكاية اسطورية . ثم أن الام قالت لنا أن الاسطورة عمرها أكثر من مائة سنة ، منذ كانت هى فتاة صغيرة . ولكن لاتتحدثى بمثل هذا الصوت المرتفع . انك لاتريدين طبعا جرح أحاسيس الرجل الكبير .

ــ انه لا يسمع شيئا . انه أصم ، وحتى اذا سمع فانه لن يفهم . ان رأسه ليس على مايرام !

وصاح الرجل المسن فى الفرس : « هاى ، فيدور نفيوديتش ! »

وكان يتحدث اليها ، لامر ما ، باسم مذكر ذى لقب ، رغم انه كان يعلم ــ كما يعلم جميع الركاب ــ انها فرس أنثى .

ــ اللعنة على هذه الحرارة . نحن كأبناء ابراهام فى الفرن الفارسية ! « شى » أيها الشيطان لجائع ، اننى أتحدث اليك أنت يا مازيبا (١) !

وكان أحيانا ، وبدون انذار ، ينطلق يترنم بمقطوعات من الطقاطيق القديمة التى لابد ان تكون قد ألفت فى مصانع كروجر فى الايام الخوالى :

مع السلامة يا فناء المصنع وبوابته
مع السلامة يا خام الحديد ورقائقه
ان خبز « المعلم » يقف فى حلقى
حتى لقد كرهت جرعة الماء .
الاوزة تسبح الى جوار الشاطىء
تستعمل رجليها بدل المجاذيف
ليس النبيذ هو ما يسكرنى

---

(١) احد رؤساء قبائل القوزاق ايام بطرس الأكبر .

انه ذهاب « فانيا » بعيدا عنى .
ليصبح جنديا ..
لا تحزن يا « ماشا » ، لست مخبولا
انى على الطريق الى البلدة
لاعمل لحساب « سنتت يوريكا » .

ـ ايه أيها الحيوان الذى غضب عليه الاله ، أنظر الى الجيفة ، انى اضربها بالكرباج ولا آخذ منها الا الصهيل ، ايه يا فيديا نفيديا ، هل تفكرين فى الذهاب ؟ انهم يسمون الغابة «بالتايجا» (١) ، انهاغابة لا نهاية لها . كما انه لا نهاية لعدد الفلاحين فيها ، ان « اخوان الغابة » هناك . ايه يا فيديا نفيديا ، هل توقفت مرة أخرى ، أيها الشيطان !

واستدار مرة واحدة وراح يحدق فى عينى تونيا وهو يقول :

« اين عقلك أيتها المرأة الصغيرة ؟ هل تظنين اننى لا أعرف من تكونين ؟ ان عقلك ساذج يا عزيزتى ، كما أرى . اضربينى حتى الموت اذا كنت لم أعرفك ! لقد عرفتك بكل تأكيد ! **اننى لا أستطيع أن أصدق عينى ... انك صورة حية من جريجوف ـ (وكان هذا هو نطقه لاسم « كروجر ») ـ أنت لست حفيدته .. أليس كذلك ؟ من الذى يستطيع أن يعرف سلالة جريجوف ، سواى !** ؟ .. لقد اشتغلت عنده فى جميع الاعمال : اشتغلت فى المناجم كحطاب ، واشتغلت على « الونش » فوق سطح الارض ، واشتغلت فى « الاسطبلات » .. « شى » تحركى الى الامام ! ها انت تقفين مرة اخرى ، كما لو لم يكن لك أرجل ! أيتها الملائكة فى الصين ! ألا تسمعون اننى أتحدث اليكم ؟

« والآن حسنا .. كنتم تسألون اذا كنت أنا ذلك الحداد باكوس ، يا لبساطتك يا عزيزتى ! عينان كبيرتان بلا عقل وراءهما . ان باكوس كان يسمى بوستانوجوف ، بوستانوجوف ذو البطن الحديدية . لقد ذهب الى قبره منذ أكثر من أربعين عاما . ولكن اسمى

---

(١) غابة عذراء فى سيبيريا ..

هو ميخونوشين. ان اسمنا عند التعميد واحد ولكن الالقاب تختلف . »

وشيئا فشيئا راح الرجل المسن ينبئهم بما كانوا قد عرفوه من سامديفياتوف عن اسرة ميكوليتسين ، وكان يطلق اسم « ثانيته » على زوجة ميكوليتسين الثانية ، ويذكر الزوجة الاولى بلقب « الملاك » او « الملاك الابيض » ، وحين جاء ذكر « ليبريوس » زعيم الحزب المحلى وعرف ان شهرته لم تصل الى موسكو بعد ، وان «اخوان الغابة» ليسوا معروفين هناك، لم يصدق ذلك وراح يقول : « انهم لم يسمعوا عن الرفيق فورستر ، يا ملائكة الصين .. دلونى لماذا كانت هناك آذان لموسكو اذن ! »

واقترب وقت الغروب وأخذت ظلالهم تطول أكثر فأكثر ، وتسبقهم بمسافة طويلة ، وكانت العربة تسير بهم فى أرض مستوية خالية من الاشجار ، وبين هنا وهناك تبدو مجموعات متفرقة من عيدان بعض النباتات ذوات السيقان الطويلة ، والاشواك والاعشاب التى تعلوها أنواع الزهور البرية . وكانت الشمس الغاربة تعكس ضياءها على تلك النباتات من مستوى الارض فتبدو فى طول العمالقة ، كفرسان الحرس ، وقد وقفوا على مسافات متباعدة ، دون حراك ، يراقبون السهل الممتد حولهم .

وكان الوادى ممتدا الى بعيد ، الى حيث ينتهى بسلسلة من التلال ، وفى موضع او آخر يتخلله أخدود او مجرى ماء ، عند التقاء سفوح الجبال بالسهل . وكانت الجبال تقف كحائط فى طريق المسافرين ، كما لو كانت السماء هناك قد اغلقت بمتاريس ، والطريق يؤدى الى بوابة .

وعلى قمة الاخدود رأوا بيتا ابيض ، منخفض الارتفاع ، عريض المبانى .. فقال باكوس : « هل ترين ذلك « المرصد » القائم فوق التل ؟ هناك يقيم ميكوليتسين . وفى ملتقى السفح بالسهل تجرى قناة ، يسمونها (شوتما) » .

ورن من ناحية التلال صوت رصاصتين انطلقتا من بندقية ،

وتبعهما تدفق الصدى كدوى الطبول .

ــ ما هذا ياجدى ؟ أتراهم الحزبيين يطلقون النيران علينا ؟

ــ هراء ! .. اى حزبيين ؟ .. بل هو ميكوليتسين يخيف الذئاب ويذودها بعيدا عن (شوتما) .

— ٩ —

• **وكانت** مقابلتهم الاولى لاسرة ميكوليتسين فى فناء دار المدير . وكان منظرا مؤلما بدأ فى صمت ، ولكنه انتهى بشوشرة صاخبة سخيفة . كانت هيلين زوجة ميكوليتسين عائدة الى البيت عبر الفناء ، من نزهتها المسائية فى الغابات ، وكانت أشعة الشمس الغاربة ــ ذات اللون الذهبى ، كشعرها ــ تقفو اثرها خلال الغابة ، من شجرة الى اخرى .. وكانت المرأة تلبس رداء صيفيا خفيفا ، وقد تلون وجهها من اثر المشى ، وراحت تمسح عليه بمنديلها ، بينما تدلت قبعتها القش على قفاها ، يربطها بعنقها العارى شريط مطاط .. وكان زوجها قادما من ناحية الوادى ليقابلها ، وقد صعد لتوه من الاخدود حاملا بندقيته التى انتوى تنظيفها ، بعد أن لاحظ انها لا تعمل كما ينبغى .

.. وفجأة ، فى هذا الافق الذى يشيع فيه السلام ، ظهر باكوس بعربته الصاخبة تقرقع عجلاتها على أرض الطريق ، حاملا معه المفاجأة . وخرج المسافرون من العربة . وراح الكسندر الكسندروفيتش يتمتم متلعثما ، وهو يرفع قبعته ويعيدها على رأسه للتحية ، محاولا شرح الموقف . وألجمت المفاجأة المضيفين . واستغرقهم الصمت عدة دقائق ، كما استغرق ضيوفهم المساكين الذين تولاهم الخجل والعار والارتباك . ولم يكن فى الامكان توضيح الموقف أكثر من ذلك مهما قيل ، سواء لاولئك الذين يعنيهم الامر مباشرة ، أو لساشا ونيوشا وباكوس . وامتدت عدوى ضيقهم المؤلم الى الفرس ذاتها ، والى المهر ، والى أشعة الشمس الغاربة الذهبية ، والى البعوض الذى راح يطن ويطوف حول وجه هيلين وعنقها .

وأخيرا قطع ميكوليتسين حبل الصمت بقوله : « لست افهم .

لست أفهم شيئا ، ولن أفهم ابدا ! ماذا تحسبون هذا المكان ؟ لماذا تركتم الجنوب حيث يوجد البيض ، وحيث تجدون وفرة من العيش .. ووقع اختياركم علينا ؟ ماذا بحق الارض جاء بكم الى هنا .. الى هنا دون أى مكان آخر ! ؟ »

وهنا انبرت زوجته تقول :

— انى لأعجب ، هل طاف بخاطركم اية مسؤولية هذه التى تقع على كاهل افيرشيوس ستيبانوفيتش ؟

— لا تتدخلى يا هيلين .. (مستأنفا مخاطبة ضيوفه :) **انها على حق . هل فكرتم لحظة فى مدى هذا الحمل الذى تفرضونه علينا ؟**

— ولكن الله المطلع ! انكم تسيئون فهمنا . فيم كنا نتحدث ؟ ليس هناك تطفل عليكم ولا نحن نهدف الى تعكير صفو سلام عقولكم ، وانما كل ما نريده انما هو شيء ضئيل جدا . ان كل ما نفكر فيه هو ركن فى اى كوخ قديم مهجور وشريط من الارض البوار التى اجدبت لان أحدا لا يريدها ، وذلك حتى نستطيع ان ننتج طعامنا ، وحمولة عربة من خشب الحريق من الغابة حين نتأكد من أن أحدا لن يرانا ونحن نأخذه . أهذا الذى نطلبه شيء كثير حقا ؟ هل تعدون هذا فرضا عليكم ؟

— كلا ، ولكن العالم واسع . وماذا يعنينا من هذا كله ؟ لماذا اخترتمونا لهذا الشرف بدل ان تختاروا اى انسان آخر ؟

— لاننا سمعنا عنكم ، وكان أملنا ان تكونوا قد سمعتم عنا ، وهكذا لا نكون قد هبطنا على اغراب .

— آه .. اذن المسألة بسبب كروجر ! لانكم تنتسبون اليه ! ولكن كيف يمكنكم ان ترتضوا لانفسكم امرا كهذا ، فى وقت مثل هذا الوقت ؟ !

وكانت لميكوليتسين ملامح منتظمة ، فأزاح خصلات شعره الى الخلف وخطا خطوات واسعة ثبت بها قدميه فى الارض تثبيتا . وكان يرتدى فى الصيف قميصا روسيا مدككا بقطان حريرى ذى شرابة . **انه من ذلك النوع من الرجال الذى كان يمكن أن يكون — فى الازمنة الغابرة — احد قراصنة نهر الفولجا** . وقد اوجد مثل هؤلاء الناس

فى الايام الاخيرة طراز التلميذ الابدى ، الحالم الذى أصبح أستاذا !

لقد كرس ميكوليتسين شبابه لحركة التحرير ، وللعمل من أجل الثورة ، وكان خوفه الوحيد ألا يعيش ليراها ، او ان تكون — اذا جاءت — مفرطة الاعتدال ، ليست دموية الى الدرجة التى تحقق أحلامه المتطرفة . والآن ها هى ذى قد اتت ، وتجاوزت اقصى ما كان يتوقع ، ولكنه وليد « البروليتاريا » (الطبقة العاملة الروسية) وبطلها الامين ، الذى كان بين أوائل من ألفوا « لجنة عمالية » ، وأول من سلموا المصنع الى الرجال . وقد ترك هكذاعلى البر ، أبعد ما يكون عن مركز الاحداث، وهذا هو فى قرية نائيةهرب منها العمال الذين كان بعضهم من المنشفيك ! والآن ماذا عن هؤلاء الاحياء من أسرة كروجر الذين لم يستضفهم أحد ؟ انهم يبدون له مثل سخرية القدر فى قمتها ، انهم أحبولة متعمدة .. انهم القطرة التى جعلت كأسه تفيض !

— هذا غير معقول البتة . انه يفوق التصور ! هل تدركون مدى الخطر الذى ستوقعوننى فيه ؟ لا بد أن أكون قد جننت . لست أفهم . لست أفهم شيئا مطلقا ، ولن أستطيع ان افهم ابدا !

— انى لاعجب اذا كنتم تدركون أى بركان هذا الذى نجلس عليه الآن بالفعل ؟

— لحظة واحدة يا هيلين . ان زوجتى على حق تماما . ان الامور سيئة بما فيه الكفاية . انها حياة الكلاب ، اننا فى مستشفى للمجاذيب ! اننى بين نارين بين هؤلاء الذين يجعلون حياتى بؤسا لان ولدى « أحمر » بولشفيكى ، « حبيب الجماهير » ، وبين هؤلاء الذين يريدون أن يعرفوا لماذا انتخبت عضوا فى الجمعية التأسيسية . ما من واحد راض ، وانى لاتلفت حولى فلا أجد من الجأ اليه ، والآن تجيئون انتم ! فكرة بديعة ، ان أواجه فرقة من المقاتلين بسببكم !

— كفى ! حقا ! كن عاقلا بالله !

ومرت فترة قصيرة خفت فيها حدته ، فلان وقال :

ـ نهايته . لا معنى لوقوفنا هكذا فى الفناء . هيا بنا الى الداخل ، ولست أدعوكم للدخول لاننى أجد فى ذلك أى خير ، ولكننا فى الواقع نرى الامور كأنما خلال كرة زجاجية ، بغير وضوح ! .. وعلى أية حال فنحن لسنا قساة ولا كفرة ، ولا يهون علينا أن نطردكم الى الغابة لتأكلكم الدببة . انى أعتقد ، يا عزيزتى هيلين ، أن من الاوفق أن نضعهم فى الوقت الراهن فى غرفة النخيل المجاورة للمكتب . وسنرى فيما بعد أين يمكن أن يستقروا ، فقد نجد لهم كوخا هناك فى البستان . ادخلوا . هات متاعهم يا باكوس ، وعليك بمساعدة الضيوف .

ونفذ باكوس ما أمر به ، وهو يتمتم : « يا أم الاله ! انهم لا يمتلكون اكثر من متاع الحجاج . ان كل ما معهم هو بضع ربطات صغيرة ، وليست لديهم حقيبة واحدة ! »

— ١٠ —

• ورأن البرد على المنطقة فى المساء .. واغتسل الجميع ، بينما أعدت النساء الحجرة لاستقبال الليل . أما ساشا الصغير ، الذى كان يتوقع ـ دون وعى ـ أن يستمع الناس الى أحاديثه الصبيانية بفرح وترحيب ، يغريانه بالثرثرة ، فقد انقلبت موازينه هذه المرة ، اذ لم يصادف نجاحا ، لان أحدا لم يبد أى اهتمام بوجوده ! وقد خاب أمله أيضا لان المهر الصغير الاسود لم يأتوا به معهم الى المنزل ، وحين صرخت فيه أمه طالبة اليه أن يسكت ، انفجر باكيا خشية أن يرسل مرة اخرى الى دار الحضانة ، حيث يعتقد أن والديه قد اشترياه من هناك ! وكان خوفه أصيلا ، حتى انه كان يود لو يشاركه فيه الناس جميعا ، ولكنه قوبل على انه امر تافه ، وفشل فى هذه الظروف فى أن يثير أحدا ! .. وبدت الدار غريبة ، يتحرك فيها الكبار فى بطء وصمت ، مستغرقين فيما هم بسبيله من مهمات . وكان ساشا مغيظا ، ميالا للمشاكسة . كانوا يرغمونه على تناول طعامه ، ويبعثون به الى غرفة نومه بصعوبة .. وحين



« .. وخرج يورى ووالد زوجته ، فى أول الامر ، الى الشرفة لاستنشاق الهواء .. »

يخلد للنعاس فى آخر الامر ، كانت « يوستينيا » - وصيفة ميكوليتسين - تأخذ « نيوشا » الى حجرتها لتتعشى وتطلع على أسرار البيت . وقد دعيت تونيا والرجال لتناول شاى المغرب مع أسرة ميكوليتسين .

وخرج يورى ووالد زوجته ، فى أول الامر ، الى الشرفة لاستنشاق الهواء . وقال الكسندر الكسندروفيتش :

- ما أكثر هذه المجموعة من النجوم !

وكان الظلام حالكا . ورغم أن المسافة بين الرجلين لم تكن تعدو ياردتين ، فقد كان من الصعب أن يرى أحدهما الآخر ! وتسرب ضوء المصباح من نافذة خلفهما الى الاخدود ، بأشجاره وشجيراته وما به من أشكال غير واضحة المعالم كانت تبدو غائمة فى الجو البارد الرطب . ولكن يورى والكسندر كانا خارج نطاق هذا الضوء الذى زاد من كثافة العتمة حولهما . وقال الكسندر :

- ان أول ما ينبغى أن نفعله فى الصباح يا يورا هو أن نرى ذلك الكوخ الذى فكر فى اعطائه لنا ، فاذا كان صالحا وجب علينا أن نبدأ

بترميمه فى الحال . وفى الوقت الذى يتم فيه تجهيزه يكون الثلج قد ذاب عن الارض فنستطيع أن نبدأ بغرس البذور فيها دون اضاعة أى وقت . هل تذكر انه قال انه سيسمح لنا ببعض تقاوى البطاطس ؟

– نعم بلا شك ، فقد وعد بذلك ، كما وعدنا بتقاوى أخرى أيضا . لقد سمعته يقول ذلك بأذنى . أما بالنسبة الكوخ فقد رأيناه ونحن نعبر البستان . هل تعرف أين يقع ؟ انه ذلك البناء الخشبى المختفى هناك فى الخلف ، وراء الحشائش . لقد أشرت لك عليه .. أتذكر ؟ .. ومن رأيى انه يصلح لغرس التقاوى . لقد بدا لى ان ثمة حديقة كانت هناك فى وقت ما . على الاقل بدا ذلك لى عن بعد ، ولعلنى كنت مخطئا . ولا بد أن تكون أرض زراعة الزهور مسمدة جيدا ، وارجو ان تكون ما زالت فى حالة جيدة .

– لا أدرى . وعلى أية حال سنرى ذلك فى الصباح . وان كنت أعتقد انها أصبحت جامدة ومليئة بالاعشاب فى الوقت الراهن . ولا بد أن هناك حديقة للمطبخ فى مكان ما هنا ، تابعة الدار ، وقد تكون غير مستعملة الآن ، وسنكشف ذلك غدا . ومن المحتمل أن يكون الجليد باقيا على الارض فى الصباح . انى واثق أن الجليد سيتساقط فى الليل . وعلى أية حال فها نحن هنا أخيرا ، وهو ما نحمد الله عليه ، فالمكان طيب ، وانى راض عنه .

– انهم أناس طيبون ، وهو بالذات ، اما هى فمتكلفة نوعا . ان بها شيئا لا تحبه فى نفسها . وهذا هو السبب فى كثرة كلامها ، وهو ما يجعلها تبدو أكثر غباء مما هى عليه فى الواقع . لقد بدت كما لو كانت فى عجلة من أمرها ، لتلهيك عن نظراتها قبل أن يسمح لك الوقت بتكوين فكرة سيئة عنها . بل ان اغفالها وضع القبعة على رأسها وتركها معلقة فى رقبتها ليس مجرد سهو ، فهذه هى طبيعتها ..

– يحسن بنا أن نعود ، حتى لا يعدونا أجلافا .

.. وقد مرا بمكتب ميكوليتسين المظلم وهما فى طريقهما

الى حجرة الطعام ، حيث كان مضيفوهما وتونيا يشربون الشاى حول المنضدة المستديرة تحت المصباح المعلق فى السقف .

وكان للمكتب نافذة ضخمة بعرض الحائط تطل على الاخدود ، وكان يورى قد لاحظ من قبل انها تطل على الاخدود والسهل الذى عبروه مع باكوس ، وكانت أمام النافذة منضدة كبيرة للرسم بعرض الحائط أيضا ، وعليها بندقية يجتذب حجمها الانظار بالنسبة لطول المنضدة . وخلال مرورهما فكر يورى - محنقا - فى النافذة ، ووضع المنضدة وحجمها ، واتساع الحجرة المؤثثة بأثاث فاخر . وكان ذلك أول ما تحدث عنه الى أصحاب الدار بمجرد دخوله حجرة الطعام ، قائلا :

- ما أجمل هذا المكان ! ما أفخم المكتب ! لا شك أنه مكان بديع للعمل فيه . انه مكان ملهم حقا !

- أتريد كوبا أم فنجانا ؟ وهى تريده خفيفا أم ثقيلا ؟

- يورا .. أنظر الى هذا . انه ستريوسكوب (مجسم الصور المزدوج) . لقد صنعه ابن « أفيرشيوس ستيبانوفيتش » حين كان طفلا .

- انه لم يكبر ويستقر بعد ، رغم انه استولى على منطقة بعد الاخرى لحساب السوفييت من « الكوموش » .

- ما هو الكوموش ؟

- انه جيش حكومة سيبريا ، الذى يحارب ليحافظ على سلطان الجمعية التأسيسية .

- لقد استمعنا لكلمات المديح فى ابنك طوال يومنا . لا بد انك فخور به !

- ان جميع صور جبال الاورال التى توضع فى هذا المنظار من تصويره ، وقد التقطها جميعا بكاميرا صنعها بيديه !

- ما أجمل هذا البسكويت . هل صنع بالسكارين ؟

- كلا بحق الاله . من أين لنا أن نحصل على السكارين فى هذه

البرية ؟ انه سكر طبيعى « يوحد الله » ! ألم ترنى أضع السكر فى كوب الشاى لك ؟

ــ كنت أتطلع الى الصور ولم أرك . وانى أعتقد انه شاى حقيقى !

ــ طبعا انه شاى ياسمين .

ــ من أين حصلت عليه بحق الارض ؟

ــ ان لدينا نوعا من بساط الريح ! انه صديق لنا . شخصية شعبية من الطراز الجديد . يسارى متطرف . انه الممثل الرسمى للمجلس الاقتصادى الاقليمى . وهو يأخذ خشبنا الى المدينة ويأتى الينا بالدقيق والزبد بواسطة أصدقائه . ناولنى السكر يا سيفى (تدليل افريشيوس) . والآن هل يمكنك أن تخبرنى متى توفى جريبويدوف ؟ (١)

ــ لقد ولد فى عام ١٧٩٥ فيما أظن . ولكنى لا أذكر متى قتل ..

ــ أتريد شايا آخر ؟

ــ كلا ، شكرا .

ــ والآن هنالك سؤال لك . ما هو تاريخ معاهدة « نيجمجبين » ، وما هى البلاد التى وقعتها ؟

ــ لا تحرجهم يا عزيزى ، انهم لم يكادوا يفيقون من متاعب رحلتهم .

ــ والآن هذا هو ما أحب أن أعرفه : ما هى انواع العدسات ، وكم عددها ، ومتى تكون الصور حقيقية ، ومتى تكون معكوسة ، ومتى تكون طبيعية أو مقلوبة ؟

ــ كيف تأتى لك كل هذا العلم بالطبيعة ؟

ــ كان لنا أستاذ علوم ممتاز فى (يورياتين) . كان يدرس

---

(١) « الكسندر جريبو يبدوف » ، (١٧٩٥ ــ ١٨٢٩) مؤلف كوميدى اشتهر على اثر تاليفه رواية أطلق عليها : « مأساة ذوى النفوس المرهفة »

للمدرسة الابتدائية للبنين ولنا . لا أستطيع ان أصف لك كم كان ممتازا . كان عجيبا . ان كل شيء يبدو واضحا حين يشرحه . كان اسمه « أنتيبوف » . وكان متزوجا من مدرسة أيضا . لقد جنت البنات به وشغفن به حبا . ولقد ذهب الى الحرب متطوعا وهناك قتل . ان بعضهم يقول ان ذلك قصاص لنا ! .. والبعض يقول ان القوميسار سترلنيكوف هو أنتيبوف بعث حيا ، ولكنها اشاعة سخيفة بالطبع ، وغير محتملة بالمرة . ولكن من يدرى ؟ ان أى شيء ممكن الحدوث . أعطنى قليلا من الشاى ..

الفصل التاسع

ڤاريكينو



« .. انى لا أعرف سره ، ولكنى أشعر عن يقين ان له سرا ، وان تحالفه مع البلاشفة جاء عفو المصادفة .. ولسوف يحتملونه طالما صادف ان كان يسير فى طريقهم ، وسيحاولون أن يستغلوه . ولكن ما ان تنقضى حاجتهم اليه ، حتى يلقوه أرضا ويدوسوه فى غير رحمة ، كما فعلوا بغيره من الخبراء بالشؤون الحربية ! »

الفصـــل التاســـع

فاريكينو

— ١ —

• **كان** « يورى » قد شرع فى كتابة يومياته ، عندما كانت لديه فسحة من الوقت فى فصل الشتاء ، وقد استهلها بشطرات شعرية من « تيوتشيف » :

« يا للصيف ! يا للصيف !
« انه لسحر حقا !
« وانى لاسائلك كيف تسنى أن يأتينا ،
« غير منشود .. ولا نحن به جديرون ؟ ! »

ثم كتب معقبـا : « ما أكثر ما كنت احس بهـذا ، فى الصيف المنصرم ! .. **ويا للسعادة التى تستشعرها فى أن تعمـل من الفجر حتى الغسق ، من اجل اسرتك ومن اجل نفسك ، فتقيم سقفا فوق رؤوسهم ، وتحرث الارض لتطعمهم ، وتخلق لنفسك دنيا خاصة ـ كما فعل روبنسن كروزو ـ اقتداء بخالق الكون ، ولتنمى حيانك مرة اثر مرة ، وكأنك أمك تغذو نفسك وتنشئها وتربيها !**

« كم من افكار تواتى رأسك عندما تكون يداك منهمكتين فى عمل بدنى شاق ، وعندما يكون عقلك قد رسم لك مهمة تؤدى بالجهد البدنى وتجزيك بالغبطة والنجاح .. وعندما تحفر او تدق ست ساعات كاملة ، ونسيم الحياة ـ الذى تمنحه السـماء ـ يلفحك ساخنا ! .. وليس من الخسارة فى شىء ان لا يتسنى تسجيل هذه الخواطر ، والالهامات ، والتشبيهات المنطقية العابرة ، بل انه لمكسب أن تروح كلها نسيا منسيا ! .. ان ناسـك المدينة ، الذى يلهب اعصـابه وخياله بالقهوة الثقيـلة القوية وبالتبغ ، لا يعرف أقوى المنبهات جميعا .. الصحة الطيبة ، والحاجة الحقيقية !

« ولن أمضى الى ابعد من هذا ، فلست ابشر بمذهب على نسق

مذهب تولستوى ، يدعو الى البساطة والى « العودة الى الارض » .. اننى لا أحاول ان ابتكر حلا من عندى لمشكلة توزيع الاراضى الزراعية ، ولا أن أصحح وجهة النظر الاشتراكية ازاءها . كل ما أفعله هو ان اقرر حقيقة واقعة ، فلست اشيد مذهبا على حالتنا الخاصة ، فان حالتنا مصادفة غير مقصودة ، وان اقتصادنا لمهوش للغاية . فنحن لا نكفى انفسنا بانتاجنا فى الواقع .. وما ننتجه — من بطاطس وخضر — ليس سوى جزء صغير مما نحتاج اليه ، أما الباقى فنحصل عليه من مصادر اخرى .

« واستخدامنا الارض غير مشروع ، فقد امسكنا بالقانون بين أيدينا ، واننا لنخفى عن الدولة ما نفعل . ان الخشب الذى نقتطعه مسروق ، ولا يشفع لنا أننا نسرق من الدولة ، أو أن الضيعة كانت ملكا لكروجر . وما ينقذنا سوى « ميكوليتسين — الذى يتستر علينا ، لانه يعيش بعين الطريقة التى نعيش بها — وسوى بعدنا عن البلدة التى لا تعرف سلطاتها بعد ما نحن بصدده ، لحسن الحظ .

« انى لاتكتم اننى طبيب ، لانى لا أود أن تقيد حريتى . ولكنى أفاجأ دائما بأن شخصا ما ، من مكان ما ، يهتدى الى ان فى « فاريكينو » طبيبا . ومن ثم فانهم يقطعون عشرين ميلا ليقابلونى ، ويحضرون دجاجة ، او بعض البيض ، أو قليلا من الزبد ، على سبيل « الاتعاب » ! .. ولا يسعنى ان ارفضها مهما ابذل ، لان القوم لا يعتقدون أن للعلاج مفعولا ، ما لم يدفعوا ثمنا له . وهكذا فان ممارستى الطب تدر دخلا ضئيلا . على أن عمادنا الاكبر — عماد ميكوليتسين واياى — هو سامديفياتوف .

« انه شخصية معقدة الى درجة خيالية ، حتى انى لاعجز عن أن أفهمه . فهو نصير صادق للثورة ، وانه ليستحق ثقة سوفييت (يورياتين) .. وبوسعه — بكل السلطان الذى منحوه اياه — ان يستولى على أخشاب (فاريكينو) دون ان يجشم نفسه عناء اخبارى أو اخبار ميكوليتسين بالامر ، وهو يدرك اننا لا نملك ازاء ذلك أمرا .. ولو انه شعر — من ناحية اخرى — بميل الى سرقة الدولة ،

لاستطاع ان يملأ جيبه ، دون ان ينبس أحد ببنت شفة فى هذه الحال كذلك . فليس هناك من هو بحاجة الى رشـــوته ، او الى اشراكه فى مغانمه ، فما الذى يدعوه اذن الى أن يأخذ كل هذا الحذر منا .. من آل ميكوليتسين ، وناظر المحطة ، ونحن ، وكل امرىء فى المنطقة تقريبا ؟ .. ما من لحظة الا وهو يسرع فيها الى مكان ما ، فيستولى على شىء يحضره الينا . **وهو ملم برواية دوستويفسكى : ((المأخوذ)) ، بقدر ما هو ملم بـ ((البيان الشيوعى)) ، فتراه يجيد الحديث عن الاثنين على السواء** . واحسب انه ما لم يركب حياته ويعقدها على هذا النطاق الواسع ، المستهتر ، لمات مللا وسأما ! »

— ٢ —

• **وبعد** فترة قصيرة ، كتب يورى فى يومياته :

« اننا نقيم فى غرفتــين ، فى جنـاح مبنى من الخشب ، ملحق بالجزء الخلفى من الدار العتيقة ، كان ((كروجر)) يفرده ــ فى طفولة ((آنا ايفانوفنا)) ــ لبعض من كانوا فى خدمة بيته : للحائكة والمدبرة شؤون الدار ، وللمربية التى قعدت عن العمل .

« وكان المكان مخربا الى حد كبير حين قدمنا ، ولكنا أصلحناه بسرعة كبيرة . وبمساعدة الخبيرين بهذه الامور ، أعدنا بناء المدفأة التى تخدم الحجرتين ، واعدنا تنسيق منافذ التهوية ، فأصبحت تنتج مزيدا من الدفء . وكانت الحديقة القديمة قد تلاشت من هذا الجزء من الارض ، اذ طغت عليها النباتات الجديدة وحجبتها .. أما الآن ، وقد قتل الشتاء كل شىء ، ولم يعد الحى يخفى الميت ، فان الماضى يمكن أن يرى اكثر وضوحا ، وكأنه جليد متجمد !

« ولقد كنا محظوظين ، اذ كان الخريف جافا ، دافئا ، وقد اتاح لنا وقتا كى نحفر الارض ، ونغرس البطاطس ، قبـل أن تدهمنا الامطار والجو البارد . وكان لدينا عشرون كيسا منها ، عدا ما رددناه الى ميكوليتسين ، فوضعناها فى أكبر خزانة للمؤن فى القبو ، وغطيناها بالبطانيات القديمة وبالتبن . كما وضعنا برميلين مليئين

بالخيار المملح ، واثنين مليئين بالكرنب المخلل ، أعدتها تونيا بنفسها .. ومن اخشاب السقف ، تدلى الكرنب الاخضر ، وقد علق كل اثنين معا . وهناك جزر مدفون في الرمال الجافة ، وفجل وبنجر ولفت ، وفاصوليا وبازلاء مختزنة في الفراغ الذى بين السطح الاعلى والسقف (الصندلة) . كما ان في المبنى الخارجى من خشب الوقود ما يكفينا الى الربيع .

« انني أحب هواء القبو الدافىء ، الخالى من الرطوبة ، وعبير التربة والجذور والثلج ، الذى يطالعك بمجرد ان ترفع غطاء السلم لتهبط الى جوف القبو ، في الساعات الاولى التى تسبق فجر الشتاء ، وفي يدك ضوء واهن مرتعش .. وتخرج فاذا الظلام لا يزال مسيطرا . وينبعث من الباب صرير ، أو انك قد تعطس ، او يتهشم الجليد منسحقا تحت قدميك بصوت مسموع ، فاذا الارانب البرية تجزع ، في حوض الكرنب القصى ، فتثب ، وتلوذ بالفرار ، مخلفة وراءها آثار اقدامها متعرجة ، متعارضة .. **وعلى البعد ، تشرع الكلاب في العواء ، وينقضى وقت طويل قبل ان تهدأ وتعاود السكون . وتكون الديكة قد أفرغت صياحها ولم يعد لديها ما تقول .. واذ ذاك ينبثق الفجر !**

« والى جانب آثار أقدام الارانب البرية ، تجد ان السهل الجليدى الممتد الى ما لا نهاية ، مزركش بآثار أقدام الاوشاق (١) ، تمتد في تناسق ونظام ، وكأنها عقود من حبات المسابح . ذلك لان الوشق يمشي مشية القط ، واضعا مخلبا امام مخلب . ويقولون انه يسير اميالا عديدة أثناء الليل .. وتنصب الفخاخ للاوشاق ، ولكن الارانب البرية التعسة تقع فيها — بدلا من تلك الاوشاق — وتدفن في الثلج حتى وسطها ، فتؤخذ وهى متجمدة ، متيبسة .

« ولقد منينا — في بادىء الامر — بأوقات جد عصيبة ، في الربيع

---

(١) الأوشاق جمع وشق ، وهو حيوان يشبه الفهد ، ويسمى — كذلك — الأوس ، أو الأويس .

والصيف ، وكان كل ما نملكه هو أن نمضى فى النضال . ولكن بوسعنا أن نستريح الآن ، فى ليالى الشتاء ، فنجلس حول المصباح ، والفضل فى هذا لسامديفياتوف الذى يوافينا بالبترول . فتنهمك الاناث فى الخياطة او التطريز ، بينما يقرأ الكسندر الكسندروفيتش — او أقرأ أنا — بصوت مرتفع .. والمدفأة حامية .. وانا — الموكل بتغذيتها بالوقود — ارتقب اللحظة المناسبة لاغلق صمام المدخنة ، حتى لا يتبدد شىء من الحرارة . فاذا حالت كتلة متفحمة دون اندلاع النار كما ينبغى ، جريت بها الى الخارج — والدخان ينبعث منها ، وهى فى يدى — فأطوح بها الى أبعد مدى ممكن فوق الجليد .. فتطير فى الهواء كالشعلة ، مرسلة شررا حولها ، ملقية ضوءا على الاحواض المربعة البيضاء ، فى المتنزه الناعس ، ثم تدفن نفسها فى كومة من الجليد ، وقد انبعث منها أزيز وفحيح !

« وهكذا قرأنا مرارا وتكرارا : « الحرب والسلام » لتولستوى ، و « يوجين أونيجين » وغيرها من روائع بوشكين ، والترجمة الروسية لقصة ستندال « الاحمر والاسود » ، و « قصة مدينتين » لديكنز ، وقصص كلايست القصيرة » .

— ٣ —

• **ومع** اقتراب الربيع ، كتب يورى :

« أعتقد انتونيا حبلى . ولقد انبأتها بذلك، ومع انها لاتصدقنى ، الا اننى أشعر بيقين بذلك ، فان الاعراض الاولية ظاهرة بحيث لا يمكن ان يخطئها المرء ، ولست محتاجا الى ان انتظر الامارات المؤكدة التى تظهر فيما بعد ، حتى أعرف الحقيقة .

« **ذلك لان وجه المرأة يتغير فى مثل هذا الوقت . ولست أقصد انها تفقد بهاءها ، ولكن منظرها لا يعود طوع ارادتها .. انها تصبح تحت سيطرة المستقبل الذى تحمله فى أحشائها ، فلا تعود ملك نفسها ، ولا تصبح كالعهد بها عادة** .. ويؤدى فقدانها السيطرة على منظرها الى أن تبدو مضطربة جسميا ، فيفقد وجهها رواءه ،

ويخشوشن جلدها ، وتومض عيناها ببريق غير البريق المألوف .. لا لانها تريد ذلك ، وانما يبدو الامر كما لو انها تهمل هذه المظاهر جميعا ، اذ تعجز عن مقاومة ما يطرأ عليها !

« وما بعدت الشقة يوما بينى وبين تونيا ، بل لقد زادتنا هذه السنة الحافلة بالعمل تقاربا . وقد لاحظت مدى ما أوتيت من سرعة ، وقوة ، وجلد .. كما لاحظت حذقها فى تنظيم عملها بحيث لا تبدد من الوقت ـ بين مهمة واخرى ـ سوى اقل قسط ممكن ..

« لطالما تراءى لى أن كل حمل انما هو حمل عذرى طاهر ، وان هذه العقيدة الدينية المتعلقة بأم الرب لتعبر أجلى تعبير عن فكرة كل أمومة (١) .. وفى لحظة الوضع ، يحف بكل امرأة عبير واحد بالذات .. عبير الوحدة والعزلة ، وكأنها اصبحت مهجورة ، وحيدة . **وفى هذه اللحظة الحيوية القيمة ، يصبح دور الرجل غير ذى علاقة بالامر ، وكأنما لم تكن له فيه يد البتة .. وكأنما الامر كله كان تلقائيا !** .. فالمرأة هى التى تنمى النسل بنفسها ، وهى التى تحمله درجات فى سلم النمو والتطور ، الى طابق أعلى فى مبنى الحياة .. الى مكان يصلح لان يكون مهدا وادعا ، آمنا . وفى صمت وتواضع ، تغذى الطفل وحدها وتربيه .

« لقد دعيت أم الرب الى ان « تصلى بحرارة لابنها وربها » ، ووضعت كلمات المزمور بين شفتيها : « تعظم نفسى الرب ، وتبتهج روحى بالله مخلصى ، لانه نظر الى اتضاع أمته ، فهوذا منذ الآن جميع الاجيال تطوبنى » .. انما قالت ذلك بسبب طفلها ، لانه سيعظمها ـ « لان القدير صنع بى عظائم » ـ ومن ثم فهو ـ اى يسوع ـ مجدها .. ان اية امرأة تستطيع ان تقول ما قالت العذراء ، لان كلا منهن ترى الله فى طفلها ! .. ولا بد ان يكون لامهات

---

(١) اشارة الى ما ورد فى الكتب السماوية من أن السيدة العذراء « مريم » حملت دون أن يمسها بشر .

العظماء ـ بوجه خاص ـ هذا الشعور .. **ولكن ، أليست جميع النساء امهات لعظماء ، فى بداية الامر ؟ .. ذلك لانه لا ذنب لهن اذا خيبت الحياة آمالهن فيما بعد »** !

— ٤ —

• **سنظل** نعاود قراءة « يوجين أونيجين » والقصائد ، الى ما لا نهاية .. ولقد جاء سامديفياتوف بالامس ، واحضر كثيرا من الهدايا .. اشياء شهية للاكل ، وزيتا للمصابيح .. ونحن نتناقش فى الفن مناقشات لا نهاية لها ، فلقد اعتدت دائما أن أرى أن الفن ليس شيئا يخضع للقول .. ليس ميدانا فيه ما لاحصر له من المذاهب والنظريات ، والظواهر المتباينة ، وانما هو ـ على النقيض ـ شيء مركز ، محدود تمام التحديد . انه مبدأ يسرى فى كل عمل فنى تجلت فيه قوة ، وساهمت فى صوغه حقيقة . وما رأيته قط كشكل ، وانما هو اقرب الى جزء من كل ، جزء مستتر ، خفى .. كل هذا واضح لى وضوح النهار ، فأنا أحسه فى كل عظمة من عظام جسدى ، ولكنه شيء عسير المعنى ، يعز على المرء ان يفسره أو يحدده ! .. **ان العمل الفنى قد يستهوينا بكافة الطرق .. بهدفه ، بموضوعه ، بمواقعه ، بصفاته المميزة .. ولكنه يؤثر فينا بوجود الفن فيه قبل اى شيء آخر .. وان المرء ليذهل لوجود الفن فى « الجريمة والعقاب » ، أكثر مما يذهل لجريمة راسكولنيكوف ذاتها (١) .**

« وليس فى الفن تعدد . فالفن البدائى ، وفن (مصر) ، وفن (اليونان) ، كلها ملك لنا .. كلها ـ فيما ارى ـ واحد من أولها الى آخرها .. كلها فن يبقى محتفظا بذاته عبر آلاف السنين .. لك أن تسميه فكرة ، ان تسميه قولا عن الحياة ، فالمهم انه من الشمول والتوحد بحيث انك تعجز عن ان تقسمه الى كلمات منفصلة . واذا

---

(١) « الجريمة والعقاب » ، رواية دوستويفسكى المشهورة . و « راسكولنيكوف » بطلها . (اقرأ ملخصها فى العدد ٢٩ من « كتابى »)

دخل قسط منه – ولو مقدار ذرة – فى أى عمل يحتوى على اشياء أخرى غيره ، فانه يطغى على جميع العناصر الاخرى فى القيمة والمعنى ، فاذا هو الجوهر ، واذا هو لب العمل وروحه » !

— ٥ —

• « **قشعريرة** خفيفة ، وسعال ، وربما ارتفاع فى الحرارة .. وضيق فى التنفس طيلة النهار ، وانقباض فى الحنجرة ، واحتباس فى الحلق .. انها عوارض غير طيبة .. لا بد ان الامر يتعلق بقلبى .. انها النذر الاولى للوراثة ، من ناحية أمى .. لقد كان قلبها معتلا طيلة حياتها . امن الممكن حقا ان يكون الامر كذلك ؟ .. وبمثل هذه السرعة ؟.. اذا صح هذا ، فليس لى أن أرتقب ان يطول أجلى

« فى الحجرة رائحة احتراق خفيفة .. رائحة المكواة .. ان تونيا تكوى ثيابا ، وهى تأخذ – بين آن وآخر – فحمة من المدفأة فتضعها فى المكواة ، ثم ينسدل عليها غطاء المكواة بشدة ، وكأنه اسنان تنطبق .. ان هذا يذكرنى بشىء ، ولكنى لا أكاد اذكر كنهه .. ان سوء الصحة يجعلنى كثير النسيان !

« احتفالا بالصابون الذى أهداناه سامديفياتوف ، كان لدينا يومان للغسيل ، وقد أخذ « ساشا » يزداد جموحا .. انه ليجلس – اذ اكتب هذا – على العارضة التى فى أسفل المائدة ، وقد طوح ساقا الى كل جانب ، مقلدا سامديفياتوف – الذى يصطحبه فى زحافته كلما جاء – زاعما انه يصطحبنى فى نزهة .

« يجب أن اذهب الى مكتبة البلدة ، بمجرد ان اشعر بتحسن ، فاقرأ كل شىء عن علم الاجيال الوصفى للمنطقة ، فهم يقولون أن المكتبة قد حظيت بعدة هبات من الكتب ذات القيمة ، وانها غنية بدرجة غير عادية .. اننى لاحس بميل الى الكتابة ، ولكن لا بد لى من أن أعجل ، فلن يلبث الربيع أن يأتى قبل ان نفطن .. واذ ذاك لن يكون ثمة وقت للقراءة ولا الكتابة .

« ان نوبات الصداع تزداد سوءا يوما بعد يوم .. ولم أنعم بنوم

طيب ، وقد رأيت مناما من ذلك النوع المهوش المضطرب الذى تنساه بمجرد أن تستيقظ . كل ما بقى فى ذاكرتى منه ، هو ذلك الجزء الذى أيقظنى .. وقد تمثل فى صوت امرأة تردد بجلاء ووضوح فى كل كيانى . ولقد ظل عالقا بذاكرتى ، وظللت اسمعه فى ذهنى ، **وحاولت — وانا استعرض كل صديقاتى — ان اتذكر واحدة منهن كانت تتكلم بهذا الصوت العميق ، الندى ، المثقل ، الخافت .. ولكنه لم يكن يمت الى أية واحدة منهن .. وخيل الى انه ربما كان صوت تونيا ، واننى قد الفتها الى درجة اننى لم اعد افطن الى طبقة صوتها . ولقد حاولت أن أنسى انها زوجتى ، وان أشتت عن فكرى هذه الحقيقة ، لكى اتبين .. ولكنه لم يكن صوتها هى الاخرى . ومن ثم فهو لا يزال لغزا غامضا !**

« ومما يؤخذ عادة كقضية مسلمة — فيما يتعلق بالاحلام — انك تحلم بشىء اثر فى نفسك تأثيرا قويا خاصا ، أثناء النهار .. ولكن الامر يلوح لى على العكس من هذا تماما . فالحلم غالبا شىء لم توله اهتماما فى حينه .. فكرة مبهمة لم تحفل بمواصلة التفكير فيها الى نهايتها .. كلمات انطلقت بدون شعور ، ومرت دون ان توليها اهتماما .. هذه هى الاشياء التى تعاودك فى الليل ، فتكتسى لحما ودما ، وتبدو كشخصيات فى الاحلام ، وكأنها تقسرك على أن تكفر عن اهمالك اياها فى ساعات يقظتك » !

— ٦ —

• « **ليلة** صافية ، تشيع فى جوها برودة الصقيع .. اشراق غير عادى ، وتماسك بين كل الاشياء ، فان الارض ، والسماء ، والقمر والنجوم تبدو كلها متلاصقة ، وكأنما ربط الصقيع بينها .. وتستلقى ظلال الاشجار على الدروب ، واضحة ، مهذبة ، وكأنها قدت فى عناية وحذق .. انك لا تنفك تخال انك ترى اشباحا معتمة



« .. النجوم الكبيرة تبدو معلقة فوق الأغصان كأنها مصابيح زرقاء .. »

تعبر الدروب بلا انقطاع ، هنا آونة ، وهناك آونة أخرى .. والنجوم الكبيرة تبدو معلقة فوق الاغصان كأنها مصابيح زرقاء .. أما النجوم الصغيرة فتتناثر فى صفحة السماء ، كأنها زهور الاقحوان فى حقل . فى فصل الصيف .

« ونحن لا نفتأ نتناقش فى أشعار بوشكين . ومنذ ليال ، تحدثنا عن الاشعار التى كتبها وهو تلميذ فى **المدرسة** . وما أكثر ما يتوقف على اختيار الوزن ! .. لقد كان أقصى طموحه ــ طالما ظل يستخدم شطرات طويلة ــ هو أن يبهر الوسط الادبى فى أرزاماس (١) .. اقتباسات من الاساطير ، وكلمات ضخمة طنانة ، وحكمة دنيوية ، وأبيقورية وسفسطة ! (٢) .. كل هذا كان يلبسه أشعاره ، مسايرة للكبار ، وذرا للرماد فى عينى عمه . ولكنه لم يكد يكف عن تقليد « أوسيان » و « بارنى » ، ويتحول عن « ذكريات من تسارسكوى

---

(١) ارزاماس بلدة ، هى عاصمة منطقة (ارزاماس) ، باقليم (نيجنى نوفجورود)، فى روسيا .

(٢) الابيقورية والسفسطة من المذاهب الفلسفية .

سيلو » (١) الى « بلدة صغيرة » أو « رسالة الى أختى » او « الى محبرتى » ـ التى نظمها فى (كيشينيف) فيما بعد ـ او « الى يودين » ، حتى تجلت شخصية بوشكين على أتمها .. فكأنما تدفقت فى شعره أضواء الحياة ، وهواؤها ، وضجيجها ، وكل ما يمت الى الاشياء المادية الحقيقية ، منسابة من الطريق ، وكأنها تنساب خلال نافذة مفتوحة .. أجل ، تدفقت فى شعره اشياء راسخة ، قائمة فى العالم المحيط به . اشياء شائعة الاستعمال ، وأسماء لاشياء ، واسماء عامة .. كل هذه انسابت فى شعره ، واستولت على نظمه فطردت كل ما كان مبهما من الحديث .. انسابت الاشياء تباعا ، وباطراد ، فى صفوف منظومة ، منغومة ، على الورق !

« كأنما كانت تلك الرباعيات ـ التى اشتهرت وذاعت فيما بعد ـ علامات مرسومة على عصا للقياس ، استخدمت لسبر غور الحياة فى روسيا .. كأنما كان يقيس وجودها بأكمله ، ليرسمه كما ترسم محيط قدم ، او تعين حجم كف اليد ، لتستوثق من أن حذاء او قفازا يلائم الحجم المنشود .

« ولقد تردد ـ فيما بعد ـ الوقع الموسيقى للغة الروسية المستعملة .. ترددت أنغام الكلام العادى، فى رباعيات «نيكراسوف» ومقاطعه الشعرية »

— ٧ —

• « **أتمنى** ان اكون نافعا ـ كطبيب او كمزارع ـ وان اكون ، فى الوقت ذاته ، عاكفا على عمل باق .. عمل جوهرى ، راسخ الاسس .. لكم أتمنى ان اكتب مؤلفا فى الفن او فى العلم .

---

(١) كان بوشكين قد انضم فى البداية الى ندوة (تسارسكوى سيلو) الشعرية .. وهذه الأسماء جميعا ، تدل على قصائد كتبها .

« ان كل انسان يخلق على نسق « فاوست » (١) ، يصبو الى ان يحتضن كل شىء فى الدنيا ، وان يجربه ، وان يعبر عنه ويصفه . ولقد أصبح « فاوست » عالما بفضل اخطاء اسلافه ومعاصريه . فان التقدم فى العلم يخضع لقواعد الصد والتنافر .. فكل خطوة الى الامام تحدث تحت دفع ردفعل الاوهام المخيبة ، والنظريات الزائفة التى تسود الزمن .. لقد كان ذلك الـ « فاوست » فنانا ، يدين بالقدوة التى خلفها له أساتذته . والخطوات التى تتجه الى الامام فى الفن ، تحدث بفعل الجاذبية ، ممثلة فى اعجاب الفنان ورغبته فى أن يحذو حذو السابقين الذين يعجب بهم .

« فما الذى يمنعنى من أن اكون طبيبا أو كاتبا نافعا ؟ .. اننى اعتقد ان الذى يمنعنى هى القوة التى تتسلط علينا فى ايام شغفنا بالاساليب الخطابية ، والعبارات الرنانة .. « الكليشيهات » .. كل تلك الـ « فجر المستقبل » ، و « بناء عالم جديد » ، و « حملة مشاعل الجنس البشرى » .. هذه القوة ، وليس الحرمان ، ولا هيامنا وحيرتنا ، ولا تقلبنا المستمر وحياتنا غير المستقرة . انك حين تسمع تلك العبارات الطنانة — لاول مرة — تقول فى نفسك : « يا له من خيال غنى ! » . ولكن الواقع أن رواءها وفخامتها ورنينها انما يرجع الى انه لا خيال البتة وراءها ، لان الفكر يأتى فى الدرجة الثانية !

« ان الشىء الخيالى ليس دائما سوى الشىء العام الشائع ، وقد مسته يد عبقرى نابغة ! .. وخير درس — فى هذا الصدد — هو « بوشكين » . فما رواء القصيدة اذا قيس بالعمل الصادق ، وبالمألوف المحيط بنا ؟ ! .. ان تعبيرى « العامى » (٢) و « الطبقة

(١) بطل التمثيلية الشعرية التى وضعها الشاعر الألمانى « جيته » . وكان فاوست يصبو الى أن يتجاوز الحدود المادية ، بحثا عن معنى الحياة والكون .

(٢) استخدم المترجم الانجليزى كلمة « بورجوازى » ، وهو الشخص الذى ينتمى الى الطبقة الوسطى .. على أن التعبير الذى استخدمه المؤلف أصلا ، يتمثل فى كلمة روسية ترمز الى الرجل الذى يعيش فى مكان ما ، وهو مضطر الى أن يقوم بدور ذى مسئولية فى شؤون هذا المكان ..

الوسطى » قد أصبحا اليوم من مصطلحات السباب ، ولكن بوشكين استبق النقد فى : « شجرة الاسرة » ، اذ قال : « عامى ! .. عامى .. هكذا أنا ! » ، ثم فى : « رحلة أونيجين » ، اذ قال :

« غايتى المثلى الآن ، هى الزوجة ربة البيت ..

« فهان اعظم أمنياتى هى الحياة الهادئة ..

« ووعاء حساء الكرنب الدسم »

« ان افضل ما احببت فى الادب الروسى بأكمله ، هو الخلة الروسية التى تتسم بطابع الطفولة ، والتى أوتيها بوشكين وتشيكوف .. عدم المبالاة الخجول بالمسائل ذات الرنين المدوى ، مثل : الغاية النهائية للجنس البشرى ، أو خلاص البشر . وليس ذلك لانهما لم يفكرا فى تلك الامور — ولو انهما فعلا لكان هذا خيرا لهما — وانما لانهما كانا يشعران دواما بأن المسائل الهامة ليست لهما ولا من شأنهما .. فى حين ان جوجول ، وتولستوى ، ودوستويفسكى كانوا يشقون بالبحث عن معنى الحياة ، ويستعدون للموت فيسوون حسابهم .. لقد كانوا فى شغل — الى نهاية أعمارهم — بالمهام الفردية العادية التى كانت تفرضها عليهم مهنتهم ككتاب .. وفى سياق اضطلاعهم بهذه المهام ، عاشوا حيواتهم فى هدوء ، يعالجون حيواتهم ومؤلفاتهم معا على أنها مسائل فردية خاصة ، لا تهم ولا تعنى سواهم .. فاذا بهذه الحيوات والمؤلفات تصبح موضوع اهتمام الجميع ، واذا بتأليفهم ينضج من تلقاء ذاته ، وكأنما كانت مؤلفاتهم تفاحات اقتطفت وهى خضراء ، ثم أخذت تزداد نضوجا فى الشكل والحلاوة »

— ٨ —

• أولى بوادر الربيع .. ذوبان الثلوج ، والروائح الناعسة العالقة بالهواء .. روائح الفطائر المصنوعة بالزبد ، والفودكا ، واطعمة الصوم الكبير . **وفى الغابة ، تفتح شمس ناعسة — رجراجة كالزيت — عينها ، وتفتح أشجار الصنوبر الناعسة أقماعها الشبيهة بأهداب**

العين ، ويراعمها الناضحة بالزيت ، اللامعة فى وضح النهار .. ان الريف يتثاءب ، ويتمطى ، ثم يتقلب ويعود الى النعاس !

« ان الفصل السابع من « يوجين أونيجين » يصف الربيع : بيت « أونيجين » وقد بدا موحشا لغيابه ، وقبر « لينسكى » على ضفة الغدير ، عند أسفل التل .

« والبلبل ، عاشق الربيع

« يغنى طيلة الليل .. والوردة البرية تتفتح . »

« لماذا « عاشق » الربيع ؟ .. الواقع انه من الطبيعى أن تقول انه تعبير مناسب . ان « عاشق » تعبير صحيح . ثم أن الشاعر كان بحاجة اليه لوزن الشعر .. أو تراه كان يفكر ـ فى الواقع ـ فى « بلبل اللص » ، الذى ورد ذكره فى الاسطورة الشعرية : « بلبل اللص ، ابن أوديمانتيى » ؟ :

« عند سماع صفيره البلبلى ،

« عند سماع صيحة الغابة الضارية تنبعث منه ،

« يرتجف العشب من قمته الى جذوره ،

« وتسكب الزهور أوراقها كالدموع ،

« وتنحنى الغابة المظلمة حتى تمس رؤوسها الارض ،

« ويسقط كل الصالحين من البشر صرعى »

« لقد جئنا الى (فاريكينو) فى باكورة الربيع ، فسرعان ما أخضوضرت الاشجار ـ أشجار الحور والبندق والكريز ـ لا سيما فى (شوتما) .. المنخفض الواقع أسفل دار ميكوليتسين . وما لبثت البلابل أن بدأت تغنى .

« ومرة أخرى ، رحت أفكر فى الفارق بين أغانيها واغانى الطيور الاخرى جمعاء .. فى الهوة الواسعة التى تركتها الطبيعة ـ دون أن تسدها ـ بين الطيور الاخرى ، وبين ثروة البلابل من حيث الشدو والتغريد . يا للتنوع والقوة والرنين المنغم الذى أوتيته أصواتها !.. لقد تحدث عنها « تورجنيف » .. تحدث عن صفيرها الذى بدا له وكأن جنى الغاب يعزف على أرغوله ! .. وكانت فى

تغريدها الآن عبارتان تبدوان متميزتين عن سواهما : احداهما تتمثل فى تغريد غنى النبرات ، لحوح : « تيوخ — تيوخ — تيوخ » ، ما أن تسمعه الغابة المجللة بالندى ، حتى ترتجف ، وكأن بها مسا من الطرب .. أما العبارة الاخرى فنداء — أو لعله انذار — مهيب ، فيه مناشدة : « أوشنيس ! .. اوشنيس » (١)

— ٩ —

« ها هوذا الربيع .. اقترب وقت حصاد الربيع ، فلا وقت للكتابة ، ولو كتابة اليوميات . لقد كانت الكتابة متعة طيلة الفترة التى دامتها .. والآن سأضعها جانبا الى أن يحين الشتاء القادم .

« منذ أيام — وكنا لا نزال فى الصوم الكبير — جاءنى فلاح عليل فى زحافته وسط سيول الربيع ، وقاد زحافته الى ساحة الدار ، خلال الوحل والحمآت . فأخبرته بأننى لم أعد أمارس المهنة ، واننى لا أمتلك شيئا من الادوية او الادوات اللازمة . ولكن هذا لم يكن مجديا ، فقد ظل يلح ويلحف : « انقذنى ! .. ان جلدى فى حال سيئة . اشفق على جسدى المعتل ! » .. فماذا كان فى وسعى أن أفعل ؟ ان القلب لم يقد من صوان ، ومن ثم سألته أن يخلع ثيابه ؛ فاذا به مصاب بسل العظام . وفيما كنت أفحصه ، حانت منى التفاتة الى زجاجة حامض الفنيك (ولا تسلنى من أين جاءت ، فهى والاشياء القليلة الاخرى التى لا غنى عنها — بل وكل شىء — تأتى من سامديفياتوف) . ثم رأيت زحافة أخرى فى الساحة ، فخيل الى أن مريضا آخر قد اقبل . ولكنه كان اخى «ايفجراف» ، وقد هبط علينا من حيث لا ندرى .. وتولته الاسرة : تونيا وساشا والكسندر الكسندروفيتش . وما لبثت أن خرجت وانضممت اليهم ، ورحنا نمطره بالاسئلة .. من أين جاء ؟ وكيف جاء ؟ .. وراغ — كعادته — فابتسم ، وهز كتفيه ، وتكلم بالاحاجى والالغاز !

---

(١) الكلمة تعنى بالروسية « استيقظ ! »

« ولقد مكث أسبوعين، أكثر خلالهما من التردد على (يورياتين) ، ثم اختفى فكأنما انشقت الارض وابتلعته . **وتبينت أثناء اقامته معنا أنه كان أكثر نفوذا من سامديفياتوف نفسه ، وان عمله واتصالاته كانت أكثر غموضا . فما منصبه ؟ وماذا يفعل ؟ ولماذا أوتى كل هذا السلطان ؟** .. لقد وعد بأن ييسر لنا الاحوال ، حتى يتسنى لتونيا أن تجد مزيدا من الوقت تفرغ فيه للعناية بساشا ، وحتى يتوفر لى مزيد من الوقت لممارسة الطب والكتابة . وسألناه كيف كان يرجو أن يحقق ذلك ، فابتسم ! .. ولكنه كان عند وعده ، فهناك دلائل تغير فى أحوالنا .. وهذا أمر غير عادى ، فى الحق ! .. انه أخى غير الشقيق ، ونحن نحمل لقبا واحدا ، ومع ذلك فلست أعرف شيئا عنه فى الواقع !.. لقد اندفع الى حياتى – للمرة الثانية – كأنه ملاكى الحارس ، أو منقذى . فبدد كل المصاعب .. فلعل فى كل حياة – الى جانب الشخصيات الاخرى – قوة خفية ، مجهولة .. طيفا يكاد يكون رمزيا ، يهبط غير مدعو ليقدم النجدة .. ولعل ايفجراف – أخى – يلعب فى حياتى دور هذا الطيف الخفى ! »

. . . .

. . . .

وهنا ، تنقطع يوميات يورى .. ولم يقدر له أن يستأنفها ثانية !

— ١٠ —

• **أخذ** « يورى » يقلب صفحات الكتب التى كان قد طلبها فى قاعة المطالعة بمكتبة (يورياتين) العامة . وكان لقاعة المطالعة كثير من النوافذ ، والمكان يتسع لجلوس حوالى مائة شخص ، وقد أقيمت مناضد طويلة ، فى صفوف تنتهى عند النوافذ .. وكانت المكتبة تغلق عند الغروب ، اذ لم تكن فى البلدة اضاءة فى فصل الخريف . ولكن « يورى » لم يتأثر بذلك ، اذ أنه لم يمكث فى البلدة الى ما بعد موعد العشاء ، فى أى يوم . وكان يترك الجواد – الذى أعاره اياه ميكوليتسين – عند فندق سامديفياتوف ، ويقضى النهار كله فى

القراءة ، ثم يمتطى جواده ثانية ، ويعود الى (فاريكينو) فى الاصيل .

ولم يكن يورى يذهب الى (يورياتين) قط تقريبا قبل أن يشرع فى التردد على المكتبة ، اذ لم يكن له شىء معين يفعله فيها ، ولم يكن يدرى عنها شيئا . أما وقد أصبحت قاعة المطالعة تمتلىء تدريجا بسكان البلدة وما حولها ، وصار بعضهم يجلس الى جواره ، والبعض على مسافة منه ، فقد أحس كما لو انه قد بدأ يتعرف على البلدة ، وكأنما لم يكن القوم وحدهم هم الذين يفدون على القاعة ، وانما كانت البيوت والشوارع التى يقيمون فيها تلتقى هى الاخرى هناك !

وكانت (يورياتين) الحقيقية - (يورياتين) الواقع لا الخيال - ترى خلال النوافذ .. وأمام النافذة الكبرى - تلك التى تتوسط الصف - كانت ثمة قدر بها ماء مغلى (١) . فاذا شعر المطالعون برغبة فى التريض ، خرجوا الى الساحة ليدخنوا ، أو التفوا حول القدر ليشربوا الماء ويفرغوا ما تبقى فى أكوابهم فى الحوض ، ويجتمعوا عند النافذة ، يطلون باعجاب على منظر البلدة .

وكان المطالعون نوعين : فأغلبهم ينتمون الىالطبقة المثقفة المحلية ، والباقون من أصل أكثر تواضعا .. وكان المثقفون - ومعظمهم من النساء - ذوى ثياب رثة ، ومظاهر تنم عن ذلة وحرمان ، ووجوه طويلة ، سقيمة ، متهدلة لسبب من الاسباب : اما من جراء الجوع ، أو داء اليرقان ، أو مرض الاستسقاء .. وقد اعتادوا الاقبال على القراءة دائما ، فكانوا يعرفون القائمين على المكتبة شخصيا ، وكانوا يشعرون فيها بالارتياح الذى يستشعرونه فى بيوتهم . أما العامة فكانوا يلوحون أحسن حالا ، واكثر ملاحة ، وكانوا يرتدون خير ثياب نظيفة يمتلكونها .. وكانوا يفدون على استحياء وخجل ، وكأنهم يلجون كنيسة ، ثم لا يلبثون أن يحدثوا من الضجيج أكثر مما يحدثه الآخرون ، لا لانهم لم يكونوا على دراية بالقواعد ، وانما

---

(١) يبدو انهم كانوا يغلون الماء لتطهيره ، خشية ميكروبات الأوبئة .

لانهم فى حرصهم على أن لا يحدثوا صخبا ، كانوا يفقدون السيطرة على أقدامهم المتوثبة ، وأصواتهم المتحفزة .

وكانت أمينة المكتبة ومساعدتاها يجلسن على منصة فى جزء غائر فى الحائط المواجه للنوافذ ، يفصل بينهن وبين بقية القاعة حاجز .

وكانت احدى المساعدتين امرأة حولاء العينين ، ترتدى وشاحا من الصوف ، لا تفتأ تثبت على أنفها منظارا ـ من النوع الذى يثبت على الانف دون ذراعين تلتفان حول الاذنين ـ لتعود فترفعه ، انسياقا وراء املاء أعصابها ، لا وفقا لما كانت تقتضيه الحاجة .

أما المساعدة الاخرى فكانت ترتدى قميصا (بلوزة) من الحرير الاسود ، ويبدو من مظهرها أن صدرها كان ضعيفا ، اذ كانت تتنفس وتتكلم ومنديلها على أنفها وفمها ، لا تقصيه عنهما اطلاقا .

وكان لهؤلاء الموظفات وجوه طويلة ، متهدلة كوجوه المثقفين ، وبشرة كبشرتهم تبدو مخضوضرة كالخيار المملح ، أو سمراء ..

وكن يتناوبن الادلاء همسا بقواعد النظام للرواد الجدد ، ويراجعن بطاقات طلب الكتب ، ويبحثن عن هذه الكتب فيقدمنها للقراء ، ثم يستردونها منهم .. وبين آن وآخر ، كانت الواحدة منهن تعكف على اعداد تقرير أو شىء من هذا القبيل .

وبفضل التقاء الافكار التى كان يثيرها فى نفس يورى منظر البلدة الحقيقية ـ كما هو خارج النافذة ـ والمنظر الذى كان يصوره خياله وهو داخل القاعة ، ومناظر الوجوه المتورمة التى كانت تحيط به ، والتى كانت توحى اليه بأن أصحابها مصابون يتضخم غددهم الدرقية ، كما كانت تذكره ـ بطريقة ما ـ بوجه امرأة فظة شرسة كانت تتولى الاشارات فى محطة (يورياتين) فى الصباح الذى وصل فيه .. بفضل التقاء هذه الافكار ـ دون ما مبرر يعلل التقاءها أو يبرره ـ كان يتذكر منظر البلدة كما تبدى له على البعد ، فى ذلك الصباح ، وسامديفياتوف الى جواره على أرض العربة ، وتعليقات سامديفياتوف وبياناته وهو يشرح كل ما كان يعن له عن البلدة ..

ولقد حاول أن يربط بين هذه البيانات ـ التى أزجيت اليه على مبعدة

من البلدة ذاتها – وبين الاشياء التى كانت تحيط به مباشرة وهو فى وسط البلدة ، ولكن ما كان يتذكره من بيانات سامديفياتوف لم يكن يكفى ليمكنه من ذلك .

– ١١ –

• كان « يورى » يجلس فى أقصى أطراف القاعة عن الباب ، وأمامه عدة تقارير واحصاءات محلية ، وبعض المراجع الخاصة بعلم الاجيال الوصفى للمنطقة . وكان قد حاول أن يحصل كذلك على كتابين فى تاريخ ثورة (بوجاتشيف) ، ولكن مساعدة أمينة المكتبة – ذات « البلوزة » الحريرية – همست اليه بأنه ليس لقارىء أن يأخذ كل هذا العدد من المجلدات فى وقت واحد ، وأن عليه أن يرد بعض الصحف والمراجع قبل أن يأخذ كتبا أخرى من الكتب التى كان يهتم بها .. ومن ثم فانه راح يقلب كومة الكتب التى كانت أمامه بغير تنسيق ، وعكف عليها بأسرع وأنشط مما كان ، لكى يختار منها ما كان بحاجة حقيقية اليه ، فيستبدل بالباقى الكتب التاريخية التى كان راغبا فى الاطلاع عليها .

وراح يتصفح الاضابير ، ويستعرض عناوين فصول الكتب منصرفا بكل اهتمامه الى عمله ، لا يلتفت حوله ، فلم يشغله رواد المكتبة .. **على انه كان قد تأمل جيرانه بنظرات واعية – فى بادىء الامر – فرسخ اللذان الى يمينه والى يساره فى باله ، حتى بات يدرك انهما كانا موجودين ، دون أن يرفع بصره عما كان أمامه .. ولم يكن يرتقب أن يبرحا قاعة المطالعة قبله ، الا اذا كان له ان يرتقب أن تتزحزح البيوت والكنائس – التى فى خارج القاعة – عن أماكنها !**

ولكن الشمس كانت تبدل مكانها طيلة الوقت ، فدارت حول القاعة من الركن الشرقى ، وأصبحت تشع خلال النوافذ – التى فى الجدار الجنوبى – منصبة على عيون أقرب القراء الى ذلك الجدار . فهبطت أمينة المكتبة – التى كانت مصابة ببرد حاد – عن منصتها ،

وسارت الى النوافذ .. وكانت لهذه ستائر خشبية بيضاء ، مضلعة ، تخفف من وهج الضوء وتجعله مريحا ، فأخذت أمينة المكتبة ترخى هذه الستائر جميعا . وكانت النافذة الاخيرة لا تزال فى الظل ، فلما بلغتها ، جذبت الحبل لتفتح المضلعات التى تتألف منها الستار ، ولكنها أصيبت بنوبة من العطاس . وبعد ان عطست عشر مرات أو اثنتى عشرة ، خطر ليورى انها كانت أخت زوجة « ميكوليتسين » .. احدى بنات « تونتسيف » اللائى كان سامديفياتوف قد تحدث عنهن ، فرفع رأسه واتجه ببصره نحوها ، كما كان معظم المطالعين قد فعلوا .

واذ ذاك ، لاحظ تغيرا طرأ على القاعة . ففى الطرف القصى منها ، كانت ثمة قارئة جديدة ، عرف يورى لفوره انها « انتيبوفا » ! .. وكانت تجلس وظهرها نحوه ، وهى تتحدث بصوت خافت الى أمينة المكتبة المصابة بالبرد .. وكانت هذه تقف منحنية نحوها ، تجيبها هامسة . **ولاح ان الحديث كان ذا وقع طيب فى نفس أمينة المكتبة ، اذ بدا انه قد ابرأها فى التو من البرد .. بل لقد ابرأها كذلك من التوتر العصبى ، فقد اختفت معالمه عن اساريرها . وبينما كانت ترمق « لارا » بنظرة حارة ، حافلة بالعرفان ، رفعت عن وجهها المنديل الذى لم تكن تكف عن الصاقه بفمها ، ودسته فى جيبها ، وعادت الى مقعدها خلف الحاجز مغتبطة ، مطمئنة ، مبتسمة !**

وكان الحادث — بتفصيلاته العاطفية هذه — قد استرعى انتباه عدة أفراد فى أرجاء مختلفة من القاعة ، فابتسموا بدورهم وهم يرمقون « لارا » فى تقدير . وأدرك « يورى » — من بضع اشارات طفيفة — الى أى مدى كانت « انتيبوفا » معروفة ومحبوبة فى البلدة .

— ١٢ —

• **وكان** أول ماخالج يورى هو ان ينهض ويجتاز القاعة ليتحدث اليها ، ولكن خجلا واحجاما غريبين عن طبيعته تماما ، كانا قد زحفا

الى علاقته بها – فى الماضى – وخفا الآن الى صده . فقرر ان لايعكر عليها صفوها ، وأن لايقطع على نفسه عمله . ولكى يتفادى اغراء النظر اليها ، حول مقعده جانبا ، بحيث أصبح ظهر مقعده متجها الى المنضدة تقريبا . وحاول أن يركز كل انتباهه الى كتابين أمسك بأحدهما بين يديه ، ووضع الآخر على ركبتيه .

غير أن أفكاره كانت بعيدة عن موضوع قراءته بمراحل ، فقد تبين فجأة ان الصوت الذى سمعه فى منامه مرة – فى احدى ليالى الشتاء التى قضاها فى (فاريكينو) – كان صوت « لارا » . وواتاه هذا الاكتشاف فى مفاجأة جعلته يدفع مقعده الى الخلف فجأة ، فيحدث صوتا أجفل له جيرانه .. وراح يحملق فيها . وكان يرى جانبا من وجهها ، من الخلف .. كانت ترتدى قميصا من قماش مبرقش ، مزموما بحزام .. وقد جلست – مستغرقة فى مطالعة كتابها ، منصرفة اليه كل الانصراف – وقد مال رأسها قليلا الى كتفها اليمنى ، وكأنها طفلة .. وكانت تكف عن المطالعة من آن الى آخر ، وترفع بصرها الى السقف ، أو تسدده أمامها مباشرة ، ثم تسند خدها الى راحتها ، وتكتب فى مفكرتها ، محركة قلمها حركة سريعة ، خفيفة ..

ولاحظ « يورى » من جديد ما كان قد لاحظه – منذ زمن طويل – فى (مليوزييفو) ، فقال فى نفسه : **« ليس بها شىء من الخلاعة والاغواء . انها لا تبغى أن تروق لاحد ، ولا ان تبدو جميلة . فهى تنبذ كل هذا الجانب من حياة المرأة ، وكأنها تعاقب نفسها على انها فاتنة ! .. ولكن هذا العداء منها لنفسها يبديها أكثر فتنة وجاذبية ..** ما أمهرها فى أداء أى شىء ! .. انها لتمارس المطالعة لا كما لو ان القراءة هى اسمى نشاط انسانى ، وانما كما لو انها أسهل شىء .. كما لو ان المطالعة شىء يستطيع أى مخلوق – حتى الحيوان – أن يمارسه .. تماما كما لو انها تنقل ماء من بئر ، أو تقشر بطاطس ! »

وبعثت هذه الخواطر هدوءا فى نفسه . والحق انه نادرا ماعرف

مثل تلك السكينة التى غشيته. وكف عقله عن الاندفاع من موضوع الى آخر ، ولم يسعه سوى ان يبتسم ، فقد كان لوجود لارا على نفسه عين الاثر الذى كان لها على أمينة المكتبة المتوترة الاعصاب ! .. ولم يعد يحمل هم الوضع الذى يجعل فيه مقعده ، لا ولا عاد خائفا من شرود الذهن، فعكف على العمل ساعة ـ أو زهاء الساعة ـ فى استغراق فاق استغراقه قبل مجيئها . وتصفح جميع الكتب التى كانت أمامه ، واضعا ما كانت تمس الحاجة اليه جانبا . بل انه وجد وقتا لكى يقرأ مقالا فى احدها كان يتصل بالموضوع الذى ينشده .

وما لبث ان قرر انه أدى من العمل مايكفى ليومه ، فجمع كل الكتب ليحملها الى مكتب أمينة المكتبة .. فلقد جال بخاطره ـ وهو مرتاح الضمير ، خلو من كل حافز أنانى ـ ان جده فى أثناء النهار يجعله أهلا لان يفرغ الى لقاء صديقة قديمة ، ويتيح له حقا مشروعا فى أن يسعد بلقائها . ولكنه فوجىء عندما نهض وأجال بصره فى القاعة ، بأن لارا .. لم تعد موجودة !

وكانت الكتب التى ردتها لا تزال على المنضدة التى وضع عليها كتبه .. كانت كلها كتبا تدور حول « الماركسية » ، فلا بد أن لارا كانت تجدد معرفتها على ضوء الاسس الجديدة ، قبل أن تعود الى مهنة التدريس ! .. وعلى بطاقات الاستعارة ، التى كانت مدسوسة بين صفحات الكتب ، كان عنوانها مكتوبا ، فنقله « يورى » ، وهو فى عجب من غرابته : « شارع التاجر ، فى مواجهة دار آل كارياتيد » . وسأل أحد رواد المكتبة عن المقصود من ذلك ، فأنبأه بأن عادة وصف مواقع الدور بنسبة أمكنتها من دار آل كارياتيد ، كانت من العادات الشائعة فى (يورياتين) ، على نمط عادة تسمية احدى المناطق باسم كنيسة ابرشيتها ، فى (موسكو) .

وكانت دار آل « كارياتيد » مبنى قاتما ، فى سمرة الحديد ، ازدانت واجهته بتماثيل لعرائس الشعر ـ التى تلهم الشعراء ـ وقد حملت صنجا ودفوفا وقيثارات . وقد شيده تاجر فى القرن

الماضى ، ليكون مسرحا خاصا له ، فباعه ورثته الى اتحاد التجار الذى خلع اسمه على الشارع ، وأصبح الحى كله معروفا باسم الدار . ثم أصبحت لجنة الحزب فى البلدة تستخدمه كمقر لها ، وأصبح الجزء الاسفل من واجهته ـ الذى كان يحمل فيما مضى الاعلانات وبرامج الحفلات التى كانت تقام فى المسرح ـ معرضا لاعلانات الحكومة وما تصدره من لوائح وقوانين .

— ١٣ —

• كان الاصيل فى أحد الايام الاولى من شهر مايو ، وقد هبت فيه ريح باردة .. وكان « يورى » قد ذهب الى المكتبة ، وأتم ماكان عليه أن يؤديه فى البلدة ، وتهيأ للعودة ، ثم اذا به يغير خططه بغتة ، ويذهب ليبحث عن « لارا » .

وأخذت الريح تصده ، وتثير سحبا من الغبار والرمل أمامه ، فكان يتحول عن طريقها ، ويحنى رأسه ، ويصعد انسانى عينيه الى ماتحت جفنيه العلويين ، ويتريث الى أن يكف التراب عن الهبوب ، ثم يستأنف سيره فى طريقه .

وكانت « لارا » تقيم عند ناصية (شارع التاجر) المواجهة لدار « آل كارياتيد » ذات اللون القاتم المشوب بالزرقة ، التى رآها ـ اذ ذاك ـ للمرة الاولى ، فاذا بها دار تليق باسمها ـ فى الواقع ـ وتشيع فى نفسه شعورا غريبا ، اضطربت له نفسه .. كانت ثمة تماثيل اسطورية لاناث ، فى نصف حجم الكائنات البشرية ، تقف جنبا الى جنب محيطة بالدار ، فى مستوى الطابق الاعلى .. وبين نوبتين من هبوب الريح المتربة ، خيل ليورى ـ وهو يتأمل هذه التماثيل ـ ان جميع نساء الدار قد خرجن الى الشرفة ، ورحن يطللن عليه من فوق سياجها الحجرى !

وكان لبيت « لارا » مدخلان ، باب منهما فى (شارع التاجر) ، والآخر فى الجانب الآخر من الناصية ، فى الدرب المجاور . ولما كان يجهل ان ثمة مدخلا أماميا ، فقد سار الى الشارع الجانبى . واذ

عرج الى الباب ، حملت الريح التراب والاوساخ ، وراحت تلف بها مصعدة نحو السماء ، فحجبت عنه الطريق الى الفناء . وخلال هذا الستار الاسود ، أسرعت عدة دجاجات الى الجرى بين قدمى يورى - وهى تنقنق - يطاردها ديك .. **فلما استقر التراب وسكن ، رأى « لارا » لدى البئر . وكانت قد ملأت دلوين ، وعلقتهما الى عصا على كتفيها . وكانت قد لمت شعرها - فى غير اكتراث - فى منديل عقدته فوق جبينها ، وراحت تمسك قميصها - الذى كان الهواء ينفخه - بين ركبتيها ..** حتى اذا شرعت فى السير نحو الدار ، أوقفتها هبة جديدة من الريح اختطفت المنديل عن رأسها وحملته الى الطرف الاقصى من السياج الحديدى المحيط بالفناء ، حيث كانت الدجاجات سادرة فى نقنقتها .

وجرى « يورى » وراء المنديل فالتقطه ورده اليها . وتجلت عليها الدهشة ، ولكنها ظلت رزينة كعهدها دائما ، فلم تصدر اشارات مسرحية تعبر بها عن دهشتها .. بل كان كل الذى قالته ، هو أن هتفت : « جيفاجو ! » . فهتف بدوره : « لاريسا فيودوروفنا ! »

- ما الذى تفعله هنا ، بالله ؟

- ضعى الدلوين عن كتفيك ، فسأحملهما عنك .

- ما اعتدت أبدا أن أكف عن عمل فى منتصفه .. ما اعتدت البتة ان أترك عملا بدأته ، قبل ان يتم . اذا كنت المقصودة بزيارتك ، فتفضل معى .

- ومن غيرك آتى لازوره ؟

- وكيف لى أن أعلم ؟

- لا بأس ! .. دعينى احمل هذين الدلوين ، فلست أطيق أن أظل خاملا وانت تعملين .

- أوتسمى هذا عملا ؟ .. دعهما ، فانك خليق بأن تنثر الماء على درجات السلم ! .. من الافضل أن تحدثنى عما جاء بك الى هنا . فانك مكثت فى هذه المنطقة أكثر من عام ، دون ان تجد

لحظة ـ قبل الآن ـ لتأتى !

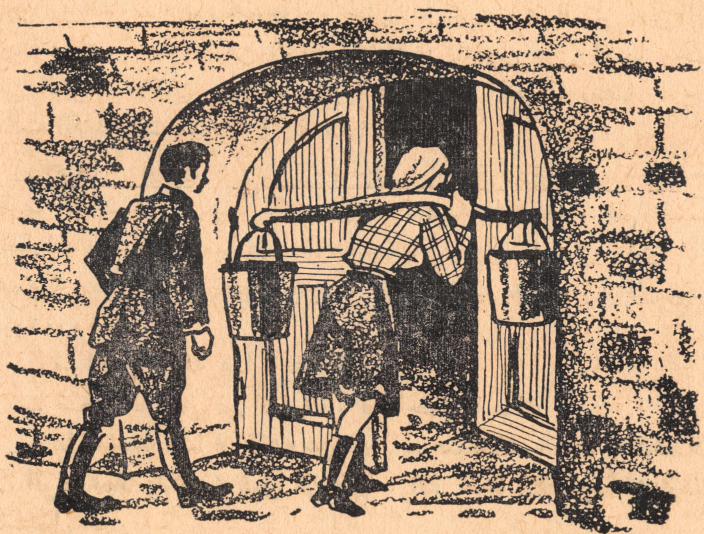
ـ وكيف قدر لك أن تعرفى ؟

ـ ان الدنيا مليئة بالاقاويل .. كما اننى رأيتك فى قاعة المطالعة .

ـ ولماذا لم تكلمينى ؟

ـ لا تزعم انك لم ترنى !

وسارت أمامه خلال المدخل المقوس القمة ، وهى تتمايل قليلا تحت ثقل الدلوين اللذين كانا يتأرجحان هونا ما .. ثم أنزلت



الدلوين الى الارض ، ورفعت العصا عن كتفيها ، واستقامت منتصبة ، فجففت يديها بمنديل صغير ، وقالت : « تعال ، فسأقودك عبر الردهة الداخلية الى القاعة الامامية ، فان النور فيها أكثر مما هو هنا . وعليك أن تنتظر لحظة ريثما أحمل الدلوين ـ عن طريق السلم الخلفى ـ وأسوى من مظهرى قليلا . لن اغيب طويلا .. تأمل درجات سلمنا الانيقة .. انها درجات من الحديد الزهر ، منقوشة بزخارف اقتدت من الحديد وخلفت ثغرات بشكلها .. انه

بيت عتيق ، زعزعته القنابل قليلا ، وبوسعك أن ترى الاماكن التى تفكك عندها البناء .. أترى هـذا الشق بين الاحجار ؟ .. هنـا اعتدت ان أترك وكاتيا مفتاح المسكن عند ما نخرج ، فتـذكر هـذا عسى أن تأتى يوما وانا فى الخارج ، ففى وسعك اذ ذاك ان تفتـح الباب ، وأن تعتبر البيت بيتك ، الى أن أعود ! .. اترى المفتاح ؟ انه فى الشق ، ولكننى لست بحاجة الى استعماله الآن ، فسـوف أنفذ من المدخل الخلفى ، وافتح لك الباب من الداخـل .. ليس يضايقنا هنا سوى الفئران ، فهناك أسراب وجحـافل منها ، ولا سبيل لك الى القضاء عليها . والذنب ذنب هذه الجدران العتيقة ، اذ أن الثغرات والشقوق تتخللها ، فى طول البيت وعرضه . انني أسد جميع ما يقع عليه بصرى من جحور الفئران ، دون ان يجدينى هذا نفعا .. فعساك تأتى يوما وتساعدنى فى ذلك ! .. ان الشقوق التى بين أخشاب الارض وأسفل الجدران تحتاج الى سد ، فمـا رأيك ؟ .. والآن ، قف أمام الباب ، واشغل بالك بأى شىء ، فلن أغيب طويلا ، وسأدعوك للدخول بعد لحظة واحدة ! »

وفى انتظار دعوتها ، راح يتأمل الجدران المنهارة الطلاء ، والدرجات المسبوكة من الحديد الزهر ، وهو يقول فى نفسه : « لقد خيل الى ــ وهى فى قاعة المطالعة ــ انها كانت من التحمس والاقبـال على القراءة ، بحيث بدت وكأنها تبذل فى ذلك ماينبغى أن يبذل فى عمل بدنى شاق . وها أنذا ارى ان العكس صحيح كذلك . فهى تحمل الماء من البئر بسهولة ، وفى غير ماجهد ، وكأنها تطالع ! .. ان فى كل ماتفعله يسرا وتناسقا ، وكأنها ــ فى صغرها ــ قد أدارت عجـلة حياتها ، فاذا كل شىء ينساب من تلقاء نفسه فى استرسال طبيعى ، كما تنساب النتيجة من سبب ما ! .. كل هذا يتجلى فى شكل ظهرها حين تنحنى ، وفى ابتسامتها حين تنفرج شفتاها ، وحول ذقنها ، وفى كلماتها ، وفى أفكارها »

ونادته « لارا » من أعلى السلم : « جيفاجو ! » .. فصعد .

— ١٤ —

• — **اعطنى** يدك ، وافعل ما انبئك به ، فان علينا أن نمضى عبر غرفتين مظلمتين ، تكدس فيهما الاثاث .. وأخشى انتصطدم بشىء فتصاب بأذى !

— انها متاهة ، ماكنت لاهتدى فيها الى طريقى البتة .. لماذا هى هكذا ؟ .. هل يجرى العمل فى اعادة طلاء المسكن ؟

— آه ، لا ، لا شىء من هذا القبيل . ليس هـذا هو السبب ، ولكن المسكن ملك لشخص آخر ، لاأعرف عنه شيئا . ولقد كان لى مسكن خاص فى مبنى المدرسة ، فلما استولت ادارة الاسكان بالبلدة على المدرسة ، منحت وكاتيا جزءا من هذا المسكن . وكان السكان القدامى قد رحلوا تاركين كل متاعهم . وما أكثره ! .. ولـكننى لا أحب مقتنيات الغير ، ومن ثم فقد كدست الاثاث جميعـه هنا ، وطليت النوافذ بالجير لأصد أشعة الشمس .. لا تفلت يدى ، والا ضللت الطريق . ها قد وصلنا ، وسنعرج يمينا .. الآن أصبحنا خارج المتاهة .. وها هو ذا باب حجرتى . سيواتينا الضـوء بعد لحظة .. انتبه الى الدرجة التى عند المدخل !

واذ تبعها الى الحجرة بهره المنظر الذى تجلى خلال النافذةالمقابلة للباب . فقد كانت تطل على الفناء ، وتتجاوزه الى سـقوف الدور المنخفضة القائمة وراءه ، ثم الى الطريق العامة الممتدة بجوار النهر .. الطـريق التـابعة للمجلس البلدى . وكانت المـاعز والاغنـام ترعى الحشـائش النابتة فى الطريق ، وهى تجرجر صـوفها على الارض وكأنه ذيول معاطف .. وكانت هناك لوحة مألوفة كذلك : « مورو وفيتشينكين ـ آلات للبذر فى الاخاديد، وآلات الدراس » .

واذ ذكره المنظر بيوم وصـوله من (موسـكو) ، شرع لفوره يحـدثها عن ذلك اليوم .. ونسى ماقيل من أن « ستريلنيكوف »

كان زوج « لارا » ، فراح يحدثها عن التقائه به ، فى غير ماتحرز .. وكان لهذا الجزء من حديثه أثر عميق فى نفسها ، فهتفت : « أرأيته ؟ .. ما اغرب ذلك ! .. لن اقول لك الآن شيئا ، ولكن الامر عجيب حقا . كأنما كان مقدرا لكما أن تتقابلا ! .. سأروى لك كل شىء ، يوما ما ، ولسوف تدهش . يبدو ان الاثر الذى خلفه فى نفسك طيب أكثر منه سىء ! »

ـ أجل ، بوجه عام .. كان خليقا أن يثير نفورى ، اذ كنا قد مررنا فعلا بالمنطقة التى أشاع فيها الموت والخراب . وقد توقعت أن يكون « باشبزوقا » أو جبارا ثوريا ، ولكنه لم يكن هذا ولا ذاك .. وما أطيب أن تتبينى ان انسانا ما يختلف عن الصورة التى كنت تخالينه عليها ! .. ان هذا يريك انه ليس طرازا خاصا بين الناس ، فلو انه كان كذلك ، لكان فى ذلك نهايته كانسان .. أما اذا لم تستطيعى ان تصفيه بأنه طراز معين ، فان معنى هذا ان جزءا منه ـ على الاقل ـ يحتفظ بما ينبغى أن يكون عليه الكائن البشرى .. معناه انه أوتى مثقال حبة من طبيعة الانسان الفانى !

ـ يقولون انه ليس عضوا فى الحزب الشيوعى .

ـ أجل ، أعتقد ان هذا حق . وكثيرا ما ساءلت نفسى ـ منذ ذلك الحين ـ عما يجعله جذابا . ويخيل الى ان جاذبيته راجعة الى انه انسان مسوق تحت دفع القدر ، ولسوف يلقى نهاية سيئة ، ويكفر عن الشر الذى ارتكبه . **ان الثوار الذين يستولون على القانون ويجعلونه ملك ايمانهم فظيعون ، لا لانهم مجرمون ، وانما لانهم آلات جمحت وانطلقت بعيدة عن كل سيطرة ، كقطار يندفع دون سائق !** .. وان ستريلنيكوف لمجنون كالباقين ، ولكن الحياة والعذاب ـ لا الكتب ـ هما اللذان أفقداه عقله ! .. اننى لا أعرف سره ، ولكنى أشعر عن يقين ان له سرا ، وان تحالفه مع البلاشفة جاء عفو المصادفة .. ولسوف يحتملونه طالما صادف ان كان يسير فى طريقهم ، وسيحاولون أن يستغلوه . ولكن ما ان تنقضى حاجتهم

اليه ، حتى يلقوه أرضا ويدوسوه فى غير رحمة ، كما فعلوا بغيره من الخبراء بالشؤون الحربية !

ـ اوتعتقد ذلك ؟

ـ بل أوقن من ذلك !

ـ ولكن ، أما من مهرب له ؟ .. أليس بوسعه أن يفر الى الخارج ؟

ـ والى أين المفر يا لاريسا فيودوروفنا ؟ .. كان بوسعك ان تفعلى هذا فى الايام الخالية ، أيام القياصرة . ولكن ، حاولى أن تفعليه اليوم !

ـ لقد جعلتنى آسف عليه .. انك تغيرت ، فهلا تشعر بذلك ؟ .. لقد اعتدت أن تتكلم عن الثورة بلهجة أكثر هدوءا ، وكنت أقل قسوة عليها .

ـ الامر يرجع الى ان لكل شيء حدودا يا لاريسا فيودوروفنا . ففى كل الفترة التى انقضت ، كان لابد للثورة من أن تحقق شيئا ، ولكن ظهر أن أولئك الذين اوحوا بالثورة لا يجيدون شيئا الا التغيير واثارة الشغب .. فهذا هو العنصر الذى خلقوا له ، وهم لا يسعدون بشيء لا يكون على مجال عالمى . فان فترات الانتقال ، وقيام عوالم جديدة ، هى بالنسبة لهم غاية فى حد ذاتها . وهم غير مدربين على أى شيء آخر ، ولا هم يعرفون شيئا عدا ذلك . **ثم ، هل تعرفين السبب فى هذه الدوامة المستمرة ـ التى لا نهاية لها ـ من الاستعدادات ؟ .. انها راجعة الى أنهم لم يؤتوا شيئا من المقدرة على شيء ، فهم غير موهوبين . لقد خلق الانسان لكى يمارس الحياة ، وليس ليعد العدة للحياة !** .. ان الحياة ذاتها ـ نعمة الحياة ـ شيء خطير يملك على الناس أنفاسهم ، فلماذا يستعاض عنها بهذا التهريج الصبيانى المستوحى من نزوات مراهقة ؟ .. لماذا يستعاض عنها بهذا التهريج الذى لا يصدر الا عن تلاميذ المدارس ؟ .. ولكن ، كفى حديثا فى هذا الصدد ، فلقد آن لى ان أسألك بدورى : لقد وصلنا فى صباح اليوم الذى وقعت فيه

الاضطرابات فى المنطقة ، فهل كنت فى هذه الاضطرابات ؟

ـ أعتقد اننى كنت فى غمرتها ، فلقد كانت الطلقات والنيران تحيط بنا من كل جانب .. كانت معجزة ان البيت لم يحترق ، ولكنه تصدع كما أنبأتك ، ولا تزال فى الفناء قنبلة لم تنفجر حتى اليوم .. انها خلف الباب الخارجى مباشرة .. كانت هناك قنابل ، ونهب وسلب ، وكل أنواع الفظائع ، كما هى الحال فى كل انقلاب حكومى .. على اننا كنا قد اعتدنا هذه الامور وألفناها اذ ذاك ، فما كانت هذه أول مرة نراها فيها .. وانى لاعجز عن أن أنبئك بما جرى تحت حكم البيض .. كانت هناك اغتيالات ، وانتقام ، واغتصابات ، وابتزاز .. كانت فوضى حقيقية ! .. ولكنى لم انبئك بعد بأغرب الامور حقا .. صديقنا « جاليولين » ! .. لقد ظهر هنا مع التشيكيين ، كحاكم عام تقريبا !

ـ أعرف هذا ، اذ سمعت به .. هل قابلته ؟

ـ كثيرا جدا .. انك لاتتصور كم من الناس استطعت أن أنقذهم بفضله ، وكم تحايلت على اخفائهم . وانصافا له أذكر انه تصرف تصرف السيد المهذب الشهم الكامل ، لا كتلك الاسماك الصغيرة .. أولئك الضباط القوزاق الصغار ، وجاويشات البوليس ، ومن اليهم من حثالات . وكان ذلك السمك الصغير هو الذى يثير الفتن ، وليس القوم البسطاء . ولقد ساعدنى جاليولين كثيرا ، فليباركه الله . اننا صديقان قديمان كما تعلم . فعندما كنت طفلة ، كان يقيم فى مبنى لمساكن العمال ، مجاور لذاك الذى كنا نقيم فيه ، فكنت أراه فى خروجى ودخولى . ولقد كان معظم السكان من عمال السكك الحديدية ، فرأيت فى صغرى كثيرا من مشاهد الفقر . وهذا هو السر فى أن مسلكى ازاء الثورة غير مسلكك . فالثورة أقرب الى نفسى ، وهناك شطر كبير منها أفهمه أعمق الفهم .. افهم مافى جوفه .. ولكنى لم أكن اتصور ان يصبح جاليولين ـ وهو ابن بواب ـ ضابطا برتبة « كابتن » .. او لعله « جنرال » ، فليس فى أسرتى أحد من العسكريين ، ولست أعرف كثيرا عن الرتب

العسكرية . ثم اننى — حسب مهنتى — معلمة للتاريخ .. هذه جلية الامر ، على أية حال . لقد استطعنا ان نساعد — متعاونين — عددا كبيرا من الناس . واعتدت أن أسعى الى لقائه . وتحدثنا عنك . لقد ألفت ان احظى بأصدقاء وعلاقات فى كل حكومة .. كما ألفت الاحزان وخيبة الرجاء منهم جميعا .. **ان الناس لا ينقسمون الى معسكرين لا يعود بينهما أى رباط الا فى الروايات الرديئة . أما فى الحياة الحقيقية ، فكل شىء فى امتزاج ! .. الا ترى ان لابد لك من أن تصبح تافها كل التفاهة لكى تقتصر على دور واحد لا تؤدى سواه طيلة عمرك ، ولكى تظل فى مركز واحد فى المجتمع ، ولكى تدافع دائما عن رأى واحد ؟ .. آه ، ها أنتذى قد جئت !**

وأقبلت صبية فى حوالى الثامنة من عمرها ، نسق شعرها فى ضفيرتين مجدولتين بديعتين . وكانت عيناها الضيقتان تلمعان بنظرة ماكرة ، ويزوغ انساناهما الى ركنيهما كلما ضحكت . وكانت قد أدركت ان لدى امها زائرا ، اذ سمعت صوته من وراء الباب ، ولكنها رأت ان من الضرورى ان تتظاهر بالدهشة . فحيت يورى ، ونظرت اليه فى غير خوف ، ودون ان يطرف جفناها ، كما يفعل الطفل الذى يكون وحيد أبويه ، عند ما يقدر له أن يبدأ فى التفكير وتدبير الاحوال فى سن جد مبكرة .

وقالت الام لضيفها : « هذه ابنتى كاتيا .. آمل أن تصبحا صديقين ! »

— لقد اريتنى صورتها فى (مليوزييفو) . على انها قد كبرت وتغيرت عما كانت عليه اذ ذاك !

وقالت لارا لابنتها : « كنت أحسبك فى الخارج .. اننى لم أسمعك وأنت قادمة ! »

— أخذت المفتاح من الشق الذى فى الجدار . وكان ثمة فأر هائل فيه .. بهذا الحجم ! (وأشارت بيديها) .. ليتك رأيتنى وأنا اقفز ، فقد أوشكت أن أموت رعبا !

وقلصت عضلات وجهها ، وفتحت عينيها عن آخرهما ، وضمت

شفتيها فى انفراج دائرى ، كانفراج فم السمكة حين تصعد فوق سطح الماء . فقالت الام : « اذن فانصرفى الآن . لسوف أحمل العم يورى على البقاء للعشاء .. واخرجى « الكاشا » (١) من الفرن .. ولسوف أناديك عندما يكون العشاء معدا . »

وهنا قال يورى : « شكرا لك .. وددت لو أستطيع البقاء ، ولكنا اعتدنا أن نتناول العشاء فى الساعة السادسة ، منذ بدأت أتردد على البلدة ، وانا احرص على ان لا اتأخر عن هذا الموعد ، اذ أن المسافة الى البيت تستغرق منى أكثر من ثلاث ساعات .. بل حوالى اربع . وهذا هو السر فى اننى قدمت فى وقت مبكر ، واخشى ان اكون مضطرا الى الانصراف بعد قليل »

ـ بوسعك أن تبقى نصف ساعة آخر .

ـ لكم أحب هذا !

— ١٥ —

ـ اما وقد كنت صريحا معى ، فسوف أكون صريحة معك . ان ستريلنيكوف الذى قابلته هو زوجى « باشا انتيبوف » .. باشا الذى ذهبت الى الجبهة بحثا عنه ، والذى أبيت أن أصدق موته ، وكنت على صواب فى ذلك .

ـ لا يدهشنى أن تعتقدى ذلك ، فلقد سمعت انا الآخر شيئا من هذا القبيل ولم أصدقه لحظة .. وهذا هو السبب فى انه غاب تماما عن ذهنى وانا أتحدث اليك ، فتكلمت دون تحرج . انه محض هراء ، فلقد رأيت ذلك الرجل . كيف يخطر ببال أى امرىء ان يربط بينه وبينك ؟ .. أى شىء مشترك يربط بينكما ؟

ـ ومع هذا ، فالامر صحيح . ان ستريلنيكوف هو زوجى انتيبوف . ومعظم الناس يرون ذلك ، وأنا أقرهم .. بل ان كاتيا تعرف الامر ، وهى تفخر بأبيها .. وما ستريلنيكوف سوى اسمه

---

(١) كعك يصنع من الدقيق الاسمر .

المستعار ، فهو مضطر الى أن يعيش تحت اسم منتحل ، كجميع الثوريين العاملين . اذ ليس له - لسبب ما - أن يعيش أو ان يعمل تحت اسمه الحقيقى . ولقد كان هو الذى استولى على (يورياتين) ، والذى أمطرنا بالقنابل . وكان يعرف اننا هنا ، ولكنه لم يحاول قط أن يبحث عما اذا كنا على قيد الحياة ، خشية أن يفضح نفسه .. لقد كان يؤدى واجبه طبعا . ولو انه استشارنى لكنت قد انبأته بأن يفعل ما فعل .

« هكذا كان الامر ، على أية حال .. ولك أن تقول أن بقائى آمنة ، وان ما منحنيه مجلس البلدة من مسكن آمن أقيم فيه ، انما يدل على انه يرعانا فى الخفاء . ومع ذلك ، فكم يبدو بعيدا عن التصديق أنه كان هنا حقا ، واستطاع أن يقاوم اغراء المجىء لزيارتنا ! .. انه عمل فوق طاقة البشر .. انه نوع من الفضيلة كما كان يفهمها المواطنون الرومان .. انه من تلك الامور التى يفكر أهل أيامنا هذه فيها ! .. على انه ينبغى ألا ادع نفسى تتأثر بوجهة نظرك الى الامور . انك واياى لسنا سواء فى التفكير ، فى الواقع .. أن ثمة شيئا معقدا ، غامضا ، على هامش الاحداث ، نفهمه معا ونحسه على نحو واحد ، ولكن من الخير لنا أن نظل على خلاف فى الامور الاوسع نطاقا .. فى فلسفة الحياة لدى كل منا .

« ولكن ، لنعد الى حديثنا عن ستريلنيكوف .. انه الآن فى سيبريا ، وقد أصبت فيما قلت (١) .. لقد سمعت بأنه متهم بأمور تجعل الدم يجرى باردا فى عروقى . انه فى سيبريا على رأس أحد مراكزنا الحربية الامامية .. وهو يحارب ويدحر جاليولين المكتهل المسكين ، صديق طفولته ، وزميله فى السلاح أثناء الحرب مع ألمانيا .. وان جاليولين ليعرف حقيقة شخصيته ، ويعرفاننى زوجته ، ولكنه اوتى ادراكا وحسن تصرف ، فهو لم يشعرنى البتة

---

(١) تقصد ما قاله من اعتقاده بأن ستريلنيكوف كان انسانا مسوقا تحت دفع القدر .. وانه مجنون كبقية الثوار .

بأنه يعرف ، وان كان فى الحق يجن غيظا لمجرد سماعه اسم ستريلنيكوف !

« هذا هو المكان الذى يوجد فيه الآن .. سيبريا . ولكنه قضى هنا وقتا طويلا ، وكان يقيم فى عربة السكة الحديدية التى قدر لك أن تقابله فيها . ولقد ظللت أرجو ان ألقاه مصادفة . وكان يذهب - فى بعض الاحيان - الى مقر اركان حرب القيادة ، حين كانوا فى المبنى الذى كان جيش الجمعية التأسيسية يتخذه مركزا لقيادته .. ومن مداعبات القدر العجيبة ، ان مدخل مقر اركان الحرب كان فى الجناح الذى اعتاد جاليولين أن يلقانى فيه . وكنت لا انفك أذهب الى هناك أنشد معونة شخص ما ، او اوقف فظاعة من الفظاعات ، أو ما الى ذلك من أمور كانت تجرى .. فمثلا ، كانت هناك قضية الاكاديمية الحربية ، وقد أثارت ضجة فى حينها .. كان الطلبة اذا برموا بأحد المدربين أحاطوا به وأطلقوا النار عليه ، قائلين انه كان يعطف على البلاشفة ! .. ثم كانت هناك تلك الفترة التى شرعوا ينزلون فيها النقمة على اليهود . **ومن المصادفات الغريبة كما يبدو لى ، أنك اذا كنت من أصحاب الفكر - أيا كان اتجاهك - وكنت من المقيمين فى بلدة ما مثلى ، لا تملك أن تجد أن نصف الاصدقاء الذين ترتبط بهم من اليهود ! ..** ومع ذلك ، فاننا - فى الاوقات التى تقوم فيها المذابح ، وتقع فيها كل هذه الامور الرهيبة المقيتة - لا نشعر بالاسف والاستنكار والخزى فحسب ، وانما نشعر بأننا منقسمون على أنفسنا انقساما فظيعا ، وكأنما تفيض عاطفتنا من الرأس لا من القلب ، وانها تخلف وراءها مذاقا من عدم الوفاء !

« من الغريب حقا أن هؤلاء القوم الذين حرروا الجنس البشرى يوما من ربقة الوثنية ، والذين يكرس كثير منهم أنفسهم اليوم لتخليصه من الظلم ، يكونون من العجز بحيث لا يستطيعون تحقيق خلاص أنفسهم من أنفسهم (١) .. من ربقة ولائهم لعقيدة عتيقة ،

---

(١) أى ان يتخلصوا من ديانتهم ، كما تدعو الشيوعية ..

من قبل الطوفان ، عفى عليها الزمن وفقدت كل معنى لها .. من العجيب أن لا يرتفعوا فوق أنفسهم ، وأن يذوبوا فى جميع العناصر الاخرى التى وضعت دياناتها بأنفسها ، والتى لن يلبثوا اذا عرفوها حق المعرفة ، أن يتبينوا أن بينهم وبينها روابط مشتركة .

« ومن الطبيعى أن قوى الاضطهاد تدفعهم الى هذا الوضع الخطير المحفوف بالمصائب .. الى هذه العزلة المنطوية على خزى وانكار للنفس ، والتى لا تعود عليهم بغير النحس . ولكنى أعتقد أن جزءا من هذا الوضع ينبعث من نوع من الشيخوخة .. من الارهاق الذى ألحقتـه بهم القرون . اننى لا أحب صفيرهم الساخر فى الظلام (١) ، وعقيدتهم الضحلة فى أن المستقبل لهم ، وهى عقيدة غير ملائمة للواقع العملى فى أيامنا ، وخيالاتهم المنطوية على استخذاء وخور همة . انها تثير الغيظ ، تماما كما يفعل حديث المسنين عن الشيخوخة ، أو حديث المعلولين عن المرض . ألا تقرنى على ذلك ؟ »

ـ الحق اننى لم افكر كثيرا فى ذلك .. ان لى صـديقا يتفق معك فى الرأى ، هو « ميشا جوردون »

ـ حسنا ، لقد اعتـدت أن أتردد على ذلك المكان ، أمـلا فى ان أصادف « باشا » وهو داخل اليه أو خارج منه .. وكان مكتب الحاكم العام يقع فى ذلك الجزء من المبنى أيام القياصرة . أما الآن ، فعلى الباب لافتة : « الشكايات » . لعلك قد رأيت هذا المبنى ؟ .. انه أجمل مكان فى البلدة ، والميدان الممتد أمامه مرصوف بقوالب من الخشب ، وتقوم عبره حديقة البلدة ، وهى مليئة بشـجر الاسفندان ، وشجيرات العضة وزهر العسل . ودائما كان ثمة صف من الناس خارج المبنى ، فى الطريق . وقد اعتدت أن أنتظر هناك ، ولم أكن احاول ان اتخطى دورى فى الصف طبعا ، فما كنت أقول اننى زوجته ، لا سيما وان اسمينا كانا مختلفين .. وليس لك أن تتصور أن أى استجداء لعواطفهم كان يحركهم ! .. ان أساليبهم

---

(١) أى انتقاداتهم المستترة التى لا يجرؤون على الجهر بها .

تغاير ذلك . أتعرف أن أباه « بافل فيرابونتوفيتش انتيبوف » - وهو من المسجونين السياسيين سابقا ، وكان عاملا قديما - يقيم على مقربة من هنا ، فى منشأة على الطريق العامة ، يعيش فيها كلاجىء ؟ .. وكذلك صديقه « تيفرزين » ، هو الآخر . كلاهما عضو فى اللجنة الثورية المحلية ، فهل تصدق أن « باشا » لم يزر أباه ، ولا أطلعه على حقيقة شخصيته ؟ .. ان أباه ليتقبل الامر على علاته ، فلم يتألم قط .. فاذا كان ابنه مضطرا الى التخفى ، فليكن ، وليس له أن يراه ، وهذا كل ما فى الامر ! .. لقد خلق هؤلاء القوم من صخر ، فهم بهذه القواعد والمبادىء جميعا ليسوا آدميين !

« ولو اننى استطعت أن أثبت أننى زوجته ، لما أجدانى ذلك أى خير ! .. فما قيمة الزوجات لديهم فى وقت كهذا ؟ .. أما مشاكل العمال ، واعادة تشكيل الكون ، فهذه هى المشاكل المهمة ! .. أما الزوجة ، فماذا تكون ؟ .. مجرد مخلوق يسير على قدمين ، ولا يفوق فى الاهمية أى برغوث او قملة ! .. ولقد اعتاد ياوره ان يخرج فيسأل الناس عما يبغون مقابلته من أجله ، ويسمح لبعضهم بالدخول . ولكنى لم أنبئه قط باسمى ، وكنت أقول - اذا ما سألنى عن مهمتى - انها شخصية . وكنت أدرك اننى أضيع وقتى سدى ، فى الواقع ، اذ أن الياور كان يهز كتفيه ويرمقنى بنظرة مرتابة . ومن ثم فاننى لم أره مرة واحدة !

« أحسبك تظن انه لم يكن يحفل بنا ، لم يكن يحبنا ، بل انه نسى وجودنا ؟ .. الواقع انك تخطىء ، فأنا أعرفه تمام المعرفة .. أعرف ما يريد تماما ، واعرف انه يريد ذلك لانه يحبنا . فهو لا يطيق أن يعود الينا صفر اليدين ، وانما يبغى أن يعود كفاتح ، مكلل بالتكريم والمجد ، فيضع أكاليل غاره عند أقدامنا ، كما يفعل الطفل الفخور بالنسبة لاهله ! »

وعادت كاتيا ، فأمسكت بها لارا فجأة ، وراحت - لدهشة الصبية - تهزها وتدغدغها !

— ١٦ —

• **كان** « يورى » على صهوة جواده ، عائدا من (يورياتين) .. وكان قد قام بهذه الرحلة .. مرات لا عداد لهـا ، فألف الطريق حتى انه لم يعد يفطن اليها ، بل لم يكن ينظر اليها تقريبا ..

وكان يوشك أن يصل الى ملتقى للطرق فى الغابة ، تتقاطع عنده الطريق المؤدية الى (فاريكينو) مباشرة ، مع درب يفضى الى قرية لصيادى السمك على نهر (ساكما) .. وهنا ، كانت ثمة لوحة عالية تحمل اعلانا آخر عن الآلات الزراعية . وكان « يورى » يوشك أن يصل الى هذه البقعة عند الغسق كعادته !

وكان قد انقضى اكثر من شهرين على ذلك اليوم الذى ذهب فيه الى البلدة جريا على عادته ، ثم قضى الليلة عند « لارا » ــ بدلا من أن يعود الى داره بعد الظهر ــ وأخبر اسرته فيما بعد بأن بعض الاعمـال قد اسـتبقته فى البلدة ، وانه قضى الليـلة فى فنـدق « سامديفياتوف » . وكان قد أصبح ــ منذ فترة طويلة ــ ينادى « لارا » باسمها الاول ، ويخاطبها بغير كلفة ، وان ظلت هى تدعوه « جيفاجو » . **كان « يورى » يخدع « تونيا » ، وقد أخذ ما أخفاه عنها يزداد استفحالا واغراقا فى الحرام .. الامر الذى لم يألفاه فى حياتهما من قبل !**

لكنه كان يعبد « تونيا » ، فكانت راحة بالها أهم عنده من أى شىء فى الدنيا .. وكان على استعداد لان يذود عن شرفها ، بل انه كان أشد احساسا بأى شىء يمسها من أبيها أو منها هى نفسها . وما كان ليحجم عن ان يمزق اى امرىء اربا بيديه ، دفاعا عن كرامتها . ومع ذلك .. فها هوذا نفسه يسىء الى هذه الكرامة !

وكان يشعر ــ فى البيت ــ كما لو كان مجرما . وكان جهـل أسرته بالحقيقة ، وحبهم الذى لم يتبدل ، مصدرى عذاب قاتل له . فكان يغيب عن وعيه فجأة ــ أثناء الحديث ــ اذ يتذكر اثمه ، فلا يعود يسمع كلمة مما يقال .. ولو أن هذا حدث اثناء تناول الطعام ،

فان الطعام كان يقف فى حلقه ، وكان يلقى ملعقته من يده ، ويدفع عنه طبقه ، فتسأله تونيا فى حيرة : « ما خطبك ؟ .. لا بد انك عرفت أنباء سيئة عندما كنت فى البلدة . هل ألقى القبض على أحد ؟ .. او هل رمى احد بالرصاص ؟ .. قل لى ، ولا تخش أن تعكر صفوى . لسوف تسرى عن نفسك اذا انت اخبرتنى ! »

أفكان عدم اخلاصه لها راجعا الى انه كان يفضل عليها امرأة أخرى ؟ .. لا ، فهو لم يعقد اية مقارنة ، ولم يكن له فى الامر خيار .. ولم يكن يؤمن بـ « الحب الحر » ، ولا بـ « حق » المرء فى أن ينساق لحواسه . بل ان التفكير فى مثل هذه المصطلحات ، أو الحديث عنها ، كان يبدو له انحطاطا .. وما قدر له قط ان يغتر يوما بنفسه ، أو يرى نفسه انسانا فوق مستوى البشر ، ذا حقوق وامتيازات خاصة . ومن ثم فقد انسحق تحت وطأة شعوره بالاثم . وكان يسائل نفسه أحيانا : « وماذا بعد ؟ » ، ويروح يرجو — فى تعاسة — ان يحدث ظرف مستحيل ، غير مرتقب ، فيحل له هذه المشكلة !

* * *

• **ولكن** الامور كانت قد تبدلت ، فى هذه المرة ، فلقد قرر أن يقطع العقدة ، وكان عائدا الى البيت يحمل حلا : كان قد اعتزم أن يفضى الى « تونيا » بكل شىء ، ويرجوها ان تغفر له ، ثم لا يعود الى لقاء « لارا » أطلاقا !

.. لكنه تردد فى اللجوء الى هذا الحل ، اذ شعر بأنه لم يصارح « لارا » — بايضاح كاف — بأنه كان مقبلا على قطيعة معها . قطيعة نهائية ، الى الابد ! .. كل ما أخبرها به — فى صباح ذلك اليوم — أنه قد اعتزم أن يعترف بكل شىء ، وان عليهما ان يكفا عن التلاقى .. ولكنه تبين — وهو فى طريق العودة — انه انما خفف الامر وهونه ، لكنه لم يوضحه الوضوح الكافى .. ولقد تبينت لارا مدى شقائه ، فلم تشأ أن تزيد أساه بمنظر أليم ، وراحت تحاول ان تصغى اليه

بأقصى ماوسعها من هدوء . كانا يتكلمان فى احدى الغرف الامامية الخالية ، **وأخذت الدموع تجرى على خديها ، ولكنها لم تكن أكثر شعورا بها من التماثيل الحجرية ـ التى كانت تزين المنزل المقابل ، فى الجانب الآخر من الطريق ـ بالمطر اذا جرى على وجهها** . وظلت تقول فى رفق : « افعل ماتراه خيرا ، ولا تهتم بى .. لسوف اتغلب على الصدمة ! » . وكانت تقول ذلك فى اخلاص صادق ، دون ما تظاهر بكرم زائف .. **واذ لم تحس بأنها كانت تبكى ، فانها لم تمسح الدموع عن وجهها .**

وحين خطر ليورى ان لارا ربما قد أساءت فهم مقصده ، وانه قد تركها وفى نفسها أثر خاطىء وآمال زائفة ، أوشك ان يرتد عائدا ، بأقصى ما يستطيع جواده أن يحمله ، ليقول لها ما اغفل ان يقوله ، ثم ـ وفوق كل شيء ـ ليودعها وداعا أشد حرارة ، واكثر حنانا ، بشكل أكثر ملاءمة لان يكون وداعا أخيرا . على انه كبح نفسه بجهد شاق ، وواصل سيره ..

واذ غاصت الشمس وراء الافق ، امتلأت الغابة بالبرد والظلام ، وفاح فيها عبير الاوراق المخضلة .. وامتلأ الهواء بأسراب من البعوض ، ظلت عالقة فيه وكأنها كسف طافية ، وهى تطن بصوت مرتفع منغوم . وراحت تحط على وجهه وعنقه ، فأخذ يخبط بكفه أينما حطت ، فتنتظم دقاته مع الاصوات التى كانت تنبعث من ركوبه : ازيز السرج ، ووقع حوافر الجواد الثقيلة على الارض الموحلة ، والريح المنبعثة من أمعاء الحصان .. وفى الفضاء البعيد ـ حيث ظلت الشمس تأبى أن تغيب ـ أخذ كروان يغرد ، وكأنه يهيب فى الحاح : « استيقظ ! استيقظ ! » .. وبدا ذلك أشبه بالنداءات التى تردد فى أمسيات الاحد السابق على عيد الفصح : « استيقظى ياروحى ، لماذا تنعسين ؟ »

وفجأة ، بهت يورى لفكرة جد بسيطة طرأت له : **فيم العجلة ؟ .. انه لن ينكث بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وسيفضى بالاعتراف ، ولكن .. من الذى قال بأن الاعتراف يجب أن يؤدى اليوم ؟ ..**

انه لم يكن قد ذكر لتونيا شيئا بعد ، ولم تكن الفرصة قد فاتت لارجاء الامر الى أن يذهب الى البلدة مرة أخرى ، فيتم حديثه مع « لارا » ، بالحرارة وعمق الشعور اللذين يهونان من عذابها . ماأروع هذا ! .. ما أبدعه ! .. وما أعجب انه لم يخطر له من قبل !

وقفز قلبه طربا لفكرة رؤية « لارا » مرة أخرى . وراح يستبق الزمن ، فيعيش فى لقائه معها !

* * *

• **الاكواخ** الخشبية والارصفة ، على مشارف البلدة . كان فى طريقه اليها ، ولن يلبث – فى لحظة – أن يخلف الحوارى المؤلفةمن الاكواخ الخشبية والبقاع الفضاء ، ليدلف الى الشوارع والبيوت ذات الطلاء الابيض . وتتابعت بيوت الضواحى ، كصفحات فى كتاب .. صفحات لا تقلبها تباعا بسبابتك ، وانما انت تضعابهامك على حافة الكتاب ، وتدعها تتتابع مرة واحدة .. كانت السرعة التى انطلق بها مذهلة ، تحبس أنفاسه .. وهناك كان بيتها ، عندالطرف الاقصى للشارع ، تحت الثغرة البيضاء بين السحب المثقلة بالمطر ، حيث كانت السماء قد بدأت تصحو مع مقدم المساء .. لكم كان يحب البيوت الصغيرة ، القائمة فى الشوارع التى كانت تفضى اليها ، حتى لقد كان يرجو لو استطاع ان يرفعها عن الارض ويقبلها ! .. يا لتلك الفراغات التى تلى السقوف مباشرة (١) ، والتى تتوسط كلا منها نافذة ، فكأنه وجه ذو عين واحدة ! .. ويالاضواء المصابيح والايقونات ، وقد انعكست على البرك المائية التى خلفها المطر ، لامعة كأنها ثمار ندية !.. ويا لبيتها تحت الثغرة البيضاء بينالسحب التى كانت تكسو السماء ! .. هناك لن يلبث أن يتلقى تحفة الجمال

---

(١) الطابق « المسروق » ، وهو الفراغ الذى ينحصر بين سقف الطابق الأعلى ، وبين السطح الخارجى المحدودب ، فى الدور الأجنبية الطراز .

الالهى الابيض من يدى خالقه ! .. **سيفتح له الباب شبح تلفه الظلمة ، فتترامى اليه بشرى قريبا - هى التى لايملكها أحد فى الدنيا ، والتى تتسم بتحفظ وهدوء ، كليلة من ليالى الشمال البيضاء - فكأنما هذه البشرى الموجة الاولى التى تترامى اليه من البحر حين يجرى اليه على الشاطىء الرملى تحت جنح الظلام !**

وترك « يورى » عنان جواده ، ومال على السرج ، فاحتضن عنق الجواد ودفن وجهه فى عرفه . وحمل الجواد هذا العطف على انه استجداء لقواه ، فانطلق راكضا وحوافره الخفيفة لا تكاد تلمس الارض الا لماما .. وخيل الى يورى انه يسمع صيحات الى جانب وقع حوافر الجواد - بين آن وآخر - وخفقات قلبه هو (يورى) الطروب .. ولكنه ظن ان الامر مجرد وهم . على أن رصاصة انطلقت جد قريبة منه ، حتى انها أصمت اذنه ، فاعتدل فى جلسته ، والتقط عنان الجواد وجذبه . واذ كبح الجواد وهو فى غمرة انطلاقه ، فانه مال جانبا ، ثم تراجع الى الوراء ، وهبط على عجزه ، متأهبا لان يستدير راجعا من حيث أتى .

وكان ملتقى الطرق يتفرع أمام « يورى » ، وقد ألقت الشمس الآفلة خيوطا من أشعتها أضاءت لوحة « مورو وفيتشينكين . آلات للبذر . آلات للدرس » .. وهناك ، سد عليه الطريق ثلاثة فرسان : فتى من طلبة المدارس ، ارتدى قلنسوة وسترة عسكرية ذات نطاقين لحفظ الطلقات .. وفارس فى معطف ضابط ، تعلو رأسه قلنسوة من الفرو .. ورجل بدين فى ثياب غريبة ، وكأنه ذاهب الى حفلة رقص تنكرية ، فقد كان سرواله مبطنا ، وكانت قبعته عريضة الحواف من طراز قبعات رجال الدين ، وقد أرخى حافتها الامامية على جبينه .

وصاح الفارس الضابط ، الذى كان أكبر الثلاثة سنا : « **لاتتحرك أيها الرفيق الطبيب .. ستكون فى أمان تام ، اذا اطعت الاوامر .**



أما اذا لم تطع ، فمعذرة اذا قلنا اننا سنرميك بالرصاص • ان الطبيب الملحق بوحدتنا قد قتل ، فقررنا ان نجندك كعامل طبى ، فاهبط عن جوادك ، وأسلم العنان الى هذا الفتى •• ودعنى أذكرك بأننا لن نقف احتراما لك اذا حاولت الهرب !

ـ أأنت الرفيق فورستر •• ليبريوس بن ميكوليتسين ؟

ـ لا ، وانما انا كبير ضباط الاتصال لديه •• كومينودفورسكى •

الفصل العاشر — الطريق الخلوى

Б. ПАСТЕРНАК "ДрЖИВАГО"



« •• وكان هناك محاضر جد ظريف •• وأحد من الفوضويين • وقد تكلم عن « تحرير الشخصية » ، وقد استمرأت حديثه ، اذ كانت مادة طيبة • ولسوف أنضم الى الفوضويين •• »

الفصـــل العاشر

الطريق الخلوى

— ١ —

• **كانت** ثمة مدن ، وقرى ، ومحلات قوزاقية ، على طول الطريق الخلوى .. وكان هو عين طريق البريد القديم ، أعرق الطرق الخلوية فى (سيبريا) . وكان يشق المدن كالسكين ، فيشطرها — وكأنها رغيف خبز — بخط مستقيم تقع عليه شوارعها الرئيسية . أما القرى فكان يجتاحها فيبعثرها ذات اليمين وذات اليسار ، مخلفا الاكواخ منتظمة فى صف ، أو مرصوصة فى قوس ، أو متراكما بعضها على بعض كما تبدو من أية انحناءة حادة فيه .

وفى الماضى البعيـــد ، قبل أن تصل السكة الحديدية الى (خوداتسكوى) ، كان البريد يحمل فى زحافات تندفع مسرعة ، على طول الطريق الخلوى ، وكانت قوافل الشاى والخبز والحديد الزهر تسلك أحد جانبيه ، بينما كان المسجونون يساقون — على الجانب الآخر — سيرا على الاقدام ، تحت الحراسة . وكانوا يسيرون بخطى منتظمة ، وأصفادهم تصلصل .. نفوس مضيعة ، لا رجاء فيها ، بشعة بشاعة الصواعق التى ترسلها السماء .. ومن حولهم ، كانت أشجار الغابات المظلمة ، التى لا سبيل الى اجتيازها ، ترسل حفيفها .

وكان أولئك الذين يقيمون على طول الطريق الخلوى ، أشبه بأسرة واحدة ، فكانت الصداقة والزواج يربطان بين قرية وقرية ، وبين بلدة وبلدة . وكانت قرية (خوداتسكوى) تقوم عند تقاطع الطريق والسكة الحديدية ، وتضم « ورش » اصلاح القاطرات ، وغيرها من « الورش » المتصلة بصيانة الخط الحديدى .. وهناك ، كان أفقر الفقراء يزدحمون فى ثكنات ، يعيشون فيها ، ويمرضون ، ويموتون . وكان يبـــاح للمســـجونين السياسيين — الذين أوتوا

مؤهلات هندسية ، والذين قضوا المدة التى حكم عليهم أن يقضوها فى الاشغال الشاقة - أن يستقروا فى (خوداتسكوى) كمنفيين « أحرار » ، وأن يعملوا كميكانيكيين فنيين مدربين .

وكانت مجالس السوفييت - التى أقيمت على طول الخط ، فى الايام الاولى للثورة - قد أطيح بها منذ أمد طويل . ولقد احتفظت « حكومة سيبريا الاقليمية » بسلطاتها زمنا ، ولكن حكمها استبدل اخيرا - فى طول المنطقة وعرضها - بحكم الاميرال كولشاك ، القائد الاعلى للبيض .

— ٢ —

• وكان الطريق يمضى - فى احدى مراحله - صاعدا فوق تل ، فيتيح نطاقا واسعا من الرؤية ، يشمل مساحة كبيرة من الارض . وكأنما لم تكن هناك نهاية للصعود البطىء ، وللأفق المطرد الاتساع . ولكن الخيل والمسافرين المكدودين كانوا لا يلبثون - اذا ما وقفوا أعياء - أن يتبينوا انهم قد بلغوا قمة التل . ثم يستطرد الطريق فوق جسر ينساب تحته نهر (كيجما) .

وكانوا يرون بعد الجسر ، وعلى مرتفع أكثر وعورة ، جدران دير « تمجيد الصليب » الحجرية . ثم يطوف الطريق بأراضى الدير ، ويمضى متعرجا فوق التل ، مخترقا أطراف بلدة كريستوفوزد فيتشينسك (١) ، فاذا ما بلغ وسط البلدة ، عاد فحف بأراضى الدير مرة أخرى ، اذ أن باب الدير الحديدى ، الاخضر اللون ، كان يطل على الميدان الرئيسى . وكانت الايقونة التى تعلو الباب محوطة باطار من حروف ذهبية ، تقول : « اهنأ أيها الصليب المانح للحياة ، يا بطل الرحمة المظفر الذى لا يقهر » .

وكان الشتاء قد أوشك أن ينتهى ، وحل الاسبوع المقدس ، الذى يختم الصوم الكبير ، وقد أخذت الطرق تتحول الى اللون الاسود ، مبشرة ببدء ذوبان الجليد ، ولكن سطوح الدور ظلت

---

(١) الاسم معناه : تمجيد الصليب .

تلبس قلنسوتها الثلجية الطويلة ، البيضاء ، المتدلية الاطراف .. فكانت البيوت تبدو للصبية الصغار - الذين كانوا يتسلقون برج الدير ليشهدوا دق الاجراس - منخفضة ، أشبه بعلب بيضاء صغيرة ، تجمعت فى كومة غير منتظمة . وكان الناس يبدون سودا ، لا تكاد أحجامهم تتجاوز أحجام النقاط ، وهم يسيرون بين البيوت ، ثم يقفون أمامها .. وكانوا يقفون ليقرأوا المرسوم بدعوة ثلاث فئات أخرى من الاعمار الى الخدمة العسكرية ، وقد ألصقت صيغة المرسوم على الجدران بأمر من الاميرال كولشاك .

— ٣ —

• **وكانت** قد وقعت فى الليل كثير من الاحداث غير المرتقبة . فلقد انقلب الجو حارا ، حرارة غير مألوفة فى مثل هذا الوقت من العام .. وكان ثمة رذاذ يتساقط من السماء خفيفا ، رفيعا ، حتى لقد بدا انه كان يتحول الى ضباب قبل أن يبلغ الارض . ولكن هذا كان مجرد وهم ، فالواقع انه كان هناك من الماء ما يكفى لان يجرى دافئا ، ناعما ، سريعا ، على الارض - التى أستحالت من أولها الى آخرها سوداء ، والتى كانت تلمع وكأنها تنضح عرقا - فيغسلها ، ويمحو عنها البقية الباقية من الجليد .

واستطاعت أشجار التفاح المجللة بالبراعم أن تخرج عن جمودها ، فاستطالت بسرعة مذهلة ، وامتدت فوق أسيجة الحدائق ، وقطرات الماء تتساقط منها ، فيسمع صوت ارتطام الماء بالافاريز الخشبية فى طول البلدة وعرضها .

وكان الجرو « توميك » - الذى قيد بسلسلة فى فناء دار المصور ، عندما هبط المساء - يعوى وينبح ، ولعل الصخب أثار الغراب في حديقة دار آل جالوزين فراح ينعق بصوت عال ، كان كافيا لان يقض منام البلدة بأسرها .

وفى القسم الادنى من (كريستوفوزد فيتشينسك) ، وصلت الى التاجر « ليوبيزنوف » ثلاث عربات محملة بالبضائع ، فأبى

استلامها ، قائلا انها جاءته خطأ ، وانه لم يطلب هـذه البضائع اطلاقا . وراح الحوذية يناشدونه أن يؤويهم سـحابة الليل ، اذ كان الوقت متأخرا ، ولكنه راح يسب ، وطردهم رافضا أن يفتح الباب . وكان هذا الشجار بدوره يسمع من أول البلدة الى آخرها .

وحوالى الساعة السابعة بتوقيت الكنيسة ، والواحدة صباحا بالساعة المتعارف عليها ، انسابت من الجرس الكبير فى الدير – وهو لا يكاد يتحرك – همهمة عذبة ، خافتة ، مبهمة ، فامتزجت برذاذ المطر الخفيف القاتم فى الهواء .. انسابت من الجـرس ، لتغـرق وتذوب فى الهواء ، وكأنها كتلة من التربة انفصلت عن ضفة النهر ، فغاصت وذابت فى مياه سيول الربيع .

وكانت الليلة ليلة خميس العهد (١) .. وعلى بعد لا تكاد تبين معه المرئيات ، خلف ستار المطر ، كانت الشموع تضىء وجها هنا ، وجبهة أو أنفا هناك ، وهى تهتز وتتحـرك عبر فناء الدير . فقد كانت صلاة الصوم مستمرة حتى الصباح .

وبعـد ربع سـاعة ، تردد على الرصيف الخشـبى المفضى من الكنيسـة وقع خطـوات .. تلك كانت « جالوزينا » – زوجة البدال – ذاهبة الى بيتها ، رغم انه لم يكن قد مضى على بدء القداس وقت يذكر . وكانت تسير بخطوات غير منتظمة ، فهى تجرى آنا ، ثم تخفف من اسراعها وتقف آنا آخر ، وشالها فوق رأسها ، ومعطفها المصنوع من الفرو غير مقفـل بالازرار .. كانت قد شـعرت بأنها وشيكة الاغماء فى الكنيسـة المثقلة الجو ، فخرجت الى الهواء الطلق ، ولكنها لم تلبث أن شـعرت بالخجـل والاسف لانها لم تمكث الى النهاية ، ولانها لم تكن قد صامت الصيام الكبير لعامين متتابعين . على أن هذا لم يكن السبب الرئيسى لما اعتراها من هم .. فان الامر بالتعبئة للجيش – الذى أعلن فى ذلك اليوم – شـمل ابنها المسكين ، الغبى ، « تيريوشكا » . وحاولت أن تقصى التفكير فيه عن

(١) خميس العهد :

رأسها ، ولكن الثغرات البيضاء فى ظلمة الليل أصرت على أن تذكرها به كلما لمحتها !

وكان بيتها عند أول انعطاف فى الطريق ، ولكنها أحست ــ وهى فى الهواء الطلق ــ بتحسن ، فلم تتعجل العودة الى الحجرات الخالية من الهواء . وكان الحزن العاصف ، المتولد عن أفكارها ، يعذبها . ولو أنها حاولت أن تستعرض هذه الافكار ــ واحدة بعد أخرى ــ بصوت عال ، لما وجدت من الكلمات ، ولا من الوقت ، ما يمكنها من استعراضها قبل بزوغ الفجر . على أن هذه الخواطر الممضة انهالت عليها زرافات ــ وهى فى الشارع ــ فراحت تعالجها جميعا ، ومعا ، مما حملها على أن تسير بضع مرات من باب الدير الى ناصية الميدان ــ ذهابا وايابا ــ فى فترة وجيزة .

* * *

وكان الاحتفال بعيد الفصح قد بدأ تقريبا ، وليس فى البيت أحد على الاطلاق ، فقد خرج الجميع ، وخلفوها وحيدة . أجل ، ألم تكن وحيدة ؟ .. أن « كسيوشا » ــ التى كانت تحت وصايتها ــ لم تكن فى الحساب . ومن تكون ، على أية حال ؟ .. مجرد « نفس أخرى ، فى مستنقع مظلم » ، كما يجرى القول الشائع . انها ربما كانت صديقة ، وربما كانت عدوة ، أو غريمة مستترة .. على أن المفروض انها كانت ابنة الزوجة الاولى لزوجها ، من زواج سابق لها . ولقد قال زوجها « فلاس » انه تبناها . ولكن ، لم لا تكون ابنة سفاح له ؟ .. أو ربما لم تكن ابنته البتة ــ فهل فى وسعك يوما أن تتغلغلى ببصرك الى قلب رجل ؟ ــ ومع ذلك ، فمن الانصاف الاقرار بأنه لم يكن ثمة عيب فى « كسيوشا » ، فقد أوتيت ذكاء ، وجمالا ، وأخلاقا .. بل انها أوتيت من العقل اكثر بكثير مما أوتى تيريوشكا المسكين الغبى ، او ابوه !

وهكذا كانت « جالوزينا » منبوذة ، مهجورة ، فى الاسبوع المقدس . لقد تفرق الجميع من حولها ، فذهب كل فرد وجهته :

كان « فلاس » يروح ويجيء فى الطريق الخلوى ، يلقى الخطب على المجندين الجدد ، ويستحثهم بذكر جلائل الاعمال التى أبرمت بالاسلحة ، بدلا من أن يرعى هذا الاحمق ابنه وينقذه من الخطر المميت المحدق به .

كذلك فر « تيريوشكا » من البيت — فى عشية العيد الكبير — فذهب الى أقاربهم فى قرية (كوتيينى) ، ليلهو وينسى متاعبه وهمومه . فلقد فصل الفتى المسكين من المدرسة ، حيث كان قد قضى فى كل صف من صفوف الدراسة عاما — فوق العام المخصص له — حتى اذا بلغ الصف الثامن أخيرا ، اذا بهم يركلونه فيلقون به خارج المدرسة ! (١)

أواه ، لكم كان كل هذا محزنا ! .. أواه ، يا رب ! .. لماذا ساءت كل الامور الى هذه الدرجة ؟ .. لشد ما كان هذا مثبطا ، حتى لقد شعرت بأنها توشك أن تستسلم لليأس . ولم تعد لديها رغبة فى أن تعيش . فما الذى سبب كل هذه التعاسة ؟ .. أهى الثورة ؟ .. لا ، لا ، لا ! انما هى الحرب . فلقد افنت الحرب زهرة رجولة روسيا ، ولم يبق بعد سوى فضلات فاسدة ، لا تصلح لشىء البتة !

ما أبعد الفارق بين هذا الزمن وزمن أبيها ! .. لقد كان ابوها مقاولا ، رصينا ، متعلما . وقد عشن على خير الارض — هى وأختاها « بوليا » و « أوليا » ، اللتان كانتا أبدع فتاتين تأمل ان تلقاهما ، وقد أوتيتا من الجمال والرشاقة ما يوائم اسميهما — وكان أقطاب النجارين يترددون على أبيهن ، وكل منهم رجل وجيه ، مبرز ، كخير ما يكون الرجال . ولقد خطر لها ولاختيها مرة — وما أكثر ما كان يخطر لهن من أفكار ! — ان ينسجن ملفحات من الصوف

---

(١) المتبع فى المدارس الأجنبية ، أن يجرى ترقيم صفوف الدراسة تنازليا ، فيبدأ الطفل دراسته بالصف الثانى عشر ، وينتهى منها بالصف الأول ، وهو ختام المدرسة الثانوية ، فكأن « تيريوشكا » — على هذا الأساس — كان فى السنة الرابعة الابتدائية .

المحبوك ، من ستة الوان . وسواء صدقت او لم تصدق ، فقد أبدعن حبك الصوف ، حتى ذاع صيت ملفحاتهن في طول الاقليم وعرضه ! .. وكان كل شيء في تلك الايام جميلا ، وغنيا ، وبديع المنظر : من قداسات الكنيسة ، الى الحفلات الراقصة ، الى الناس ، الى الاخلاق والسلوك .. كان كل شيء يملأ قلبها غبطة ، فقد كانت اسرتها تتألف – قبل كل شيء – من أناس بسطاء ، من سلالة فلاحين وعاملين ..

وكانت روسيا هي الاخرى – في تلك الايام – فتاة في سن الزواج ، يحوم حولها رجال صادقو الرجولة ، رجال على استعداد لان يذودوا عنها ، لا يقارن بهم دهماء هذه الايام .. فلقد فقد كل شيء بريقه الآن ، ولم يبق سوى المدنيين ، من محامين ومتحذلقين (١) لا تكف ألسنتهم عن التمشدق بالحديث ليل نهار .. ولقد ظن « فيلاس » – الطبيب المسكين – وأصدقاؤه ، أن بوسعهم ان يعيدوا تلك الايام الذهبية بشرب الانخاب ، والقاء الخطب ، وابداء أطيب التمنيات ! .. ولكن ، أهذه هي الطريقة لاسترداد حب مضيع ؟ .. ان عليك في سبيل ذلك ان تقلقل الجبال عن مواقعها !

— ٤ —

• وكانت المرأة في تلك الاثناء قد عبرت الميدان ، وسارت حتى ساحة السوق اكثر من مرة . ومن هناك ، كان بيتها يقع في منتصف الطريق ، الى اليسار . ولكنها كانت تغير رأيها – في كل مرة تبلغه – فتعدل عن الدخول ، وتتحول الى شبكة الدروب والحواري المتصلة بالدير .

وكانت ساحة السوق في حجم حقل كبير .. وكانت – في الازمان الخالية – تزدحم في أيام السوق بعربات الفلاحين . وفي أحد

(١) الأصل Yids ، وهو اسم كان يطلق على المتحذلقين الذين يكثرون من استعمال الكلمات الألمانية في أحاديثهم . وكانوا غالبا من اليهود .

طرفيها ، كان شارع ايلينيسكايا (١) .. أما الطرف الآخر ، فكان ينحنى على شكل هلال ، اصطفت عليه بنايات صغيرة - لا يتجاوز ارتفاعها طابقا أو اثنين - تستخدم كمخازن للبضائع ، ومكاتب ، ومتاجر .

هناك كان « بروخيانوف » يعكف على الاوراق النقدية ذات القيمة الصغيرة ، يقرأ كل حرف فيها ، وهو يجلس متعاظما على مقعد خارج بابه الحديدى الضخم ذى المصاريع الاربعة .. وقد كان شيخا أحول ، شبيها بالدب ، ذا عوينتين (نظارة) ، وسترة طويلة الذيل .. وكان يتجر فى الجلد ، والشوفان والتبن ، وعجلات العربات ، وأعنة الخيل وسروجها .. الخ

وهناك - فى نافذة صغيرة معتمة من نوافذ المتاجر - كانت ثمة بضعة أزواج من شموع العرس المنقوشة ومن طاقات الزهر ، فى صناديق من الورق المقوى ، وقد جمعت فوقها غبار السنين .. بينما كانت تعقد - فى غرفة صغيرة فى مؤخرة المبنى ، عارية من الاثاث ، خالية من السلع اللهم الا من كومة من قوالب الشمع الكبيرة المستديرة - صفقات بآلاف الروبلات ، مع مجهولين كانوا وكلاء لصانع شمع من أصحاب الملايين ، لم يكن أحد يدرى مقره ولا مقامه !

وهناك ، وسط صف الحوانيت ، كان متجر جالوزين للبدالة .. متجر كبير ذو ثلاث نوافذ . وكانت أرضه المؤلفة من قطع صغيرة من الخشب ، العارية من أى فرش ، تمسح - بأوراق الشاى المستعملة - صبحا وظهرا ومساء . فقد كان جالوزين وأعوانه يشربون الشاى طيلة اليوم . وهنا كثيرا ما كانت جالوزينا - وهى بعد زوجة شابة - تجلس طائعة مختارة وراء صندوق النقود . وكان اللون المحبب اليها هو البنفسجى الخفيف ، لون الثياب الكنسية فى بعض الايام ذات القداسة ، ولون زهور الليلق وهى بعد براعم ، ولون أفخم ثوب مخملى لديها ، ولون طاقم الكؤوس البلورية

---

(١) الاسم معناه : القديسة هيلين .

الذى تملكه .. كان لون سعادتها وذكرياتها . كذلك كانت روسيا تبدو لها - فى عذريتها ، قبل الثورة - مصطبغة بلون زهور الليلق (البنفسج) . ولقد كانت جالوزينا تستمرىء الجلوس خلف صندوق النقود ، لان العتمة البنفسجية التى كانت تسود داخل المتجر - العبق برائحة النشا والسكر والحلوى ذات اللون القرمزى الضارب الى السواد - تتمشى مع لونها المحبب الى نفسها !

وهنا ، فى ركن الميدان ، بجوار فناء تخزين الخشب ، قامت دار عتيقة ، سمراء ، تركت تقلبات الجو آثارها على جوانبها الاربعة ، فكأنها مركبة مهدمة . وكانت ذات طابقين ، وذات مدخلين أماميين ، قام كل منهما فى جانب من جانبى الواجهة . وكان كل طابق ينقسم الى قسمين . ففى الطابق الاسفل ، الى اليمين ، كان حانوت « زالكيند » الصيدلى ، والى اليسار ، كان مكتب موثق العقود . وفى الطابق الاعلى ، كان ترزى السيدات المكتهل « شموليفيتش » يقيم ، فوق الصيدلى ، مع أسرته الكبيرة . أما المسكن المجاور لمسكن شموليفيتش - والقائم فوق مكتب موثق العقود - فكان يزدحم بسكان كانت حرفهم ومهنهم موضحة على بطاقات ولافتات تكسو الباب الامامى بأسره : هنا كانت الساعات تصلح ، والاحذية ترتق .. وهنا كان معمل « كامينسكى » صانع الاختام ، واثنان من المصورين - هما « جوك » و « ستروداخ » - يعملان معا ، متشاركين . ولما كان مسكنا الطابق الاول مزدحمين ، فان مساعدى المصورين - وهما « بلاجيين » ، الطالب ، و «مجيدسن» الذى كان يقوم بتنقيح الصور (الرتوش) - أقاما « غرفة مظلمة » فى أحد طرفى المظلة الخشبية الكبيرة التى كانت فى فناء المبنى .. وأدركت « جالوزينا » من العين الحمراء - المصباح الاحمر - التى كانت تحملق فى نافذة الغرفة المظلمة ، أن المساعدين كانا يعملان هناك فى ذلك الوقت . وتحت هذه النافذة بالذات ، كان الجرو « توميك » يجلس على السلسلة التى كانت تقيده ، وهو يعوى ، حتى لتسمعه عبر الميدان ، فى شارع (ايلينينسكايا)

وقالت جالوزينا فى نفسها ، وهى تمر بالدار السمراء : « ها هم أولاء هنا جميعا ، غلاة اليهود عن بكرة أبيهم .. انه وكر للقذارة والنذالة ! » . ومع ذلك ، فقد خطر لها ـ فى اللحظة ذاتها ـ أن زوجها كان على خطأ فى كراهيته لليهود الى هذا الحد . فما كان يبدو ان هؤلاء الناس كانوا سادة البلاد ، وما كان لهم من الاهمية ما يؤثر على أقدار روسيا .. وان كان من الصحيح أن شموليفيتش الطاعن فى السن كان يجاهد ليلوى عضلات وجهه الدميم فى ابتسامة ـ اذا ما سألته عن السبب الذى يراه لما كانت فيه البلاد من اضطراب وقلقلة ـ ويقول : « ان ليبوتشكا (١) يمارس ألاعيبه بنشاط ! »

* * *

ولكن ، أية مضيعة للوقت فى التفكير فى مثل هذه التفاهات ؟! .. أفكانت لها قيمة ؟ أتراها كانت منبع متاعب روسيا ؟ .. انما كانت المدن هى سر المتاعب . وليس معنى هذا أن الريف كان ينهض أو يسقط بتأثير المدن ، وانما معناه أن أهل المدن كانوا متعلمين ، وكان أهل الريف سريعى التأثر ، فكانوا يغبطون المدن على علمها ، ويحاولون أن ينقلوا عنها أساليبها فى الحياة ، فلا يفلحون فى مضارعتها ، ومن ثم فانهم لم يصبحوا من هؤلاء ولا من أولئك .. لا هنا ولا هناك !

أو لعل الامر كان على العكس .. لعل الجهل هو الذى كان سر المتاعب ؟ .. فالرجل المتعلم يستطيع أن ينفذ ببصره خلال الجدران ، وان يحدس مقدما كل ما يحدث ، بينما يكون بقيتنا أشبه بأناس يتخبطون فى غابة مظلمة ، على اننا لا نفقد ـ اذا ما

---

(١) تدليل اسم « ليو » لدى يهود روسيا . ويقصد به « ليو تروتسكى » الذى كان من أقطاب الثورة الشيوعية ، ثم اختلف مع أنصار الاستبداد ـ الذين كان يتزعمهم ستالين ـ واضطر للنزوح الى أمريكا الجنوبية ، حيث لم يلبث ستالين ان دبر مؤامرة لاغتياله .

قطعت رؤوسنا – سوى قبعاتنا ! .. وليس معنى هذا ان اهل المدن ينعمون بعيش رخاء فى هذه الايام .. ألا أنظرى كيف كانت المجاعة تسوقهم الى خارج المدن ! .. حاولى أن تتبينى الامور على حقيقتها ! .. ولكن الشيطان نفسه يعجز عن أن يعرف لها أولا من آخر !

ومع كل هذا ، فقد كان أهل الريف هم الذين يعرفون كيف يعيشون ، فى جميع الظروف . أنظرى الى علاقاتهم وقراباتهم : آل سيليتفين ، وآل شيلابورين ، وبامفيل باليخ ، والاخوان موديخ . كانوا يعتمدون على أيديهم وعلى رؤوسهم ، فكانوا سادة أنفسهم . وكانت المزارع الجديدة – على طول الطريق الخلوى – تؤلف منظرا بديعا .. خمسة عشر « ديسياتين » (١) من الارض الصالحة للزراعة ، وأغنام ، وجياد ، وخنازير ، وأبقار ، وغلال فى المخازن تكفى لثلاث سنوات مقبلة ! .. وآلاتهم الزراعية ، فوق كل هذا ! .. بل أن لديهم آلات للحصاد ! .. لقد كان « كولشاك » يغدق عليهم ، محاولا أن يكسبهم الى صفه .. وكذلك كان « القوميسيرون » ، ليجتذبوهم الى جيش الغابة . فلقد جاءوا من الحرب بصلبان القديس جورج (٢) ، فراح كل امرىء يجرى وراءهم ، رغبة فى استخدامهم كمدرسين لمجنديه . فقد كان الطلب ينهال عليك دائما – سواء كنت ضابطا أو صف ضابط – ما دمت على دراية بعملك ، وكان بوسعك دائما أن تجد موطئا لقدميك .

على أن الوقت كان قد حان كى تعود جالوزينا الى دارها ، لمجرد انه لم يكن من اللائق بامرأة أن تهيم فى الشوارع فى مثل تلك الساعة المتأخرة . وما كان الامر يهم فى شىء لو انها كانت فى حديقتها الخاصة ، أما وهى فى الشارع ، فان مسلكها لم يكن محفوفا بالوحل فقط ، بل انه كان مغرقا فى حمأة كريهة . وعلى أية حال فانها

(١) الديسياتين : حوالى ٥ر٢ من الفدان .

(٢) كان « صليب القديس جورج » هو أسمى وسام عسكرى فى روسيا ، فى عهد القياصرة .

أصبحت تشعر بشىء من التحسن ، كما خيل اليها ، فعادت الى دارها ، وهى تتخبط فى خواطرها ، وقد فقدت كل سيطرة عنيها على أنها وقفت هنيهة فى مدخل الدار ــ قبل أن تلجها ــ لتستعرض بضعة أمور اخرى فى ذهنها .

فكرت فى الناس الذين كانوا يتبوأون المكانة العليا فى (خوداتسكوى) فى الفترة الراهنة .. كانت تعرف ــ الى حد ما ــ أى أناس هم .. كانوا من المبعدين السياسيين السابقين ، الذين أقصوا عن العواصم ، من أمثال « تيفرزين » ، و « انتيبوف » ، والفوضوى « فدوفيتشينكو » ، الذى كان يلقب ب « الراية السوداء » ، وصانع الاقفال المحلى « جورشينى » ، الذى كان يعرف ب « الكلب المجنون » .. كانوا دهاة ماكرين ، يعرفون ما يدور فى رؤوسهم عن بينة ، وقد أثاروا كثيرا من القلاقل فى أيامهم ، ولا بد انهم كانوا يدبرون شيئا من جديد ، فى هذه الفترة . فما كان بوسعهم أن يعيشوا دون أن يدبروا شيئا .. لقد أنفقوا أعمارهم فى استخدام الآلات ، وكانوا جامدى القلوب ، عديمى الرحمة ، أشبه بالآلات ذاتها . وكانوا يروحون ويجيئون ، وقد ارتدوا المعرقات (١) والصدريات الضيقة ، ويدخنون السجاير فى حامل من العظم (٢) ، ويشربون الماء مغليا خوفا من أن يصابوا بمرض ما .

لئن كان « فلاس » المسكين يضيع وقته هباء ، فان هؤلاء الرجال خليقون بأن يقلبوا كل شىء رأسا على عقب ، وقد اعتادوا دائما أن يبلغوا غاياتهم ، وان يمضوا فى طريقهم .

ثم فكرت فى نفسها : كانت تعرف أنها امرأة بسيطة ، ولكنها أوتيت عقلا مستقلا ، وذكاء وشبابا بالنسبة لعمرها .. كانت فى مجموعها شخصا لا بأس به . ولكن شيئا من مؤهلاتها ما كان ليشق

---

(١) المعرقة رداء يقى الصدر شر البرد ، ويعرف باللغة الدارجة باسم « السويتر »
(٢) حامل السيجارة هو القصبة التى تفصل بين السيجارة والفم .

جليدا (١) فى هذا الجحر الذى غفل الله عنه .. ولا فى أى مكان آخر له قيمة .

وتبادرت الى ذهنها الاغنية الوقحة التى تدور حول « سنتيتيوريخا » العجوز الغبية .. كانت أغنية معروفة فى منطقة جبال (الاورال) من أولها الى آخرها ، ولكن لا سبيل الى نشر أكثر من شطريها الاولين :

« سنتيتيوريخا ، باعت عربتها ،
« واشترت بالاليكا ... »

ولم يكن يتلو هاتين الشطرتين سوى بذاءات . وكانوا يرددونها فى (كريستوفوزدفيتشينسك) ، وكانت جالوزينا ترتاب فى أنهم يقصدونها بها !

وتنهدت فى مرارة ، ثم دخلت الدار .

— ٥ —

• ويممت شطر مخدعها مباشرة ، دون أن تتوقف فى البهو لتخلع عنها معطفها . وكانت الحجرة تطل على الحديقة ، واشكال الظلال — فى ذلك الوقت من الليل — متشابهة تقريبا ، سواء فى داخل الحجرة أو فى الحديقة الممتدة خارج النافذة — وكأنها كانت تكرر بعضها بعضا — فكانت أشكال الستائر المتهدلة ، المتدلية ، تشبه الاشجار الملتفة بالظلمة ، المجردة من الاوراق ، التى لاتحدها خطوط واضحة . وفى الحديقة — حيث كان الشتاء قد رحل تقريبا — كان الوهج القرمزى الداكن ، المبشر بالربيع المقبل ، ينبثق من الارض ، فيبعث الدفء فى ظلمة الليل الحريرية الناعمة ، كذلك بدا ان الظلمة الراكدة الهواء — داخل الغرفة بستائرها المتربة — قد اصطبغت واكتسبت نعومة ولينا ، بفضل الوهج البنفسجى القاتم الذى أوحى به العيد المقبل .

---

(١) تعبير روسى يقصد به « لا يجدى نفعا »

وكأنما خلصت « العذراء » – فى صورة الايقونة – يديها السمراوين النحيلتين ، ومدتهما خارج الاطار الفضى ، رافعة اياهما الى أعلى ، كما لو كانت تمسك بينهما أول حرف وآخر حرف من اسمها المكتوب باليونانية « أم الرب » . وكان مصباح الايقونة قاتما ، كبئر من المداد ، فى حامل ذهبى ، راح ينثر ضوءه على شكل نجمة – على بساط المخدع – وقد تناثرت خيوطه خلال الزجاج « المشطوف » .

وخلعت جالوزينا عنها معطفها وشالها ، فندت عنها حركة متوجعة ، وشعرت بألمها القديم .. نخسة فى خاصرتها ، تحت لوح الكتف . وأرسلت صرخة جزعة ، وشرعت تتمتم : « يا حامية المحزونين القادرة ، يا أم الرب الطاهرة ، يا مساعدة المنكوب ، يا ملاذ الكون .. » . وفى وسط دعائها ، انفجرت باكية !

وعندما خبا الالم ، شرعت تفك مشابك ثوبها ، ولكن المشابك التى فى الظهر أفلتت من اصابعها ، وغاصت فى القماش الناعم المجعد . ووجدت عناء فى العثور عليها .

واستيقظت « كسيوشا » – التى كانت فى حضانتها – فجاءت الى الغرفة ، وتساءلت : « لماذا انت فى الظلام يا أماه ؟ .. هل أحضر مصباحا ؟ »

– لا ، لا تفعلى .. هناك من الضوء ما يكفى .

– دعينى أفك لك ثوبك .. لا تتعبى نفسك !

– ان أصابعى كلها ابهامات (١) ، حتى اننى اكاد أبكى . ولم يؤت ذلك الترزى ذوقا حتى يخيط المشابك ويثبتها فلا يعيى المرء البحث عنها . انه اعمى كالخفاش ! .. لكم يدور بخلدى أن أمزقها جميعا وألقى بها فى وجهه القبيح !

– ما أبدع انشادهم فى الدير ! .. ان السكون شامل ، حتى انك لتسمعين انشادهم من البيت .

---

(١) جمع ابهام .. اشارة الى أن أصابعها كانت قصيرة ، ممتلئة .

ـ لقد كان الانشاد جيدا ، ولكننى لا أشعر بأننى على مايرام يا بنيتى . لقد عاودتنى تلك الوخزة مرة أخرى .. هنا ، وهنا .. فى كل مكان . انها جد مزعجة ، ولست أدرى ماذا أفعل .

ـ لقد ساعدك المعالج (١) ستايدوبيسكى فى العام الماضى .

ـ انه لا ينفك يسأل المريض أن يفعل ماهو مستحيل . ان هذا المعالج الذى تزعمين مجرد دجال ، لا خير يرتجى منه . هذا شىء ، والشىء الآخر انه قد رحل .. أؤكد لك انه رحل ، غادر البلدة . وليس هو أول من يفعل ، فقد اندفع الجميع يغادرونها قبيل العيد ، وكأنهم يتوقعون زلزالا ، أو شيئا من هذا القبيل !

ـ حسنا ، فما رأيك فى الطبيب المجرى ، أسير الحرب ؟.. لقد أفدت من علاجه ، وتحسنت صحتك .

ـ لا جدوى من ذلك أيضا . أؤكد لك انه لم يبق فى البلدة انسان . ان « كيرينيى لايوس » مع المجريين الآخرين ، على الجانب الآخر من الخط الفاصل (٢) . لقد ضموه الى الجيش الاحمر !

ـ ولكنك تعلمين يا أماه انك تبنين أوهاما كثيرة .. ان قلبك فى حالة انفعال واضطراب . والايحاء فى حال مثل حالك خليق بأن يفعل المعجزات . وهذا مايفعله الفلاحون على كل حال . أتذكرين تلك المرأة ، زوجة الجندى ، التى ذهبت همساتها بألمك ؟ .. ترى ماذا كان اسمها ؟

ـ لعمرى ! .. لابد أنك تظنيننى مجرد جاهلة حمقاء ! .. لن يدهشنى اذا غنيت « سنتيتيوريخا » من وراء ظهرى !

ـ كيف تقولين مثل هذا القول يا أماه ؟ ! .. انه ظلم ، وخليق بك

---

(١) الأصل Homocopath . ومعناها الشخص الذى يعالج المرضى بجرعات من العقاقير المخدرة أو السامة ، يراعى زيادتها تدريجا وبنسب ضئيلة ، حتى يتعودها الجسم ولا يضار منها .

(٢) الخط الذى يفصل بين المنطقة التى كان البيض يسيطرون عليها ، والمنطقة التى كان يسيطر عليها الثوار الحمر .

أن تخجلى من نفسك . من الافضل أن تساعدينى على تذكر اسم تلك المرأة ، فهو على طرف لسانى ، ولن يهنأ لى بال حتى أتذكره .

ــ ان لها من الاسماء أكثر مما لديها من « الجونلات » ، ولست أدرى اى اسم منها الذى تفكرين فيه . فهم يسمونها « كوباريخا » و « ميدفديخا » ، و « زلايداريخا » ، ولا أدرى كم من الاسماء الاخرى ، الى جانب هذه . وهى الاخرى ليست موجودة ، فقد رحلت .. اختفت ! .. **لقد سجنوها فى سجن (كيجما) لمارستها الاجهاض وعمل حبوب ومساحيق من نوع معين . ولكنها تم تلبث ان سئمت السجن ـ كما يسهل عليك ان تتصورى ـ فجازفت ، وهربت من السجن ، ورحلت الى مكان ما من الشرق** . اؤكد لك ان كل امرىء قد هرب من البلدة : فلاس ، وتيريوشكا ، وخالتك « بوليا » .. بيلاجيا ذات القلب المحب ! .. لم تبق فى البلدة امرأة شريفة الا نحن الاثنتان ، لاننا حمقاوان ! .. فاذا حدث شىء ، فليس بوسعك أن تجدى طبيبا فى أى مكان ، مهما تبذلى من حب أو مال ! .. لست امزح ! .. فلم يبق لنا أى معونة طبية من أى نوع ! .. انهم يقولون ان هناك طبيبا فى (يورياتين) .. استاذ مشهور من (موسكو) ، ابن تاجر سيبيرى كان قد انتحر فيما مضى . ولكنى لم أكد أفكر فى ان أرسل فى استدعائه ، حتى قطع الحمر الطريق فى اثنى عشر موضعا ! ... والآن ، هيا الى فراشك ، وسأحاول ــ انا الاخرى ــ ان اظفر بقسط من النوم . وبهذه المناسبة ، أرى ان فتاك الطالب « بلاجيين » قد أدار رأسك .. ماجدوى ان تقولى : لا ؟.. ان وجهك قد تضرج حتى صار فى لون جذر اللفت .. لسوف يقضى الليل كله عاكفا على بعض صور أعطيته اياها ليحمضها . فيا للغلام المسكين ! .. انهم لاينامون فى ذلك المبنى ، ويستبقون غيرهم مؤرقين بسببهم ، فان كلبهم « توميك » لا يكف عن النباح ، وبوسعك أن تسمعيه فى طول البلدة وعرضها .. وان غرابنا التعس لينعق بكل ما أوتى من قوة ، فوق شجرة التفاح .. ويبدو أننى سأقضى ليلة أخرى مسهدة .. والآن ، فيم استياؤك ؟ .. لاتكونى مرهفة الحس

الى هذه الدرجة . فلماذا خلق الطلبة ان لم يكن لكى تقع الفتيات فى حبهم ؟!

— ٦ —

• — لماذا يعوى هذا الكلب ؟ .. اذهب فانظر ما الذى دهاه ، فليس من المعقول أن يحدث هذا الضجيج لغير ما سبب . انتظر لحظة يا ليدوتشكا ! الزم الصمت ، أيها اللعين ! .. لا بد لى من أن أتبين ماذا يجرى ، والا اثرنا البوليس علينا قبل أن نفطن الى شىء ! .. امكث هنا يا اوستين ، وانت يا سيفوبلوى . بوسعنا ان ندبر الامر بدونكم !

ولم يسمع ليدوتشكا — مندوب اللجنة المركزية — أمر زعيم المتطوعين الثوريين بأن يكف عن الحديث ، فمضى فى كلامه بصوته الخافت ، الرتيب ، الباعث على الملل :

— ان الحكم العسكرى البورجوازى فى سيبريا كفيل بأن يفتح أعين اولئك الذين لا يزالون يخدعون أنفسهم ، بفضل سياسته القائمة على النهب ، والاستيلاء ، والعنف ، والرمى بالرصاص ، والتعذيب ! .. فهو لا يبدى العداء للطبقة العاملة فحسب ، وانما يبديه — فى الواقع — لجميع الكادحين من أبناء الريف . ومن واجب الكادحين من أبناء الريف فى سيبريا وجبال الاورال أن يدركوا انه ليس أمامهم سوى التحالف مع الكادحين فى المدن ، ومع الجنود .. ليس أمامهم سوى التحالف مع فلاحى القرغيز وبوريات (١) البائسين .

وفطن ليدوتشكا أخيرا الى أن هناك من كان يقطع عليه الحديث ، فصمت ، وجفف بمنديله وجهه المنضح بالعرق ، وأغمض عينيه الكليلتين ، المتنفختين .

وهمس اليه أولئك الذين كانوا يقفون على مقربة منه : «استرح ! اشرب بعض الماء ! »

---

(١) احدى القبائل المنغولية فى سيبيريا .

واتجهت الهمسات الى زعيم المتطوعين الثوريين ، تطمئنه : « فيم كل هذا الصخب ؟ .. كل شيء على مايرام ، فان مصباح الاشارة لايزال فى النافذة ، و « المستطلع » ـ اذا جاز ان استخدم هذا التعبير البديع ـ لا يحول بصره عن الفضاء ، ولست أجد أى داع لنكف عن المضى فى المناقشة . استمر فى حديثك أيها الرفيق ليدوتشكا ! »

وكانت كتل الاخشاب الموضوعة تحت المظلة الكبيرة ، فى فناء الدار التى يقيم فيها المصورون ، قد نقلت جانبا ، وعقد الاجتماع غير المشروع فى الفضاء الذى توسط المساحة ، تحت المظلة .. وقد حجبه عن الحجرة المظلمة ، وعن مدخل المبنى ، جدار عال ـ بارتفاع السقف ـ من الكتل الخشبية . وكان ثمة سبيل للفرار ، فى حالة الطوارىء ، خلال باب مستتر يؤدى الى سرداب تحت الارض ، يفضى بدوره الى درب منعزل خلف الدير .

وكانت للخطيب بشرة داكنة فى لون الزيتون ، ولحية تمتد من احدى أذنيه الى الاذن الاخرى ، وقد ارتدى قلنسوة من الخيش الاسود على رأسه الاصلع . وكان يعانى من حال عصبية تنشط افراز العرق ، فهو دائما مبلل به . ولم تكن سيجارته تنفك عن الانطفاء ، فكان يعيد اشعالها بنهم ، من الوهج المتصاعد من مصباح البترول . وانحنى على أوراقه المتناثرة ، فتأملها فى انفعال ، بعينين قصيرتى البصر ، وكأنه يتشممها .. ثم استأنف حديثه بصوته الرتيب المضنى :

ـ ولا سبيل الى هذا التحالف بين فقراء المدن وفقراء الريف ، الا عن طريق مجالس السوفييت . ان الفلاح السيبيرى سيمضى نحو الغاية التى بدأ عمال سيبريا يكافحون من أجلها ، منذ زمن طويل ، سواء رغب أو لم يرغب فى ذلك . وهذه الغاية المشتركة هى رفع نير الحكم الاستبدادى الذى يفرضه « الاميرالات » والقادة القوزاق ، وتوطيد سلطان الفلاحين والجنود السوفييت ، بفضل ثورة مسلحة . وبمكافحة مأجورى البورجوازية من الضباط



والقوزاق ، المدججين بالاسلحة حتى أذقانهم، سيكون على المتمردين أن يخوضوا حربا حامية .. وسيكون الصراع طويلا ، وشاقا .

وتوقف عن الحديث مرة أخرى، فمسح وجهه ، وأغمض عينيه . وهب أحد الحضور واقفا - منتهكا بذلك قواعد الاجتماع - ورفع يده طالبا الاذن له بأن يدلى بتعليق ..

* * *

وكان زعيم المتطوعين الثوريين ، أو - بتعبير أدق - قائد فريق (كيجما) من وحدات العصابات فى جبال الاورال ، يجلس فى استخفاف واستهتار مثيرين ، أمام الخطيب مباشرة . وقد دأب على مقاطعته بأوقح لهجة ، ولم يبد له أى احترام البتة . وكان من العسير أن يصدق المرء أن عسكريا فى مثل سنه الصغيرة - اذ لم يكن قد تجاوز سن الفتيان بكثير - يتولى أمر جيوش كاملة ، وان جنوده كانوا يطيعونه ويتطلعون اليه فى اكبار وتوقير . وكان يجلس وقد لف يديه وقدميه فى اطراف معطف الفرسان الفضفاض الذى كان يرتديه ، وطوح برأسه الى مسند مقعده ، وكشف عن ثوبه

العسكرى ، وقد بدت على كتفيه لطخ داكنة خلفتها الاشارات الكتفية « الايبوليت » التى نزعت من مكانها .

وكان يقف الى كل من جانبيه حارس صامت ، فى مثل سنه ، وقد ارتدى معطفا من جلد الغنم الابيض ، استحال لونه الى سمرة خفيفة ، وقد حف بأطرافه وبر مجعد . ولم يكن وجهاهما المليحان، الجامدان كالصخر ، ليشيا بشىء أللهم الا الولاء الاعمى لرئيسهما ، والاستعداد لخدمته ، مهما يكلفهما هذا من ثمن . ولم يتكلما ، ولا ابتسما ، ولا اشتركا فى شىء من النقاش ، ولا اهتزا لاى موضوع أثير خلاله .

وكان فى الحجرة اثنا عشر، أو خمسة عشر شخصا آخر ، بعضهم وقوف ، وبعضهم جلوس على الارض ، وقد استندوا الى الجدار الذى تألف من كتل خشبية مطلية بالقار ، وامتدت سيقانهم أمامهم، او انثنت ركبهم تحت أذقانهم .. وكان بينهم ثلاثة أو أربعة ضيوف شرف ، جلسوا على مقاعد .. كانوا من العمال القدامى ، والطلائع التى خاضت غمار ثورة سنة ١٩٠٥ . وكان « تيفرزين » بينهم ، وقد بدا عابسا ، وألم به تبدل كبير عما كان عليه فى (موسكو) ، فيما مضى .. وكذلك كان بينهم صديقه « انتيبوف » الشيخ ، الذى كان يقر ـ على الدوام ـ كل كلمة يقولها .. وكان هؤلاء الضيوف يجلسون ساكنين ، عابسين كالاصنام ، اذ كانوا يعدون بين الارباب الذين ألقت الثورة عند أقدامهم عطاياها وقرابينها المشتعلة .. كانوا رجالا طرد الغرور السياسى منهم كل خلة حيوية وانسانية !

وكانت فى الحجرة اشكال أخرى تستحق الاهتمام ، كذلك القطب من أقطاب الفوضوية الروسية « فدوفيتشينكو » ، الذى كان يلقب بـ « الراية السوداء » .. ولم يكن يستقر لحظة فى مكان ، فهو لا يفتأ يجلس على الارض ، ثم ينهض ثانية فيذرع المكان جيئة وذهابا ، ثم يقف فى وسط الحظيرة .. كان رجلا عملاقا ، بدينا ، كبير الرأس ، واسع الفم ، ذا شعر كأنه لبدة الاسد . وقد كان

ضابطا فى الحرب مع اليابان ، ان لم يكن فى الحرب التى سبقتها مع تركيا .. وكان حالما ، يستغرق ابدا فى أوهامه وخيالاته . ونظرا لما فطر عليه من أفق محدود ، ولحجمه الهائل الذى كان يحول بينه وبين الانتباه الى كل ماهو أصغر منه حجما ، فانه لم يحرص على أن يبدى انتباها كافيا لما كان يجرى من حديث ، فأساء فهم كل ماقيل، وحمل آراء معارضيه على انها آراؤه ، فراح يوافق على كل شىء !

والى جواره على الارض ، كان يجلس « سفيريد » ، وهو أحد القناصة . ومع انه لم يكن ممن يفلحون الارض ، الا أن صلته بالفلاحين والتربة كانت تتجلى خلال فتحة قميصه الداكن ، الذى لم يكن ينفك عن شد قبضته عليه وعلى الصليب الذى كان يتدلى من سلسلة حول عنقه ، فيجذب طرفى فتحة القميص جانبا ، ليحك صدره بالصليب . وكان ينتمى - خلال أحد ابويه - الى « البوريات » ، وقد أوتى قلبا حارا .. وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ذا شعر خفيف مجعد ، وشاربين غير كثيفين ، ولحية أقل منهما شعرا .. وكان وجهه يتجعد دائما فى ابتسامة ، وقسماته المنغولية تبديه أكبر من سنه الحقيقية .

وأخذ الخطيب - الذى كان يطوف بسيبريا فى مهمة عسكرية أوفدته فيها اللجنة المركزية - يستعرض فى ذهنه المساحة الشاسعة التى مازال أمامه أن يقطعها .. ولم يكن يجد فى معظم الرجال - الذين كان يخطب فيهم - ما يثير اهتمامه ، ولكنه كثورى قديم - منذ طفولته - وكبطل من أبطال الشعب ، راح يحدق بنظرات يكاد الاعجاب يطغى عليها ، فى القائد الشاب الذى كان يجلس أمامه . فهو لم يغفر له فحسب ذلك النقص فى مسلكه ، الذى اعتبره مظهرا لطبيعة ثورية صادقة ، وانما شعر باغتباط لوقاحته ، كما تغتبط امرأة مفتونة ، بما يبديه لها عاشق مستبد من خشونة مجردة من كل حياء !

وكان قائد المتطوعين الثوريين هو « ليبريوس » ، ابن ميكوليتسين .. أما الخطيب ، فكان عضوا سابقا فى حزب العمال التعاونى ،

يدعى « كوستويد أمورسكى » ، وكان ثوريا اشتراكيا ذات يوم ، وقد نقح آراءه ووجهات نظره ، وأقر بأخطائه الماضية ونبذها فى عدد من البيانات المفصلة ، فلم يقبل عضوا فى الحزب الشيوعى فحسب ، بل انه لم يلبث ان اضطلع ــ بعد ذلك ــ بالمهمة ذات المسئولية ، التى كان يقوم بها فى الفترة الراهنة . ولقد أختير لها ــ بالرغم من انه لم يكن أكثر من جندى ــ كتحية للسنوات الطويلة التى قضاها فى الجهاد الثورى ، وللمحن التى عاناها فى السجون القيصرية ، من ناحية ، وللاعتقاد بأنه ــ كعضو سابق فى الحزب التعاونى ــ كان يعرف طباع الجماهير الريفية فى مناطق سيبريا المتمردة ، من ناحية أخرى . وقد اعتبرت هذه المعرفة المزعومة أهم ــ بالنسبة للغرض المرجو من بعثته ــ من الخبرة العسكرية .

ولقد بدل انقلاب معتقداته السياسية من مظهره ومسلكه بدرجة تفوق التصور . فما تذكر عنه أحد أنه كان أصلع أو ذا لحية فى الايام الخالية .. ومع ذلك ، فربما كان كل هذا من قبيل التنكر والاستخفاء ، اذ كان يخضع لاوامر صارمة من الحزب بأن يظل مستخفيا ! .. وكان اسمه فى الحركة السرية : « بيريندى » ، أو « الرفيق ليدوتشكا » .

* * *

وحدث هرج قصير ، أثاره تهور « فدوفيتشينكو » اذ صرح بأنه قد وافق على تعليمات اللجنة المركزية التى قرئت اذ ذاك . فلما تبدد الهرج ، استطرد كوستويد قائلا :

ــ ولاحتضان حركة الكتل الريفية المطردة النمو ، على أوسع نطاق ممكن ، لا بد من توطيد الاتصال فورا بوحدات جنود العصابات التى تعمل فى الاراضى التابعة للجنة الاقليمية للحزب .

ثم تحدث عن التدابير المتعلقة بأماكن الاجتماعات السرية ، وكلمات المرور ، والشفرات ، ووسائل تبادل المخاطبات ، وأسهب فى وصف تفصيلات كل ذلك .. ومضى قائلا : « يجب أن تكون الوحدات على

علم بمواقع مخازن الاسلحة والمهمات التى تمت للبيض ، وبالمراكز التى يحتفظون فيها بمبالغ كبيرة من المال ، وكذلك بالاحتياطات التى تتخذ لتأمين سلامتهم .. ومن الضرورى أن تدبر ادق تفصيلات المسائل المتعلقة بتنظيم فصائل العصابات ، وقادتها ، والنظام الذى يخضع له الرفاق فى الحرب ، والنشاط التآمرى ، والاتصال بالعالم الخارجى ، والسلوك نحو الاهالى ، ومحاكم الميدان الثورية الحربية ، والاساليب الفنية لاعمال التخريب فى أرض العدو ، مثل تدمير الجسور ، وخطوط السكك الحديدية ، والبواخر ، و « صنادل » النقل ، والمحطات ، و « الورش » بكل أجهزتها الفنية ، ومكاتب البرق ، والمناجم ، والامدادات الغذائية .. وهذا من قبيل التمثيل لا الحصر » .

ولم يعد « ليبريوس » يحتمل أكثر من ذلك . فقد لاح له كل ما قيل وكأنه أحلام هاو ، فهى خلو من اية علاقة عملية بعمله .. فقال : « انها محاضرة بديعة جدا ، وسأستوعبها عن ظهر قلب . أظن ان علينا ان نتقبل كل هذا بدون كلمة اعتراض ، اللهم الا اذا كنا راغبين فى أن نفقد تأييد الجيش الاحمر ؟ »

ـ لا بد لكم من تقبلها طبعا .

ـ وماذا ترانى فاعلا بقيودكم هذه ـ التى تشبه القيود التى تفرضها المدارس على تلاميذها ـ يا عزيزى ليدوتشكا ، اذا كانت قواتى ـ واغمض عينيك عنها ، فهى ثلاث كتائب تضم مدفعية وفرسانا ـ قد ظلت تقوم بحملات لشهور عدة ، وتعمل جاهدة على تقويض العدو ؟

وقال كوستويد فى سريرته : « ما اروع ذلك !.. يا لها من قوة ! »

وقطع تيفرزين حبل النقاش ، فقد كان يمقت لهجة ليبريوس المتعجرفة ، فقال: «معذرة أيها الرفيق الخطيب، فهناك شىء أغلق على فهمه .. ولعلنى كتبت احدى نقاط التعليمات على غير صحتها ،

فهل لى أن اقرأها عليك ، اذ احب ان اكون مطمئنا : « من المرغوب فيه الى حد كبير اجتذاب المحاربين القدامى ، الذين كانوا فى الجبهة ، والذين كانوا ينتمون الى منظمات الجنود عندما قامت الثورة ، ومن المستحب أن تضم عضوية اللجنة واحدا او اثنين من ضباط الصف ، وواحدا من الفنيين العسكريين » .. فهل ترانى كتبتها صحيحة أيها الرفيق الخطيب ؟ »

ـ صحيحة تماما .. بنصها ، كلمة كلمة !

ـ اذن فاسمح لى بأن أقول هذا : اننى ارى ان النقطة الخاصة بالاخصائيين العسكريين لا تبعث على الاطمئنان . فنحن ـ معشر العمال الذين اشتركوا فى ثورة سنة ١٩٠٥ ـ لم نعتد أن نركن الى رجال الجيش أو نثق فيهم ، فان بينهم دائما عناصر مناهضة للثورة .

وتصاعدت صيحات : « هذا يكفى ! .. القرار ! لنتخذ قرارا ! .. لقد آن لنا أن نعود الى بيوتنا ، اذ اننا فى وقت متأخر ! »

وقال فدوفيتشينكو فى صوت ذى هدير عميق : « اننى اتفق مع الاغلبية . واذا استخدمنا تعبيرا شاعريا ، امكن القول بأن النظم والتشريعات المدنية يجب أن تقوم على الديموقراطية .. يجب أن تنبت من تحت ، كالنبات الذى غرست بذرته فى الارض ونمت جذوره فى التربة . وليس بوسعكم أن تدقوا النبات ـ من فوق ـ بالمطرقة ليستقر فى الارض ، كعصي وقوائم السياج . لقد كانت هذه بالذات غلطة ديكتاتورية اليعاقبة (١) ، والسبب الذى من أجله استطاع الثورميدوريون ان يسحقوا المجمع الوطنى (٢) » . فقال « سفيريد » ـ صديقه الذى كان يتبعه فى شطحاته ـ يعزز رأيه :

---

(١) كان اليعاقبة هم غلاة المتطرفين فى الديموقراطية ، فى الثورة الفرنسية .

(٢) الثورميدوريون هم الذين قاموا بانقلاب فى ٩ ثورميدور ـ وهو بتقويم الثورة الفرنسية يقابل جزءا من يوليو وجزءا من اغسطس ـ سنة ١٧٩٤ ، فأقصى أنصار الاعتدال ، واطلاق العنان لأنصار العنف والارهاب .

« انه لامر واضح وضوح ضوء النهار ، وبوسع أى طفل صغير ان يتبينه . وكان جديرا بنا ان نفكر فيه قبل الآن ، فقد تأخرنا عن الفرصة المناسبة ، وأصبحت مهمتنا الآن قاصرة على أن نقاتل وان نمضى فى طريقنا مهما تكن العواقب . والا ، فكيف ننكص على أعقابنا بعد اذ بدأنا ؟ .. لقد اخترنا طريقنا ، فعلينا ان نمضى فيه » .

وأخذ الحضور يصيحون – من كل جانب – مرددين : « القرار ! .. القرار ! »

واستمروا فى الكلام فترة أخرى ، ولكن كل ما قالوه كان يبعد شيئا فشيئا عن كل معنى وقيمة . وما لبث الاجتماع ان انفض أخيرا ، عند الفجر . فانصرفوا الى بيوتهم واحدا بعد واحد ، متخذين الاحتياطات المعتادة .

— ٧ —

• كان ثمة مكان بديع المنظر ، على الطريق الخلوى ، حيث يفصل نهر (باجينكا) الصغير ، السريع الجريان ، بين قريتى (كوتينى بوساد) و (مالى يرمولاى) ، وقد امتدت احداهما منحدرة على سفح التل ، وتناثرت الاخرى فى الوادى الذى يقع أسفله . وكانت هناك حفلة أقيمت فى (كوتينى) لتوديع المجندين الذين عبأهم الاميرال كولشاك ، كما أن اللجنة الطبية فى (يرمولاى) – تحت رئاسة الكولونيل « ستريسه » – استأنفت بعد عطلة عيد الفصح فحص أولئك الصالحين للتجنيد ، من أبناء المنطقة . وكان الفرسان من « المليشيا » و « القوزاق » يعسكرون فى القرية لهذه المناسبة .

وكان اليوم الثالث من أيام أسبوع الفصح الذى تأخر عن المعتاد ، فى ربيع مبكر حار ، خاليا من أية نسمة ، على غير المعتاد كذلك . ومدت الموائد محملة بالطعام والشراب للمجندين ، فى العراء ، تحت قبة السماء – فى (كوتيينى) – على بعد قليل من الطريق الخلوى ، حتى لا تسد سبيل المرور . وكانت الموائد قد وضعت متلاصقة – وان لم تكن فى خط مستقيم تمام الاستقامة – وغطيت بأغطية

بيضاء تدلت الى الارض ، فبدت متعرجة وهى تنحدر بانحدار الشارع الرئيسى للقرية ، وكأنها عقد طويل من « السجق » الابيض .

وكان أهل القرية قد جمعوا مواردهم ليفوا بمطالب الحفلة ، فاذا الاصناف الرئيسية من الطعام هى بقايا غداء عيد الفصح : طبقان من لحم الخنزير المدخن ، وعدة أطباق من «كوليش» و «الباشقا» (١) . وعلى مسافات متفاوتة ، على الموائد جميعا ، كانت ثمة اوعية مليئة بالفطر والخيار والكرنب المخلل ، وصحاف بها خبز بيتى قطع الى كتل سميكة ، وأطباق مترعة ببيض عيد الفصح . وكان معظم البيض مصبوغا باللون الوردى او الازرق الزاهى .

وتناثر على العشب الحديث النمو ـ حول الموائد ـ قشر البيض، بين وردى وأزرقزاه محوط بحواف بيضاء . وكذلك كانت أقمصة الرجال وثياب الفتيات ، بين وردية وزرقاء زاهية .. كما كانت تمخر عباب السماء الزرقاء سحب وردية ، أخذت تتهادى فى بطء وجلال ، وكأنما كانت السماء تتحرك معها !

وهبط « فلاس جالوزين » درجات سلم دار « بافنوتكين » ـ على السفح الذى كان يعلو الطريق الخلوية مباشرة ـ وقد ارتدى قميصا ورديا ، وحزاما من الحرير ، وراح يحرك أصابع قدميه يمنة ويسرة .. وجرى نحو الموائد ، وشرع يلقى خطابه :

« أما وقد أعوزتنا الشمبانيا ، فانى اشرب تحية لكم ـ أيها الفتيان ـ « فودكا » بيتية ، متمنيا حياة طويلة وسنين سعيدة لكم أيها الشبان الذين تعتزمون الرحيل اليوم . ولكم كنت أرجو ان اتيح لكم انخابا عديدة اخرى .

« أيها السادة المجندون ، هلا أصغيتم الى ! .. ان طريق الصليب (٢) الذى يمتد أمامكم ، هو الدفاع عن وطننا ضد الغاصبين

---

(١) « الكوليش » : نوع من الفطائر الكبيرة .. و « الباشقا » حلوى تصنع من الجبن الحلو (الحلوم) والسكر والزبيب ، وتصاغ على شكل هرم ، وتزين بالسكر المتبلور ، وتقدم مع فطور يوم أحد الفصح دلالة على انتهاء فترة الصوم الكبير .

(٢) يقصد طريق الجهاد الذى يباركه الدين .

السفاكين الذين يغرقون الحقول بدماء الاخـوة . لقد كان الشعب يصبو الى الامل فى أن يناقش فتوح الثورة بروح سلمية ، ولـكن حزب البلاشفة ـ عبيـد الاموال الاجنبيـة ـ شـتتوا الجمعية التأسيسية التى كانت أسمى أمل لدى الشعب ، بقوة الحـراب الغاشمة (١) . وأصـبح دم المستضعفين ـ الذين بـلا دفاع ـ يتدفق كالنهر .

« أيها الشبان المنطلقون اليوم ، ان شرف أسلحتنا المهيض امانة فى اعناقكم ! .. لقد جللنا انفسنا بالخزى ، وانا لمدينون لحلفائنا الشهماء . ذلك لاننا لسنا أمام الحمر وحـدهم ، بل ان ألمـانيا والنمسا قد عادتا ترفعان رأسيهما الوقحين من جديد . ان الله معنا أيها الفتيان ... »

وكان لا يزال سادرا فى الكلام ، حين طغى التهليل والهتاف على صوته ، فرفع كأسه المليئة بالفودكا الثقيلة الى شفتيه ، ورشف رشفة . ولكنه لم يستمرئها ، فقد كان يفضل عليها النبيذ ، وكان يألف النكهات الشذية . ولكن الشعور بأنه كان يضحى من أجل الصالح العام ، ملأ صدره رضاء !

* * *

وقال « جوشكا ريابيخ » فى صوت مترنح ، وسط الصخب الذى اثاره الشراب حول المائدة ، لصديقه «تيريوشكا» ـ تيرينتى جالوزين ـ الذى كان يجلس بجواره : « ان شيخكم لعظيم فى الخطابة ، حتى ان ميليوكوف لا يقارن به ، وحق الله ! .. انه لرجل رائع حقا ! .. على اننى لا احسبه يعمل بكل هذا الجد لغير ما شىء ، وأتوقع انه سيخدعك من التعبئة كجزاء له . »

ـ خسئت يا جوشكا ! كيف يدور بخلدك أمر كهذا ؟ .. يخلصنى

---

(١) الأصل : بقوة السونكيات ، جمع « سونكى » ، وهو السلاح الأبيض الذى يثبت فى مقدمة البندقية أثناء الالتحامات .

من التجنيد حقا ؟ ! .. بودى ان اراه يسعى لذلك ! .. لسوف أتسلم أوراقى فى ذات اليوم الذى تتسلم فيه اوراقك ، وسوف تتبين ذلك . ولسوف نخدم فى وحدة واحدة ... لقد طردونى من المدرسة ، أولاد الحرام ! ان أمى لتفرى قلبها من أجلى ، واحسب اننى لن استطيع الآن ان اصبح ضابطا .. ان ابى يعرف فعلا كيف يتحدث ويخطب ، وهو يجيد فى كل مرة . واغرب ما فى الاسر أنها هبة فطرية لديه ، فهو لم يتعلم البتة !

ـ هل سمعت عن (سانكا بافنوتكين) ؟

ـ أجل . أهو حقا مرض شديد العدوى ؟

ـ لا شفاء منه، وعليه ان يحتمله الى ان يقضى عليه . ان الذنب ذنبه ، فقد حذرناه من الذهاب .. ان عليك أن تكون جد حريص فى انتقاء من تختلط بهم !

ـ وما الذى سيجرى له الآن يا جوشكا ؟

ـ انها حال فظيعة . لقد أراد أن يطلق الرصاص على نفسه . ولقد استدعى للخدمة ، وهو الآن فى الفحص الطبى فى (يرمولاى) ، وأحسبهم سيأخذونه . وكان يقول ـ قبل ذلك ـ انه سيهرب وينضم الى العصابات « لينتقم من علل المجتمع » !

ـ انك لتعلم يا جوشكا انك تتكلم عن مرض معد .. ولكنك قد تصاب بمرض آخر ، اذا لم تذهب اليهم .

ـ أعرف ما ترمى اليه ، وان مظهرك ليشى بأنك قد أصبت به . على ان هذا ليس مرضا ، وانما هو رذيلة سرية !

ـ لسوف أهشم أنفك جزاء قولك مثل هذه الامور يا جوشكا ! انها للهجة بديعة تخاطب بها صديقا ، أيها المفسود الكذوب !

ـ هدىء من غضبك ، فما كانت هذه سوى مزحة . انما اردت أن أقول لك اننى ذهبت الى (باجينسك) فى عيد الفصح ، وكان هناك محاضر جد ظريف .. واحد من الفوضويين . وقد تكلم عن « تحرير الشخصية » ، وقد استمرأت حديثه ، اذ كانت مادته طيبة . ولسوف انضم الى الفوضويين .. لقد قال ان هناك قوة

داخلية فى نفوسنا ، وان من الواجب ايقاظها .. قال ان الجنس والخلق هما مظهرا الكهربائية الحيوانية . ما قولك فى هذا ؟ .. لقد كان عبقريا .. ان فحيح الذين يطالبوننى بالصمت يتزايد . ان الناس يصرخون من أعماق رؤوسهم من كل ناحية ، وهذا يكفى لان يصيب المرء بالصمم . ليس بوسعى ان أحتمل ، فاصمت يا « ترينيتى » ، واشرب !

ـ فليكن ، ولكن اخبرنى أولا بأمر واحد يا جوشكا ! .. اننى لا أفقه بعد كل تلك الكلمات عن الاشتراكية ، ماذا يقصد بـ « سابوتاجنيك » مثلا ؟ (١) .. ما معناها ؟

ـ اننى خبير بكل هذه الكلمات ، ولكنى أصارحك يا ترينيتى بأننى ثمل ، فدعنى وشأنى . ان « سابوتاجنيك » معناها الشخص الذى ينتمى الى نفس العصابة . أليست « فاتاجا » تعنى عصابة ؟ .. حسنا ، اذا قلت « سافاتجنيك » ، فمعناها انك تنتمى الى نفس « الفاتاجا » . أتفهم أيها الغبى ؟

ـ هذا عين ما ظننت .. كلمة سباب ! .. ولكنك كنت تتكلم عن تلك القوة الكهربائية . لقد سمعت عنها ، وكنت أفكر فى أن أطلب حزاما كهربائيا للفتق من (بطرسبورج) ، رأيته فى اعلان .. والثمن نقدا . وقد جاء فى الاعلان : « لكى تزيد قوتك » . على أنه كانت ثمة ثورة أخرى ، ومن ثم فقد كانت هناك أمور أخرى تشغل الفكر ..

ولم يتم « ترينيتى » عبارته ، فقد طغى على ضجيج الاصوات الثملة حول المائدة صوت انفجار عال ، مدو ، غير بعيد . ثم سكت لحظة ، وما لبث أن أعقبه انفجار أعلى دويا وادعى للاضطراب من ذى قبل . وقفز بعض الناس عن مقاعدهم ، فبقى منهم على أقدامهم أولئك الذين كانوا أقل اضطرابا وتأثرا بالخمر . وحاول آخرون أن

---

(١) Sabotazhnik : أى الفدائى الذى يقوم بعمليات التخريب .

يجروا اقدامهم ليهربوا مترنحين ، ولكنهم ارتموا تحت المائدة ، وأخذوا يغطون ! .. وراحت النسوة يولولن .. وحدث هرج عام .

* * *

ووقف « فلاس » يتطلع حوله بحثا عن الجانى . وبدا له – فى اللحظات الاولى – ان الانفجار انبعث من مكان ما من القرية ، بل لعله كان من مكان جد قريب من الموائد . وانتصبت العروق فى عنقه ، واحتقن وجهه ، وصاح مزمجرا : « من هو « اليهوذا » الذى فى صفوفنا ؟ (١) .. من الذى ارتكب هذا العمل الشنيع ؟ من الذى كان يعبث بقنابل يدوية هنا ؟ .. نسوف أخنقه بيدى ، هذا الافعوان ، ولو كان ابنى . أيها المواطنون ، اننا لن نسمح لاى امرىء بأن يسخر منا ويعبث بنا . يجب أن نحاصر القرية ، وسوف نعثر على الشقى ، ولن ندعه يهرب ! »

واصغوا اليه فى بادىء الامر ، ثم اتجه اهتمامهم الى عمود من الدخان الاسود ، أخذ يتصاعد ببطء نحو السماء ، منسابا من دار القيادة الاقليمية للمنطقة ، فى (مالى يرمولاى) ، فاندفعوا الى حافة الوادى ، يرسلون البصر عبر النهر ليتبينوا ما كان يجرى هناك .

كان المبنى يحترق ، وقد خرج منه عدد من المجندين – بينهم واحد حافى القدمين ، عار الا من سروال – مهرعين ، مع الكولونيل « ستريسه » وضباط غيره من لجنة الفرز . وراح فرسان القوزاق والمليشيا يذرعون القرية جيئة وذهابا بحثا عن شخص ما ، وقد انحنوا على سروجهم ، وأخذوا يلوحون بسياطهم ، والجياد تتلوى تحتهم كأنها ثعابين .. وكان كثير من الناس يجرون فى الطريق الخلوى نحو (كوتيينى) ، تتبعهم دقات نواقيس الكنيسة الصاخبة ، الملحاحة ، التى كانت تنذر بالخطر .

وتطور الموقف بسرعة رهيبة . فعند الغسق ، بدا أن الكولونيل

---

(١) كناية عن الخائن ، فقد كان « يهوذا » هو الذى غدر بالسيد المسيح .

« ستريسه » قد أيقن من أن صيده (١) قد غادر (يرمولاى) ، فركب مع فرسانه القوزاق الى (كوتيينى) ، وطوقوا القرية بدوريات منهم ، ثم شرعوا يفتشون فى كل كوخ وكل بيت .

وكان نصف المجندين قد غابوا عن الدنيا ، فى تلك الاثناء . فقد مكثوا فى مكان الحفلة ، واستسلموا للنوم متهالكين على الارض ، أو مسندين رؤوسهم الى الموائد ، وهم يغطون . وكان الظلام قد لف القرية عندما انتشر نبأ وجود « الميليشيا » فيها .

وأطلق كثير من الشبان — بينهم ترينيتى وجوشكا — لسيقانهم العنان ، شاقين سبيلهم خلال الساحات الخلفية للبيوت ، الى أقرب مخزن للغلال ، ثم راحوا يتراكلون ويتدافعون ، ليزحفوا الى ما تحت الارض ، خلال ثغرة ضيقة فى أسفل سياج المخزن . ولم يكونوا — فى غبشة الظلام وغمرة الاضطراب — قد تبينوا لمن هذا المخزن ، ولكنهم لم يلبثوا ان حكموا — على هدى رائحة السمك المجفف والبترول — ان مخزن الغلال كان مخزنا يستخدمه بدال القرية لاختزان سلعه ، كما تراءى لهم . ولم يكن لدى الشبان مايحرج ضمائرهم ، فكان من الغباء ان يختبئوا .. بل ان معظمهم جروا هاربين تحت وحى اللحظة ، لانهم كانوا سكارى ، وقد فقدوا قدرتهم على التفكير . على ان فئة قليلة منهم ظلوا متلازمين ، الامر الذى لم يلبث ان لاح لهم منطويا على اتهام ، بل انهم خشوا أن يؤدى — اذا ماتكشف — الى هلاكهم . فمن الصحيح ان زملاءهم لم يكونوا أكثر من عربيدين ، ولكن أحدا لم يكن يدرى قط ماتخبئه الظروف ، فان أى شىء قد يكتسب مسحة سياسية ، فى هذه الايام . ولقد كانت العربدة تعتبر دليلا على انتكاسة رجعية سوداء فى المنطقة السوفييتية، فى حين انها كانت تعد — فى المنطقة البيضاء — لونا من البلشفية !

ووجدوا أنهم لم يكونوا وحيدين فى المخزن ، فان غيرهم كانوا

---

(١) المقصود بالصيد هو الجانى الذى تسبب فى الانفجار .

قد سبقوهم اليه ، فاذا الفراغ الذى بين الارض والسقف قد ازدحم بأناس من القريتين معا . وكان أولئك الذين من (كوتيينى) سكارى تماما ، بعضهم يغط ، وبعضهم يصر على أسنانه ويئن أثناء نومه ، وبعضهم يعانى الغثيان . وكان الظلام دامسا ، والمكان خاليا من الهواء ، والروائح التى ملأته فظيعة . وكان آخر الذين وصلوا قد سدوا الثغرة التى فى السياج ، ليحفوا مخبأهم عن الذين فى الخارج .. وبعد فترة من الزمن ، انقطع الغطيط والانين ، واستغرق السكارى فى نوم عميق هادىء ، وساد السكون التام ، اللهم الا من همسات ملحاحة كانت تنبعث من أحد الاركان ، حيث كان تريبتى وجوشكا منكمشين — فى ذعر — مع « كوسكا » .. وهو فتى شرس ، مشاكس ، من (يرمولاى) .

وراح كوسكا يقول : « لا ترفع صوتك هكذا ، والا كشفت عن مكاننا أيها الشيطان ذو الانف السائل المخاط ! .. ألا تسمع ؟ ان رجال ستريسه يروحون ويغدون فى الخارج . لقد وصلوا الى نهاية الشارع ، وها هم اولاء راجعون .. ها هم اولاء . لا تتنفس والا خنقتك ! .. من حسن حظك انهم انصرفوا .. ما الذى دفعك الى المجىء الى هنا ، بحق الشيطان ؟ .. ما الذى يدعوك الى الاختباء أيها الغبى ؟ .. أى مخلوق على الارض كان يملك أن يشير اليك بأصبع ؟ »

— لقد سمعت جوشكا يصرخ : « اختبىء ! » ، فزحفت الى هنا .

— ان لدى جوشكا من الاسباب القوية مايدعوه الى الاختباء ، فان أسرته عن بكرة أبيها فى محنة .. انهم جميعا محوطون بالشبهات . فان لهم أقارب يعملون فى « ورش » السكك الحديدية فى (خوداتسكوى) ، وهذا هو السر .. لا تتململ ، بل ابق ساكنا أيها الاحمق . لقد ظل الناس يتبولون ويتقيأون فى طول المكان وعرضه ، فاذا أنت تحركت ، نثرت علينا جميعا الاوساخ . الا تشم الروائح الكريهة ؟ .. أتعرف السبب الذى من أجله يجوب

« ستريسه » القرية ؟ انه يبحث عن اناس من خارجهـا .. من (باجينسك) .. هذا كل مايفعل !

ـ وكيف حدث كل هذا يا كوسكا ؟ .. كيف بدأ الامر كله ؟

ـ ان « سانكا » هو الذى بدأه .. « سانكا بافنوتكين » . لقد كنا جميعا فى ادارة التجنيد ، وقد اصطففنا عـرايا ، فى انتظار الطبيب . فلما حان دور « سـانكا » ، أبى أن يخلع ثيابه . كان قد أفرط فى الشراب ـ بعض الشىء ـ عندما اقبل الى الادارة .. وأمره الموظف بأدب ان يخلع ثيابه ، وقد ذهب فى تأدبه الى درجة انه كان يخاطبه بـ « حضرتك » ، ولـكن « سـانكا » صرخ بأعلى صـوته : « لن أخلع ثيـابى .. لن أكشف عورتى امـام النـاس جميعـا ! » .. وكأنه كان مستحييا ! .. وما لبث ان انقض على الموظف ، ولكمه فى فكه . وصدقنى اذا قلت لك ان « سانكا » انحنى ـ فى لمح البصر ـ فأمسك بمكتب الموظف من قوائمه ، وقلبه رأسا على عقب ، فهـوى على الارض ـ بكل ما كان عليه من محبرة ، وقوائم الجيش ، وكل شىء ـ فى ضجـة مزعجة ! .. واذ ذاك ، أقبل ستريسه صائحا : « اننى لن أسـكت عن أى عربيـد ، ولن أقبل اية ثورة بلا دم هنا . سأعلمكم كيف تحترمون القانون فى مكان رسمى كهذا ! .. من زعيم العصابة ؟ »

« وهنا صرخ سانكا : « التقطوا ثيابكم أيها الرفاق ، فقـد انتهى عهدهم بنا ! » . وذهب الى النافذة ، وهشم زجاجها بقبضة يده . والتقطت ثيابى ، وهرعت خلفه ، وانا أرتديها أثناء الجرى . واندفع الى الخارج ، فانطلق فى الشارع كأنه الريح ، ومضيت خلفه ، وتبعنا واحد أو اثنان غيرنا . ورحنا نجرى بكل ما فى سيقاننا من سرعة ، فأقبلوا خلفنا يصرخون ويصيحون .. أما اذا سـألتنى عن سبب هذا كله ، فليس فى وسع امرىء أن يعرف له أولا ولا آخرا ! » .

ـ ولكن ، ما قصة القنبلة ؟

ـ ما شأنها ؟

ـ اقصد : من الذى ألقاها ؟ .. القنبلة ، او القذيفة اليدوية ، او كيفما تكن !

ـ رحماك يا رب ! .. ما أحسبك تظن اننا ألقيناها ؟

ـ اذن فمن الذى فعل ؟

ـ وكيف لى أن أعرف ؟ .. لابد ان الذى ألقاها شخص ما .. شخص رأى كل هذا الهرج يجرى ، فقال فى نفسه : « لماذا لا انسف المكان كله على رؤوس أصحابه ، فى غمرة هذا الصخب ؟ .. انهم سيلقون الشبهات على غيرى ! » . لابد أنه شخص « سياسى » .. واحد من أولئك « السياسيين » ، من (باجنيسك) ، فان ذلك المكان ملىء بهم .. صه ! اصمت ! ألا تسمع ؟ .. ان رجال ستريسه عائدون . لسوف تكون هذه نهايتنا . قلت لك الزم السكون !

وسمعت أصوات تقترب فى الشارع ، وصرير أحذية ضخمة ، وصلصلة المهاميز . وانبعث صوت حاد آمر ، يتكلم بلهجة أهل (بطرسبورج) الدقيقة النطق بمخارج الكلمات .. صوت الكولونيل : « لا تجادل ! لن تستطيع أن تغرر بى . اننى واثق من أن شخصا ما كان يتكلم فى هذا المكان ! »

ومضى عمدة قرية (يرمولاى) ـ وهو صياد شيخ يدعى « اوتفياجستين » يجادل : « لابد انه خيل لسعادتك ـ من قبيل الوهم ـ انك تسمع حديثا . ثم ما الذى يمنع أهل القرية من أن يتكلموا ؟ .. انهم ليسوا فى حرم كنيسة . لعلهم كانوا يتحدثون ، فان البيوت مليئة بالناس . والناس ليسوا حيوانات أعجمية .. أو لعل الشيطان كان يهز شخصا ما فى نومه » !

ـ وبعد ؟ ! .. كف عن تمثيل دور غبى القرية ! الشيطان بعينه ؟ ! .. أرى أنكم جميعا تكبرون دون أن تكبر عقولكم ، فى هذا

المكان . لسوف تزداد مهارة وذكاء ، ولن تلبث أن تتكلم فى البلشفية بعد ذلك !

ــ أللهم ارحمنا ! .. كيف تقول هذا القول يا صاحب السعادة .. يا سيدى الكولونيل ! .. ان أهل قريتنا سذج ، وجهلة ، لا يستطيعون القراءة .. ولو فى كتاب الصلوات ! .. فما الذى يبتغونه من البلشفية ؟

ــ هكذا تقولون جميعا ، الى أن ينكشف أمركم وانتم متلبسون .. مر بتفتيش هذا الحانوت من أعلاه الى أسفله .. اخرجوا كل شىء فيه من مكانه ، ولا تنس البحث تحت مناضد البيع !

ــ سمعا وطاعة يا صاحب السعادة !

ــ اننى أريد بافنوتكين ، وريابيخ ، ونيخفالينيخ ، أحياء أو أمواتا . ولا يهمنى كيف تعثر عليهم ، ولو غصت وراءهم الى قاع البحر . كذلك أريد ذلك الفتى .. جرو جالوزين . وليس يهمنى كل ما يلقيه أبوه من خطب وطنية . ان بوسعه ان « يبرطع كالحمار » فى خطبه ، ولكنه لن يثبت علينا الغفلة . ان ثمة ما يريب فى انطلاق بدال ينشر الخطب فى كل مكان . انه لامر يدعو الى الشك .. انه لامر غير طبيعى ! ان لدينا بيانات تنم عن ان آل جالوزين يتسترون على مجرمين سياسيين ، وانهم يعقدون اجتماعات غير مشروعة فى دارهم فى كريستوفوزدفيتشينسك . **فجئنى بذلك الجرو ! .. اننى لم أقرر بعد ما ينبغى أن أفعل به ، ولكننى لن اتردد ــ اذاما ثبت شىء ضده ــ عن ان اشنقه ليكون درسا للآخرين !**

وابتعد الباحثون ، فلما صاروا على بعد كاف ، همس كوسكا الى ترينيتى ، الذى أوشك أن يموت ذعرا : « هل سمعت ؟ »

فهمس الآخر فى صوت واهن : « أجل »

ــ حسنا ، لم يعد هناك سوى مكان واحد لى ولك ولسانكا

ولجوشكا .. انه الغابة . ولست أعنى اننا سنضطر الى الاقامة هناك نهائيا ، وانما .. ريثما تهدأ الامور ، فحسب . ثم نتدبر الامر ، فقد نستطيع ان نعود ثانية !



الفصل الحادى عشر

أخوة الغـابة



« .. أن يدى لمضرجتين بدم كثير من الضباط .. ضباط من علية القوم !..
وما حملت لذلك هما البتة ، بل اننى كنت أريقه كالماء .. »

الفصل الحادى عشر

أخوة الغـــابة

— ١ —

• **انقضى** عامان تقـريبا ، مذ وقع « يورى » أسـيرا فى أيدى العصابات الوطنية . ولم تكن ثمة قيود محددة على حريته ، فما كانت هناك جدران حول مكان أسره ، ولا أقيم عليه حارس ، ولا رقيب حركاته . وكانت تلك القوة من جنود العصابات لا تنى عن التنقل ، ولا تعتزل سكان الاراضى والمحلات (١) التى كانت تمر بها ، فكانت تختلط بهم .. بل كانت تذوب وتندمج فيهم .

وكأنما كان أسر « يورى » وفقدانه حريته ، مجرد وهم ، فقد كان أشـبه برجل حر أخفق فى ان يستقل حريته لنفسه .. لم يكن أسره وفقـدانه حريته يختلفـان فى شىء عن أشـكال القسر الاخرى التى تفرضها الحياة ، والتى كثيرا ماتكون خفية ، غـير ملموسة ، والتى تبدو ـ هى الاخرى ـ كما لو لم يكن لها وجود ، وكأنها مجرد وهم مختلق .. خيال .. خرافة ! .. ومع ذلك ، فقد كان « يورى » مضطرا الى أن ينصاع لهذا الحرمان من الحرية ، وان بدا خياليا ، وبرغم انه لم يكن حبيسا ، ولا مغلولا ، ولا محوطا بالرقابة ! .. فلقد حاول الفرار من جنود العصابات ثلاث مرات ، فكانت كل محاولة تنتهى بوقوعه فى قبضتهم . ولم يكن يتعـرض لاى عقاب ، ولكنه كان يلعب بالنار ، فلم يرجع للمحاولة بعدذلك ..

ولقد لقى حظوة لدى رئيس الفرقة « ليبريوس ميكوليتسين » ،

---

(١) المحلة ـ فى اللغة ـ هى البقعة التى يتجمع فيها فريق من الناس ، ليعيشوا معا فى مجتمع صغير ، أقل من القرية حجما .. و « محلة » شائعة فى الريف المصرى .

الذى ارتاح الى صحبته ، فجعله ينام فى خيمته الخاصة . وقد وجد « يورى » هذه الزمالة المفروضة عليه عبئا ممضا .

— ٢ —

• وكان جنود العصابة يسعون باطراد ـ خلال هذه المدة ـ نحو الشرق . وكان تنقلهم هذا يتخذ ـ فى بعض الاوقات ـ شكل زحف ، فهو جزء من الحملة العامة لطرد « الكولشاك » (١) من سيبريا الغربية .. وفى أوقات أخرى ـ عند ما كان البيض يوقعون ضرباتهم من الخلف ، ويوشكون ان يحاصروا الحمر ـ كان هذا التنقل يتخذ شكل فرار .. نحو الشرق دائما . ولقد مكث « يورى » زمنا طويلا لا يفقه له معنى ولا شكلا .

وكانت سبيلهم تمتد موازية للطرق الخلوية العامة ، أو تتبعها فى بعض الاحيان . وكانت القرى والمدن الصغيرة التى تصادفهم تكتسب الصبغة الحمراء أو البيضاء ، تبعا لحظ كل من الفريقين فى الحرب . فكان من العسير أن يدرك المرء من مظهرها ـ فى أية لحظة معينة ـ اى الفريقين هو المسيطر عليها .

وعندما كان هذا الجيش من الفلاحين يجتاز أية محلة ، كان كل شىء يفقد معناه ويتضاءل ، فكأنما كانت المنازل ـ على جانبى الطريق ـ تنكمش حتى تلاصق الارض ، فيلوح الجند بخيلهم وبنادقهم وأجسامهم الضخمة المتدافعة ، الخائضة فى الوحل ، كأنهم يفوقون البيوت ارتفاعا .

واذ كانوا ـ ذات يوم ـ فى بلدة صغيرة تدعى (باشينسك) ، سعى يورى الى الصيدلى ليتسلم قدرا من الامدادات الطبية البريطانية ، التى كانت وحدة من الضباط البيض ـ بقيادة الجنرال كابيل ـ قد خلفتها ، فأصبحت غنيمة لجنود العصابات .

---

(١) أنصار الاميرال الكسندر فاسيليفيتش كولشاك ، الذى كان قائدا للأسطول الروسى فى البحر الأسود ، والذى نظم البيض فى سيبيريا ـ عند قيام ثورة سنة ١٩١٧ ـ لمقاومة البلاشفة . وقد نجح فى البداية ، ثم توالت هزائمه ، وأعدمه الثوار

وكان الاصيل مكفهرا ، مطيرا ، لا يتراءى فيه سوى لونان : فحيثما يقع النور فاللون أبيض ، وما عدا ذلك فهو أسود .. وكذلك كان مزاج « يورى » قاصرا على حالين لا ثالثة لهما ، ولا وسط بينهما ! .. ولم تكن الطريق ـ التى خربها مرور الجيوش تماما ـ سوى نهر من وحل أسود ، لا سبيل الى عبوره الا فى بقاع قليلة ، لا يتسنى الوصول اليها الا باحتضان المنازل والالتصاق بها لبضع مئات من الياردات .

وفى هذه الظروف التقى « يورى » ببيلاجيا تياجونوفا ، التى كانت زميلته فى السفر ، فى القطار الذى استقله من موسكو ، قبل سنوات ثلاث . وكانت هى السباقة الى معرفته ، بينما احتاج هو الى بضع لحظات ليتذكر المرأة التى ظلت تحملق فيه من الجانب الآخر من الطريق ـ وكأنهما على ضفتى قناة تفصل بينهما ـ وعلى محياها تعبير يوحى باستعداد لان تحييه اذا هو عرفها ، أو لان تظل نكرة بالنسبة اليه اذا هو لم يعرفها .

وتذكرها أخيرا ، فتدافعت الى ذهنه ـ مع ذكراها ـ صورة سيارة النقل المكتظة ، والعمال المجندين وحراسهم ، والمرأة ذات الضفيرة المسدلة على كتفها ، ومنظر أسرته .. وتدفقت عليه أدق تفصيلات الرحلة ، وتألقت فى ذاكرته صور وجوه اولئك الذين كانوا أعزاء لديه ، والذين أصبح يفتقدهم فى حنين يائس .. وأومأ الى « بيلاجيا » كى تمضى قدما فى الطريق ، الى حيث كانت ثمة أحجار يمكن الخطو فوقها ، وسار فى الاتجاه ذاته ـ من ناحيته ـ ثم عبر الطريق وأقبل يحييها .

* * *

وأطلعته على أشياء كثيرة صادفتها خلال العامين الاخيرين ، وذكرته بذلك الفتى المليح ، ذى الوجه البرىء ، « فاسيا » الذى جند للعمل ظلما وبدون حق ، والذى كان يشاطرهما عربة القطار .. ووصفت له اقامتها مع أم الفتى فى قريتهما (فريتنيكى) ..

لقد كانت جد سعيدة بين الفتى وأمه ، ولكن القرية عاملتها كما لو كانت غريبة دخيلة ، ثم اتهمت زورا وبهتانا بأنها كانت على علاقة غرامية بفاسيا ، واضطرت - آخر الامر - الى أن تغادر القرية حتى لا ترجم الى أن تموت . ولقد استقر بها المقام مع أختها المتزوجة « أولجا جالوسينا » ، فى بلدة (هوليكروس) . ثم استدرجتها الى (باشينسك) شائعات بأن « بريتولييف » قد شوهد فى المناطق المجاورة ، ولكن الشائعات كانت زائفة ، فوجدت نفسها مضطرة الى البقاء فى البلدة الصغيرة ، حيث استطاعت - فيما بعد - أن تحصل على عمل .

وفى تلك الاثناء ، كان النحس قد استولى على أصدقائها . فلقد اجتيحت (فريتنيكى) جزاء امساكها الامدادات الغذائية ، وقيل أن دار « فاسيا » قد أحرقت عن آخرها ، وان أحد أفراد اسرته قد هلك فى الحريق .. وفى (هوليكروس) سيق « فلاس جالوزين » زوج أخت « بيلاجيا » الى السجن ، أو لعله رمى بالرصاص - فما استطاع أحد ان يعرف عن يقين - كما ان ابن اختها اختفى .. أما اختها ، فقد تضورت جوعا بعض الوقت ، ولكنها استطاعت أخيرا أن تعمل - لتكسب مايقيم اودها - كخادم لدى اسرة من الفلاحين كانت من اقارب الشقيقتين !

وشاءت المصادفة أن تكون « بيلاجيا » غاسلة أوعية لدى الصيدلى الذى كان « يورى » على وشك الاستيلاء على مالديه من أدوية . وكان هذا الاجراء يهدد بالخراب كل أولئك الذين كان الصيدلى يعولهم ، وبينهم بيلاجيا . ولكن « يورى » كان عاجزا عن أن يحول دون ذلك . وقد حضرت بيلاجيا الحديث الذى دار بشأن الادوية .

ووقفت مركبة « يورى » خلف الحانوت ، فنقلت اليها أكياس ، وصناديق ، وزجاجات معبأة فى سلال . وراح جواد الصيدلى - وكان هزيلا أجرب - يرقب من حظيرته هذا النقل فى أسى ، كما كان الناس يرقبونه . وكان اليوم المطير قد أخذ يقترب من نهايته ،

فانجلت الغيوم قليلا عن وجه السماء ، وأطلت الشمس الآفلة ، وقد جفت بها السحب ، ونثرت على الساحة أشعة برونزية ، قاتمة ، صبغت برك الروث المذاب بطبقة ذهبية صدئة ، كئيبة .. ولم تكن الريح تقوى على تحريك هذه البرك ، فقد كان هذا السماد السائل أثقل من ان يهتز . ولكن ماء المطر الذى تخلف على وجه الطريق أخذ يرتعش وهو يشع ببريق زنجفرى (١) .

وواصل الجنود سيرهم ، مشيا على الاقدام ، أو ركوبا حيث كانت البرك عميقة .. وظهر أن بين الامدادات الطبية التى استولوا عليها جرة مليئة بأكملها بالكوكايين الذى كان رئيس العصابة قد أصبح — فى الفترة الأخيرة — يدمن تعاطيه .

— ٣ —

• **ومع** تفشى « التيفوس » فى الشتاء ، و « الديسنطاريا » فى الصيف ، فضلا عن تزايد عدد الجرحى بعد اذ تجدد القتال ، أصبح « يورى » مغرقا فى العمل حتى أذنيه .

وبالرغم من الصدمات ، ومن تكاثر الارتدادات ، فان صفوف العصابات ظلت فى تضخم مستمر ، بفضل تدفق الثوار من المحلات التى كان جيش الفلاحين يمر بها ، والعصاة الهاربين من صفوف الاعداء . ولقد ازدادت الوحدة التى كان « يورى » يرافقها — خلال الثمانية عشر شهرا التى قضاها معها — عشرة أمثال تعدادها الأصلى ، وبلغت فى تلك الاثناء تعداد القوة التى كان ليبريوس قد تباهى بها فى الاجتماع الذى عقد فى (هوليكروس) .

وحظى « يورى » بعدد من المرضين المدربين ، واثنين من المساعدين الاوائل ، الذين عينوا حديثا .. وكان الاخيران من أسرى الحرب السابقين : « كرينيى لاجوس » — وهو شيوعى مجرى ،

---

(١) الزنجفرى هو « الجنزارى » فى لغة العامة .. وهو لون شبيه بصدأ النحاس ، يجمع بين البرونزى والأخضر والأسود .

كان ضابطا طبيـا فى الجيش النمسـوى ـ ورجل كرواتى يدعى « انجيلار » ، كان قد تلقى قسطا من الدراسة التى تعده لان يكون طبيبا .. وكان « يورى » يتكلم الالمانية مع « كرينيى لاجوس » . أما « انجيلار » ، فكان يفهم الروسية قليلا .

— ٤ —

• **كان** من الواجب على الاعضاء الطبيين فى الجيش أن لايشتركوا فى العمليات العسكرية العدوانية ، بمقتضى « وفاق الصليب الاحمر الدولى » . ولكن « يورى » اضطر الى أن يخرق هـذه القاعدة فى مناسبة واحدة . فقد كان فى الميدان حين بدىء أحد الالتحامات ، وكان عليه أن يشاطر المحاربين مصيرهم .

وكان خط القتال ، الذى حاصرته عنده نيران العدو ، على حافة غابة . فارتمى على الارض منبطحا الى جانب عامل التليفون التابع للوحدة . وكانت الغابة خلفهما ، وأمامهمـا حقل .. وعبر هـذا الفضاء الذى لم يكن من سبيل الى الذود عنه ، كان البيض يشنون هجومهم .

وأخذ البيض يقتربون ، حتى لقد تسنى ليورى أن يرى وجوههم .. كانوا فتية حديثى التطوع ، من سكان العواصم المدنيين ، وكبارا حشدوا من رجال القوات الاحتياطية . وكان الذين يذكون المعركة هم الصغار ، من طلبة الصف الاول من الجامعات ، والصف النهائى من المدارس .

ولم يتسن ليورى أن يتعرف على أحد منهم ، ومع ذلك فقد لاح له أن كثيرين منهم مألوفون لديه . ولقد ذكره بعضهم بأصدقائه فى المدرسة ، فراح يسـائل نفسـه : اتراهم أخوة زملائه فى الدراسة ؟.. وخيل اليه انه كان قد لمح بعضا آخر منهم فى المسارح أو فى الطرقات ، فى السنوات الخالية . ولقد استرعت وجوههم انتباهه .. كانوا يلوحون وكأنهم أهله ، من نوعه وشاكلته .

وكان شعورهم بالواجب ـ كما كانوا يفهمونه ـ يملأهم شجاعة

متحمسة ، لا داعى لها ، بل هى مثيرة محرضة . وكانوا يتقدمون فى جماعة متناثرة ، وهم يبزون الحرس فى رشاقتهم فى الاستعراضات .. كانوا يسيرون منتصبين فى تحد ، لا يجرون ، ولا ينبطحون على الارض ، برغم ان الارض لم تكن من الانتظام بحيث تهيىء لهم وقاء ، فراح رصاص العصابات يحصدهم !

وكانت فى وسط الحقل العارى الواسع ، شجرة ميتة ، أصابتها صاعقة فأحرقتها ، أو لعل الشظايا هى التى أصابتها فى معارك سابقة . وكان كل واحد من المتطوعين الزاحفين ينظر اليها ، وهو يكافح الاغراء بأن يقف خلفها – ليحتمى بها ويحسن تسديد رمايته – ثم ينبذ الفكرة جانبا ، ويواصل السير .

وكانت لدى العصابات كمية محدودة من الطلقات ، كما كانت لديها أوامر – عززتها موافقة من القيادة الاقليمية – بأن تتجنب الالتحام بقوات تفوقها ، وبأن لا يطلق أفرادها النار الا عن كثب .. ولم تكن لدى « يورى » بندقية ، فظل مستلقيا على الارض ، يراقب تطور الاشتباك ، وقد اتجهت كل عواطفه نحو اولئك الابطال البواسل الذين كانوا يلتقون بالموت ، فتمنى لهم التوفيق بكل قلبه ، اذ كانوا ينتمون الى أسرات ربما كانت قريبة اليه بروحها ، وتعليمها ، ونظامها وقيمها ومقاييسها الخلقية .

وخطر له أن يجرى الى الحقل وان يسلم نفسه اليهم ، فيفوز باطلاق سراحه . ولكن هذا كان أمرا بالغ الخطورة ، اذ كان من الممكن أن يرمى بالرصاص من الجانبين – وهو يجرى رافع الذراعين – فيصاب فى صدره وظهره : من العصابات عقابا له على خيانته ، ومن البيض الذين قد يسيئون فهم دوافعه .. كان على دراية بمثل هذا الموقف ، فقد خاض غماره من قبل ، وقد درس كل الاحتمالات التى تترتب على خطط الفرار التى من هذا النوع ، ونبذها جميعا باعتبارها غير مجدية

* * *

ومن ثم فقد أسلم نفسه لمشاعره الموزعة ، وهو منبطح على بطنه

فوق الارض ، متطلعا بوجهه نحو الخلاء ، مراقبا تطورات المعركة وهو أعزل . ولكن الاكتفاء بالتفرج - وهو معطل من النشاط - بينما كان هذا الصراع القاتل يدور حوله ، كان أمرا مستحيلا ، يفوق طاقة أى انسان .. ولم تكن المسألة مسألة وفاء للجانب الذى كان يحتفظ به أسيرا ، ولا مسألة ذود عن حياته ، وانما كانت انصياعا لاملاء الاحداث ، وللقوانين التى راحت تهيمن على ما كان يجرى أمام عينيه .. وكان بقاؤه خارج المعمعة ضد هذه القوانين .. كان لزاما عليه أن يفعل ما كان كل امرىء يفعله .. كانت ثمة معركة دائرة الرحى ، وكان الرصاص يصوب اليه والى رفاقه ، فكان لزاما عليه أن يرد على الطلقات بمثلها !

لذلك فعندما اختلج عامل التليفون بجواره بحركة عنيفة ، ثم رقد جامد الحراك ، زحف يورى اليه ، وأخذ حزام ذخيرته وبندقيته ، وعاد الى مكانه ، ثم أفرغ البندقية طلقة اثر طلقة .. بيد انه كان يسدد رصاصاته نحو الشجرة المحترقة ، مختارا اللحظات التى لم يكن فيها أحد بين بصره وهدفه ، اذ حال الاشفاق بينه وبين اصابة الشبان - الذين كان معجبا بهم ، والذين كان يعطف عليهم - كما أن اطلاق الرصاص فى الهواء كان حماقة يتعذر تصورها !

واتبع فى ذلك أسلوبه الفنى القديم . فكان يعين هدفه ، ويحسن التسديد اليه ، وهو يضغط الزناد ببطء ، دون أن يهبط به الى نهاية مجراه ، وكأنه لا يبغى أن يطلق الرصاصة فعلا .. ومن ثم فان الرصاصة كانت تنساب من تلقاء ذاتها فى النهاية ، وكأنها لم تكن متوقعة الانطلاق .. وبدقة الرماية - التى اعتادها فى الماضى - راح يصيب الفروع الدنيا من الشجرة الميتة ، فيبترها وينثرها حول الشجرة .

ولكن ، وا أسفاه ! .. فبالرغم من انه راح يحاول - فى عناية وحذر - ان يتجنب اصابة أى امرىء ، فان أحد الشبان كان يخطو - بين آن وآخر - الى مجال هدفه فى اللحظة الحرجة ..

ولهذا فانه جرح اثنين منهم، كما لاح ان الثالث ـ الذى سقط بالقرب من الشجرة ـ قد فارق الحياة !

وأخيرا ، اقتنعت قيادة البيض بعدم جدوى الهجوم ، فأمرت بالتراجع .. وكان عدد جنود العصابات قليلا ، فان جزءا من قوتهم الرئيسية كان متغيبا فى زحف ، كما ان فريقا آخر كان مشتبكا مع فصيلة أكبر ـ من العدو ـ على مسافة من ذلك الموقع . ومن ثم فانهم احجموا عن مطاردة البيض المنسحبين ، وان لم يكشفوا عن ضعفهم .

ولحق المساعد « انجيلار » بيورى فى الخلاء ، مع اثنين من الممرضين يحملان محفات . وأمره يورى بأن يعنى بالجرحى ، ثم انحنى هو على عامل التليفون ، وفى نفسه أمل مبهم بأنه قد يجد فيه نفسا يتردد ، فيستطيع انقاذ حياته . ولكنه حين فتح قميصه وتحسس قلبه ، ألفاه قد كف عن الوجيب تماما . وكانت ثمة تعويذة معلقة الى عنق الميت بخيط من حرير ، فخلعها يورى ، واذا بها تحتوى على ورقة بليت وتفككت عند الخطوط التى طويت عليها ، وقد خيطت الى قطعة من القماش .

وعلى الورقة التى تفككت تقريبا بين أصابع يورى ـ حين نشرها ـ كانت ثمة مقتطفات نقلت عن المزمور التاسع (١) ، تتخللها تحريفات فى الكلمات كتلك التى كثيرا ما تتسلل الى الادعية الشائعة ، من جراء كثرة التكرار ، فتجعلها تنحرف باطراد عن أصلها .. وكانت الآيات تنقل عن اللغة السلافية بحروف روسية . وكانت كلمات المزمور : « الساكن فى ستر العلى » قد تحولت

---

(١) المقصود هو المزمور الواحد والتسعون من النسخة المعتمدة من التوراة . ويحسن هنا أن نورد نص الفقرات التى ذكرت فى سياق القصة ، ليسهل على القارىء فهمها : « الساكن فى ستر العلى ، فى ظل القدير يبيت » .. « لأنه ينجيك ... لا تخش من خوف الليل ولا من سهم يطير فى النهار » .. « أرفعه لأنه عرف اسمى . يدعونى فأستجيب له . معه أنا فى الضيق ، أنقذه وأمجده » .

الى عنوان : « الساكن ستر » .. وتحولت الفقرة : « لا تخش من خوف الليل ولا من سهم يطير فى النهار » ، الى تشجيع واستحثاث : « لا تخش سهما يطير فى القتال » ! .. وبدلا مما جاء فى المزمور : « ارفعه لانه عرف اسمى » ، ورد فى الورقة : « لانه أضمر اسمى » .. وتحولت عبارة : « معه انا فى الضيق .. » ، الى : « معه أنا فى الليل » !

وكان المعتقد أن لهذا المزمور فعل المعجزات فى الوقاية من الرصاص ، فكان الجنود يحملونه كتعويذة فى آخر حرب استعمارية . وكان المسجونون — بعد ذلك بعشرات السنين — يخيطونه فى ثيابهم ، ويرددون كلماته فى السجن ، عندما كانوا يستدعون للتحقيق ، أثناء الليل .

★ ★ ★

واذ ترك عامل التليفون ، سار « يورى » فى الحقل الى الشاب الذى كان قد ارداه ، من رجال الحرس الابيض . وكان وجه الفتى المليح يحمل أمارات البراءة ، ومظهر الالم المشوب بالصفح والغفران.

وفك يورى ازرار سترة الفتى وفتحها .. كانت يد حانية — لعلها يد أمه — قد عنيت بتطريز اسمه ولقبه على ثيابه الداخلية، بحروف واضحة : « سريوجا رانتسيفيتش » . وبرز من صدر قميص « سريوجا » صليب متصل بسلسلة ، ورصيعة قلادة ، وعلبة صغيرة مسطحة من الذهب ، أشبه بعلبة السعوط ، وقد بدت معطوبة كما لو أن مسمارا دق فيها .. وسقطت ورقة ، فتناولها يورى وفضها ، فلم يكد يصدق عينيه .. كانت تحتوى على المزمور التاسع ذاته ، وقد طبع — فى هذه المرة — بكامل نصه السلافى الاصلى .

وفى تلك اللحظة ، تحرك « سريوجا » متأوها .. كان على قيد الحياة !

وظهر فيما بعد انه انما فقد وعيه فحسب ، نتيجة جرح داخلى

طفيف . فقد اوقفت رصيعة أمه نفاذ الرصاصة ، فأنقذت حياته .. ولكن ، ماالذى كان على يورى أن يفعله - اذ ذاك - بهذا الرجل الفاقد الوعى ؟ ! .. كانت تلك الايام تتسم باتقاد الوحشية فى النفوس ، فلم يكن الاسرى يصلون الى مراكز القيادة أحياء ، وكان الجرحى يذبحون بالسكين فى الميدان !

ونظرا لميوعة حجم قوة جنود العصابات ، بسبب السيل الكبير من الهاربين الذين كانوا يفرون الى أو من العدو ، كان فى الوسع ادراج « رانتسيفيتش » كحليف انضم حديثا ، اذا روعيت السرية التامة . ومن ثم فقد خلع يورى ثياب عامل التليفون الميت ، بمعونة أنجيلار - الذى كان يثق فيه - واستبدل بها ثياب الفتى .. وراح مع انجيلار يعنيان بسريوجا حتى استرد صحته .. فلما تحسنت حاله ، أطلقا سراحه ، برغم انه لم يخف عنهما انه كان معتزما أن يعود الى جيش كولشاك وأن يواصل محاربة الحمر .

— ٥ —

• **اتخذ** جنود العصابات لانفسهم معسكرا - فى الخريف - فى دغل الثعلب ، وهو تل منحدر كثيف الاشجار ، ذو جدول مزبد ، سريع الجريان ، حول ثلاثة جوانب من التل ، ولا ينفك يفت من حواف مجراه .

وكان البيض قد قضوا فيه فصل الشتاء من العام السابق ، وقد حصنوا موقعهم هناك بمساعدة أهل القرى المجاورة . بيد انهم تركوه - فى الربيع - دون أن يهدموا استحكاماتهم ، فأصبحت العصابات تستخدم مكامنهم وخنادق مواصلاتهم . ولقد اشترك « يورى » مع « ليبريوس ميكوليتسين » فى مكمن غائر فى الارض ، واستبقاه هذا ساهرا بثرثرته ليلتين متتابعتين . وفى الليلة الثالثة ، قال له : « ترى ماذا يفعل أبى الموقر ، بابا المحترم ، فى هذه اللحظة ؟ »

فزفر يورى ، قائلا فى نفسه : « يا الهى ! .. لشد ما أكره هذا

الرجل ! .. وانه لصورة حية من أبيه ! »

ـ أرى من أحاديثنا السابقة انه قد قدر لك ان تعرفه تمام المعرفة ، ويبدو انك قد كونت لنفسك فكرة غير طيبة عنه . فماذا لديك من قول فى هذا الصدد ، يا سيدى العزيز ؟

ـ ان لدينا الاجتماع السابق على الانتخابات غدا يا ليبريوس أفرسييفيتش .. ثم ان أمامى محاكمة الممرضين الذين كانوا يقطرون الفودكا .. اذ لا يزال لزاما على ان اراجع ـ مع لاجوس ـ الادلة .. ثم اننى لم أنم منذ ليلتين ، فهلا يمكن ارجاء هذا الحديث ؟ .. اننى ميت لفرط التعب !

ـ ليكن ، فلن يعفيك هذا من أن تذكر لى رأيك فى أبى المسن .

ـ لنبدأ بالقول ان أباك لا يزال صغير السن ، ولست أدرى لماذا تتكلم عنه هكذا . طيب ، لا بأس ، سأذكر لك ما تشاء . وانا ـ كما قلت لك مرارا ـ لا أعرف الكثير عن مختلف ألوان الاشتراكية ، فلست أستطيع ان ارى فارقا كبيرا بين البلاشفة والاشتراكيين .. وأبوك من أولئك الذين تدين لهم روسيا باضطراباتها وقلاقلها الحالية .. انه طراز ثورى .. شخصية ثورية . انه مثلك ، يمثل مبدأ الفوران والتفاعل فى الحياة الروسية !

ـ هل المقصود بهذا مديح أو لوم ؟

ـ مرة أخرى ، أرجوك ان ترجىء النقاش الى وقت اكثر ملاءمة .. ثم ان من واجبى حقا أن انبهك الى اسرافك فى استهلاك الكوكايين ، فلقد أخذت تستنفد متعمدا الكمية التى أنا موكل بها . وانك لتعرف تمام المعرفة أن الحاجة تدعو اليها لاغراض أخرى ، فضلا عن انها سم ، وانا مسئول عن صحتك !

ـ لقد قطعت حبل الدراسة فى الليلة السالفة كذلك . ان لك ادراكا اشتراكيا ضامرا ، تماما كما لو كنت فلاحة أمية ، أو « بورجوازيا » راسخا فى « البورجوازية » . ومع ذلك فأنت طبيب ، تجيد القراءة ، بل أحسبك تجيد الكتابة والانشاء . فكيف تفسر هذا ؟

ـ لست أفسره .. وأرانى غبيا كذلك ، ولا حيلة لى فى الامر ، فجدير بك أن تأسف لحالى .

ـ لم هذا التواضع الزائف ؟ .. لو انك ـ بدلا من استخدام هذه اللهجة الساخرة ـ حفلت بمعرفة ما نفعله فى فصولنا الدراسية ، لما تغطرست بهذا الشكل !

ـ ياللسماء ! .. لست متغطرسا يا ليبريوس افرسييفيتش . اننى أكن لجهدك التعليمى أقصى احترام ، ولقد رأيت المذكرات التى تصدرها عن الدراسات ، وأعرف آراءك فى تحسين المستوى الخلقى للجندى .. وانها لآراء رائعة ! .. كل ما تقول عن مسلك الجندى نحو رفاقه ، نحو الضعيف ، نحو العاجز ، نحو النساء ، نحو الشرف والعفة .. انها تقريبا تعاليم « الدوخوبور » (١) . كل ما على هذه الشاكلة من تعاليم تولستوى أعرفه عن ظهر قلب . لقد كانت مرحلة مراهقتى مليئة بمثل هذه الامانى نحو حياة أفضل ، فكيف أستطيع أن اضحك من مثل هذه الامور ؟

« ولكن فكرة الاصلاح الاجتماعى ـ كما أصبحت مفهومة منذ ثورة أكتوبر ـ لا تملأنى بالحماس . هذا أولا ، وثانيا هى أبعد من أن تطبق عمليا ، وقد أدى مجرد الحديث عنها الى كل هذا البحر من الدماء ، حتى اننى لم أعد أوقن مما اذا كانت الغاية تبرر الوسيلة . ثم ـ أخيرا ، وقبل كل شىء ـ اننى كلما سمعت الناس يتحدثون عن اعادة تشكيل الحياة ، أفقد سيطرتى على نفسى ، واتردى فى القنوط .

« اعادة تشكيل الحياة ؟ ! .. ان الذين يقولون هذا لم يفقهوا يوما أى شىء عن الحياة .. لم يشعروا قط بأنفاسها ، بقلبها .. مهما يكن ما رأوه أو ما فعلوه ! .. انهم ينظرون اليها كما لو كانت كتلة من مادة أولية تحتاج الى صنعة على أيديهم ، والى أن تكتسب

---

(١) الدوخوبور اسم أطلق على جماعات كانت تمارس مبادىء تشبه المبادىء التى كان تولستوى يدعو اليها .

سموا بلمساتهم ! .. ولكن الحيـــاة لا يمكن ان تكون مادة يمكن صوغها وتشكيلها أبدا . واذا شئت أن تعرف ، فالحياة هى مبدأ تجديد النفس، انها تجدد ذاتها، وتعيد صنعها ، وتتبدل ، وتتحول باستمرار دائب .. انها فوق نظرياتك ونظرياتى عنها ، بمراحل لا نهاية لها !

— ومع ذلك فأنت تعرف انك ما كنت لتشعر بنصف هذا القنوط المثبط لو انك جئت الى اجتماعاتنا ، ولو انك ظللت على اتصـــال بقومنا الرائعين ، العظام .. ما كنت لتعانى هذا الاكتئاب .. هذه (الميلانخوليا) . اننى أعرف مبعثهـــا ، فأنت ترانا منكسرين ، ولا تستطيع ان ترى قبس أمل أمامك . ولكن على المرء ان لا يذعر قط ، يا صديقى العزيز . ان بوسعى أن انبئك بأمور تفوق هـــذه الحال سوءا .. أمور تتعلق بى شـــخصيا ، وينبغى ألا تذاع على الملأ فى الوقت الراهن .. ومـــع ذلك فاننى لا أفقـــد رأسى . ان ارتداداتنا ليست سوى مؤقتة ، اذ أن من المقدر على كولشاك أن يخسر فى النهاية . تذكر كلماتى هذه ، وسوف ترى .. لســـوف نكسب على مر الزمن ، فابتهج !

وقال يورى فى نفسه : « انه لامر يعجز القول عن وصفه . كيف يتسنى لاى امرىء أن يكون بهذا العقل الصفيق ، الصبيانى ! .. اننى أنفق وقتى أردد على مسمعيه ان افـــكارنا اشـــبه بقطرين متعارضين (١) .. لقد أسرنى بالقوة ، ولا يزال يستبقينى على غير ارادة منى ، ومع ذلك فهو لا يزال يتصور ان تقهقراته تثير الجزع فى نفسى ، وان آماله تشرح صدرى ! .. كيف يتسنى لامرىء أن يكون أعمى بهذا الشكل ؟ ! .. ان مصير الكون معلق — فى رأيه — على انتصار ثورة أكتوبر ! » .

على أن « يورى » لم يقل شيئا ، بل اكتفى بأن هز كتفيه ، فاذا

---

(١) القطران يتقاطعان ، ولكن كلا منهما يمتد بين اتجاهين يخالفان الاتجاهين اللذين يمتد بينهما الآخر .

هذا يوضح بجلاء أن سذاجة ليبريوس قد أرهقته حتى انه اصبح يملك زمام نفسه بعناء ازاءها . ولم يفت هذا ليبريوس من ناحيته ، فقال : « انك غاضب يا جوبيتر ، وهذا يعنى انك ولا بد مخطىء ! »

ـ افهم بالله ، ولو لمرة واحدة ، أن لا شىء من هـذا يعنينى : « جوبيتر » و « لا يذعر قط » و « كل من يقـول (أ) لا بد انه يعنى (ب) » و « لقد أدى المراكشى مهمته ، فلينصرف المراكشى » .. ان شيئا من هذه المصطلحات المأثورة ، (الكليشيهات) ، التعبيرات الشائعة المبتذلة ، لا يستهوينى . لسوف أقول (أ) ، فلا أعنى (ب) .. مهما تفعل ! .. سأقر بأنكم محررو روسيا ، ونجومها الساطعة ، وانها كانت بدونكم تسير الى ضياع وتغرق فى التعاسة والجهل ، ولكننى لأزال ـ برغم ذلك ـ لا اقيم اتفه وزن لاى واحد منكم . اننى لا احبكم ، ولكم جميعا ان تذهبوا الى الشيطان ! .. ان أولئك الذين يفكرون لكم يعمدون الى الامثال والاقوال المأثورة ، ولكنهم ينسون حكمة واحدة : « بوسعك أن تسـوق جوادا الى الماء ، ولكنك لا تملك أن تجعله يشرب » ، وهم قد اعتادوا أن



يحرروا ، وان يغدقوا المنافع ، على من لم يسألوهم ذلك من الناس .. أحسبك تتصور انني لا أستطيع ان ارى فى الدنيا شيئا اكثر بهجة من معسكرك وصحبتك ، **وأحسب انه لزام على ان اباركك لانك تستبقينى أسيرا ، وان اشكرك لانك « حررتنى » من زوجتى ، وابنى ، وبيتى ، وعملى ، ومن كل ما أعتز به ، وكل ما يجعل الحياة – فى نظرى – جديرة بأن أحياها !** .. هناك شائعة استطارت بأن قوة غير معروفة – وليست قوة روسية – قد أغارت على (فاريكينو) ونهبتها .. ان « كامينودفورسكى » لا ينكرها .. انهم يقولون ان قومك وقومى قد استطاعوا الفرار . والظاهر ان نوعا من المحاربين الخفيين ، ذوى العيون المنحرفة المائلة ، فى معاطف من اللباد ، وقبعات من الفراء ، قد عبروا نهر (رينفا) فى عاصفة فظيعة من الصقيع ، ثم أعدموا كل امرىء فى المكان بالرصاص – فى هدوء – واختفوا كما أقبلوا فى غموض . فهل تعرف شيئا عن هذا ؟ .. أصحيح هذا ؟ »

– هراء . محض أكاذيب . شائعات زائفة .

– اذا كنت على ما تزعم – حين تلقى محاضراتك عن التحسين الخلقى للجنود – من رحمة وكرم ، فدعنى أرحل .. سأنطلق بحثا عن أسرتى .. فلست أدرى اين افرادها ، بل اننى لا ادرى ما اذا كانوا أحياء أو أمواتا . فاذا لم تفعل ، فاصمت بالله ، ودعنى وشأنى ، لاننى لا احفل بشىء آخر ، ولن اكون مسئولا عما يصدر منى اذا أنت مضيت فى حديثك . وعلى أية حال ، أفليس لى حق فى أن أنام ، بحق الجحيم ؟ !

ورقد يورى على سريره منبطحا ، ووجهه فى الوسادة ، باذلا قصارى جهده فى أن لا يسمع ليبريوس وهو يبرر مسلكه ، ويسرى عنه بما يرتجى من نصر نهائى على البيض قبل ان يحل الربيع .. فتنتهى الحرب الاهلية ، ويحل السلام ، والحرية ، والرخاء ، ولا يجسر أحد على أن يستبقى « يورى » لحظة واحدة بعد ذلك . ولكن عليه أن يصبر الى ذلك الحين ، لا سيما وانهم قد

بذلوا كل التضـــحيات ، وتحملوا كل انتظار ، فلم يكن بالكثير أن يترقبوا بضعة أشــهر أخــرى . وعلى اية حال ، فالى اين كان بوسعه أن يذهب اذ ذاك ؟ .. كان من الواجب منعه من الذهاب وحيدا الى أى مكان ، لمصلحته .

وراح يورى يقول فى نفسه ، مغيظا محنقا : « فلينفلق ! .. انه كاسطوانة الحاكى ! لا يستطيع أن يكف . لماذا لا يخجل من ان يظل يتشدق بنفس الحديث كل هذه السنوات ؟ .. كيف يقدر على أن يمضى فى استماع جرس صوته ، هذا الشيطان التافه التعس ؟!.. انه يظل كذلك ليل نهار . يا لله ، لكم أمقته ! .. يشهد الله اننى سأقتله يوما ما ! .. أين أنت يا تونيا ؟ .. يا حبيبتى ، يا صغيرتى المسكينة ! أأنت على قيد الحياة ؟ .. يا ربى العزيز ، لقــد كانت توشك أن تضع وليدها بعــد قليل ، فكيف استطاعت أن تمضى خلال المخاض ؟ .. وهل رزقنا ولدا أو بنتا ؟ يا أحبائى ، ما الذى يجرى لكم جميعا ؟ .. يا تونيا ، انك مصدر تقريع ضميرى دواما! .. يا لارا ، اننى لا أجرؤ على ان انطق باسمك خشية ان الفظ معه حياتى ! .. اواه يا الهى ، اواه يا الهى ! .. ومع ذلك ، فلا يزال هذا الوحش المقيت ، عديم الشعور ، يتكلم ! .. لسوف يتمـادى ذات يوم فأقتله .. سأقتله ! »

— ٦ —

• **وانقضى** الصيف الشديد الحر ، وجاء يوم صاف ، ذهبى ، من أيام الخريف . وعند الطرف الغربى من غابة الثعلب ، كان ثمة برج خشبى لمنزل بناه البيض ، لا يزال قائما فوق الارض . وهناك كان يورى قد تواعد مع مساعده المجرى « لاجوس » على اللقـاء ليبحثا مختلف مسائل القسم الطبى . وقد وصل فى الموعد ، فراح ينتظر صديقه ، متمشيا على طول حافة المتـاريس المنهـارة ، ثم صعد الى برج المراقبة ، وأطل من الشقوق التى كانت أمام الاوكار

ــ التى خلت من مدافعها الرشاشة ــ على الارض المكسوة بالغابة، والمترامية خلف النهر .

وكان الخريف قد أقام حدا واضحا بين أشجار الشربين ، وأشجار الصنوبر ، والاشجار الحولية (١) . وبين الجدران القاتمة ــ ذات الاشواك المنتصبة ــ من أشجر الصنوبر التى قارب لونها أن يكون أسود ، كانت الاشجار القصيرة ، الكثيفة ، المورقة ، تشع بلون كاللهب والنبيذ .. فكأنها بلدة صغيرة من مدن القرون الوسطى ، وقد بدت سقوف قصورها المطلية ، الموشاة باللون الذهبى ، والتى بنيت من الخشب المقتطع من قلب الغابة .

وكانت الارض تحت قدمى يورى ، وفى داخل الخندق ، وفى الاخاديد التى كانت تتخلل طريق الغابة ، متيبسة ، مكسوةبالصقيع الارضى ، وقد تراكمت عليها أكوام صغيرة ، متماسكة ، من أوراق الصفصاف الجافة ، كأنها أكوام من فضلات المسحاة (٢) .. وخالط هواء الخريف عبير هذه الاوراق البنية النفاذة الاريج ، وروائح كثير من البقول الحريفة . فأخذ يورى يعب فى نهم ذلك العبير الفلفلى المتصاعد من التفاح الذى أعطبه الصقيع ، والفروع الجافة ذات الرائحة الفجة ، والتربة النضاحة بالرطوبة ، وضباب سبتمبر الازرق المتصاعد كدخان نار حديثة الانطفاء .

ولم يسمع وقع قدمى لاجوس حين أقبل من خلفه .. وقال بالالمانية : « كيف انت أيها الزميل ؟ » . ثم شرعا يتحدثان فى أعمالهما :

ــ هناك ثلاث نقاط . أولا : المحاكمة العسكرية للممرضين الذين كانوا يقطرون « الفودكا » .. ثانيا : اعادة تنظيم نقل الجرحى من الميدان ، والمخازن الطبية .. ثالثا : اقتراحى بشأن معالجة الامراض

---

(١) الأشجار التى تتساقط أوراقها كل حول أو عام .

(٢) نشارة الخشب المتخلفة من مسحاة (فارة) النجار .

العقلية فى الميدان . ولست أدرى ما اذا كنت توافقنى يا عزيزى لاجوس ، ولكننا — على ضوء ما ألحظه — نوشك أن نجن ، وان أنواع جنوننا الحديثة لمعدية !

— انها مسألة جد طريفة ، وسأعود اليها بعد لحظة . ولكنى أود أن اذكر قبل ذلك امرا آخر : هناك تذمر فى المعسكر ، وعطف على مقطرى الفودكا . ثم ان الرجال فى هم وقلق من أجل أسراتهم التى تهرب من البيض . وهناك قافلة مقبلة — كما تعلم — تضم زوجات ، وأطفالا ، وشيوخا ، وقد رفض بعض جنود العصابة أن يبرحوا المعسكر الى أن تصل هذه القافلة .

— أعلم هذا .. وسنضطر الى انتظارها .

— وكل هذا يجرى ونحن مقبلون على انتخاب قيادة مشتركة لوحدتنا ولعدة وحدات أخرى مستقلة عنا كل الاستقلال . واخال ان المرشح المحتمل الوحيد هو الرفيق ليبريوس . ولكن بعض الشباب يدفعون « فدوفيتشينكو » الى الامام ، وهو مؤيد بفريق غريب عنا فى روحه ، وينتمى الى طبقة مقطرى الفودكا .. فريق من أبناء البدالين وأصحاب الاراضى ، ومن الهاربين من كولشاك . هؤلاء هم الذين يحدثون أكبر قسط من الضجيج .

— وما الذى تظن انه سيحدث عند المحاكمة ؟

— أظن انه سيقضى عليهما بالاعدام ، ولكن التنفيذ سيوقف .

— حسن ! لنتحدث فى العمل . أولا : نقل الجرحى من الميدان .

— لا بأس ، ولكن لابد لى من ان انبئك بأننى غير مندهش لاقتراحك الخاص بالعلاج الوقائى للامراض العقلية ، فأنا — شخصيا — أومن به . ونحن أمام ظهور وتفشى نوع من المرض العقلى مرتبط بوقتنا الحاضر ، وينجم مباشرة عن الظروف التاريخية . ولدينا فى المعسكر حالة منه : « بامفيل باليخ » ، وهو جندى سابق فى جيش القيصر ، ذو وعى ثورى عال ، وادراك طبقى متغلغل فى نفسه (١) .

(١) الادراك الطبقى لدى الشيوعيين ، هو القائم على عدم الاعتراف بالطبقات ، اللهم الا الطبقة الكادحة .

وسر محنته هو قلقه بشأن أسرته اذا ما قدر له أن يقتل ، وخوفه من أن تقع فى ايدى البيض ، وان تلقى عليه تبعة اعماله . انها حالة عقلية معقدة . وأعتقد ان أسرته من تلك الاسرات الوافدة فى القافلة . ولست أعرف من اللغة الروسية ما يمكننى من سؤاله كما ينبغى ، ففى وسعك أن تتبين أمره من انجيلار أو كامينودفورسكى .. انه جدير بالفحص .

اننى أعرف « باليخ » معرفة جيدة جدا ، فكثيرا ماكنا نتعارض فى اجتماعات مجلس الجيش ، فى فترة من الفترات .. انه أسمر ، قاس ، ذو جبين ضيق .. ولست ارى ماتراه فيه من خير . لقد كان يجنح دائما الى الاجراءات المتطرفة : الرمى بالرصاص ، والعقاب . وقد اعتدت أن أجده دائما مثيرا للنفور والاستنكار . ومع ذلك ، فسوف أعنى بحالته !

— ٧ —

• **كان** اليوم صحوا ، مشمسا ، وقد ظل الجو راكدا ، جافا ، اسبوعا بأكمله .

وكان طنين الضجيج العادى يسرى فى جو المعسكر الكبير ، أشبه بهدير البحر البعيد .. كان ثمة وقع أقدام ، واصوات ، وارتطام الفؤوس بالاخشاب اذ تشقها ، ورنين سندان ، ونباح كلاب ، وصهيل جياد ، وصياح ديكة . وكانت تحوم فى الغابة جماعات من رجال سمر الوجوه ، بيض الاسنان ، باسمى الثغور .. فكان الذين يعرفون الطبيب منهم يومئون له بالتحية ، بينما كان سواهم يمرون به غير محيين .

وكان الرجال قد رفضوا أن يفضوا المعسكر حتى تلحق بهم أسراتهم ، التى كانت هاربة من ديارها . أما وقد اصبح هؤلاء الهاربون وشيكى الوصول ، فقد اتخذت الاجراءات تأهبا للرحيل ، فاذا الاشياء تنظف وتصلح ، واذا الصناديق تغلق بالمسامير ، وعربات النقل تحصى وتفحص .

وكانت فى وسط الغابة بقعة كبيرة من الارض الفضاء ، كثيرا ما عقدت فيها الاجتماعات .. كانت أشبه بكثيب أو بربوة سحقت حشائشها تحت الاقدام . وقد دعى الجميع ــ فى ذلك اليوم ــ الى اجتماع عام ، لاعلان أمر ذى اهمية .

ولم تكن كثير من أشجار الغابة قد ذبلت بعد واصفرت ، فظلت ــ فى أجوافها ــ ناضرة ، مخضوضرة .. وكانت الشمس وهى تنحدر خلف الغابة فى الاصيل ترسل أشعتها خلالها ، فاذا الاوراق الشفافة تشع بلهب أخضر .

وأخذ كامينودفورسكى ، كبير ضباط الاتصال ، يحرق ــ فى بقعة من الفضاء أمام خيمته ــ اوراقا ، ومهملات أقصاها عن سجلات الجنرال كابيل التى وقعت بين يديه ، وعن أضابيره الخاصة بجنود العصابات . وكانت النار تبدو شفافة كورق الشجر، ازاء الشمس الغاربة فلم يكن اللهب مرئيا ، بل كانت موجات الوهج والحرارة هى وحدها التى تشى بأن ثمة شيئا يحرق .

وهنا وهناك ، كانت الغابة تتألق بثمار التوت البرى الناضجة : بأهداب نبات « قميص الست » ، وبثمار توت الحورة التى فى حمرة الطوب ، وعناقيد نبات « الفبرنوم » الذى تحول لونه من الابيض الى القرمزى .. وذبابات « السرمان » تحدث طنينا خفيفا بأجنحتها الشبيهة بالزجاج ــ والتى كانت فى شفافية اللهب وأوراق الشجر ــ وهى تمخر ببطء عباب الهواء .

ولقد كان « يورى » مشغوفا ــ منذ طفولته ــ بمشاهد الغابات كما تبدو تحت الشمس الجانحة الى الغروب . وكان يشعر فى مثل تلك اللحظات كما لو ان نصال الضوء كانت تنفذ خلاله هو الآخر .. وكأنما كانت نعمة الروح الحية تسرى فى صدره ، وتخترم كيانه ، ثم تخرج من كتفيه كزوج من الاجنحة ! .. واذا بالصورة المثالية للحياة ، التى تتكون فى كل طفل ، وتظل دواما ــ بعد ذلك ــ تبدو كتمثال لشخصيته يكمن فى أعماق نفسه .. اذا بهذا التمثال يهب فى أكمل قواه الجوهرية ، فيضطر الطبيعة ــ الغابة ، والشفق،

وكل شيء آخر يتجلى للعين ـ الى أن تستحيل الى صورة أصلية ، كاملة ، شاملة لفتاة .. ل « لارا » ! .. وراح يورى ـ وهو مغمض العينين ـ يهمس ، ويفكر ، مخاطبا بهمساته وأفكاره الحياة بأسرها ، وأرض الله كلها ، وكافة المساحة التى كان ضوء الشمس يقع عليها أمامه !

بيد أن واقعية الحياة اليومية المألوفة ، كانت ماتزال قائمة : كانت روسيا ماضية فى ثورة أكتوبر ، وكان يورى أسيرا لدى جيش العصابات !.

* * *

• **وسار** ـ وهو شارد الذهن ـ الى النار التى أشعلها كامينودفورسكى ، وقال : « أتحرق سجلاتك ؟ .. ألم تفرغ بعد؟ »

ـ ان لدى من هذه الاوراق مايستغرق حرقه أياما .

وحرك يورى كومة من الاوراق بحذائه ، فاذا بها مراسلات أركان حرب قيادة البيض . وخطر له انه قد يقع فيها على ذكر « رانتسفيتش » ، ولكن كل ما وقع عليه بصره كان مملا .. مراسلات بالشفرة عفى عليها الزمن . وركل كومة أخرى ، فاذا بها مجموعة من مذكرات اجتماعات العصابات ، لا تقل عنها املالا واضجارا .

وأخرج كامينودفورسكى ورقة من جيبه أسلمها الى يورى ، قائلا : « هاك أوامر السير الخاصة بوحدتك الطبية . ان قافلة اسرات رجال العصابات جد قريبة من هنا ، ولن يأتى مساء اليوم حتى تسوى خلافاتنا داخل المعسكر . ومن ثم فلنا أن نتوقع مغادرة المكان فى أى يوم » . وألقى يورى نظرة على الاوامر ، ثم قال فى شكوى : « ولكنكم تعطوننى وسائل للنقل اقل من تلك التى أعطيتمونيها فى المرة السالفة ، برغم كل هذه الزيادة فى الجرحى . ولسوف يضطر القادرون الى المشى ، ولكن هؤلاء قلة . ثم ، ماذا

ترانى فاعلا بالمرضى الذين لابد من نقلهم على محفات ؟ .. ومختزناتنا من الادوية ، والاسرة والمعدات ؟ »

ـ سيكون لزاما عليك أن تدبر الامر بطريقة ما .. ان تبسط ساقيك على قدر لحافك . والآن هناك أمر آخر . انه رجاء منا جميعا . هل لك فى أن تفحص واحدا من رفاقنا ؟ .. انه مجرب ، ومخلص للقضية ، وجندى بديع . ولكن ثمة ضرا أصابه .

ـ أهو باليخ ؟ .. لقد حدثنى لاجوس عنه ..

ـ أجل .. اذهب لتراه . افحصه !

ـ أهو مصاب بمرض عقلى ؟

ـ أظن ذلك ، فهو يقول ان لديه « الدبيب » (١) .. أوهام وتخيلات تهوسية ، كما هو واضح .. أرق .. اوجاع فى الرأس .

ـ لا بأس . وقد يحسن ان أذهب الآن فأراه ، مادمت خلوا من العمل فى هذه الفترة . متى يبدأ الاجتماع ؟

ـ أظنهم قادمين الآن . ولكن ، فيم يهمك هذا ؟ .. أنا الآخر لست ذاهبا ، كما ترى . وفى وسعهم أن يعقدوا اجتماعهم بدوننا.

ـ سأذهب اذن لارى بامفيل ، وان كنت لا أكاد أقوى على ان افتح عينى ، فان النعاس يثقلهما .. ان ليبريوس افرسيفيتش يحب ان يتفلسف فى الليل ، وقد أنهك قواى بكلامه . أين أجد بامفيل ؟

ـ أتعرف دغل شجر التامول ، القائم خلف حفرة الفضلات ؟

ـ أجل ، أظننى اعرفه .

ـ ستجد بعض خيام الضباط فى الفضاء ، وقد وضعنا احداها تحت أمر بامفيل ، فان أسرته قادمة ، اذ أنها مع القافلة .. وهناك ستجده .. فى احدى الخيام .. لقد منح مكانة قائد فصيلة .. جزاء كفاءته الثورية !

---

(١) نوع من المرض العصبى ، يشعر المريض فيه كأن نملا يدب فى أرجاء جسمه ، او كأن خدرا يسرى فى أوصاله .

— ٨ —

• واستبد التعب بيورى ، وهو فى طريقه ليرى بامفيل ، نتيجة الاثر المتراكم من جراء ليال عديدة من السهاد والارق . وكان بوسعه أن يعود الى مضجعه وان ينام ، ولكنه كان يخشى المكث هناك ، فلربما جاءه ليبريوس فى أية لحظة فأقض راحته . ووقف فى درب متوار ، تناثرت فيه أوراق الاشجار المجاورة ، وقداتخذت شكل رقعة الشطرنج ، وكذلك كانت الاشعة المنخفضة — المنبعثة من الشمس الآفلة — وهى تستلقى على هذا البساط الذهبى .. ومن شأن هذا البريق المزدوج ، المتقاطع (١) ، أن يدير رأسك ، وان يسلمك الى النعاس ، كما تفعل بك الحروف الصغيرة ، فى أى مطبوع تقرأه .. أو اى امر متواتر فى استرسال رتيب .

واستلقى يورى على الاوراق الحريرية ، ذات الحفيف ، وأسند رأسه الى ذراعه ، واسند ذراعه الى وسادة من الاعشاب الفطرية النامية أسفل احدى الاشجار ، فغشيه النعاس فى الحال . وأصبح البريق الذى بهر بصره ، والذى أسلمه الى النعاس ، يكسوه بشبكة من الضوء والظل المتعاقبين ، بحيث لم يعد من الممكن تمييز جسده — المستلقى على الارض — من ضوء الشمس ومن أوراق الشجر ، فلم يعد يبدو واضحا للعين ، وكأنه ارتدى طاقية سحرية !

على ان قوة رغبته فى النوم ، وشدة حاجته اليه ، لم تلبثا ان أيقظتاه بعد فترة جد قصيرة . فان الاسباب المباشرة لا تكون فعالة الا فى الحدود التى خلقت لها ، فاذا جاوزتها انتجت أثرا عكسيا . واذ لم يجد وعيه اليقظ اى راحة ، أخذ يدور محموما فى

---

(١) بريق الأوراق الصفراء ، وبريق الأشعة الواهنة التى ترسلها شمس الغروب .. ثم تبادل البريق والظل ، كما يبدو حين تتسلل الأشعة خلال أغصان كثيفة متشابكة ، فتلقى على الأرض بقعا من الضوء تتخللها بقع من الظل ، مما يبهر (يزغلل) البصر .

فراغ .. وراحت الافكار تدور وتلف ى رأسه ، ومضى عقله يدق فى اضطراب ، كمحرك أصيب بخلل . وأزعجه هـذا الاضطراب الداخلى وأرهقه . وقال فى نفسه ساخطاً : « يالهذا الخنزير القذر ليبريوس ! .. كأنما الدنيا لا تضم ما يكفى لان يسوق الناس الى الجنون ، فهو يرى من واجبه أن يأخذ رجلا سليم العقل ، ويحوله متعمدا الى مريض مختل العقل ، بأن يستبقيه أسيرا ، ويضجره بصداقته وثرثرته . لسوف أقتله فى يوم من الايام ! »

وراحت تطير فى الجانب المشمس من الفضاء فراشة مرقشة باللون البنى ، فكأنها قصاصة ملونة تنطوى وتنبسط . ومضى يورى يتأملها بطرف ناعس . واختارت الفراشة مكانا ذا لون يقارب لونها ، فاستقرت على لحاء شجرة صنوبر مرقش باللون البنى ، وتوارت فيه ، فاختفت من جراء خداع الضوء والظل ، كما اختفى « يورى » !

وعاد عقله الى جولته المعتادة بين الافكار التى كان قد ذكرها ـ بطريقة غير مباشرة ـ فى كثير من مؤلفاته الطبية .. أفكار عن الارادة والفرض كأسمى أشكال التكيف والتجانس .. والتقليد والمحاكاة والتلون الوقائى .. وبقاء الاصلح ، وما اذا كان الانتخاب الطبيعى هو سبيل التطور ومولد الوعى فعلا (١) .. ثم ماذا كان « الموضوع » ؟ .. وماذا كانت « المادة » ؟ .. وكيف كان من الممكن تحديد كنههما ؟ .. وأفضت به خواطره من « داروين » الى « شيلينج » ، ومن الفراشة الى الرسم الحديث بالزيت ، والى الفن التأثيرى . وفكر فى الخلق ، والخليقة ، والقدرة الخلاقة ، والحيلة والمكر !

* * *

ومرة أخرى ، استسلم للنوم ، ولكنه صحا بعد لحظة ، اذ أقض

---

(١) نظرية البقاء للأصلح والانتخاب الطبيعى ، شرحت شرحا وافيا عند تلخيص كتاب « نظرية التطور » لداروين ، فى العدد ٢٦ ، ٥٦ من « كتابى » .

نومه حديث مكتوم . وكانت الكلمات القلائل التى سمعها كافية لان تنبئه بأن الحديث كان يتعلق بسر ما ، وبخطة غير مشروعة . ولم يكن المتآمرون قد رأوه ، فلم يساورهم أى هاجس بوجوده . وكان من المحتمل ان تكبده أتفه حركة حياته ، فجمد « يورى » فى مكانه ، وأرهف السمع !

وتعرف على بعض الاصوات .. كانت أصوات حثالة جنود العصابات .. بعض الامعات من أمثال « جوشكا » ، و « سانكا » ، و « كوسكا » ، وتابعهم المعتاد « تيرنتى جالوزين » .. شبان لم يكونوا صالحين لاى شىء ، وكانوا فى قرارة كل نوع من الهياج والشغب . كذلك كان « زاخار » بينهم ، وهو شخص يفوقهم خطرا ، كان ذا صلة بقضية « الفودكا » ، ولكنه لم يقدم للمحاكمة مؤقتا ، لانه وشى بالمذنبين الرئيسيين . وكان أشد ما أدهش يورى هو وجود « سيفوبلوى » الذى كان من افراد « الوحدة الفضية » المنحلة ، والذى كان من الحرس الخاص للقائد . وجريا على تقليد يرجع الى « ستينكا راسين » و « بوجاتشيف » ، كان هذا المقرب من الرئيس ، المعروف بأنه موضع ثقته ، يلقب بـ «أذن القائد » (١) .. وكان من الواضح انه — هو الآخر — كان من المشتركين فى المؤامرة !

وكان المتآمرون يتفاوضون مع مندوبين موفدين من المراكز الامامية للعدو . ولم يكن من الميسور التعرف على المندوبين ، اذ كانوا يتحدثون الى الخونة بأصوات جد خافتة ، فلم يكن يورى يسمع حديثهم ، بل كان يحدس انهم يتكلمون ، عند ما كانت فترات من الصمت تقطع التهامس .

وكان « زاخار » السكير هو الذى تولى معظم الحديث ، وهو يطلق السباب بين كل لحظة وأخرى ، بصوته الذى كان ينبعث فى

---

(١) أى جاسوس يعمل لحساب القائد .

فحيح أجش . وبدا انه كان زعيم العصبة ، وقد راح يقول : « والآن ، انصتوا أنتم الآخرون ! .. ان الامر الرئيسى هو ان علينا أن نتكتم . فاذا تكلم امرؤ .. أترون هذه السكين ؟ .. لسوف أشق بها احشاءه ! أواضح هذا ؟ .. ان علينا أن نظفر بالعفو عنا . وعلينا ان ندبر حيلة لم يشهد احد مثلها من قبل .. انهم يريدون أن يأخذوه حيا . ثم انهم يقولون ان رئيسهم « جوليفوى » قادم الى هنا » .. فتداركوه مصححين : « جاليولين » ، ولكنه لم يلتقط الاسم ، فقال : « الجنرال جاليبف » ، واستطرد فى حديثه: « هذه هى فرصتنا ، ولن تتاح لنا فرصة أخرى مثلها . وها هو ذا وفدهم ، وسيذكر لكم أفراده كل شىء عن الامر .. انهم يقولون ان علينا ان نأسره حيا . والآن ، أنبئوهم أيها الآخرون بما لديكم ! »

وأخذ المندوبون يتكلمون ، فلم يستطع يورى أن يلتقط كلمة واحدة ، ولكنه حدس ــ لطول فترة السكوت ــ انهم كانوا يشرحون الخطة المقترحة بالتفصيل . وما لبث زاخار ان عاد يقول : « هل سمعتم هذا ، أيها الزملاء ؟ .. انكم لترون مدى براعته ! .. انه لايكاد يبلغ مبلغ الانسان .. لقد أوتى نصف ذكاء .. انه راهب أو ناسك . كف عن الابتسام ياتيرنتى . لسوف اتيح لك مايجعلك تبتسم ، أيها الرخو ! .. انني لم أكن اتكلم عنه . انما كنت اقول انه .. ناسك . هكذا هو . فدعوه يسلك طريقه ، ولن يلبث أن يحولكم جميعا الى رهبان .. لسوف يعمل على أن يخصيكم ! ما الذى يدعوكم اليه ؟ .. لا سباب ، ولا افراط فى الشراب ، وكل تلك الامور التى يدعوكم اليها بشأن النساء . فكيف تستطيعون ان تعيشوا على هذا النسق ؟ .. لسوف نستدرجه الليلة الى المخاضة ، وسأعمل على ذلك . ثم ننقض عليه جميعا . لن تكون ثمة مشقة .. ولا خطر فى ذلك . أصعب ما فى الامر هو انهم يريدونه حيا . انهم يقولون : « أوثقوه ! » . لا بأس ، سنرى .. واذا لم تفلح هذه الخطة ، فسأنبرى له بنفسى ، وسأجهز عليه

بيدى . ولسوف يرسلون رجالهم ليساعدونا ! »

ومضى يشرح الخطة ، ولكنهم اخذوا ينصرفون تباعا ، فكف يورى عن الاصغاء اليهم . وقال فى نفسه باشمئزاز واستنكار : « انه ليبريوس الخنزير الذى يتآمرون على تسليمه للبيض ، أو قتله ! » . ونسى تماما كيف انه كثيرا ماتمنى لمعذبه الموت ، وراح يفكر : كيف يتسنى تفادى ذلك ؟ .. وقرر ان يعود الى كامينودفورسكى فيخبره بالمؤامرة ، دون أن يذكر أية أسماء .. وان يحذر ليبريوس كذلك .

ولكن كامينودفورسكى لم يكن قائما على حرق الاوراق ، حين عاد يورى ، وانما كان مساعده يراقب النار المتأججة ، ليحول دون امتدادها الى ماحولها .

ولم يقدر للجريمة ان تقع ، فقد أحبطت قبل ان تبدأ . فلقد عرف أمر المؤامرة ، كما ظهر فيما بعد ، وكشف سرها فى ذلك اليوم ذاته ، وألقى القبض على المتآمرين . اذ كان سيفوبلوى قد لعب دوره كجاسوس محرض ، مما جعل يورى يزداد اشمئزازا !

— ٩ —

• **أصبح** من المعروف أن أسرات جنود العصابات باتوا على مسيرة يوم من المعسكر ، فراح الجنود يتأهبون للقائها ، ثم للرحيل عقب ذلك مباشرة .. وذهب يورى ليرى « بامفيل باليخ » ، فوجده عند مدخل خيمته ، وفى يده فأس ، وأمامه كومة عالية من شجيرات التامول الصغيرة ، كان قد اجتثها ولكنه لم يبدأ بعد فى شقها . وكانت بعض الشجيرات قد هوت حيث كانت قائمة من قبل ، فارتطمت بكل ثقلها بالارض الرطبة ، فانغرست شظاياها الحادة فى التربة الى مسافات عميقة .. بينما كان « بامفيل » قد جر الشجيرات الاخرى من مسافات قصيرة ، ووضعها فوق تلك .. وكانت الفروع التى نمت فى الربيع تهتز وتتأرجح ، اذ ان الشجيرات لم تمتد ملاصقة سطح الارض ، ولا ملاصقة بعضها

بعضا ، فبدت وكأنها كانت تبسط أذرعتها لتصد بامفيل الذى اجتثها ، ولتسد عليه الطريق الى خيمته ، بأغصانها الكثيفة ، المتشابكة ، ذات الاوراق الخضراء .

وبادره بامفيل قائلا : « انها لضيوفى الاعزاء .. زوجتى وأطفالى . ان الخيمة جد منخفضة ، والمطر ينساب الى داخلها ، وقد قطعت هذه الاشجار لاشقها كتلا لصنع سقف »

ـ لست أقدر أن يسمحوا لك بأن تؤوى أسرتك فى خيمتك يا بامفيل . فمنذا الذى سمع بمدنيين ـ نساء وأطفال ـ يباح لهم أن يقيموا فى معسكر ؟ .. لسوف يمكثون فى العربات ، فى بقعة ما خارج المعسكر ، وسيتاح لك أن تراهم كيفما تشاء ، فى وقت فراغك . ولكنى لا أحسب أن سيكون من المسموح لهم به ان يقيموا فى خيمتك ! .. ولكننى لم آت من اجل هذا . وانما قيل لى انك تزداد هزالا ، وانك لا تستطيع الاكل ولا النوم ، فهل هذا صحيح ؟ .. على اننى اراك تبدو بخير . وان كان من الخير لك أن تقص شعرك !

وكان بامفيل رجلا ضخما ، ذا شعر أسود متهدل ، ولحية ، وجبهة بارزة ، يتخللها اخدود غائر ، فان تضخما فى العظمة الجبهية كان يضغط على صدغيه كأنه طوق او حلقة من فولاذ ، مما أكسبه حاجبين بارزين ونظرة متألقة .

وعندما خيف ـ فى أوائل الثورة ـ أن تكون الانتفاضة حدثا مبتسرا مآله الى الفشل ، كما وقع فى سنة ١٩٠٥ ، ولا يؤثر الا على القلة المتعلمة، دون أن يمس الطبقات الادنى ـ والاكثر تغلغلا ـ فى المجتمع ، بذل كل جهد لترويج الدعاية الثورية بين الناس لتحريكهم ، وتحريضهم ، وانهاض عزائمهم ، واذكاء هياجهم .. فى تلك الايام الاولى كان أمثال بامفيل ممن لا يحتاجون الى تشجيع على كراهية المثقفين ، والضباط ، والموظفين ، وعلية القوم كراهية وحشية هوجاء .. كان هؤلاء يعتبرون ـ فى نظر المثقفين اليساريين

المتحمسين - « كنزا » نادرا ، وكانوا يحظون بتقدير عظيم .. كان نبوهم عن الانسانية يبدو معجزة من معجزات الوعى الطبقى ، وكانت وحشيتهم الهمجية تبدو مثالا لحزم الطبقة الكادحة وللغريزة الثورية . وبمثل هذه المواهب وطد بامفيل سمعته ، وحظى بتقدير كبير من قادة حرب العصابات ، ومن زعماء الحزب (١) .

أما فى نظر يورى ، فان هذا العملاق البشع ، الهمجى ، بدا بميوله الضحلة وأفكاره الضيقة ، وروحه العقيمة ، انسانا منحلا ، ناقص العقل .

وقال له بامفيل : « تعال ندخل الخيمة ! »

- لا .. ولماذا ؟ ان البقاء فى العراء أدعى للانشراح . ثم اننى لا أستطيع الدخول ، على أية حال .

- لا بأس ، اختر لنفسك ما يحلو .. نستطيع أن نجلس على جذوع الشجر .

وجلسا على الشجيرات الربيعية ، ثم أخذ بامفيل يروى ليورى قصة حياته ، قائلا : « يقولون ان القصة اذا رويت فسرعان ماتنتهى . ولكن قصتى طويلة ، لا أملك ان أرويها بأكملها فى ثلاث سنوات . ولست ادرى من أين أبدأ . ولكن لا بأس ، فلأحاول : كنا - زوجتى وانا - مانزال صغيرين . وكانت هى تعنى بالبيت ، بينما أعمل انا فى الحقول . ولم تكن حياة رديئة . وقد رزقنا بأطفال . ثم أخذونى للجيش ، وأرسلونى الى الحرب . اجل ، الحرب ! ما الذى ينبغى ان اذكره لك عن الحرب ؟ لقد رأيتها بنفسك أيها الرفيق الطبيب .. ثم جاءت الثورة . ورأيت النور . وتفتحت أعين الجنود . وسمعنا ان الاجانب لم يكونوا وحدهم الاعداء . كان لدينا أعداء فى داخل الوطن كذلك .. « ياجنود الثورة العالمية ،

---

(١) أينما ذكرت كلمة « الحزب » دون تمييز ، فانما يكون المقصود بها « الحزب الشيوعى »



« وجلسا على الشجيرات الربيعية ، ثم أخذ بامفيل يروى ليورى قصة حياته .. »

نكسوا بنادقكم ، وعودوا الى دياركم ، وثوروا على البورجوازيين »» ، وما الى ذلك من نداءات . انك تعرفها أنت الآخر ، ايها الرفيق طبيب الجيش .. حسنا ، لنمض فى القصة . وجاءت الحرب الاهلية بعد ذلك ، فانضممت الى العصابات . والآن ، لا بد لى من التجاوز عن كثير من القصة ، والا فلن يقدر لها أن تنتهى أبدا .. وبعد كل ذلك ، ما الذى أراه الآن ، فى هذه اللحظة الراهنة ؟ .. ان ابن السفاح ذاك ، قد أحضر كتيبتى (ستافروبول) من الجبهة الغربية ، وكذلك فرقة أورينبورج الاولى ، من فرق القوزاق . اننى لست بالطفل . أتراني طفلا ؟ .. أو لست أفهم ؟ .. او لم اخدم فى الجيش ؟ .. انها لمهمة سيئة ايها الدكتور ، لقد انتهى أمرنا ! .. ان الذى ينتوى هذا الخنزير عمله هو أن ينقض علينا بكل هؤلاء الاوغاد . انه يريد أن يطوقنا !

« ولكننى أوتيت زوجة وأطفالا ، فكيف لهم أن ينجوا منه اذا بلغ القمة ؟ .. انهم ابرياء حقا ، وهم بعيدون عن كل شىء ، ولكنه

لن يشغل باله بذلك . لسوف يقبض على زوجتى ، ويوثق كتافها، ثم يشرع فى تعذيبها بسببى .. سيعذب زوجتى وأطفالى ، وسيهشم كل عظمة فى أجسادهم ، ولسوف يمزقهم اربا .. ثم تسألنى – بعد ذلك – كيف لا أنام ؟ .. قد يكون المرء مصنوعا من فولاذ ، ولكن هذه الامور تكفى لكى تخرجك عن طوقك ! »

– ما أغربك يا بامفيل ! .. اننى لا أستطيع أن افهمك . لقد ظللت سنوات بعيدا عن اسرتك ، حتى انك لم تكن تعرف اين هم، بل انك لم تحفل بذلك . أما وأنت توشك ان تراهم ، اذا بك تتأهب لتترنم فى جنازتهم ، بدلا من أن تكون سعيدا هانئا !

– كنت خليقا بأن اسعد فى الماضى ، أما الآن فالامر يختلف . انه – ابن السفاح الابيض – يوقع بنا ضرباته . على اننى لا أتكلم عن نفسى ، على أية حال ، فأنا قد انتهيت ، ولن ألبث ان اموت عما قريب . ولكنى لا استطيع ان اصطحب صغارى الى العالم الآخر ! .. اترانى استطيع ؟ .. لسوف يبقون ، ولسوف يقعون فى يديه الوحشيتين . لسوف يعتصر الدم من أجسادهم قطرة فقطرة !

– ألهذا تشعر بالخدر يسرى فى اوصالك ؟ .. لقد قيل لى انك ترى رؤى وهمية واشباحا ؟

– حسنا يا دكتور ، اننى لم انبئك بكل شىء ، فقد احتجزت أهم شىء . الآن سأنبئك بالحقيقة كلها ، اذا شئتها .. سأقولها لك بصراحة ،فيجب أن لا تمسكها ضدى .. لقد قضيت على كثير من صنفك ، وان يدى لمضرجتان بدم كثير من الضباط .. ضباط من علية القوم ! .. وما حملت لذلك هما البتة ، بل اننى كنت أريقه كالماء .. لقد تبددت الاسماء والارقام من ذهنى . لقد قتلت ذلك الصبى المدلل ، ولن أنسى هذا ! .. ولماذا وجدتنى مضطرا لقتله ؟ .. لقد أضحكنى ، فقتلته على سبيل المزاح .. دون ما مقابل ، كأى أحمق !

« كان ذلك فى ثورة فبراير ، فى أيام كيرنسكى . وكنا قد أعلنا

التمرد والعصيان .. وكنا على مقربة من محطة للسكك الحديدية، وقد هجرنا الجبهة ، وأرسلوا الينا شابا صغيرا ، محرضا ، ليتحدث الينا عن العودة الى الجبهة ، حتى نظل نحارب الى أن يتم النصر.. حسنا ، لقد جاء ذلك الصبى الصغير لكى يقنعنا بأن نكون جنودا طيبين . وكان أشبه بالفرخ (الكتكوت) الصغير ! .. وكان الشعار الذى راح يردده : « قاتلوا حتى النصر » ! .. وصعد فوق برميل للماء ، وراح يهتف بشعاره هذا . وكان البرميل على رصيف المحطة . لقد صعد فوقه لكى يجعل صيحته الداعية الى القتال ، تنبعث من مكان عال .. أفهمت ؟ .. وفجأة ، انقلب غطاء البرميل تحته ، فسقط فى البرميل مباشرة .. سقط فى الماء مباشرة . انك لا تستطيع أن تتصور كيف كان منظره مضحكا . لقد كاد جنباى ينشقان لفرط الضحك ! .. وكنت أمسك ببندقية . وكان الضحك يعبث بعقلى ، فلم أكن أملك ان اكف عنه .. تماما كما لو انه كان يدغدغنى !.. وما لبثت ان رفعت بندقيتى ، وسددت الرماية نحوه ، ثم أطلقت رصاصة ، فأرديته ! .. ولست أتصور كيف حدث هذا .. تماما كما لو ان شخصا ما كان يدفعنى !

« وهكذا ، كان ذلك سبب الخدر الذى يدب فى أوصالى . اننى أحلم بتلك المحطة فى الليل . لقد كان الامر مضحكا فى ذلك الحين . أما الآن .. فأنا آسف ! » .

ـ أكان ذلك فى محطة (بيريوتشى) بالقرب من مدينة (ميليوزييفو) ؟

ـ ليس بوسعى أن أتذكر .

ـ اكنت فى تمرد زيبوشينو ؟

ـ لا أتذكر !

ـ أية جبهة كنت فيها .. أهى الجبهة الغربية ؟ .. أكنت فى الغرب ؟

ـ يلوح لى ذلك .. لابد اننى كنت فى الغرب .. لست أذكر !

الفصل الثاني عشر
شجرة الدردار



« .. يا يهوذا .. يا قاتل المسيح .. ان كنا نحن خائنين مرة ، فانك لخائن ثلاث مرات .. أيها الكلب .. فلتختنق .. لقد قتلت القيصر الشرعى الذى أقسمت أمامه وعاهدته .. لقد أقسمت يمين الاخلاص والولاء لنا .. ولكنك خدعتنا وحنثت بالعهد .. »

الفصل الثانى عشر

شجرة الدردار

— ١ —

• **مضت** القافلة ومعها عائلات المشايعين والانصار ، بأطفالهم وأمتعتهم ، خلف القوة الرئيسية من الانصار .. ثم أعقبتها العربات الضخمة ، ومن ورائها قطيع كبير من الماشية يتألف من ألوف عديدة من البقر ..

وبوصول النسوة ، ظهرت فى المعسكر شخصية جديدة ، هى شخصية « كوباريخا » ، وكانت زوجة لاحد الجنود تقوم بعلاج الماشية ، كما كانت تشتغل سرا بالسحر . وكانت تمضى وهى تضع على رأسها قبعة مستديرة تنحدر على رأسها من كل الجوانب ؛ وترتدى معطفا أخضر اللون كان جزءاً من المهمات البريطانية التى قدمت للأميرال « كولشاك » .. وكانت تؤكد لكل فرد أنها صنعت هذا كله من قلنسوات المساجين وأثوابهم ، وان الحمر اطلقوا سراحها من سجن (كيزما) حيث كان الاميرال « كولشاك » قد اعتقلها لاسباب غير معروفة .

وهجر الانصار « غابة الثعلب » الى أرض جديدة ليعسكروا فيها ، وكان المفروض أن يمكثوا هناك حتى يتم استطلاعهم الامكنة المجاورة ، ويكتشفوا أماكن ملائمة لقضاء الشتاء ، ولكن الظروف المتغيرة أجبرتهم على تمضية الشتاء فى تلك الارض ..

وكان هذا المعسكر يختلف تمام الاختلاف عن المعسكر القديم .. فالغابة من حوله كثيفة ، وبعض مسالكها معقد ، وجانب منها يحيط بالمعسكر ، والطريق الوعر الطويل يمتد الى ما لا نهاية . وفى الايام الاولى للهجرة — بينما كانت الخيام تنصب ، وعندما كان لدى « يورى » بعض الفراغ — استطاع أن يكتشف الغابة من

اتجاهات عديدة ، ثم انه أقنع نفسه بأن الانسان يستطيع بسهولة أن يتيه فيها . وقد تأثر أثناء قيامه بهذه الرحلات والجولات بمكانين ظلا عالقين فى ذاكرته :

كان أحد هذين المكانين يقع فى نهاية الغابة ، خارج المعسكر ، وكانت أشجار الغابة قد جردها الخريف من أوراقها ، حتى أنك لتستطيع ان تنظر خلالها كما تنظر خلال بوابة مفتوحة ، اللهم فيما عدا شجرة منعزلة رائعة من أشجار الدردار كانت هى وحدها تحتفظ بأوراقها . وكانت هذه الشجرة تنمو على ربوة تعلو الاجمة المنخفضة ، وترتفع الى أعلى ناشرة « كئوس » ثمرات التوت البرى القرمزى ، حتى تحميه من قسوة الشتاء وتهديده ، واستقرت بعض طيور الشتاء ، من أمثال « الدغناش » و « الزمير » ــ بريشها اللامع الوضاء ، كفجر تساقط فيه البرد ــ على هذه الشجرة ، فجعلت تلتقط أكبر ثمرات التوت ، ثم تمد رقابها ، وترجع برؤوسها الى الوراء لتبتلع هذه الثمرات .

وكان يبدو كأن هناك علاقة وثيقة بين الطيور والشجرة ، كما لو أن شجرة الدردار قد راقبتها طويلا دون أن تفعل لها شيئا ، ثم فى النهاية عطفت عليها .. وكأنها قد فتحت صدارها كما تفعل الام الرؤوم ، فقدمت لها ثدييها وهى تبتسم كثيرا وتقول : « حسنا .. حسنا .. تغذى منى أيتها الطيور .. واشبعى » ..

أما المكان الآخر فكان غريبا ، كان مرتفعا ينحدر أحد جوانبه بشدة ، ولو أنك نظرت فى الوادى الضيق العميق الذى بأسفله ، لشعرت بأن لا بد أن يكون هناك فى القاع شىء مغاير لما هو على القمة .. قد يكون هذا الشىء نهرا أو أخدودا عميقا أو مرجا من الحشائش البرية ذات البذور ، ولكن الحقيقة أن الوادى كان تكرارا لقمة الهضبة على عمق يثير الدوار ، كما لو أن الغابة قد غاصت فى الارض فهبطت قمم اشجارها حتى صارت عند مستوى قدميك .. والمحتمل أنه حدث فى وقت ما انحدار أو انهيار فى الارض .

كان هذا المكان يبدو كأن هذه الغابة العظيمة الكئيبة قد تعثرت

وهى تناطح السحاب واضطربت فى مشيتها فوقعت ، مرة واحدة .. أو كأنها كانت على وشك أن تغوص فى الارض ، لولا أنها انقذت نفسها فى اللحظة الاخيرة بمعجزة .. وهكذا بقيت ـ كما هى الآن ـ آمنة هادئة ، تسمعنا حفيفها من تحتنا ..

ولكن هذا كله لم يكن السبب الذى جعل هـذا الوادى شـيئا مذكورا ، فعلى امتداد حافته كان محاطا بأحجار كبيرة من الجرانيت ترتكز على أحد أطرافها ، وتبدو مثل أطلال الآثار القديمة الملساء .. وما ان وصل « يورى » الى هذه المنطقة الصخرية حتى اقتنع تماما بأنها ليست طبيعية ، بل ان يد الانسان قد تركت أثرا عليها ، فربما تكون معبدا قديما كانت تقام فيه الصلوات وتقدم القرابين ـ فى يوم من الايام ـ من أناس غير معروفين يقومون بعبادة الاوثان ..

لقد تم هنا فى صباح يوم بارد كئيب تنفيـذ حكم الاعدام فى أحد عشر زعيما من زعماء المؤامرة ، واثنين من الجنود « المراسلة » حوكما بسبب صناعة الفودكا .. اذ قامت جماعة من الحرس من أكثر الانصار اخلاصا ـ عددها عشرون ، ومعها بعض أعضاء الحرس الخاص لـ « ليبريوس » يشدون ازرها ـ باحضار الرجال المحكوم عليهم الى هذه البقعة .. ثم التفوا حولهم فى نصف دائرة ، مندفعين الى الامام فى خطوات سريعة ، فاكتسحوا هؤلاء المحكوم عليهم الى حافة الهاوية ، حيث لم يبق لهم مفر الا السقوط الى قرارها .

وكان التحقيق ، والسجن الطويل ، وأنواع المهانة التى قاسـوا منها ، كل ذلك كان قد أزال عن وجـوه هـؤلاء المساجين كل أثر انسانى .. كانت وجوههم شاحبة ، وأجسامهم هزيلة منهـكة ، وبشرتهم سوداء داكنة .. لقد كانوا يثيرون الرعب كالاشباح تماما .

وكان قد تم نزع سلاحهم عندما اعتقلوا أول الامر ، ثم لم يقم أحد بتفتيشهم مرة أخرى قبل تنفيـذ الحكم فيهم ، فمثل هـذا التفتيش شىء لا ضرورة له ، ويدل على الخسة والضعة ، وسخرية لا مسوغ لها من رجال على شفا الموت .

وحدث فجـأة أن أطلق « رزانتسـكى » ـ وهو صـديق

« فدوفيشنكو » الذى كان يسير بجانبه ، والذى كان مثله فوضويا قديما — ثلاث رصاصات على الحرس ، جاعلا هدفه « سيفوبلوى » .. وقد كان « رزانتسكى » راميا بارعا ، ولكن يده اهتزت نتيجة لاضطرابه فأخطأ الهدف .. فاذا نفس الحكمة والتروى والعطف على الرفقاء القدامى — والتى حالت دون تفتيشهم — تمنع الحرس من الهجوم عليه أو اعدامه فورا بالرصاص جزاء لهذه المحاولة التى قام بها .. وكان فى مسدس « رزانتسكى » ثلاث رصاصات لم تطلق بعد ، ولكنه — وقد أصابه الجنون لفشله ، أو ربما لانه فى اضطرابه نسى أن هذه الرصاصات موجودة — قذف بالبراونج الذى يمتلكه بعيدا على الصخور ، فأصاب الرصاص أحد المحكوم عليهم بجراح ، كما أصاب الجندى المراسلة «باشكوليا» فى قدمه ..

وصاح « باشكوليا » وهو ممسك بقدمه ، وسقط على الارض يصرخ من الالم .. وكان رجلان واقفين على مقربة منه ، هما « سانكا بافنتكين » و « كوسكا جورازديخ » ، فرفعاه عن الارض وأمسكا بذراعيه وسحباه حتى لا يطأه رفقاؤه الذين لم يكونوا يدرون ما يفعلون، ونظرا لانه أصبح عاجزا عن وضع قدمه الجريحة على الارض ، فقد أخذ يعرج ويقفز تجاه البقعة الصخرية — حيث سيق الرجال المحكوم عليهم بالاعدام — وأخذ يصيح بلا توقف . وأثارت صرخاته القاسية ثائرة الآخرين ، وأفقدتهم السيطرة على أنفسهم .. ولن يمكنك ان تتخيل ما حدث بعد ذلك : ثارت عاصفة من النواح والبكاء والسب ، والصلوات واللعنات ! ..

ورفع « تيرنتى جالوزين » قلنسوته ، وركع على ركبتيه ، ثم تحرك — وهو ما زال راكعا — الى الخلف ، يتبع بقية الرجال تجاه الاحجار الرهيبة ، وانحنى كثيرا الى الارض أمام الحرس مجهشا بالبكاء ، وقال لهم مستعطفا فى صوت خافت وهو لا يعى تماما :

— اعفوا عنى أيها الرفاق ، انى آسف . لن أفعل ذلك مرة أخرى .. ارجوكم اطلقوا سراحى .. لا تقتلونى .. اننى لم أعش بعد .. انى اريد أن أعيش فترة أخرى من الزمن .. اريد ان ارى

اخى مرة اخرى .. ارجوكم اطلقوا سراحى .. ايها الاصدقاء .. ارجوكم اعفوا عنى .. سأفعل كل شىء من أجلكم .. سأقبل الارض تحت أقدامكم .. أواه ، الرحمة .. الرحمة .. يا أماه .. لقد يئست ..

ثم — فى صوت هادىء بطىء — أخذ أحد الافراد الآخرين ، وكان مختبئا بين الجميع ، يغنى :

— أيها الرفاق الطيبون .. أيها الرفاق ذوو القلوب العطوفة الرحيمة .. كيف يمكن هذا ؟ لقد قاتلنا معا فى حربين اثنتين .. أطلقوا سراحنا أيها الزملاء .. سنرد اليكم هذا العطف .. سنشعر بالامتنان لكم اذ تنقذون حيواتنا .. سنبرهن لكم على هذا بأعمالنا .. هل أصابكم الصمم ، أم ماذا ؟ .. لماذا لا تجيبون ؟ .. ألا يوجد المسيح بداخل نفوسكم !

وصاح آخرون فى « سيفوبلوى » :

— يا يهوذا .. يا قاتل المسيح .. ان كنا نحن خائنين مرة ، فانك لخائن ثلاث مرات .. أيها الكلب .. فلتختنق .. لقد قتلت القيصر الشرعى الذى أقسمت أمامه وعاهدته .. لقد أقسمت يمين الاخلاص والولاء لنا .. ولكنك خدعتنا وحنثت بالعهد .. فهيا اعط قبلة لشيطانك — فورستر — قبل أن تخونه .. فانك حتما ستخونه وتخدعه حالا !

وعلى حافة القبر ، ظل « فدوفيشنكو » صادقا مع نفسه — كما كان طيلة حياته — وقال ورأسه مرتفع ، والريح تعبث بشعره الرمادى ، موجها كلامه الى « رزانتسكى » فى صوت عال يستطيع أن يسمعه الجميع :

— لا تهن نفسك وتشعرها بالمذلة .. ان احتجاجك لن يصلهم .. ان هؤلاء الرجال الذين يشبهون رجال الامن فى عصر ايفان الرهيب ، وهؤلاء الذين يشرفون على غرف التعذيب الجديدة ، لن يفهموك أبدا .. ولكن لا تبتئس .. ان التاريخ سيقول الحقيقة ، كما ان الاجيال القادمة ستصم بالخزى والعار ، هؤلاء الرجال أشباه

أسرة « البوربون » ، وستشهر بأعمالهم السوداء القذرة .. اننا نموت كضحايا فى فجر الثورة العالمية .. مرحبا بثورة الروح ، مرحبا بالفوضوية العالمية !

ثم تدفق من بنادق الجنود سيل من عشرين رصاصة ، فحصد نصف المحكوم عليهم دفعة واحدة ، مصيبا معظمهم فى مقتله . أما الآخرون فقد أطلق عليهم مدفع آخر .. واختلج الفتى « تيرنتى جالوزين » طويلا ، وأخيرا رقد فى صمت وسكون ..

— ٢ —

• ولم يقلع الانصار بسهولة عن فكرة الهجرة الى أقصى الشرق لقضاء فصل الشتاء ، فأرسلوا الكشافين لارتياد المنطقة فيما وراء الطريق الكبير ، على امتداد مقسم المياه « فيتسك كيزما » ، وكثيرا ما كان « ليبريوس » يغيب تاركا « يورى » لنفسه يفعل ما يشاء .

ولكن الحقيقة أن الوقت كان متأخرا بالنسبة للأنصار لكى يهاجروا الى أى مكان آخر ، كما انه لم يكن هناك أى مكان يلجأون اليه . وكان ذلك أسوأ وقت ينتكسون فيه .. فالبيض ، بعد أن قرروا ان ينقضوا على الوحدات غير المنتظمة الموجودة فى الغابة ، أحاطوا بهم — قبل هلاكهم بوقت قصير — وكانوا يضغطون عليهم من كل جانب . ولو أن قطر دائرة الحصار كان أقل من ذلك لحلت بالحمر كارثة . لقد كان لحجم الدائرة أثر فى حمايتهم ، ذلك لأن الشتاء الذى كان يزحف عليهم قد جعل اقتحام الغابة عسيرا ، وحال بين العدو وبين احضار وحداته لتضييق الحصار على جيش الفلاحين .

ومع ذلك ، أصبحت الهجرة مستحيلة عليهم ، وقد كان فى استطاعتهم حقا أن يتدفقوا الى مراكز جديدة لو أنه كانت لهم خطة ذات مزايا عسكرية خاصة ، ولكنهم لم يكونوا قد درسوا مثل هذه الخطة . كانوا قد ضاقوا ذرعا بالحياة ، وحل بهم الفقر والعوز والفاقة ، وفقد القواد الصغار أملهم ، كما فقدوا نفوذهم وسيطرتهم

على اتباعهم .. وكان كبار القواد يجتمعون فى الليل ويقترحون بعض الحلول المتضاربة ، ثم انتهى الامر أخيرا بأن تخلوا عن فكرة تغيير المعسكر ، وقرروا تدعيم المراكز الخالية فى قلب الغابة ، فميزة هذه المراكز أن الثلوج تجعلها عسيرة المنال فى الشتاء ، وخصوصا أن البيض ليست لديهم أحذية لوقايتهم من الثلوج . وكانت هناك مهمة عليهم ان يسرعوا بتنفيذها ، وهى حفر كهوف كبيرة يقبعون فيها ..

وأعلن قائد المعسكر عن نقص خطير فى الدقيق والبطاطس ، ولكن الماشية كانت كثيرة ، وكان من رأيه أن الطعام الرئيسى فى الشتاء يجب أن يقتصر على اللبن واللحوم .. وكذلك كان هناك نقص فى الملابس الشتوية ، حتى لقد كان بعض الانصار يتجولون وهم أنصاف عرايا .. ثم انه تقرر قتل كلاب المعسكر ، وانهمك ذوو الخبرة فى شئون الفراء فى صناعة سترات من جلود الكلاب ..

وحرم على « يورى » استخدام وسائل النقل لاحضار الجرحى، فقد احتجزت العربات لامور أهم من ذلك . وفى آخر مرة قام فيها الانصار بتغيير معسكرهم ، تم حمل الجرحى على نقالات مسافة ثلاثين ميلا ..

وكانت الادوية الوحيدة فى المعسكر هى « الكينين » ، وأملاح « جلوبر » ، واليود . وكان اليود على هيئة بلورات ، وكان لابد من اذابته فى الكحول قبل أن يستخدم فى الجروح والعمليات . وتحسر الجميع على الفودكا . ثم بدأت من جديد صناعة الكحول رسميا ـ بعد أن كانت قد ألغيت ـ وذلك لاغراض طبية . وأعرب الجميع بالايماءات والغمزات عن ابتهاجهم بهذه الانباء ، وانتشر شرب الخمور والعربدة مرة أخرى . وساهم هذا كله فى اضعاف الروح الاخلاقية عامة ، بل القضاء عليها .

وكان الكحول الذى يأتون به نقيا مائة فى المائة ، ولذلك كان مفعوله قويا فى اذابة بلورات اليود ، وكذلك فى تحضير محلول

الكينين ، وكان هذا المحلول يستخدم فى علاج التيفوس ، الذى أصبح وبائيا بشكل خطير مرة أخرى ، بسبب الطقس البارد . .

— ٣ —

• **وذهب** يورى لزيارة « بامفيل » وعائلته ، وكانت زوجته وأطفاله الثلاثة (بنتان وولد) قد أمضوا الصيف الماضى كله مشردين فى الطرقات المتربة ، تحت السماء العريضة الواسعة . لقد أفزعتهم تجاربهم وملأت قلوبهم رعبا ، وكانوا يعيشون وهم يتوقعون مخاوف جديدة . وكان الاربعة ذوى شعر خفيف جعلته الشمس فى لون الكتان ، وذوى حواجب ثقيلة بيضاء ، على عكس وجوههم التى لوحتها الشمس وأثر فيها الطقس كثيرا فصارت داكنة . ولكن ، بينما كان الاطفال الصغار لا تبدو عليهم آثار ارتياعهم وأحزانهم وآلامهم ، كان وجه الام شاحبا لا حياة فيه . وقد عمل الخوف والتوتر العصبى الذى عاشت فيه على تضييق شفتيها الى خط رفيع ، كما تحولت ملامحها الجافة المنتظمة الى جمود ، من أثر المعاناة وحالات الدفاع التى قاستها .

وقد كرس « بامفيل » حياته لهم جميعا ، وكان يحب أطفاله الى درجة الجنون . ولقد ادهش « يورى » بمهارته فى نحت اللعب للأطفال على هيئة أرانب وديوك ودببة ، مستخدما طرفا من سلاح فأسه الحادة .

وقد شعر بالبهجة والسرور عند ما وصلت عائلته ، وبدأ يستعيد نشاطه . ولكن الانباء سرت بأن القيادة قد اعتبرت وجود العائلات شيئا يسىء الى النظام ، وأنه لذلك سيتم ترحيلهم تحت حراسة قوية الى مخيمات الشتاء على بعد من المعسكر ، حتى يتحرر العسكريون من أعباء المدنيين الذين لا فائدة منهم . على أن الحديث عن هذه الخطة كان أكثر من الاستعداد الحقيقى لتنفيذها ، حتى لقد أعرب « يورى » عن شكه فى تنفيذها والعمل بها ، ولكن

الحزن طغى على « بامفيل » ، وعادت اليه نوبة من التوجس كانت كثيرا ماتنعابه .

— ٤ —

• وقبل أن يحل الشتاء نهائيا ، عانى المعسكر فترة من الاضطرابات والقلاقل والشكوك ، واضطرب فى مواقف معقدة كثيرة هددت حياته ، وأحداث غامضة لا منطق لها .. فقد أتم البيض الحصار طبقا للخطة ، وكان على رأسهم « فيتزن » و « قدرى » و « بساليجو » . وكان هؤلاء الثلاثة مشهورين بقسوتهم وغلظتهم وقراراتهم الصارمة ، وكانت أسماؤهم وحدها كافية لاثارة الرعب والفزع بين اللاجئين داخل المعسكر ، كما كانت تثيرهما بين المواطنين الاميين الذين مازالوا فى قراهم فى مؤخرة القوات المحاصرة .

ولم يكن العدو يرغب فى تضييق الخناق ، ولا كان هناك من سبب يجعل الانصار يقلقون بشأن هذا الامر ، ولكن كان من المستحيل عليهم أن يظلوا عاجزين عن القيام بأى عمل ، فقبولهم لهذا الموقف يقوى من روح العدو المعنوية . ورغم انهم كانوا يعيشون فى أمن وسلام داخل هذا الفخ الذى وقعوا فيه ، الا أنه كان عليهم أن يجدوا لهم مخرجا ، ولو كمظهر من المظاهر العسكرية..

وخصصت قوة كبيرة لهذا الغرض ، تركزت مهمتها فى مواجهة القوس الغربى للدائرة ، وأوقعت فعلا بالبيض هزيمة كبيرة ، وتغلغلت الى مؤخرتهم بعد قتال عنيف استمر عدة أيام .

وأدى هذا التصدع الى فتح طريق للمعسكر فى الغابة ، ومنه تدفق سيل من المهاجرين الجدد ، لم يكونوا على صلة بالانصار والمشايعين . ثم ان الفلاحين ـ الذين يعيشون فى المناطق الريفية المجاورة ـ هربوا من منازلهم ، خوفا من الاجراءات التعسفية التى يتخذها البيض ، وأخذوا يفكرون فى الانضمام الى جيش الفلاحين الذى كانوا ينظرون اليه على أنه حاميهم الطبيعى ..

ولكن قيادة المعسكر كانت تتطلع فى شغف الى التخلص من الذين

تتكفل بهم ، ولا تريد أن تتحمل أعباء القادمين الجدد والغرباء . فأرسلت الرسل لمقابلة الهاربين والمهاجرين وتحويلهم الى قرية تقع على نهر « شيليمكا » اسمها « دفورى » ، كان مقررا جعلها مأوى للاجئين فى فصل الشتاء ، وارسال المؤن التى تم الاستغناء عنها مؤقتا لهم ..

وبينما كانت القيادة تتخذ هذه الاجراءات ، كانت الاحداث تمضى فى طريقها ، ولم تستطع القيادة أن تحول دون وقوعها . فقد أغلق العدو الثغرة التى حدثت فى صفوفه ، وأصبحت الوحدة التى تسربت عن طريق هذه الثغرة عاجزة عن العودة الى الغابة .

ومما ضاعف من متاعب الانصار والمشايعين ، أن النسوة اللاجئات كن يسلكن ويتصرفن بطريقة غريبة ، فقد كانت كثافة الغابة تجعل من العسير العثور على أماكنهن . وعندما كانت الرسل تحاول اقتيادهن ، كن يعتصمن بالغابة ويقطعن الاشجار وينشئن الطرق والجسور ، ويحققن الكثير من العجائب على طول الطريق . ولم يكن أى من هذه الاشياء مطابقا لخطة قيادة الانصار وأفكارها، ومن ثم وجد ليبريوس أن خططه قد انقلبت رأسا على عقب ..

— ٥ —

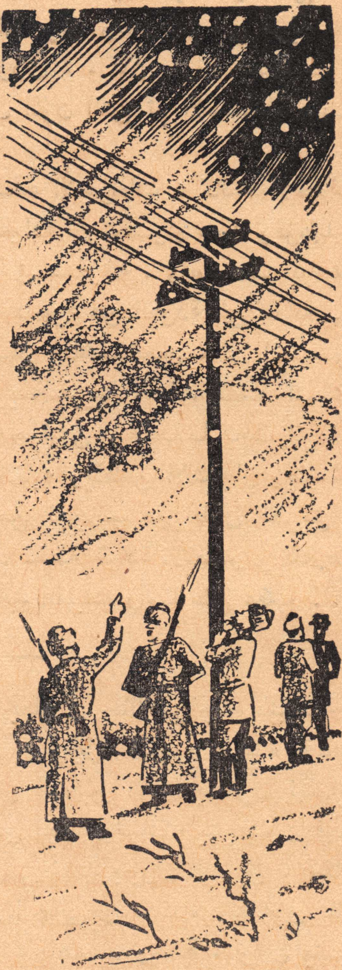
• **وكان** هذا هو السبب الذى جعله فى حالة مزاجية عنيفة ، وهو يقف متحدثا الى « سفريد » ، الرجل المشهور بوضع خطط الحصار ، وذلك بالقرب من الطريق الكبير الذى يخترق نهاية الغابة . وكان يقف فى الطريق بعض أعضاء قيادته يتجادلون فيما اذا كانوا يقطعون أسلاك التلغراف التى تمتد بجوار الطريق . وكان من حق ليبريوس أن يصدر القرار النهائى فى ذلك ، ولكنه فى تلك اللحظة كان يتحدث الى « سفريد » باهتمام وحدة ، وكان يشير الى الآخرين بالتزام الصمت وانتظاره حتى يفرغ من حديثه ..

وقد تأثر « سفريد » تأثرا عميقا باطلاق الرصاص على « فدوفيشنكو » ، الذى كانت جريمته الوحيدة أنه كان ينافس

ليبريوس ، وبذلك حدث انقسام فى المعسكر . وكان « سفريد » يتمنى لو انه ترك الانصار وعاد الى حياته القديمة الخاصة المستقلة ، ولكن لم يكن فى وسعه ذلك . لقد احتار بين الامرين ، ولو انه ترك رفقاءه فى الغابة الآن لاصابه ما أصاب « فدوفيشنكو » !

وكان الطقس قاسيا فظيعا ، وريح صرصر عاتية تجتاح أمامها السحب الممزقة السوداء التى فى لون « الهباب » المتطاير على ارتفاع منخفض من الارض .. وسقطت الثلوج من هذه السحب فى سيل أبيض سريع ، وفى الحال تغلف الافق وأصبحت الارض كملاءة بيضاء . ولكن ما أن مرت دقيقة واحدة حتى تبخرت الملاءة البيضاء ، وانصهرت الى حبيبات صغيرة جدا ، وعادت الارض سوداء كالفحم تحت السماء ، وقد رشت بخيوط منحدرة من مياه السيول البعيدة ، ولم تستطع الارض أن تتشرب مزيدا من الماء .

وعندما تتكسر السحب وينفصل بعضها عن بعض ، كانت تحدث فراغات كنوافذ فتحت لتهوية السماء . وكانت الارض تتجاوب



« .. كان يقف فى الطريق بعض أعضاء قيادته يتجادلون فيما اذا كانوا يقطعون أسلاك التلغراف التى تمتد بجوار الطريق .. »

مع السماء فى ذلك ، فكانت البرك والحفر التى تمتلىء بالمياه تسطع وتتألق . وكان المطر ينساب على أشجار الصنوبر ، فتبدو كثياب مبللة بالزيت . كما أن أسلاك البرق كانت تعلق بها قطرات الماء ، كل قطرة بجوار الاخرى مثل الخرز ، وكأنها لن تسقط أبدا .

وكان « سفريد » أحد هؤلاء الذين أرسلوا لمقابلة النسوة الهاربات، وكان يتمنى لو يقول لرئيسه شيئا عما رآه ، كالاضطراب الذى نتج عن الاوامر التى لا يمكن أن تنطبق على الظروف المحيطة، والتى يتناقض الواحد منها مع الآخر ، والافعال المرعبة التى ارتكبتها أضعف النساء عندما فقدن الثقة ، وأصابهن اليأس والقنوط . فقد تخلت الامهات الصغيرات المنهوكات القوى ، واللائى لم يعد فى صدورهن لبن يطعمن به صغارهن ، واللائى كن يسرن فى أعياء على أقدامهن حاملات اللفائف والاطفال والجوالات، تخلين عن أطفالهن ، وأسقطن القمح على الارض من الجوالات التى يحملنها ، وعدن من حيث أتين .. لقد صرحت النسوة بأنهن يفضلن أن يقعن فى قبضة العدو ، على أن تمزقهن وحوش الغابة اربا اربا !

وعلى الرغم من ذلك ، كانت النساء ـ بصفة عامة ـ قويات العزيمة ، فقد أظهرن شجاعة نادرة ، وسيطرن على أنفسهن بدرجة لا يعرفها الرجال .

وكان لدى « سفريد » أشياء كثيرة يريد أن يقصها على رئيسه . كان يريد أن يحذره من حدوث ثورة اخرى ، ثورة أكثر خطرا من تلك التى تم اخمادها ، ثورة يخيم شبحها على المعسكر ، ولكنه كان مترددا . كما أن ليبريوس بكلامه السريع لم يترك له فرصة للحديث ، ولم يكن السبب فى نفاد صبر ليبريوس أن أصدقاءه كانوا ينادونه ويلوحون له بأيديهم من الطريق الكبير ، ولكن لانه كان فى الاسبوعين الاخيرين قد تلقى تحذيرات مشابهة مرات كثيرة ، وهو الآن يعرفها جيدا ويحفظها عن ظهر قلب .

قال « سفريد » :

ـ بعضا من وقتك يا سيدى الرفيق . ان الكلمات تقف فى حلقى ، انها تخنقنى . ان ما أريد أن أقوله هو ان تذهب الى معسكر النساء ، وتأمرهن بأن يتوقفن عن هذه الترهات .. والا فانى أريد أن أسألك : ماذا سيؤدى اليه هذا الامر ؟ هل سيؤدى الى الهتاف ضد كولشاك ؟ أم الى حرب اهلية بين النسوة ؟

ـ اختصر حديثك ولا تطل .. انت تعلم أن هناك من ينادينى ..

ـ هناك هذه المرأة الشيطانة التى اسمها « كوباريخا » .. الشيطان وحده هو الذى يعلم من هى .. انها تقول : اجعل منى امرأة تشرف على الماشية ..

ـ طبيبة بيطرية .. أليس هذا ماتعنيه ؟

ـ هذا ما أقوله ، امرأة تشرف على علاج الماشية من البرد ، ولكنها لا ترعى الماشية الآن .. هذه المرأة اللعينة الملحدة ربيبة الشيطان ، أنها تطالب بأشياء كثيرة للبقر ، وتحول بين الزوجات الصغيرات اللاجئات بين أداء واجبهن ، وتقول لهن : « لا تلمن الا أنفسكن على ما انتن فيه من آلام وبؤس .. ان هذا كله نتيجة اهتمامكن وجريكن وراء العلم الاحمر .. فحذار أن تفعلن ذلك مرة أخرى ! »

ـ هؤلاء اللاجئون الذين تتحدث عنهم ، أهم لاجئون من المعسكر أم لاجئون آخرون ؟

ـ آخرون بالطبع .. ان اللاجئين الجدد هم الغرباء .

ـ ولكن .. لقد صدرت اليهم الاوامر بالذهاب الى (دفورى) ، فكيف حضروا الى هنا ؟ ..

ـ (دفورى) ؟ هذا شىء عظيم .. لقد احترقت (دفورى) : طاحونتها وكل شىء فيها ، ولم يعد هناك الا رماد .. وهذا مارأوه عندما ذهبوا الى هناك ؛ لا شىء على قيد الحياة ، لا شىء بل رماد واطلال .. وقد أصيب نصفهم بالجنون وصرخوا وعادوا مسرعين الى البيض ، أما النصف الآخر فقد جاء الى هذا الطريق ..

– ولكن كيف ساروا فى الغابة وفى المستنقعات ؟

– وما فائدة الفئوس والمناشير اذن ؟ .. لقد ساعدهم بعض زملائنا الذين بعثنا بهم اليهم لحمايتهم ، وهم يقولون انهم قطعوا عشرين ميلا من الطريق ، وتحدثوا عن النسوة وكيف فعلن أشياء تستغرق منا شهورا طويلة ..

– شيء جميل ! عشرون ميلا من الطريق .. ولكن ماذا يجعلك تبدو مسرورا هكذا أيها الابله .. ؟ ان هذا بالضبط مايريده البيض .. انهم يريدون طريقا كبيرا فى الغابة . الآن ليس عليهم الا أن يتقدموا بمدفعيتهم فقط .

– عليك بقوة .. ارسل اليهم قوة لتضليلهم !

– أنى سأفعل ما أشاء .. أشكرك على النصيحة !

– ٦ –

• وبدأ النهار يتقاصر ، وأمسى الظلام يخيم على الكون فى الساعة الخامسة . وما ان اقترب الغسق حتى عبر يورى الطريق الكبير ، حيث كان ليبريوس واقفا يتحدث مع « سفريد » منذ بضعة أيام .. كان فى طريقه عائدا الى المعسكر ، وبالقرب من المنطقة القاحلة الجرداء – حيث الهضبة وشجرة الدردار تحدان المعسكر – سمع صوت « كوباريخا » القوى المتحدى ، « كوباريخا » منافسته التى يسميها مستهزئا « طبيبة الماشية » ! كانت تغنى فى مرح وسرور ، وكان فى صوتها « بحة » عالية ، كأنه مجهد .. واذا كان لنا أن نستنتج من الضحكات المتواصلة وصلصلة الاجراس المستمرة ، لقلنا أنه كان هناك جمع من الرجال والنساء ينصتون . ثم ساد الصمت والسكون ، فلا بد ان الناس قد تفرقوا ..

وبعد أن تأكدت « كوباريخا » انها قد أصبحت وحدها ، اخذت تغنى اغنية اخرى ، فى رقة وعذوبة ، كأنها تغنى لنفسها .. وتوقف « يورى » الذى كان يسير فى حذر فى هذا الغسق ، فى

المر الذى يحد المستنقع أمام شجرة الدردار . وكانت الاغنية تتناهى الى أذنيه كأغنية شعبية قديمة ، ولكنه لم يعرفها .. على أنه ربما كانت « كوباريخا » ترتجل هذه الاغنية من تلقاء نفسها .

والاغنية الشعبية فى روسيا ، قديما ، تشبه الماء وهو يتدفق فى « عيون القناطر » : يبدو هادئا ساكنا ، وهو فى أعماقه لا يكف عن الاندفاع خلال الفتحات ، وما هدوءه الا ستار يغطى حقيقته !

وقد حاولت هذه الاغنية ، بكل وسيلة ممكنة ـ عن طريق التكرار والتشبيهات ـ أن تتوقف أو تهدىء من حدة موضوعها ، حتى وصلت الى نقطة حاسمة ، وحينئذ كشفت فجأة عن نفسها .. وفى هذه المحاولة المجنونة لايقاف تدفق الزمن ، اذا بروح حزينة تكظم غيظها ، وتجد الطريقة للتعبير عن ذاتها ..

وكانت « كوباريخا » كأنها تغنى ، وكأنها تتكلم ، وهى تقول :

« كأرنب برى يجرى فى أنحاء العالم ..
فى أنحاء العالم .. على الثلوج البيضاء
أخذ يعدو .. ذلك الارنب الابيض ذو الاذنين المرتخيتين
أمام شجرة الدردار ، وأخذ يشكو لها :
أليس لى ـ أنا الارنب البرى ذو الاذنين المرتخيتين ـ قلب يخاف ، يخاف الوحش الكاسر ..
الوحش الكاسر ، والذئب الجائع المفترس ؟
ارحمينى يا شجرة الدردار .. يا شجرة الدردار الجميلة
لا تهبى جمالك للعدو ، اللدود الغادر
العدو الغادر ، والصقر الشرير .
اقذفى بثمرات توتك الاحمر للرياح ..
اقذفى بها للرياح بكميات كبيرة ، ودعيها تحمل هذه الثمرات
الى بقاع العالم ، على الثلوج البيضاء ..
اقذفى بها ، وابعثيها الى مدينتى الحبيبة ..
الى أقصى الشارع ، الى البيت الاخير ..

البيت الاخير فى الشارع ، آخر نافذة ، آخر حجرة ..
حيث يقبع فى وحدة تامة ..
حبى العزيز ، حبى الذى أتوق اليه
اهمسى فى أذن حبيبتى الملتاعة ، فى أذن عروسى الجميلة
بكلمة دافئة حارة ..
أنا جندى ، أتألم فى سجنى ..
مريض أنا ، ذلك الجندى التعيس ، والقابع فى أماكن غريبة عنه
لسوف أهرب من هذا السجن المرير ..
سأذهب الى توتتى الحمراء ، الى حبى الجميل .. »

— ٧ —

• **وكانت** أجاثا — زوجة بامفيل — قد أحضرت بقرتها العليلة الى « كوباريخا » ، وتم عزل البقرة عن القطيع ، وشدت الى شجرة بحبل مربوط فى قرنيها ، وجلست صاحبتها على جذع شجرة عند قدميها الخلفيتين ، أما كوباريخا فقد جلست على كرسى صغير عند قدميها الاماميتين ..

أما بقية القطيع الذى لا حصر له ، فقد انحصر فى الممر ، تحيطه من كل جانب الغابة الظلماء ، الغاصة بأشجار الصنوبر المخروطية الشكل ، الطويلة كالتلال .. والتى تجعلها فروعها المنحدرة الكثيرة كأنها جالسة على الارض ..

وكانت الابقار كلها سوداء وبيضاء ، وتنتمى الى عائلة سويسرية مألوفة فى سيبريا . وكانت متعبة منهكة ، لا تقل فى ذلك عن أصحابها ، بسبب نقص الغذاء ، وبسبب الرحلات التى لا تنتهى ، وبسبب ضيق المكان الذى تعيش فيه . فكانت كل بقرة تحتك بالاخرى تشعر بالهياج وتنسى جنسها ، وتقف على قدميها الخلفيتين وتثب على ظهر الاخرى ، ثم تجهد نفسها وهى تحمل ضروعها ، وتخور مثل الثيران . وتسرع العجول الصغيرة التى كانت راقدة

تحت هذه الابقار بالهروب مندفعة الى الغابة ، وهى تهز ذيولها فى الهواء ، وتطأ العشب وفروع الشجر بأقدامها .. وهنا يجرى الرعاة من أطفال ورجال خلفها ، وهم يصيحون بصوت عال ..

ثم ان السحب البيضاء والسوداء تتجمع وتضطرب كالابقار تماما ، كما لو أن الدائرة الضيقة من قمم الاشجار ـ التى ترتفع فى سماء الشتاء فوق الممر ـ قد حصرتها وضيقت عليها الخناق..

وتضايقت الساحرة من المتفرجين الذين كانوا يقفون على بعد منها ، وأخذت تحدجهم من أعلى الى أسفل بنظرات شريرة قاسية، ولكن كان مما يضعف كرامتها كفنانة ان تعترف بأنهم قد أزعجوها، لذلك قررت ألا تلقى اليهم بالا ، وأخذ يورى يراقبها من خلف الجمع الكبير ، من غير أن تراه .

وكانت هذه أول مرة يستطيع أن يراها فيها ويملأ منها نظره ، وكانت تضع على رأسها قبعتها التى اعتادتها ، وترتدى معطفها الاخضر ذا الياقة المتكسرة الذى حصلت عليه من الجيش البريطانى، ولكن منظر التعالى والتعبير العاطفى الذى يكسو وجه هذه المرأة العجوز فيعطيها حيوية الشباب ، كان ينم عن عدم اكتراثها بما ترتدى أو لا ترتدى ..

وقد أدهش يورى ذلك التغير الذى طرأ على زوجة « بامفيل » ، فقد كانت عيناها تكادان تخرجان من محجريهما ، كما ان رقبتها كانت طويلة ونحيلة مثل يد العربة . لقد كبرت سنوات ، فى الايام القليلة الماضية ، حتى ان « يورى » لم يعرفها الا بصعوبة شديدة. وكان هذا كله نتيجة مخاوفها التى تعتمل فى نفسها ..

قالت « أجاثا » : « ان هذه البقرة لا تدر لبنا .. أعتقد انها قد تكون تعانى من مرض فى فخذها .. »

ـ ولماذا فى فخذها ؟ يمكنك أن تتأكدى من البثور التى يكونها الطاعون البقرى على ضرعها . سأعطيك بعض زيوت الاعشاب لتدلكى بها الضرع ، وطبعا سأهمس لها ببعض الكلمات ..

ــ ومشكلتى الاخرى هى زوجى ..

ــ سأستخدم الطرق السحرية لاستعيده لك حتى لا يهرب ، هذا أمر سهل .. سوف لا يفترق عنك أبدا ، حتى انك لن تستطيعى الخلاص منه .. ما مشكلتك التالية ؟

ــ انه لا يهرب ، فهذا لا يهم .. المشكلة هى أنه يتعلق بى وبالاطفال بكل طاقته وقوته ، وهذا يحطم قلبه .. انى أعرف انه يفكر ، يفكر فى أنهم سوف يقسمون المعسكر .. سيرسلوننا الى مكان ويرسلونه الى مكان آخر .. وسوف نقع فى قبضة رجال « بساليجو » . ولن يكون هو هناك ، ولن يكون لنا احد يعضدنا ويقف بجوارنا .. وسوف يعذبوننا ، ويبتهجون لآلامنا ، انى أعرف أفكاره ، وأخشى أن يؤذى نفسه ..

ــ سأفكر فى هذا الامر .. سأبحث عن سبيل لانهاء أحزانك .. ماهى مشكلتك الثالثة ؟

ــ ليس لى مشكلة ثالثة .. هذا كل ما هنالك : بقرتى ، وزوجى ..

ــ انك فقيرة فى أحزانك يا عزيزتى .. ان الله رحيم بك ، من الصعب العثور على مثلك .. انك مثل ابرة فى كومة من القش .. مشكلتان فقط فى قلبك .. احداهما زوج محب غيور .. حسنا .. لنبدأ .. ماذا ستعطيننى من أجل البقرة ؟

ــ ماذا تريدين ؟

ــ أريد رغيفا من الخبز .. وزوجك ..

وهنا ضج المتفرجون بالضحك ..

ــ اتمزحين ؟

ــ أهذا كثير ؟.. حسنا .. لا داعى للرغيف .. سأقتصر على زوجك ..

فارتفع الضحك ..

ــ ما الاسم .. ؟ اسم البقرة ، لا اسم زوجك .. !

– « بيوتى » ..

– نصف القطيع يسمى بهذا الاسم .. نبدأ بشكر الله ..

وبدأت تتلو الادعية السحرية للبقرة . والحقيقة انها كانت فى أول الامر مهتمة بالبقرة ، ولكنها بعد لحظة بعدت عن الموضوع ، وأخذت تعطى لزوجة « بامفيل » – « أجاثا » – تعليمات عن السحر .. وأخذ « يورى » ينصت وهو مشدوه ، كما كان ينصت – عندما وصل لاول مرة الى سيبريا قادما من روسيا الاوربية – الى الحديث الرقيق من السائق « باكوس » ..

وكانت المرأة تقول :

– يا عمتى مارجستا .. تعالى وانزلى ضيفة علينا .. تعالى يوم الاربعاء .. أزيلى المرض .. وأزيلى السحر .. وأزيلى الجرب والاسقربوط .. أما أنت أيتها الدودة الحلقية ، فاتركى ضرع العجلة الصغيرة .. ويا أيتها البقرة ، اثبتى فى مكانك ، قومى بواجبك .. لا تقلبى دلو الحليب .. اثبتى فى مكانك كالتل .. دعى اللبن يجرى وينساب . ويا أيها الرعب ، أظهر قوتك وشجاعتك .. اعمل على ازالة فساد الدم .. أزل الجرب .. وألق به بعيدا .. ان كلمة الساحر ذات قوة عظيمة كقوة الحاكم ..

« من هذا ، يا عزيزتى « أجاثا » ، يجب أن تعرفى كل شىء : كيف تأمرين ، وكيف تمنعين . تعرفين الكلمات التى تعمل على هروب الارواح الشريرة ، والكلمات التى تعمل على الطمأنينة والهدوء . عليك أن تعرفى معنى كل شىء . فمثلا أنت .. انك تنظرين هنالك وتقولين لنفسك : « ها هى ذى الغابة » .. ولكن الذى هنالك هو قوى الشر تصارع قوى الخير والملائكة ، انها فى حرب .. مثل رجالك مع رجال « بساليجو » ..

« أو خذى مثلا آخر .. أنظرى الى حيث أشير بأصبعى .. انك تنظرين الى طريق آخر يا عزيزتى .. استخدمى عينيك .. لا خلف راسك .. انظرى الى حيث أشير بأصبعى .. مضبوط ..

والآن ، ماذا تظنين هذا الشىء ؟ تعتقدين أنه فرعا شجرة تشابكا مع بعضهما بفعل الرياح ؟ .. أو طائرا يبنى عشه ؟ .. انه لا هذا ولا ذاك .. ان هذا الشىء الذى ترينه هناك ماهو الا لعبة من لعب الشيطان .. انه اكليل من الزهور بدأت ربة الماء فى صناعته لابنتها، ثم انزعجت لما سمعت الناس تغدو وتروح ، ولهذا تركته دون أن تتمه ، ولكنها ستنتهى منه فى احدى الليالى ، وسترين ذلك بنفسك ..

« ومثلا آخر .. شعارك الاحمر .. تعتقدين انه علم . أليس هذا ما تعتقدينه ؟ انه ليس علما .. انه المنديل الارجوانى للمرأة التى ماتت . انها تستخدمه للاغراء . ولماذا للاغراء ؟ انها تلوح به ، وتومىء ، وتغمز ، وتفتن الشباب ليأتى ويموت ، وحينئذ ترسل المجاعة والطاعون .. هذا هو الشعار الاحمر . وقد اعتقدت أنه علم ، واعتقدت أنه يقول : « تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الاحمال وانا أريحكم »

« ان عليك أن تعرفى كل شىء فى هذه الايام يا عزيزتى « أجاثا » .. كل شىء .. عن الطائر .. وعن الاحجار .. وعن الاعشاب .. فمثلا هذا الطائر هو « الزرزور » .. وهذا الحيوان هو « عناق الارض » ..

« والآن ، شىء آخر .. لنفترض أنك فكرت فى شخص أخبرتنى به ..سأجعله يحبك ، مهما كان هذا الشخص .. سواء أكان « فورستر » الذى يسيطر عليكم .. أم كولشاك ، أم الامير ايفان ! (١) . انك تعتقدين الآن انى أبالغ ؟ الحق أنى لا أفعل ذلك .. انظرى ، سأحدثك بكل شىء .. عندما يأتى الشتاء بثلوجه واعاصيره ورياحه التى تتسابق فى الحقول ، سأضرب بسكين فى عمود من هذه الثلوج حتى مقبضها ، وعندما أستلها من الثلوج

---

(١) الأمير « ايفان » شخصية مشهورة فى القصص الخرافية الروسية مثل « الشاطر حسن » عندنا .

ستكون حمراء من الدم .. هل سمعت بمثل هذا . ؟ أتسألينني كيف يأتى هذا الدم من ثلوج ليست مصنوعة الا من الرياح والماء ؟ هذا هو الواقع يا عزيزتى .. ان هذه الثلوج ليست رياحا وماء .. انها انسان انقلب « ذئبا » .. ساحر فقد طفله ، فهو يبحث عنه .. انه يمضى فى الحقول يصيح ويبحث عنه ... وهذا هو ما غمست فيه سكينى .. وهذا هو السبب فى أن الدماء علقت بها .. والآن ، بسكينى هذه أستطيع أن اعرف آثار أقدام اى رجل ، واستطيع ان اخيطها على قميصك بخيوط من حرير ، وسوف يتبعك هذا الرجل مهما كان ــ سواء أكان « كولشاك » أم « ستريلنيكوف » أم اى قيصر جديد نصبوه ــ خطوة خطوة حيثما تذهبين .. أو ظننت اننى كذبت عليك ؟ .. او تؤمنين بالقول : « تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الاحمال وأنا أريحكم » ؟

« وهناك أشياء كثيرة اخرى .. مثل الاحجار التى تتساقط من السماء ، حتى أن الرجل يخرج من منزله فتتساقط الاحجار عليه كالمطر .. او ــ كما رأى البعض ــ الفرسان الذين يمتطون خيولهم عبر السماء ، وحوافر الجياد تصطدم بأسطح المنازل .. أو كما تنبأ السحرة فى الماضى فقالوا : « فى هذه المرأة يوجد قمح ، وفى تلك عسل ، وفى ثالثة بعض اللحوم » ، ثم ان الفارس فتح كتف المرأة كأنه علبة مجوهرات ، وبسيفه أخرج من كتفها ما شاء من قمح أو عسل .. ! »

الحق انه مامن مشاعر قوية عميقة ــ مثل تلك التى تعترض طريقنا فى الحياة ــ الا وتمتزج بعاطفة من الرثاء لآلام الآخرين . فكلما ازداد حبنا ، بدا لنا أن موضوع حبنا فريسة وضحية ، وفى بعض الاحيان نجد أن عطف الرجل على المرأة ورثاءه لحالها يفوقان كل حد ، ثم ان خياله يبعدها عن عالم الاحداث الممكنة ويضعها فى مواقف لا يمكن مواجهتها أبدا فى الحياة ، فهو يراها تحت رحمة الهواء المحيط ، وقوانين الطبيعة ، والاجيال التى سبقتها ..

وكان « يورى » قد تأكد أن الكلمات التى فاهت بها كوباريخا أخيرا كانت افتتاحية قصة قديمة ـ اما قصة « نوفجورود » أو قصة « اباتيفو » ـ ولكنها شوهت بسبب الاخطاء التى وقع فيها الرواة ، وأخطاء الشعراء المغنين والسحرة ، حتى ان معناهاالحقيقى قد ضاع .. ولكن لماذا أثارته هذه الصور التى لامعنى لها ، والتى وصلت مشوهة بهذه الطريقة ، وجعلته يتصور أحداثا حقيقية ؟

.. يتصور كتف « لارا » اليسرى نصف مفتوحة .. فتح السيف كتفها كما يفعل المفتاح اذ يدور فى قفل خزانة سرية .. فتح السيف كتفها ، بل وفتح مغاليق روحها ، فكشف الاسرار التى بها .. ذكريات عن مدن غريبة ، وشوارع ، وحجرات ، ومناظر ريفية بديعة طافت كفيلم أو كخيط طويل ..

لكم أحبها فى صدق ، ولكم كانت جميلة حلوة ، كما كان دائما يفكر ، وكما كان يحلم ، وكما كان يريد .. ولكن ، ما الذى جعلها حلوة هكذا ؟ . أهو شىء يمكن أن يسمى أو يوضع فى قائمة من الصفات ؟ .. لا ، وألف مرة لا .. انما كانت حلوة بفضل الخطوط السريعة البسيطة التى لا يضارعها فيها أحد ، والتى رسمها الخالق حولها .. وفى هذا الاطار المقدس دخلت ـ كطفل ملفوف فى ملاءة ، بعد استحمامه ـ الى أعماق نفسه وروحه ..

وماذا حدث له الآن ، حيث هو ؟ .. انه فى صحراء سيبريا ، مع الانصار ، حيث يحوطهم العدو من كل جانب ، وحيث يشاركهم مصيرهم وأقدارهم .. يا لها من مشكلة غامضة لا يصدقها العقل ! وشعر يورى بضباب يغلف عقله ، واسود كل شىء أمام عينيه .. وفى تلك اللحظة سقط مطر خفيف بدلا من الثلوج التى كان من المتوقع أن تسقط ، ومثل شعار عظيم يمتد من أحد جانبى شارع من شوارع المدينة الى الجانب الآخر ، بدت أمامه فى الهواء من أحد جوانب الممر فى الغابة الى الجانب الآخر، الصورة المكبرة لرأس محير مقدس .. وكان الوجه يبكى ، وغمر المطر الصورة بقبلاته ومائه .

قالت الساحرة لـ « أجاثا » : « امضى الآن .. لقد شفيت لك بقرتك بالسحر ، وسوف تتحسن .. صلى لام الاله ، مركز الاشعاع والنور ، وكتاب الكلمة الحية المقدسة .. »

— ٨ —

• **كان** القتال دائرا على الحدود الغربية للغابة ، ولكن الغابة كانت كثيفة ، حتى ان المعارك كانت تشبه حرب الحدود على أطراف المملكة ، وكان المعسكر المختفى فى وسطها مكتظا بالناس ، حتى انه كان يبدو أن هناك الكثير منهم ، حتى بعد أن ذهب عدد كبير منهم للقتال ..

وكان صوت المعارك البعيدة لا يصل الى المعسكر ، وفجأة دوى فى الصحراء عدد من الطلقات ، وتحولت فى الحال الى طلقات سريعة متلاحقة ، فهرع الناس الى خيامهم أو عرباتهم ، وبدأ تحرك عام ، وأسرع كل شخص يحمل متاعه ..

ثم اتضح انها معركة زائفة .. ولكن جمهورا غفيرا من الانصار انطلق الى المكان الذى أتى منه صوت الطلقات ، حيث تجمعوا حول رجل جريح راقد على الارض والدم يغمر نصفه الاسفل ، وقد قطعت ذراعه اليمنى ورجله اليسرى .. ولم يكن من المصدق كيف زحف الى المعسكر بذراعه ورجله الباقيتين ، وكانت ذراعه ورجله المقطوعتان مربوطتين الى ظهره والدماء تنزف منهما ، مع لوحة خشبية صغيرة عليها بعض كلمات عن الهجوم ، وبيان بأن هذه الاعمال الوحشية رد على أعمال وحشية ارتكبتها وحدة حمراء ، وحدة ليس لها أى صلة بأخوة الغابة ، وانذار بأن هذه المعاملة ستطبق على كل الانصار ، ما لم يرضخوا فى تاريخ يحددونه ويسلموا سلاحهم الى ممثلى جيش الجنرال « فيتزن » ..

ورغم أن الرجل المحتضر أغمى عليه لكثرة ما نزف من الدم ، فقد حدثهم — فى صوت متقطع — عن التعذيب والتنكيل الذى تقوم به قوات « فيتزن » التى تشرف على التحقيق والعقاب . وقد الغى الحكم

عليه بالاعدام ، وبدلا من شنقه قطعوا رجله وذراعه لكي يرسلوه الى المعسكر فيثير الفزع والرعب بين الانصار ، وقد حملوه الى قرب المعسكر حيث الحرس ، وهناك وضعوه على الارض وأمروه بأن يزحف ، وجعلوا يحثونه على ذلك باطلاق النيران فى الهواء .

لكنه لم يستطع أن يحرك شفتيه بسهولة ، وانحنى الواقفون حوله لينصتوا الى كلماته ، فدار بينه وبينهم هذا الحديث :

ــ انظروا أيها الرفاق .. لقد اجتاز المنطقة ..

ــ لقد خرج رجال الشرطة فى قوة كبيرة .. هناك معركة كبيرة تدور .. سنقبض عليه .

ــ هناك ثغرة .. انه يريد أن ينقض عليكم . انى أعرف .. انى لا استطيع ان اواصل حديثى .. لقد انتهيت .

ــ استرح قليلا .. اهدأ .. ألا ترون أن هذا يؤذيه أيها السفاحون ؟

واستأنف الرجل حديثه مرة أخرى :

ــ .. ومضى يهددنى .. هذا الشيطان . لقد قال : « سوف تستحم فى دمك حتى تخبرنى من أنت » .. واضطررت أن أخبره اننى انسان هجر جيشه .. لقد كنت اجرى منه اليكم ..

ــ من هذا الذى أخذ يهددك ؟

ــ دعونى أتنفس .. سوف أخبركم .. ان زعيمهم رجل يدعى « بيكشين » ، ومرؤوسه « ستريس » ، ثم هناك رجال « فيتزن » .. انكم لا تعلمون هنا كيف الحال هناك .. **ان المدينة كلها تتألم .. انهم يضعون الناس فى الماء المغلى وهم أحياء . ثم يقطعون من لحومهم قطعا .. انهم يأخذونك من قفاك ويدفعون بك الى الداخل .. وأنت لا تعلم أين أنت . ان المكان الذى يقذفون بك فيه اسود فى لون القار** .. وتتلمس المكان بيديك . انك فى قفص فى داخل عربة من عربات السكة الحديد .. وهناك أكثر من أربعين شخصا فى القفص ، كلهم بملابسهم الداخلية .. ومن وقت لآخر يفتحون

الباب ويسحبون الى الخارج من يجدونه أمامهم .. انهم يسحبونك ويمسكون بك مثل دجاجة يردون ذبحها .. **انى أقسم بالله .. البعض يشنقونه ، والبعض يضربونه بالقضبان الحديدية ، والبعض يستجوبونه ويحققون معه . انهم يضربونك حتى ليتمزق جلدك ، ثم يضعون الملح على الجروح .. ثم يصبون عليك ماء يغلى .. وعندما تتقيأ يجبرونك على التهام ما تتقيأه .. أما بالنسبة للاطفال والنساء ، فيالله !**

وكان الرجل التعس يلتقط آخر أنفاسه .. وصاح .. ثم مات دون أن يكمل قصته ! .. لقد عرفوها كلهم فى الحال ، وخلعوا قبعاتهم ترحما عليه ، ثم رسموا علامة الصليب .

.. وفى تلك الليلة ، سرت الانباء فى أرجاء المعسكر عن حادث أشد فظاعة وهولا .. وكان بامفيل أحد الذين يحيطون بالرجل الذى مات .. لقد رآه وسمع كلامه وقرأ البيان التهديدى على اللوحة ..

ووصل خوفه المستمر على عائلته فى حالة موته الى الذروة مرة أخرى .. فقد رآهم فى خياله وقد تسلمهم العدو وأخذ يعذبهم تعذيبا بطيئا ، ورأى وجوههم وقد شوهها الالم ، وسمع آهاتهم وصراخهم من أجل العون والمساعدة . وفى غمرة أحزانه واليأس القاتل الذى شمله ، ولكى يحول بينهم وبين ما سوف يعانونه فى المستقبل ، ولكى ينهى حياته ومستقبله ، قتلهم بنفسه .. بأن هوى على زوجته وأطفاله الثلاثة بالفأس ذات النصل الحاد ، نفس الفأس التى كان يستخدمها فى نحت اللعب لابنته وولده الذى كان أثيرا لديه !

والشىء المدهش انه لم يقتل نفسه حالا بعد ذلك ، وتعجب « يورى » ماذا يمكن أن يفكر فيه غير ذلك .. الى أى شىء يتطلع ؟ .. ما نواياه .. وما خططه ؟ .. الواضح أن حياته قد انتهت ، وكان واضحا أيضا أنه أصيب بالجنون ..

وبينما كان ليبريوس ويورى وأعضاء مجلس الجيش يبحثون قضيته ، ويتناقشون فيما يفعلونه معه ، كان هو يتجول فى حرية

تامة حول المعسكر ، مطأطىء الرأس ، وعيناه الصغيرتان القذرتان تومضان دون أن تريا شيئا .. وظلت الابتسامة الغامضة الباهتة — من الالم المبرح الذى يفوق طاقة البشر — لا تفارق وجهه ..

ولم يأسف من أجله أحد ، وتجنبه كل فرد ، وقال بعضهم انه لا بد من قتله ، ولكنهم لم يحصلوا على تأييد كامل لوجهة نظرهم ..

ولم يكن هناك أى شىء فى العالم ليفعله ، وعند الفجر اختفى من المعسكر ، هاربا من نفسه ككلب مسعور ..

— ٩ —

• **واشتدت** وطأة الشتاء وصقيعه المؤلم ، فكانت الاصوات المضطربة الممزقة تنبثق من الضباب المشحون بالثلج ، والذى كان يتوقف لحظة ثم يتحرك ويختفى . ولم تكن الشمس هى الشمس التى اعتادتها الارض ، بل كانت شمسا مغايرة ، كان قرصها القرمزى معلقا فوق الغابة ، تشع منه اشعاعات صفراء باهتة فى جمود وبطء ، كأننا فى حلم ، أو فى قصة خرافية ..

ثم كانت هناك أقدام غير مرئية ترتدى أحذية طويلة ، وتسير على الارض فى رفق وهدوء بنعلين رقيقين ، ومع ذلك تجعل الثلج يئن غضبا ، فى كل خطوة ، وتخطو فى كل اتجاه ، بينما أجسام أصحابها التى يغطيها الفراء تمخر عباب طبقات الهواء العليا منفصلة ، كأجساد سماوية ..

وكان الاصدقاء يتوقفون ويتكلمون ، ووجوههم مقتربة من بعضها ، وهى صافية نقية كأنهم قد خرجوا من الحمام للتو ، أما ذقونهم فتشبه « اللوف » المثلج .. وكانوا يزفرون سحبا كثيفة من البخار ، لا تتوافق مع الكلمات المتقطعة التى كانت تصاحبها .. وتقابل يورى مع ليبريوس وهو يسير فى الممر ، فأوقفه ليبريوس قائلا :

— هالو ! تعال معى الى مخبأى هذا المساء .. امكث معى هذه

الليلة ، سنتحدث حديثا طيبا . هناك بعض الاخبار ..

ـ هل عاد الرسول ؟ هل هناك أنباء من « فاريكينو » ؟

ـ لا شىء هناك عن أهلك ، ولا عن أتباعى .. وهذا يجعلنى أصل الى نتيجة مطمئنة ، وهى انهم لا بد قد هربوا فى الوقت المناسب ، والا لسمعنا شيئا عنهم .. سوف نتحدث عن ذلك الليلة ، لقد كنت أتوقعك ..

وفى المساء ، وهو ينزل الى المخبأ ، أعاد « يورى » سؤاله :

ـ ماذا سمعت عن عائلاتنا ؟ أخبرنى بهذا فقط ..

ـ انك لا تحب أن ترى أبعد من انفك .. انهم ـ على قدر ما أعلم ـ فى أمان وطمأنينة .. خذ قطعة من اللحم المثلج ..

ـ لا ، شكرا .. استمر الآن ولا تغير الموضوع ..

ـ هل أنت متأكد من انك لا تريد لحما ؟ .. حسنا .. سألتهم قطعة ، رغم أن الخبز والخضروات هى الاشياء التى نحن فى حاجة اليها حقا .. أن مرض الاسقربوط منتشر .. كان يجب أن نحتفظ



« .. وتقابل يورى مع ليبريوس وهو يسير فى الممر فأوقفه ليبريوس .. »

بكثير من الجوز والتوت فى الخريف الماضى ، عندما كانت النســـاء موجودة لجمعها .. حسنا ، ان شئوننا فى تحسن . ان ما تنبأت به يتحقق : لقد زال الشر ، وقوات كولشـــاك تتقهقر على طـول الخط . انهم يضمحلون .. أرأيت ؟ .. ماذا كنت دائمـا أقول لك ؟ .. هل تذكر انك كنت تئن وتتأوه ؟

ـ متى كنت أتأوه ؟

ـ على الدوام ، وخصوصا عندما كانت قوات « فيتزن » تطاردنا .. واستعاد « يورى » فى ذاكرته فصل الخريف ، وضرب الثوار ، وقتل « بامفيل » لزوجته وأطفاله ، والورطة القاتلة التى لا تبدو لها أية نهاية ، فالبيض والحمر يتنافسون فى أعمال العنف والقسوة ، وفى أعمال الوحشية ، والهياج يولد الهياج .. وكانت رائحة الدم تملأ أنف يورى وحلقه ، وكانت تخنقه وتضايقه ، وكانت تجعـل رأسه يدور وعينيه تسبحان .. ولم يكن هذا تأوها ، كان شيئا مغايرا لذلك ، ولكن كيف يفسره ويوضحه لـ « ليبريوس » ؟

وأوقدت مشاعل المخبأ المصنوعة من العصى الصغيرة الموضوعة فى مقبض معدنى ، ثم انطلقت من الفحم النباتى رائحه ذات عبـير . وكلما احترقت عصا صغيرة ، كان الرماد يتساقط فى قدح من الماء فى أسفل المقبض . وأضاء ليبريوس عصا أخرى ..

ـ انظر ماذا على أن أشعل ؟ ليس هنـــاك مزيد من الزيت ، والخشب جاف جدا ويحترق بسرعة . ألا تريد أن تحصل على قطعة من لحم البقر ؟ .. ماذا تنتظر ؟ هل تريد عقد اجتماع كى تعطينا محاضرة عن الاسقربوط ووسائل علاجه ؟

ـ لا تعذبنى بربك .. ماذا تعرف حقا عن عائلاتنا ؟

ـ لقد اخبرتك .. وليس فى التقرير شىء معين .. ولكنى لم أنته من الحديث اليك عما علمت من البيانات التى صدرت أخيرا .. لقد انتهت الحرب الاهلية ، وسحقت قوات كولشـــاك ، والفـرقة الرئيسية فى الجيش الاحمر تطارده الآن ، انها تطارده تجـاه الترعة

على امتداد السكك الحديدية الى البحر ، وقسم آخر من الجيش يمضى فى هذا الطريق ، ونحن نتجمع الآن لسحق الفلول المتناثرة للبيض فى المؤخرة ، وقد تم تطهير جنوب روسيا كله من العدو .. لماذا لا تفرح اذن ؟ ألا يكفيك هذا ؟

ـ انى مسرور ، ولكن أين عائلاتنا ؟

ـ ليست فى « فاريكينو » ، وهذا شىء جميل .. وليس هناك ما يؤكد الافعال الجنونية التى أخبرك بها « كامينودفورسكى » . هل تذكر الاشاعات التى سرت فى الصيف الماضى عن أن بعض الاجانب يغيرون على « فاريكينو » ؟ كنت دائما أعتقد أنها كلام فارغ .. وعلى كل حال فقد هجر القرية ساكنوها ، فصارت تبدو كما لو أن شيئا قد حدث بعد ذلك كله .. وانه لشىء جميل أن يخرجوا فى الوقت المحدد كما فعلوا .. هذا ما يعتقده السكان القليلون الذين ظلوا فى القرية ، طبقا للمصدر الذى أستقى منه الانباء .

ـ وماذا حدث فى « يورياتين » ؟ من الذى يسيطر عليها ؟

ـ هذه قصة أخرى ، ولا يمكن أن تكون صحيحة ..

ـ ما هذه القصة ؟

ـ يقولون أن البيض ما زالوا هناك ، ولكن هذا مستحيل . سأريك ، وسترى بنفسك ..

ثم وضع فى المقبض عصا خشبية أخرى صغيرة ، وجاء بخريطة ممزقة فبسطها حتى صارت المنطقة التى كان يتحدث عنها الى أعلى ، وأخذ يشرح الموقف والقلم فى يده :

ـ انظر .. كل هذه قطاعات أبعد عنها البيض : هنا .. وهنا .. وهنا .. كل هذه المنطقة .. هل تتبع حديثى ؟

ـ نعم ..

ـ لذلك لا يمكن أن يكونوا فى أى مكان بالقرب من « يورياتين » ، ذلك لانهم ان وجدوا ـ ومواصلاتهم مقطوعة ـ فلا بد أن يقعوا فى

الاسر . وحتى قوادهم لا يمكن أن يكونوا بهذه الدرجة من الغباء ، فأى طفل يمكن أن يدرك ذلك . لماذا ترتدى معطفك ؟ .. الى أين أنت ذاهب ؟

— سأعودبعد لحظة . ان‌هنا دخانا كثيرا ، وقد أصبت بصداع . سأخرج لاستنشق بعض الهواء ..

وعندما خرج يورى ، مسح الثلج عن الكتلة الخشبية التى تستخدم مقعدا فى مدخل المخبأ ، وجلس : مرفقاه على ركبتيه ، ورأسه بين يديه ..

وانمحى من عقله كل شىء عن الغابة ، والمعسكر ، والشهور الثمانية عشرة التى قضاها بين الانصار . **لقد نسى كل شىء عنها ، وملأت عقله ذكريات أطفاله الاعزاء فزاحمت كل ما عداها ، وحاول أن يتنبأ بمصيرهم ، ومرت الصور أمام مخيلته ، فكانت كل واحدة منها أشد ازعاجا وهولا من الاخرى :**

هنا كانت « تونيا » تسير عبر الحقل فى العاصفة الثلجية ، ومعها « ساشا » بين ذراعيها ، وكانت تلفه فى ملاءة ، وقدماها تغوصان فى الثلوج العميقة . وكانت تسحب نفسها مستخدمة كل طاقتها وجهدها ، ولكن العاصفة الثلجية كانت قوية ، فتعثرت وسقطت ، ثم قامت فى حالة ضعف شديد ، حتى ان قدميها لم تعودا تقويان على حملها ، وكانت الريح تصفعها والثلوج تغطيها .. أواه .. انه ينسى .. كان معها طفلان : « ساشا » والطفل الصغير .. وكانت يداها الاثنتان مشغولتين ، مثل أيدى هؤلاء اللاجئين فى «شيليمكا» الذين انفجروا من اليأس والتوتر ..

كانت يداها ممتلئتين مشغولتين ، ولم يكن هناك أحد بالقرب منها يساعدها . لقد اختفى والد « ساشا » ، ولا يعلم أحد أين هو . لقد كان بعيدا ، وكان دائما بعيدا عنهم ، كل حياته عاشها بعيدا عنهم .. أى نوع من الآباء ذاك ؟ .. هل يمكن لاى أب حقيقى أن يظل دائما بعيدا عن عائلته .. ؟ وماذا عن أبيها هى ؟ أين

« الكسندر الكسندروفيتش » ؟ ونيوشا ؟ .. والآخرون ؟ .. من الافضل ألا تسأل .،. وألا تفكر فى هذه الامور ..

وقام « يورى » من مجلسه واتجه عائدا الى المخبأ ، وفجأة اتخذت أفكاره اتجاها مغايرا ، وغير رأيه بشأن العودة الى ليبريوس ..

وكان منذ مدة طويلة قد احتفظ بزوج من مزالق الثلوج ، وحقيبة من البسكويت ، وبعض أشياء أخرى - فقد يحتاج اليها ان سنحت له فرصة للهرب - وكان قد دفن كل ذلك فى الجليد خارج المعسكر ، أسفل شجرة طويلة من أشجار الصنوبر ، ووضع على الشجرة علامة . والآن سار على امتداد ممر المشاة بين الثلوج ، متجها الى كنزه المدفون ..

وكانت ليلة صافية ، والقمر مكتملا ، وكان يعلم أين يقف الحراس فى مراكزهم . فاستطاع أن ينجح أول الامر فى تجنبهم ، ولكن ما أن وصل الى المكان المعد للزراعة - حيث الربوة وشجرة الدردار - حتى ناداه أحد الحراس من بعد ، ثم وضع فى قدميه مزالق الثلوج ، وانطلق نحوه مسرعا ..

- قف والا أطلقت عليك الرصاص ! من أنت ؟ كلمة السر ..

- ماذا حدث لك يا رجل .. ؟ ألا تعرفنى ؟ .. أنا طبيب المعسكر دكتور جيفاجو ..

- آسف أيها الرفيق « زلفاك » .. لم أعرفك .. لست أقصد أى اهانة . وعلى كل حال ، سواء كنت « زلفاك » أم غير « زلفاك » فلن أسمح لك بالتقدم .. الاوامر هى الاوامر ..

- كما ترغب . كلمة السر هى « سيبريا الحمراء » .. والرد هو « فليسقط من يحبذون التدخل » !

- هذا جميل .. امض فى طريقك .. عم تبحث فى هذا الوقت من الليل ؟ هل هناك مريض ؟

- كنت عطشان ، ولم أستطع النوم .. وقد أحببت أن اخرج لاستنشق بعض الهواء ، وأنعش نفسى بالثلج .. ولكنى رأيت شجرة

الدردار وتوتها المثلج عليها ، فوددت أن أذهب اليها لاقطف بعض ثمراتها ..

– ان هذا غباء .. من سمع بالتقاط ثمار التوت فى الشتاء ؟.. ثلاث سنوات ونحن نتحمل سخافات الخاصة ، ولكنهم ما يزالون كما هم .. حسنا .. امض والتقط ما شئت من التوت أيها المجنون .. ماذا يهمنى ؟

وكما جاء الحارس سريعا ، عاد يجرى .. منزلقا على الجليد الذى لم يطأه أحد الى مسافة بعيدة ، فيما وراء أعشاب الشتاء العارية ..

وسار يورى فى ممر المشاة حتى أسفل شجرة الدردار التى تحدث عنها منذ لحظات ..

وكان نصفها مغطى بالثلوج ، والنصف الآخر بالاوراق والتوت المجمد . وكانت تمد فرعين ذوى لون أبيض كأنها ترحب بالقادمين .. وتذكر يورى ذراعى « لارا » القويتين البيضاوين ، وأمسك بالفرع وجذبه اليه ، فأسقطت الشجرة كل الثلج عليه ، كأنها ترد عليه ، فتمتم بلا شعور :

– سأجىء اليك يا جمالى .. يا حبى .. يا شجرة الدردار .. يا حياتى ، يا دمى ولحمى ..

وكانت ليلة صافية ، والقمر مكتملا .. وظل يشق طريقه فى الغابة ، نحو الشجرة التى وضع عليها العلامة .. ثم حفر فى الارض ، وأخرج كنزه الذى وضعه فيها ..

وغادر المعسكر ..

الفصل الثالث عشر

تجاه الدار ذات الأعمدة



« .. فقد توقفت قوانين الحضارة الانسانية عن السريان ، وأصبحت شريعة الغاب هى القوانين التى خضع الناس لها .. بل ان الأحـلام التى راودتهم كانت أحلام أهل الكهف .. »

الفصـــل الثالث عشر

تجاه الدار ذات الاعمدة

— ١ —

• **كان** شارع التاجر ينحدر متعرجا على سفح التل ، تطل عليه دور وكنائس الشطر الاعلى من (يورياتين) . وفى أحد الاركان كان ثمة مبنى داكن السمرة ، ذو أعمـدة . وكانت الاحجـار المربعـة الضخمة ـ التى تؤلف القسم الاسفل من واجهته ـ سوداء لفرط ما لصق عليها حديثامن أوراق صحف الحكومة واعلاناتها الرسمية، وقد وقفت أمام المبنى زرافات صغيرة من الناس ، تطالع فى صمت.

وكان الجليد قد بدأ فى الذوبان ، ولكن الجو كان جافا ، مشوبا ببرودة الصقيع ، وقد أصبح ضـوء النهار يمكث الى وقت كانت الظلمة تهبط فيه ، منذ عهد قريب . فلقد ولى الشـتاء ، وحل محله النور الذى أخذيتلكأ الى ما بعد بداية الامسـيات .. وكان النور مبهجا ، ممضا ، مزعجا !

وكان البيض قد رحلوا ، مسلمين البلدة الى الحمر ، فتـوقفت أهوال الحرب ، واطلاق القنابل واراقة الدماء . وكان هذا ممضا هو الآخر ، كذهاب الشتاء ، واستطالة نهار الربيع .

وكان أحد الاعلانات الرسمية الملصقة على الجدار ، والتى ظلت مقروءة على ضوء النهار ـ الذى ازداد طولا ـ يعلن ان :

« دفاتر العمل ميسـورة لذوى المؤهلات ـ بسـعر ٥٠ روبل للدفتر ـ فى مـكتب الاغذية ، بسـوفييت (١) يورياتين ، رقم ٥

(١) « السوفييت » هى الوحدة الأولى فى النظام السياسى فى الاتحاد السوفييتى ، وقد ظهرت أول مرة فى ثورة سنة ١٩٠٥ ، وكان السوفييت اذ ذاك لجنـة لتنظيم اضرابات عمال المصانع ، ثم منحت ـ فى ثورة سـنة ١٩١٧ ـ كافة السـلطات ، واعتمدت عليها الثورة فى تولى الشؤون الادارية ، والتمهيد لديكتاتورية البروليتاريا (العمال) .

بشارع أكتوبر (شارع الحاكم العام سابقا) ، بالحجرة رقم ١٣٧ » .

« وكل شخص بدون دفتر عمل ، او يملأ دفتره ببيانات غير صحيحة ، أو (وهذا أسوأ) يثبت بيانات كاذبة ، يتعرض لاشد العقوبات ، وفقا للوائح زمن الحرب . والتعليمات المفصلة ـ فيما يتعلق باستخدام دفاتر العمل استخداما صحيحا ـ مطبوعة فى ا.ن.ا.ك (١) ، العدد ٨٦ (١٠١٣) من مجموعة العام الحالى ، كما انها معلقة بمكتب أغذية يورياتين ، بالحجرة رقم ١٣٧ » .

وأكد اعلان آخر ان بالبلدة كميات وفيرة من الاغذية ، ولكنها ـ كما زعم ـ مخزنة لدى « البورجوازيين » ، بغرض الاخلال بالتوزيع ، وخلق الفوضى . ثم اختتم بهذه الكلمات :

« كل من يوجد مختزنا أطعمة ، سيقتل بالرصاص فورا » .

وجاء فى اعلان ثالث :

« كل من لا ينتمى الى الطبقة الاستقلالية ، يقبل فى عضوية « كوميونات » (٢) المستهلكين . ويمكن الحصول على التفصيلات من مكتب الاغذية ، بسوفييت يورياتين ، رقم ٥ شارع أكتوبر (شارع الحاكم العام سابقا) ، بالحجرة رقم ١٣٧ »

وكان ثمة أنذار لاعضاء القوات المسلحة :

« كل من يغفل تسليم أسلحته ، أو يستمر فى حملها بدون الحصول على الترخيص اللازم الجديد ، سيعاقب بأقصى ما فى القانون من شدة . ومن الممكن الحصول على الترخيصات الجديدة من مكتب اللجنة الثورية العسكرية ليورياتين ، رقم ٦ بشارع أكتوبر ، بالحجرة رقم ٦٣ »

---

(١) جريدة اللجنة التنفيذية ليورياتين .

(٢) الأصل فى « الكوميون » هو المدينة التى يحكمها الشعب . و « الكوميونات » ـ فى البلاد الشيوعية ـ هى هيئات شعبية لتحقيق ملكية الشعب للسلع الانتاجية .

— ٢ —

• وانضم الى الجمع ـ الذى كان أمام المبنى ـ رجل هزيل ، يحمل على كتفه عصا تنتهى بكيس من لحاء شجر التامول . ولم تكن قد ظهرت بعد شعرة بيضاء واحدة فى شعره الطويل ، الكث ، ولكن لحيته المحمرة اللون ، الشوكية الشعر ، كانت قد بدأت تميل الى الشيب .

ذلك كان الدكتور يورى جيفاجو ! .. ولا بد أن معطفه المصنوع من الفرو قد أخذ منه فى الطريق ، أو لعله قد قايض عليه بطعام ، ولا بد أن سترته الخفيفة ، الممزقة ، القصيرة الكمين ، كانت نتيجة المقايضة ! .. وكان كل ما تبقى له فى كيسه عبارة عن بقية من خبز مقدد ، كان شخص ما قد منحه اياه ـ على سبيل الاحسان ـ فى قرية قريبة من البلدة ، وقطعة من شحم الخنزير !

وكان قد وصل الى (يورياتين) منذ فترة من الوقت ، ولكنه استغرق ساعة فى جر قدميه من أطراف البلدة الى هذا الركن من شارع التاجر ، فقد كان ضعفه بالغا ، وكانت الايام القلائل الاخيرة من رحلته قد أنهكت قواه ايما انهاك . وكم من مرة توقف فيها عن السير ، وراح يغالب نفسه حتى لا يهوى على ركبتيه ويقبل أحجار هذه البلدة التى كان قد يئس من أن يراها ثانية . فلقد ملأته رؤيتها غبطة وهناء ، وكأنه رأى صديقا حميما .

وكان قد تبع فى حوالى نصف رحلته ـ التى اجتاز فيها سيبريا على قدميه ـ الخط الحديدى الذى كان معطلا ، مهملا ، مغطى بالثلوج . وكانت القطارات التى هجرها البيض تقف خاملة ، قطارا اثر قطار ، وقد عطلها انهزام كولشاك ، ونفاد الوقود ، وهبوب العواصف الثلجية . وكانت تمتد متلاحقة أميالا بأكملها ، وقد كفت نهائيا عن الحراك ، وغاصت فى الجليد .. واستخدم بعضها كحصون لعصابات اللصوص المسلحة ، أو كمخابىء للمجرمين الهاربين أو للفارين من الاضطهاد السياسى ، الذين كانوا مضطرين

الى أن يهيموا على وجـــوههم فى تلك الايام . على أن معظم تلك القطارات كانت مخازن شعبية لجثث الموتى .. قبورا جماعية لضحايا البرد والتيفوس الذى كان ينطلق كالوحش الهائج على طول الخط الحـديدى ، والذى كان يحصـــد قرى بأكملها فى البطاح المجاورة !

واذا كان قد قدر يوما للقول السائر بأن « الانسان ذئب لاخيه » أن يطابق الواقع ، فانما كان ذلك فى تلك الايام . فقد كان المسافر ينأى عن الطريق عندما يقع بصره على مسافر آخر ، **وكان الغريب يقتل الغريب الذى يلقاه خشية أن يبادر هـذا فيقتله هو . وفى بعض حالات منعزلة ، كان الانسان ينهش لحم أخيه . فقد توقفت قوانين الحضارة الانسانية عن السريان ، وأصبحت شريعة الغاب هى القوانين التى خضع الناس لها .. بل ان الاحلام التى راودتهم كانت أحلام أهل الكهوف فى العصور السابقة للتاريخ .**

وكان « يورى » يرى ـ بين وقت وآخر ـ أشباحا تتسلل فرادى على طول الخنادق ، أو تعبر الطريق أمامه فى عجلة وتسرع . فكان يتحاشاها فى حذر ما استطاع ، بيد أن كثيرا من أصـحابها كانوا يتراءون له مألوفين ، فكان يحس كما لو انه قد رآهم جميعا فى معسكر العصابة . ولقد صدق حدسه فى احـدى المرات ، فان الشاب الذى برز من وراء ركام جليدى ـ كان يخفى احدى عربات النوم الدولية (١) ـ والذى نفض عنه الجليد ، ومرق مبتعدا ، كان من أفـراد « اخوة الغابة » فعـلا .. كان ترينتى جالوزين الذى ساد الاعتقاد بأنه قد قتل رميا بالرصاص ، فى حين أنه كان قـد جرح فقط ، وفقد وعيه .. حتى اذا أفاق ، راح يزحف مبتعدا عن مكان الاعـدام ، ثم اختبأ فى الغابة الى أن برىء من جـراحه .. وها هوذا يسعى فى طريقه الى (هوليكروس) ـ موطنه ـ تحت

---

(١) العربات التابعة لشركة عربات النوم الدوليـــة ، والتى تلحق بالقطارات ذات الرحلات الطويلة ، فى كثير من البلدان .

اسم مزعوم ، وهو يختبىء فى العربات الدفينة تحت الجليد ، ويهرب اذا ما وقع بصره على آدميين !

* * *

وكانت الاحداث التى صادفت « يورى » فى رحلته تتسم بغرابة الظواهر المجردة من الطابع الدنيوى ، وكأنها صور خاطفة من حيوات تجرى على كواكب أخرى ، وقد جرفها تيار ما الى الارض .. ولم يبق وفيا للتاريخ البشرى سوى الطبيعة ، فاحتفظت بالمظهر الذى سجله الرسامون المعاصرون فى لوحاتهم .. فبين الحين والحين ، كان ثمة غروب هادىء تختلط فيه الظلمة باللون الوردى ، وبالغسق الباهت ، وتتراءى فيه أشجار التامول سوداء ، رفيعة ـ أشبه بالكتابة حين تبدو تحت ضوء محتضر ـ والجداول معتمة تلفها سحابات من الثلج الرمادى ، وهى تجرى بين ضفاف منحدرة من الجليد الابيض الذى اسمرت حوافه من جراء تآكلها بفعل الماء الجارى .. وهكذا كان من المرتقب ـ بعد ساعة أو اثنتين ـ أن يهبط المساء فى (يورياتين) .. مساء صقيعى ، رمادى ، شفاف ، أشبه بفراء القطط ذات الشعر الشبيه بالقطن المندوف !

وكان يورى يعتزم أن يقرأ الاعلانات الملصقة على البيت ذى الاعمدة ، ولكن عينيه راحتا تشردان لتتطلعا الى نوافذ الطابق الثالث من الدار المقابلة .. تلك كانت نوافذ الحجرات التى اختزن فيها أثاث السكان السابقين (١) .. لقد كان زجاج هذه النوافذ مطليا بالجير الابيض يوما ما ، ومع أن الصقيع ظل يبسط عليه ستارا ، الا أن يورى استطاع أن يرى انه ـ اى الزجاج ـ قد أصبح شفافا

---

(١) ذلك كان المسكن الذى اقامت فيه « لارا » ـ على ما ورد فى الفصل التاسع ـ اذ كان أهله قد تركوه وهاجروا من البلدة ، فأفردت للارا بعض غرف ، وكدس أثاث أصحابه فى غرفتين .

.. كان من الجلى ان الطلاء الابيض قد محى عنـــه ، فماذا يعنى هذا ؟ .. أيكون السكان القدامى قد عادوا الى المسكن ؟ .. **أو أن « لارا » قد انتقلت منه ، وحل محلها سكان جدد ، وتبدل كل شيء تبدلا تاما ؟**

وكان عدم الاطمئنان أكثر مما يطيق يورى ، فعبر الطريق ، وولج البيت ، وصعد درجات السلم التى كان يعرفها تمام المعرفة .. كم من مرة راح يتمثل ــ فى المعسكر ــ كل لفة وكل طية فى النقوش المفرغة فى درجاتها المصنوعة من الحديد الزهر ! .. وكان من الممكن أن يرسل المرء البصر ــ خلال ناحية منها ــ الى مخزن المهملات فى الطابق الارضى ، حيث تراكمت المقاعد القديمة ، والدلاء الخشـــبية المهشمة ، والاحواض المصنوعة من القصدير .. واذ بلغ يورى هذه الناحية ، ورأى أن كل شيء ظل على حاله لم يتبدل ، أحس بالشكر للسلم اذ بقى وفيا للماضى !

ولقد كان ثمة جرس لباب المسكن يوما ، ولكنه كان قد تلف وكف عن الرنين قبل رحيـــل يورى . وهم بأن يطـرق الباب ، واذا به يلاحظ أن ثمة قفلا عليه ، تدلى من حلقتين أولجتا ــ فى غير عناية ــ فى الالواح العتيقة المتخذة من خشب البلوط ، والتى كانت نقوشها الدقيقة قد انمحت فى بعض الاجزاء .. ما كانت مثل هذه الهمجية المخـربة لترتضى فى الايام الخاليـــة . لا بد أن ثمة قفلا (طبلة أو كالون) كان مثبتا فى جوف الخشب ، ولا بد انه كان صالحا ، فان لم يكن فقـــد كان فى الوســـع أن يســـتدعى أحد صـــانعى الاقفال لاصلاحه . ولكن هذه الظاهرة التافهة كانت تشى بتدهور الامور .. التدهور الذى ازداد استفحالا فى غيابه .

وداخل يورى يقين بأن لارا وكاتيا لم تكونا فى المسكن ــ لو كانتا بعد على قيد الحياة ، بل لو كانتا بعد مقيمتين فى (يورياتين) ! ٥١٠
وكان مستعدا لتلقى أشد الصدمات مرارة ، فلم يقرر أن يبحث عن المفتاح فى الفجوة التى كانت بين الحجرتين فى الجدار ــ حيث كان

الفأر الذى كثيرا ما أخاف كاتيا - الا ارضاء لضميره . وراح يدق الجدار بقدمه ، ليتأكد من أن يده لن تقع على فأر فى هذه المرة . ولم يكن لديه أتفه أمل فى أن يعثر على شىء .. وكانت الفجوة مسدودة بحجر فأزاحه ، وتحسس جوف الفجوة .. وكانت معجزة أن وجد المفتاح ، وأن وجد رسالة معه .. وكانت الرسالة مكتوبة على صفحة كبيرة من الورق ، فأخذها يورى الى النافذة التى كانت على عرصة السلم .. وكانت معجزة أخرى - أبعد من سابقتها عن التصديق - أن تبين أن الرسالة كانت موجهة اليه ، فقرأها فى عجلة :

« رباه ، يا لها من سعادة ! .. يقولون انك على قيد الحياة ، وانك قد عدت ثانية . لقد رآك شخص ما على مقربة من البلدة ، فأقبل مهرعا ليخبرنى . أحسب أنك ستذهب رأسا الى (فاريكينو) ، ولهذا فانى ذاهبة مع كاتيا الى هناك . ولكنى أترك المفتاح فى المكان المعهود ، من قبيل الاحتياط . فانتظرنى ولا تنصرف . لسوف تتبين أننى أستخدم الآن الحجرات الإمامية (المطلة على الشارع) . وان المسكن خال بعض الشىء ، اذ اضطررت الى أن أبيع بعض الاثاث . ولقد تركت قسطا بسيطا من الطعام ، معظمه من البطاطس المسلوقة . أعد الغطاء فوق القدر ، وضع فوقه ثقلا ، لابعاد الفئران عنه . انني مجنونة لفرط الفرح » .

وقرأ الى نهاية الصفحة ، دون أن يفطن الى أن الرسالة كانت مستأنفة على ظهر الورقة . وألصقها بشفتيه ، ثم طواها ، ووضعها مع المفتاح فى جيبه .. **وشعر بألم حاد ، وخاز ، يمتزج بفرحه الهائل ، فما دامت « لارا » ذاهبة الى (فاريكينو) ، دون أن تحفل بتفسير الامر له ، فلا بد أن أسرته لم تكن هناك !** ولم يشعر - من أجل هذا - بقلق فحسب ، وانما شعر بأنه حزين من أجلهم ، كليم الفؤاد الى درجة لا تطاق .. لماذا لم تقل « لارا » كلمة واحدة عن حالهم ، وعن مقرهم ؟ .. كأنما لم يعد لهم وجود البتة !

ولكن الظلام كان يزداد تراكما .. وكانت لا تزال أمام يورى أمور كثيرة لا بد من أن يؤديها قبل أن يتلاشى ضوء النهار تماما . وكان أهم هذه الامور وادعاها الى العجلة هو قراءة نصوص المراسيم الملصقة على جدار البيت ذى الاعمدة ، فما كان الجهل باللوائح بالامر المستملح ، فى تلك الايام ، بل انه كان خليقا بأن يفقدك حياتك .

وهبط يورى دون أن يدخل المسكن أو يلقى عنه الكيس الذى كان يحمله ، فعبر الشارع ، وراح يتطلع الى المساحة الكبيرة المكسوة بمختلف الاعلانات .

— ٣ —

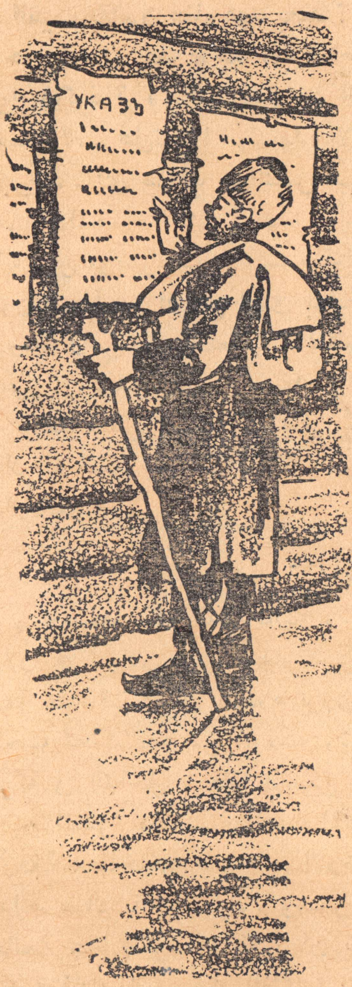
• وكانت ثمة مقالات من الصحف ، وأنباء عن خطب ألقيت فى اجتماعات ، ومراسيم . وألقى يورى نظرة على العناوين : « مطالبة أعضاء طبقات الملاك بالضرائب المقدرة عليهم » .. « انشاء رقابة العمال » .. « انشاء لجان المصانع والورش » . تلك كانت اللوائح التى أصدرتها السلطات الجديدة عند دخولها البلدة ، بدلا من تلك التى كانوا قد وجدوها سارية . ولا شك فى أنه قد قصد بها التذكرة بما للعهد الجديد من صلابة لا تلين ، اذا كان ذلك قد نسى ابان سيطرة البيض على البلدة . ولكن لهجتها المسترسلة فى رتابة لا تنتهى ، والتكرار الذى يتخللها بلا انقطاع ، أدارا رأس يورى .. ترى الى أية حقبة من الزمن كانت تلك اللوائح تمت ؟ .. ألى عهد بداية الثورة ؟ .. أو انها اصدرت لاعادة اقامة النظام الجديد بعد تمرد البيض ؟ .. أتراها قد كتبت فى العام السابق ، أم انها كتبت فى العام الاسبق ؟ .. ان هذه اللغة القاسية ، وهذه العقلية المستبدة ، لم تستثر اعجابه الا مرة واحدة فى عمره كله ، فهل قدر عليه أن يدفع ثمن تلك اللحظة من التحمس المتهور ، بأن يظل حياته بأسرها لا يسمع شيئا — على مر السنين — سوى تلك الصيحات والاوامر الصارخة ، المخبولة ، التى لا تتغير ، والتى تزداد على مر الزمن خلوا من الروح ، وخلوا من المعنى ، وخلوا من

أن تكون ميسورة الاداء ؟ .. أفكان من المحتمل أنه اسلم نفسه للاستعباد الى الابد ، فى لحظة قصيرة من لحظات الكرم الناشىء عن جموح العواطف ؟

ووقعت عيناه على قسم من أحد التقارير :

« ان نبأ المجاعة يدل على قعود المنظمات المحلية عن النشاط الى درجة لا تكاد يصدقها العقل .. ان هناك استغلالا فاضحا ، وهناك مضاربة على نطاق هائل .. فما الذى تفعله لجاننا التى فى المصانع والورش ؟ .. لن يخلصنا من المجاعة سوى حملات التفتيش الكبيرة فى المناطق التجارية بيورياتين ورازفيليى ، وسوى الارهاب الذى يطبق بكل خشونة وقسوة الى حد اعدام المضاربين بالرصاص فورا ، وحيثما وجدوا » .

وقال يورى فى نفسه : « **ما أسعد من يستطيع أن يتفاءل الى هذا الحد ، فيتكلم عن الخبز فى حين أنه قد اختفى من الارض منذ عهد طويل ! .. ويتحدث عن طبقات الملاك والمضاربين فى حين أنها**



« .. وقعت عيناه على قسم من أحد التقارير .. »

قد ألفيت بقانون منذ عهد بعيد ! .. ويتحدث عن الفلاحين والقرى في حين انه لم يعد يوجد ثمة فلاحون ولا قرى ! .. أليست لهؤلاء القوم ذاكرة ؟ .. ألا يتذكرون الخطط والاجراءات التى وضعوها بأنفسهم ؟.. هل نسوا انهم بهذه الاجراءات لم يدعوا حجرا قائما على حجر ؟.. أى صنف من الناس هم حتى يمضوا فى هذيانهم — بهذه الحرارة المحمومة التى لا تهدأ — عاما بعد عام ، عن أشياء لا وجود لها ، وعن موضوعات تلاشت منذ زمن .. فهم لا يعلمون شيئا ، ولا يرون شيئا من الواقع الذى يحيط بهم ؟ ! »

ودار رأس يورى بعنف ، ففشى عليه ، وهوى الى الارض فاقد الوعى . وعندما أفاق ، ساعده الناس على الوقوف ، وعرضوا عليه أن يرافقوه الى حيث كان يبغى أن يذهب ، فشكرهم وابى ذلك قائلا انه ليس بحاجة الى أكثر من أن يعبر الشارع ، لانه مقيم فى الدار المقابلة .

— ٤ —

• وصعد سلم الدار ثانية .. وفى هذه المرة ، فتح باب مسكن « لارا » . وكان ضوء النهار لا يزال ينير السلم ، فهو لم يكد يزداد ظلمة عنه قبل أن يغادره يورى .. واغتبط هذا لان الشمس أتاحت له فسحة من الوقت .. وأحدثت حركة المفتاح فى القفل حركة فى الداخل ، فاذا المسكن الخالى من اهله يستقبله بضجيج ورنين الحلل المعدنية المتساقطة . واندفعت الفيران من فوق الارفف ، فأخذت تثب الى الارض وتتفرق .. لا بد انها كانت تتوالد هناك بالآلاف ! .. وشعر يورى بغثيان وسقم ، وبعجز عن معالجة هذا المكروه ، فقرر أن يعتصم — خلال تلك الليلة — فى حجرة ذات باب محكم الغلق ، يستطيع أن يسد ما قد يكون فيها من فجوات الفيران بزجاج مكسور !

وعرج يسرة الى ذلك الجزء الذى لم يكن يعرفه من المسكن ، فعبر ردهة معتمة ، ووصل الى ما تراءى له انها حجرة « لارا »

.. وكانت حجرة يملأها النور ، ذات نافذتين تطلان على الطريق . وكانت الدار السمراء ذات الاعمدة تواجه النافذتين مباشرة ، وقد وقفت جماعات من الناس - وظهورهم اليه - يقرأون الاعلانات.. وكان نور الحجرة من ذات نوع الضوء الذى كان فى الخارج .. ضوء باكورة الامسية الجديدة ، التى لا تزال فى مطلعها ، فى أوائل الربيع .. وكأنما أدى هذا الى ان تبدو الحجرة كجزء من الطريق ، لا يفرقها عنه سوى أن الجو فى داخلها كان أبرد منه فى الطريق ، الى حد ما.

وكان الضعف المفاجىء الذى استولى على يورى فى عصر ذلك اليوم ، وهو يقترب من البلدة ، ثم يسير فى طرقاتها - قبل ساعة أو ساعتين - قد اوحى اليه بأنه مريض . أما الآن ، فان انتماء النور الذى كان فى البيت ، الى النور الذى كان فى الطريق ، أطربه فجأة كذلك وانعشه . فشعر - وهو مغمور بعين الهواء البارد الذى كان يغمر المارة فى الطريق - بنوع من القربى بينه وبينهم .. بصلة تربطه بالحال التى كانت البلدة عليها ، وبالحياة فى الدنيا . وطرد هذا عنه مخاوفه ، فلم يعد يتوقع أن يكون مريضا .. كانت شفافية أمسية الربيع ، وهذا الضوء الثاقب الذى راح ينفذ خلال كل شىء ، بشرى طيبة .. بشرى بتحقق الآمال البعيدة ، والمستبعدة ، عن آخرها .. لن يلبث أن يمضى كل شىء على خير حال ، وان يبلغ هو كل ما كان يبتغى من الحياة ، وان يعثر على أهله ومعارفه ، ويلم شعثهم ، ويصلح ما بينه وبينهم ، ويفكر فى كل شىء فيجلوه ، ويتخير الكلمات المناسبة للتعبير عنه .. وراح يرتقب فرحة رؤية « لارا » ، وكأنها دليل مباشر على أن الآخرين لن يلبثوا أن يتبعوها .

وغشيه انفعال طاغ وقلق جامح ، حلا محل التعب والملل اللذين كانا يستوليان عليه من قبل . والواقع ان هذا النشاط الذى دب فى نفسه كان عرضا يفوق الضعف فى قوة الاقناع بمرض مقبل .. ورغب يورى - قبل أن يستقر - فى أن يحلق شعر راسه ولحيته.

وكان قد بحث عن حلاق ، وهو يجوس خلال البلدة قبل مجيئه الى الدار . ولكن بعض حوانيت الحلاقين التى كانت معروفة لديه، أصبحت خالية ، فى حين ان حوانيت أخرى انتقلت الى ايدى اناس غير اصحابها ، واصبحت تستخدم لاعمال اخرى .. اما بقية الحوانيت ، فكانت مغلقة . ولم يكن يورى يمتلك « موسى » يزيل بها شعره . وكان من الممكن ان يستعيض عنها بمقص ، ولكنه قلب كل ماكان على مائدة الزينة ـ فى مخدع لارا ـ رأسا على عقب ، فلم يستطع فى تعجله أن يعثر على اى مقص .

واذ ذاك ، خطر له انه كان ثمة « ورشة » خياط فى شارع (سباسكى) ، وقد يستطيع أن يستعير منه مقصا اذا كان بعد على قيد الوجود ، واذا استطاع هو أن يصل اليه قبل أن يغلق أبوابه !

— ٥ —

• ولم تخنه ذاكرته ، فان « ورشة » الخياط كانت لا تزال باقية ، بمدخلها الذى كان فى الشارع ، ونافذة ممتدة بطول الواجهة . فكانت العاملات على آلات الحياكة يعملن على مرأى من المارة .. وكان بوسعك ان ترسل البصر الى أقصى اطراف القاعة .. وكانت محتشدة بالحائكات ، فالى جانب العاملات المنتظمات ، كانت ثمة سيدات مسنات ـ من أهل البلدة ـ ممن كن على دراية بالحياكة ، وقد حصلن على عمل فى « الورشة » لكى يحق لهن الحصول على « دفاتر العمل » التى كانت مذكورة فى الاعلان الملصق على جدار المبنى الاسمر .. وكان من السهل أن تميزهن عن المحترفات ..

ولم تكن « الورشة » تنتج سوى ثياب الجيش : السراويل والسترات المبطنة ، ومعاطف فرائية عديدة الالوان من جلود الكلاب المختلفة الانواع ، كتلك المعاطف التى كان « يورى » قد رآها على جنود العصابات . فكان هذا العمل أشد صعوبة على الهاويات

بوجه خاص ، وكانت أصابعهن تبدو كما لو كانت كلها ابهامات ، وهن يدفعن أطراف الفراء الملتوية ، الناشفة خلال آلات الخياطة .

وطرق « يورى » النافذة ، وقام باشارات تنم عن رغبته فى أن يسمح له بالدخول . فأجابت النسوة ـ بالاشارات ـ بأن « الورشة » لا تقبل الطلبات الخاصة . وألح « يورى » ، فأومأت اليه النسوة بأن ينصرف ويدعهن وشأنهن ، اذ كان لديهن عمل متعجل لابد من ادائه . وأظهرت احداهن امارات العجب على وجهها ، ورفعت يدها وكفها الى أعلى ـ كزورق صغير ـ تعبيرا من الغضب ، ثم تساءلت بحاجبيها عما كان يبغى . فحرك اصبعين اشارة الى نصلى المقص . ولم تفهم اشارته ، بل رأت النسوة انه كان من الوقاحة ان يسخر منهن وان يقلدهن مستهزئا .. وكان وهو يقف فى الخارج مهلهل الثياب ، مشعث الهيأة ، مرهقا ، يصدر تلك الاشارات الغريبة ، يبدو كرجل مجنون . فأخذت الفتيات يتضاحكن ، ويلوحن له .. وخطر له ـ فى النهاية ـ أن يدور حول البيت ، وأن ينفذ الى الفناء ويطرق الباب الخلفى .

— ٦ —

• **وفتحت** الباب امرأة عجوز ، سمراء ، عابسة الوجه ، فى ثوب قاتم .. ولعلها كانت رئيسة العاملات على آلات الحياكة . فبادرته قائلة : « يالك من وباء ! .. ألا تدعنا وشأننا ؟ .. حسنا ، ما الذى تبتغيه ؟ »

ـ أريد مقصا . لا تعجبى ! أريد ان اقترض مقصا لاقص شعر رأسى ولحيتى .. بوسعى أن أفعل ذلك هنا ، ثم ارد اليكن المقص فى الحال ، فلن يستغرق الامر دقيقة واحدة .. وسأكون شاكرا كل الشكر !

وتبدى على المرأة العجب وعدم الاطمئنان .. كان من الواضح انها ارتابت فى سلامة عقله .. ولكنه استطرد قائلا : « لقد وصلت لتوى من رحلة طويلة ، وأردت أن اقص شعرى ، ولكن جميع

حوانيت الحلاقين مغلقة . لذلك رأيت أن بوسعى أن اقوم بالعملية بنفسى ، ولكنى لا امتلك مقصا . هلا اقرضتنى واحدا ؟

ـ حسنا ، سأتيح لك ان تقص شعرك . ولكنى أنذرك .. اذا كنت تفكر فى شىء آخر .. فى حيلة لتغيير منظرك ، كوسيلة للاستخفاء ، لاسباب سياسية .. فلا تلومنا اذا وشينا بك . فلن نعرض أرواحنا للخطر من أجلك .

ـ يا للسماء ! .. يالها من فكرة !

وأدخلته ، ثم قادته الى غرفة جانبية لا تزيد فى الحجم عن خزانة الثياب . وفى اللحظة التالية ، كان يجلس على مقعد ، وقد لفت حوله صفحة عريضة من قماش ، دست أطرافها تحت ذقنه ، كما يفعل الحلاق . وغادرت العاملة الحجرة ، ثم عادت بمقص ، ومشط ، وآلة لجز شعر الرأس ، ومسن ، وموسى لازالة شعر اللحية .. وقالت اذ لاحظت دهشة صاحبها : « لقد أديت فى حياتى كل نوع من العمل ، وكنت حلاقة فى فترة من الفترات . فقد تعلمت قص شعر الرأس ، وازالة شعر اللحية ، عندما كنت ممرضة فى الحرب السابقة . والآن ، سنقلم شعر هذه اللحية ، ثم نزيله بالموسى ! »

ـ هل لك فى أن تقصى شعر رأسى ، بحيث يغدو قصيرا جدا .. من فضلك !

ـ سأبذل قصارى ما فى وسعى . لماذا يتظاهر رجل متعلم مثلك بكل هذا الجهل ؟ .. كأنما أنت لا تعرف ان اسبوعنا اصبح يتألف من عشرة ايام ، وان اليوم هو السابع عشر من الشهر ، وان الحلاقين يحظون بيوم الراحة فى كل تاريخ يوجد فيه رقم سبعة !

ـ الحق اننى لم أكن أعرف .. لقد اخبرتك بأننى وصلت لتوى من رحلة طويلة . وماذا يدعونى الى التظاهر ؟

ـ لاتتحرك ، والا جرحت .. اذن فقد وصلت لتوك ؟ .. وكيف جئت ؟

ـ سيرا على قدمى

ـ فى الطريق الخلوية العامة ؟

— فى بعض رحلتى ، وفى بعض آخر سرت بمحاذاة الخط الحديدى . ولا أدرى عدد القطارات التى رأيتها ، وكلها دفينة فى الثلوج .. قطارات فخمة ، وقطارات خاصة، وكل نوع من القطارات يخطر ببالك !

— مهلا ، لم يبق الا أن أقلم هذه اللمة من الشعر ، ونفرغ .. أكنت فى مهمة عائلية !

— لا ، وحق السماء ! .. كنت أشتغل لحساب الاتحاد السابق لمصارف التسليف التعاونية ، كمفتش متجول لها . ولقد ارسلونى الى سيبريا الشرقية فى جولة تفتيشية ، وهناك تقطعت بى أسباب العودة ، ولم يكن ثمة أمل فى قطار ما ، كما تعرفين .. لم يكن من سبيل للعودة الا المشى . وقد استغرق ذلك ستة أسابيع . ولست أستطيع ان اشرع فى اخبارك بكل ما رأيت فى الطريق .

— لو اننى كنت فى مكانك لما شرعت .. وأرى لزاما على ان اعلمك أمرا او أمرين . تأمل شكلك أولا .. هاك مرآة ، فأخرج يدك من تحت المئزر وأمسكها .. هل يروق لك شكلك ؟

— ما أحسب ان شعرى بالقصر الكافى . ألا تستطيعين أن تقصى مزيدا منه ؟

— لن يظل متناسقا اذا ازداد قصرا .. وكما قلت لك ، لاتشرع فى أن تروى لى شيئا البتة . فمن الافضل أن تستبقى فمك مغلقا . وانس كل شىء من قبيل مصارف التسليف التعاونية ، والقطارات الفخمة ، وجولات التفتيش .. فان الوقت غير ملائم لذلك ، والا تعرضت لما لا نهاية له من المتاعب .. تظاهر بأنك طبيب أو مدرس . ها قد فرغنا .. وانتهيت من تقليم لحيتك . والآن ، سأزيل الشعر بالموسى .. لسنا بحاجة الى أكثر من بعض رغوة الصابون ، ثم تصبح أصغر من سنك بعشر سنوات . سأذهب وأغلى بعض الماء

* * *

وراح يورى يسائل نفسه : « من تراها تكون ؟ » . وداخله شعور

بأنه كان ذا رابطة بها .. كان يربطه اليها شيء رآه من قبل أو سمعه .. كانت تذكره بامرىء ما .. ولكنه لم يستطع أن يحدس من يكون ذلك المرء .

وعادت بالماء الساخن ، فقالت : « الآن ، سنزيل شعر اللحية .. من الخير لك ــ كما كنت أقول ــ ان لا تنبس بكلمة ، فالكلام من فضة ، والصمت من ذهب . ان هذه الحكمة صادقة أبدا .. اما قطاراتك الخاصة ، ومصارفك التعاونية .. فمن الخير أن تفكر فى شيء آخر . قل انك طبيب أو مدرس . أما المناظر التى رأيتها ، فاستبقها لنفسك . فمن تراه يصدقك اليوم ؟ .. اترانى اوجعك؟»

ــ بعض الشيء

ــ اننى أدرك ان الموسى تقسو على البشرة قليلا ، ولكن ما باليد حيلة ، ولا بد لك من بعض الصبر يا صديقى .. فان بشرتك لم تألف الموسى ، وشعر لحيتك خشن جدا . على أننى لن أستغرق دقيقة .. أجل ، ما من شيء لم يره الناس ، فقد مروا بكل حال .. لقد عانينا ــ نحن أيضا ــ كثيرا من المحن ، فما كان أشق ما جرى تحت حكم البيض ! .. قتل ، وهتك أعراض ، ونهب ، واصطياد للآدميين ! .. كان ثمة ضابط تافه منهم ، تولته كراهية نحو أحد صف الضباط ، فأرسل جنودا للايقاع به فى كمين فى غابة خارج البلدة ، على مقربة من مقر آل « كرابولسكى » . وقدظفروا به فجردوه من سلاحه ، وساقوه ــ تحت الحراسة ــ الى (رازفيليى) .. وكانت (رازفيليى) ــ فى تلك الايام ــ أشبه بـ « التشيكا » الاقليمية (١) فى أيامنا هذه . كانت مقرا لتنفيذ الاعدام .. لماذا تهز رأسك هكذا ؟ .. ان الموسى تحك بشرتك ، أليس كذلك ؟ .. أعرف هذا يا عزيزى . أعرفه ، ولكن لا حيلة لى فى الامر ، فان شعرك اشبه بالشوك .. لم يبق سوى هذا

---

(١) « التشيكا » منظمة روسية للبوليس السرى ، انشئت فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩١٧

الجزء .. ولقد استولى التهوس على زوجة الرجل ، فراحت تصرخ : « كوليا ! كوليا ! .. ما الذى سيصيب كولياى ؟ ! » . واتجهت الى أعلى رأس مباشرة .. الى الجنرال جاليولين .. وهذا تعبير مجازى بطبيعة الحال ، فما كان بوسعها ان تذهب اليه رأسا ، بل لابد من مساع خاصة .. وكان فى الشارع المجاور ، هناك ، شخص يعرف كيف يصل الى الجنرال .. امرأة فذة فى كرمها ، مفرطة الحساسية ، لا مثيل لها ، ولا تنى تقف كل موقف فى سبيل الناس .. **ليس بوسعك أن تتصور ما كان يجرى فى هذه البقعة ، من شنق للناس ، ومن فظائع ، ومآس ، وجرائم عاطفية .. تماما كما لو كنا فى رواية اسبانية !**

وقال يورى فى نفسه : « انها لارا ، هذه التى تتكلم عنها ! » . ولكنه التزم الحكمة ، فلاذ بالصمت ، ولم يسأل عن تفصيلات ما . ومرة أخرى ، ذكرته اشارتها الجوفاء عن « رواية اسبانية » بشىء ما .. ذكرته ــ بخلوها من المعنى ، وبعدم مناسبتها للمقام ، بوجه خاص ــ بشىء ما ، ولكنه لم يستطع أن يتذكر هذا الشىء .. بينما كانت هى ماضية فى حديثها :

ــ على أن الامر يختلف الآن اختلافا بينا ، بالطبع .. ولا انكار فى أنه كان ثمة قدر من التحقيقات ، والوشايات ، والاعدام رميا بالرصاص ، وما الى ذلك . ولكن الفكرة تختلف عما كانت عليه من قبل . فهناك ــ اولا ــ حكومة جديدة ، تولت السلطان منذ أمد وجيز ، فهى لم تنطلق بعد فى مضمار الحكم بالقوة اللازمة . ثم انها ــ مهما تقل عنها ــ فى صف عامة الناس ، وهذا سر قوتها . فنحن فى أسرتنا أربع اخوات ــ انا احداهن ــ وكلنا عاملات . ومن الطبيعى ان تجنح ميولنا نحو البلاشفة . وقد ماتت اخت منا ، كان زوجها مهاجرا سياسيا ، وكان يعمل كمدير لاحد المصانع المحلية . وقد أصبح ابنهما ــ أى ابن اختى ــ على راس قوة من الفلاحين .. وهو مشهور ، ذائع الصيت !

* * *

وقال يورى فى نفسه ، متبصرا : « اذن فقد عرفتها ! .. انها عمة ليبريوس ، وأخت زوجة ميكوليتسين .. تلك التى تحكى عن مهارتها الحكايات ، فهى حلاقة ، وحائكة ، وعاملة للاشارة فى السكك الحديدية .. انها لتجيد كل الحرف ! » . ولكنه قرر أن لا يقول شيئا ، حتى لا يشى بحقيقة شخصيته .

وعادت تقول : « لقد كان ابن أختى منجذبا نحو الشعب دائما ، منذ صغره . وقد نشأ بين العمال ، فى المصنع .. هل تراك سمعت بمصانع (فاريكينو) ؟ .. الآن ، أنظر الى مافعلت بغفلتى .. ان نصف ذقنك ناعم ، والنصف الآخر خشن . هذه نتيجة الكلام . لماذا لم تكفنى عنه ؟ .. وها قد جفت رغوة الصابون ، وبرد الماء . سأذهب فأدفئه ! »

وعندما عادت ، سألها يورى : « ان فاريكينو على أميال ، فى جوف الريف ، أليست كذلك ؟ .. لابد انها كانت بمنجاة من كل هذه القلاقل ! »

ــ الواقع انها لم تكن بمنجاة تامة ، بل ان أهلها تعرضوا للقلاقل اسوأ مما تعرضنا نحن ، من بعض الوجوه .. لقد منى أهلها بنوع من العصابات المسلحة ، التى لم يدر احد كنهها ، اذ انها لم تكن تتكلم بلساننا . وقد جاسوا خلال المكان ، فكانوا يدخلون الدور ــ دارا بعد دار ــ مطلقين الرصاص على كل من يعثرون عليه ، ثم يبارحونها ثانية ، دون أن يلووا على شىء .. فكانت الجثث تغيب فى الثلج .. وكان ذلك فى الشتاء طبعا .. الا كف عن هز رأسك ، فقد كدت أجرحك ! »

ــ ألم تقولى ان زوج اختك كان يقيم فى (فاريكينو) ؟ .. اكان هناك عندما جرى ذلك ؟

ــ لا ، فان الله رحيم .. لقد غادر البلدة وزوجته ــ اعنى زوجته الثانية ــ فى الوقت المناسب . أما أين هما ، فهذا مالم يعرفه احد،

ولكن المؤكد انهما قد نجوا .. ولقد كانت هناك أسرة جديدة كذلك .. اغراب من (موسكو) ، فنجـوا بدورهم .. بل انهم غادروا البلدة قبل ذلك . ولكن أصفر رجلى هذه الاسرة ـ وهو طبيب ، رأس الاسرة ـ مفقود .. وهذا تعبير مهذب بالطبع ، فهو يوصف بأنه « مفقود » ، مراعاة لمشاعرهم ، ولا بد انه قد مات ، فى الواقع .. من المؤكد انه قد قتل . ولقد ظلوا يبحثون عنه ، ويبحثون ، ولكنه لم يظهر اطلاقا . وفى الوقت ذاته ، دعى الرجل الآخر ـ وهو أكبر الاثنين ـ للعودة الى موسكو .. ولقد كان عالما ، أستاذا فى علم الفلاحة . وقيل لى أن الحكومة استدعته . وقد تلكأت الاسرة فى (يورياتين) ، وهى فى طريقها الى (موسكو) . وكان ذلك قبل عودة البيض مباشرة .. آه ، ها أنتـذا تعود ثانيـة الى الالتواء والاهتزاز .. لسوف تدفعنى الى أن أقطع عنقك ، فى الواقع ! .. الحق انك تكبد الحلاق قيمة ماتدفعه له من أجر ، أيها العزيز !

اذن .. فقد كانوا فى (موسكو) !

— ٧ —

• « فى موسكو ! .. فى موسكو ! » .. راحت الكلمتان تترددان فى فؤاده مع كل خطوة ، وهو يصعد درجات السلم الحديدية للمرة الثالثة . واستقبله المسكن الخاوى ـ من جديد ـ بتلك الضوضاء الجهنمية المنبعثة من انفلات الفئران ، وتواثبها ، وتسـابقها ! .. وتبدى جليا ليورى انه لن يستطيع ان ينام ـ بالرغم مما كان عليه من تعب ـ ما لم يتخلص من ذلك الازعاج .. كان أول ما ينبغى عليه ـ قبل أن يستقر فى ليلته ـ ان يسد جحور الفئران. ولحسن الحظ ، كان عددها فى حجرة النوم أقل منه فى بقية المسكن ، حيث كانت أخشاب الارض واسافل الجدران فى أسوا حال . على انه لم يكن ثمة بد من ان يتعجل ، اذ كان الظلام يزداد تكاثفا. ومن الصحيح ان المصباح كان قائما على منضـدة المطبخ ـ ولعله قـد انتزع من

المكان الذى كان معلقا اليه ، وملىء حتى نصفه بالنفط ، توقعا لمجىء يورى – والى جواره علبة ثقاب تركت وفيها بضعة أعواد . ولكن يورى وجد من الافضل ان يقتصد الثقاب والنفط . ووجد – فى حجرة النوم – مصباحا صغيرا يضاء بالزيت ، وقد سطت الفئران على زيته ، ولكن بقية قليلة منه تبقت .

وكان الحشو الذى يملأ ما بين أسافل الجدران والارضية قد انتزع من مكانه ، فاستغرق ملء الشقوق بالزجاج المهشم اكثرمن ساعة بقليل .. وكان مصراعا الباب محكمى الانطباق ، فما ان يغلقا حتى تصبح حجرة النوم منيعة على الفئران .

وكانت ثمة مدفأة هولندية فى ركن من الحجرة ، ذات سياج من القرميد لايصل تماما الى السقف .. وفى المطبخ ، كانت ثمة كومة من كتل خشب الوقود ، فقرر « يورى » ان يسلب من «لارا »ملء ذراعيه مرتين من هذا الخشب ، ثم جثا على احدى ركبتيه ، وجمع الكتل ورصها على ذراعه اليسرى . حتى اذا نقلها الى المخدع ، رصها الى جوار المدفأة ، ثم ألقى نظرة على جوف المدفأة ، ليتبين كيف كانت تعمل ، وكيف كانت حالها . وكان قد اعتزم أن يغلق الباب بالقفل ، ولكنه تبين أن لسان القفل مكسور ، فدس ورقة بين المصراعين ليزيد انطباقهما احكاما ، ثم أعد الوقود على مهل ، وأوقد النار .

وفيما كان يغذى النار بمزيد من الكتل ، لاحظ ان قطاع احداها كان يحمل الحرفين « ك . د . » ، فتبين – فى دهشة – مصدرها . . فان المصانع اعتادت – فى أيام « كروجر » الخالية – أن تبيع ماتنبذه من خشب ، ليكون وقودا . وكانت هذه الكتل تختم – قبل ان تقطع – بخاتم ينم عن مصدرها .. وكان الحرفان «ك . د .» يدلان على « كولابيش ديل » بفاريكينو .

وساءه هذا الاكتشاف ، فان وجود هذه الكتل فى منزل « لارا » يعنى – ولا بد – انها كانت على اتصال بسامديفياتوف ، وانه هو الذى أمدها بها ، كما كان يمد يورى وأهل بيته بحاجاتهم يوما ..

ولقد كان يجد دائما غضاضة فى قبول معونته . وها هو ذا حرجه من أن يكون مدينا له ، يزداد وطأة بمشاعر أخرى داخلته .. **فقد كان من العسير ان يصدق ان سامديفياتوف قد ساعد لارا بدافع من طيبة قلبه فحسب . وتذكر تصرفات سامديفياتوف المتحررة من كل قيد او اعتبار ، وما للارا من مغريات أنثوية .. لا بد اذن انه كان ثمة شىء بينهما !**

وأخذت كتل « كولابيش » الجافة تطقطق فى النار بمرح ، وتستحيل الى نار متأججة .. وبينما كانت تتأجج ، راحت غيرة « يورى » العمياء تتحول من مجرد افتراضات الى يقين ! .. على انه كان معذبا من كل جانب ، بحيث ان كل انفعال كان يطرد الآخر .. فلم يكن بحاجة الى ان يطرد شكوكه ، لان ذهنه كان يقفز من موضوع الى الآخر ، وما لبث التفكير فى أسرته ان طغى على ذهنه فأغرق وساوس غيرته .

ـ اذن ، فأنتم فى موسكو ، أيها الاعزاء ؟ !

ولاح له ان الخياطة قد قدمت له ما يطمئنه الى سلامة وصولهم ..

★ ★ ★

وعاد يناجيهم فى نفسه : « اذن فقد قمتم بالرحلة الطويلة مرة أخرى ، وكنتم فى هذه المرة بدونى . كيف كانت حالكم فى الطريق ؟ .. ولماذا استدعى الكسندر الكسندروفيتش ؟ .. أكان هذا ليسترد مقعد الاستاذية فى المعهد ؟ .. وكيف وجدتم الدار ؟ ألا ما أغبانى! اننى لا اكاد اعرف ما اذا كانت الدار لا تزال قائمة . رباه ، ما اقسى كل هذا ، وما أشد ايلامه ! .. ليتنى استطيع ان اكف عن التفكير ، فلست أملك ان استقيم فى تفكيرى ! .. ماذا دهانى يا تونيا ؟ أحسبتنى مريضا ! .. ما الذى سيصير اليه امرنا ؟ بل وما الذى سيصير اليه امرك انت يا تونيا ، يا تونيا ، يا تونيا الحبيبة ؟ وساشا ؟ والكسندر الكسندروفيتش ؟ وانا ؟ .. لماذا هجرتنى

وجافيتنى أيها النور السرمدى الباقى ! .. **لماذا كتب علينا ان نفترق دائما ايها الاعزاء ؟ .. لماذا تجرفكم الظروف بعيدا عنى دواما ؟ .. لسوف أعثر عليكم ، ولو اضطررت الى آن أقطع المسافة اليكم ماشيا على قدمى . لسوف يرى كل منا الآخر ، لسوف نجتمع ، وسنعود الى خير حال .. أليس كذلك ؟**

« لماذا لا تبتلعنى الارض فى جوفها ؟ .. لماذا انا من الغلظة بحيث لا أنفك انسى ان تونيا كانت توشك ان تضع طفلا آخر ، وهى قد وضعته ولا بد ؟ .. ليست هذه بالمرة الاولى التى أنسى فيها هذا ، ترى كيف اجتازت المخاض ؟ .. تذكر انهم جميعا تلكأوا فى (يورياتين) أثناء عودتهم الى (موسكو) ! .. من الصحيح أن « لارا » لم تكن تعرفهم ، ولكن .. ها هى ذى خياطة وحلاقة غريبة عنهم تماما ، قد سمعت كل شىء عنهم ، ومع ذلك فان لارا لم تقل عنهم شيئا فى رسالتها . كيف قدر لها أن تكون مهملة ، قليلة الاكتراث ، الى هذا الحد ؟ .. انه لامر يشبه فى غرابته عدم ذكرها أى شىء عن معرفتها بسامديفياتوف ! »

وكان قد أخذ يجيل بصره فى الغرفة باهتمام جديد .. كان كل أثاثها يمت الى السكان غير المعروفين ، الذين غابوا عن المسكن منذ أمد طويل ، واختفوا .. لم يكن بين قطع الاثاث ما ينتمى الى « لارا » ، ولم يكن فى وسعها أن تحدثه بشىء عن ذوق « لارا » وميولها . وكانت الصور المثبتة الى الجدران لاغراب ، ومع ذلك فقد شعر فجأة بتململ تحت نظرات كل أولئك الرجال والنساء الذين كانت الصور تمثلهم ! .. وكانت قطع الاثاث الثقيلة الظل تنفث عداء .. وشعر بأنه غريب ، وغير مرغوب ، فى هذا المخدع !

ماكان أحمقه اذ ظل يذكر هذا البيت ويشعر بوحشة اليه ، وما كان أحمقه اذ جاء الى هذه الحجرة ، لا كما يفد على اية حجرة عادية ، وانما كما لو كان مقبلا على صميم حنينه وشوقه الى « لارا » ! .. ما أجدر هذا النوع من الشعور بأن يبدو لاى امرىء ــ فى الخارج ــ سخيفا ! .. لشد ما كانت تختلف طرائق الرجال

الاقوياء ، الملاح ، العمليين ، الاكفاء ــ أمثال سامديفياتوف ــ عن أساليبه هو فى الحيــاة ، والــكلام ، والتصرف ! .. فلماذا يتحتم ان يتوقع من لارا ان تفضل ضعفه ولغته الغامضة ، المبهمة ، غير الواقعية ، التى كان يتحدث بها عن حبه ؟ .. أفكانت بحــاجة الى اضــطرابه ؟ .. بل هل كانت ترغب فى أن تكون كمــا كان يراها لنفسه ؟

وكيف كان يراها لنفسه ؟ .. أواه ، ان هذا أمر ميسور ! .. لقد كان يعرفه تمام المعرفة :

أمسية من أمسيات الربيع .. الهواء تتخلله اصوات متفرقة .. اصوات اطفــال يلعبون فى الطرقات ، تنبعث من ابعاد متبــاينة ، وكأنها تبين ان الرقعة بأسرها حافلة بالحياة .. وما هذه الرقعــة سوى روسيا ، أمه التى لا مثيل لها ، التى طبق صيتها الآفاق .. روسيا المعذبة ، العنيــدة ، المسرفة ، المجنونة ، غــير المسئولة ، المعبودة .. روسيا بروائها السرمدى ، وايمــاءاتها المخربة ، التى لا سبيل الى التنبؤ بها .. اواه ، ما كان أحلى الحياة ! .. ما اطيب ان يكون المرء حيا ، وان يحب الحياة ! .. ولكم كان تواقا الى ان يشكر الحياة ، وأن يشكر الوجود ذاته ، مباشرة ، وجها لوجه .. أن يشكر الحياة شخصيا !

هكذا كانت ((لارا)) تماما ! .. فليس بوسعك ان تتصل بالحياة ذاتها ، ولكن ((لارا)) كانت تمثلها ، كانت مظهرها المعبر ، كانت نعمة الكلام والسمع وهبت لكائن مبهم غير واضح المعالم ! .. ولقد كان كل ما لامها عليه ، منذ لحظة ــ فى تخبطه ــ كذبا ألف مرة .. فانها كانت الكمال ذاته ، وكانت منزهة عن اللوم !

واغرورقت عيناه بدموع الاعجاب والتوبة .. وفتح باب المدفأة فحرك النار ، ودفع تلك الكتل التى كانت متأججة ــ وقد استحالت الى حرارة محضة ــ الى المؤخرة ، وقدم عليها تلك التى لم تكن قد اشتعلت تماما . وترك الباب مفتوحا ، وجلس أمام اللهب المكشوف ، مغتبطا بتلاعب الضوء والحرارة على وجهه ويديه .. وردت اليه

الحرارة والضوء رشده تماما ، فاذا به يفتقد « لارا » الى درجة لا تطاق ، ويتوق الى شيء يمكنه من أن يكون على اتصال بها فى تلك اللحظة بالذات .

واخرج رسالتها المكرمشة من جيبه ، وكانت مطوية بحيث كان ظهر الصفحة ـ التى قرأها من قبل ـ الى الخارج . واذ ذاك ، رأى انه كان ثمة شيء مكتوبا على ذلك الظهر ، فسوى الورقة ، وبسطها ، وقرأ على ضوء اللهب المتراقص :

« لعلك تعرف ان أهلك فى موسكو . ولقد رزقت تونيا ببنت صغيرة » ..

وكانت ثمة سطور عدة مكشوطة بعد ذلك ، ثم هذه العبارة : « لقد كشطتها لانه من الغباء أن أكتب عن ذلك . ولسوف نتحدث بكل ما فى قلبينا حين نلتقى . اننى فى عجلة للخروج ، اذ لابد لى من ان أحصل على جواد ، ولست أدرى ماذا افعل اذا انا لم استطع . فانه لمن العسير على وكاتيا ... » . وكانت بقية الجملة غير واضحة ولا مقروءة .

وقال يورى فى نفسه ، ساكن البال : « لقد حصلت على جواد من سامديفياتوف .. ولو كان لديها ما تخفيه عنى ، لما ذكرت كل هذا » !

ـ ٨ ـ

• **عندما** خبت النار ، أغلق « يورى » باب المدفأة ، وتناول بعض الطعام . ثم شعر ـ بعد ذلك ـ بخدر يسرى فى أوصاله ، فاستلقى على الاريكة ، دون أن يخلع ثيابه ، وراح ـ فى الحال ـ فى سبات عميق . ولم تعد تصل الى أذنيه تلك الضجة العالية الصاخبة ، التى كانت الفئران تحدثها خلف الجدران والباب ..

وغشيه حلمان مقيتان ، احدهما تلو الآخر :

رأى فى المنام انه كان فى موسكو ، فى حجرة ذات باب زجاجى ، وكان الباب محكم الرتاج . وكان يمسك بمقبضه ويشده اليه ،



ابتغاء مزيد من الامان . وكان ابنه الصغير « ساشا » ، يقف لدى الجانب الآخر - وقد ارتدى بزة ملاح وقلنسوته - وهو يدق الباب ، ويبكي مر البكاء ، ويناشده أن يدعه يدخل . وكان ثمة مسقط مائي وراء الطفل ينثر الماء عليه ، ويضفي على الباب ستارا من رذاذه ، وهو يحدث ضجيجا مهولا .. وكأنما كان الماء يتدفق من أنبوبة انفجرت - وهو ما كان مألوف الحدوث في تلك الايام - أو أن الباب كان درءا ضد ثور جبلي ضار ، وقد امتلأ الخلاء بصوت سيل جارف عات ، وبرد العصور السحيقة وظلمة كهوفها !

وكان هدير الماء المتساقط يرعب الصبي ويطغى على صياحه ، ولكن « يوري » كان يراه وهو يحاول - المرة تلو المرة - أن يصيح بكلمة : « أبتاه ! » . وكان قلب يوري يتفطر . وراح يتمنى بكل كيانه أن يلتقط الطفل ، وان يخفيه في أحضانه ويجري به بأسرع ما تستطيع قدماه أن تحملاه . ومع ذلك فقد ظل ممسكا بمقبض الباب يشده اليه - والدموع تنهمر على وجهه - صادا الطفل عنه ،

« .. فاستلقى على الأريكة ، دون أن يخلع ثيابه ، وراح في سبات عميق .. »

منكرا اياه ، وهو يصدر فى ذلك عن ادراك زائف للشرف ، وادراك خاطىء بالواجب نحو امرأة أخرى ، لم تكن ام الطفل ، وكان من المحتمل ان تفد على الغرفة ــ بين لحظة وأخرى ــ خلال باب آخر !

واستيقظ والعرق يتصبب منه ، والدموع تغسل وجهه ، فقال فى نفسه : « ان حرارتى مرتفعة .. اننى مريض . ما هذا بالتيفوس ، وانما هو نوع من الاعياء يتخذ شكل مرض خطير .. مرض مصحوب بأزمة .. انه يشبه أى مرض قاس ، معد ، وما من حيلة للمرء سوى أن ينتظر ليرى لمن تكون الغلبة : للحياة أو الموت !.. ولكن النوم يطغى على تفكيرى ! »

واستغرق فى النوم من جديد .. فاذا به يحلم بصباح يوم مكفهر من أيام الشتاء ، والمصابيح مضاءة ، وهو فى شارع مزدحم فى (موسكو) .. وكانت حركة المرور فى الصباح المبكر ، وأجراس الترام ، والبرك الصفراء التى كان ضوء المصابيح يعكسها على أرض الشارع الجليدية السمراء ، توحى بأن ذلك اليوم كان فى الزمن السابق على الثورة .. ورأى فى المنام مسكنا واسعا ، ذا نوافذ كثيرة ، كلها فى جانب واحد من البيت ــ ومن المحتمل انها لم تكن تتجاوز الطابق الثالث من المبنى ــ وقد أسدلت عليها ستائر سابغة تصل الى الارض .

وفى الداخل ، كان ثمة أناس يرقدون نائمين ، دون أن يخلعوا ثيابهم ، وكأنهم فى عربة قطار .. وكانت الحجرات غير نظيفة ، كعربة القطار ، وقد تناثرت فيها ــ على قطع من ورق الصحف ملطخة بالدهن ــ بقايا سيقان وأجنحة دجاجات محمرة ، وفضلات أغذية من الانواع التى تؤخذ فى الرحلات .. وكانت الاحذية التى خلعها الاصدقاء الكثيرون والاقارب والزائرون الذين لا مأوى لهم ، استعدادا لليل ، منسقة أزواجا على الارض . وراحت سيدة الدار ــ « لارا » ــ تتنقل فى خفة وصمت من حجرة الى أخرى ، وهى فى مئزر ربط ــ على عجل ــ حول وسطها ، وقد أخذت تؤدى

واجباتها فى تعجل ، و « يورى » يتبعها خطوة بخطوة ، مغمغما بعبارات كئيبة ، مبتورة ، جاعلا من نفسه مصدر ازعاج ، بوجه عام .. ولكنها لم تعد تجد من وقتها لحظة تمنحه اياها ، فلم تكن تأبه لغمغمته ، أللهم الا ان تلتفت اليه من آن لآخر ، ثم تطلق ضحكتها التى لا سبيل الى تقليدها ـ الضحكة الرقيقة كأجراس الفضة ـ وهى ترمقه فى صمت وحيرة .. وكانت هذه هى سبيل التخاطب الوحيدة التى بقيت لهما .. ولكن ، لكم كانت تلك المرأة التى ضحى بكل مالديه من أجلها ، والتى فضلها على كل شىء ، والتى لم يعد لاى شىء قيمة اذا قيس بها .. لكم كانت بعيدة ، فاترة ، ذات جاذبية قاهرة !

— ٩ —

• **وراح** شىء ما ـ غير نفسه ـ يبكى ويئن فى أعماقه ، ويشع كلمات رقيقة فى ظلمته . كانت روحه تأسى من أجله ، وقد حزن هو الآخر من أجل نفسه .

وراح يقول فى نفسه ، فى لحظات بين النوم ، وبحران الحمى ، والغيبوبة : « اننى مريض .. لابد اننى أصبت بالتيفوس أخيرا . ولا بد انه نوع خاص من التيفوس لم يرد وصفه فى الكتب . خليق بى ان آتى لنفسى ببعض القوت ، والا مت جوعا ! »

.. ولكنه ما ان كان يناضل كى يرفع جسمه معتمدا على مرفقه ، حتى كان يتبين انه عاجز عن الحركة ، فكان يتهالك فى اغماء ، أو يروح فى سبات .. وساءل نفسه مرة : « كم مضى على من الوقت وانا راقد هنا ؟ .. لقد كان الربيع فى أوائله عندما غشينى النوم على هذه الاريكة ، للمرة الاولى ، أما الآن فالنوافذ مكسوة بطبقة كثيفة من الصقيع الاسمر ، حتى أن الظلمة تسود الغرفة ! »

وكانت الفئران تثير صخبا فى المطبخ ، وهى ترطم الاطباق بعضها ببعض ، وتخدش الجدران وهى تتسلقها ، وتقفز هابطة ، وتصرخ

بأصواتها الرفيعة التى تثير الاشمئزاز والرثاء .. وعندما أفاق الى نفسه مرة أخرى ، كانت النوافذ المكسوة بالجليد تشع بضوء الفجر أو بأشعة الغروب ، فى بريق متوهج كأنه النبيذ الاحمر خلال بلور مصقول .

وخيل اليه مرة انه سمع أصواتا بالقرب منه ، فجزع اذ توهم انه قد جن . وراح يشكو من ان السماء قد تخلت عنه ، ويبكى اشفاقا على نفسه ، وهو يتمتم : « لماذا هجرتنى وجافيتنى أيها النور السرمدى ، وألقيتنى فى ظلمات الجحيم ؟ ! »

وفجأة ، تبين انه لم يكن حالما ولا هاذيا ، وانما كان يرقد - فى الحق والواقع - فى سرير أعد بعناية ، وليس على الاريكة ، وهو منظف الجسم ، وفى قميص نظيف .. **وان الشخص الذى كان يبكى معه ، ويجلس بجواره ، ويميل عليه ، كان « لارا » نفسها ، وقد اشتبك شعرها بشعره ، وتساقطت دموعها مع دموعه .. فاغمى عليه فرحا !**

— ١٠ —

• **كان** قد اشتكى من أن السماء قد نبذته وتخلت عنه .. **أما الآن ، فقد أصبحت السماء على سعتها تميل على فراشه ، باسطة اليه ذراعى امرأة يتسمان بالقوة والبياض .. وأسلم نفسه للسعادة ، ورأسه يدور غبطة ، وكأنه يفقد رشده !**

لقد كان طيلة عمره نشيطا ، يؤدى فى البيت أعمالا ، ويرعى المرضى ، ويفكر ، ويدرس ، ويكتب . فما كان أحلى أن يكف عن العمل ، والنضال ، والتفكير ! .. ان يدع كل شىء للطبيعة فترة من الزمن ، وان يصبح ملكا للارا ، ومن اختصاصها ، ومن نتاج شفقتها ، ويديها الرائعتين اللتين تبسطان الجمال على كل ما تمسانه !

وسرعان ما شفى ، فان « لارا » راحت تغذوه ، وتمرضه ، و « تبنيه » من جديد باهتمامها ، وبلطفها الذى فى بياض الثلج ،

وبحرارة حديثها الهامس ذى الانفاس الحية !

وكان كلامهما الخافت مليئا بالمعانى ــ مهما يكن غير ذى بال ــ فكأنه محاورات افلاطون ! .. على أن الصفات التى كانا يشتركان فيها ، كانت أهم من ذلك وأكثر قيمة ، فقد كان ما يفصلهما عن بقية العالم هو عين ما يوحد بينهما .. كانا سواء فى الثورة على كل الصفات المحزنة للانسان الحديث .. الصيحات الرفيعة اعجابا بمادة الكتب ، والتحمس المغتصب ، وذلك الطابع البليد الجامد الذى كانت تبشر به وتطبقه اعمال لا حصر لها فى ميدان الفن والعلم ، بغية أن تظل العبقرية نادرة الى أقصى حدود الندرة .

كان كل منهما يحب الآخر حبا عظيما .. ومعظم الناس يجربون الحب دون أن يفطنوا الى شىء ملحوظ فيه . أما بالنسبة اليهما ، **فان اللحظات التى كانت الشهوة تزور فيها كيانهما البشرى الفانى ، كنسمة من الوجود غير المفيد بزمن ، كانت لحظات تجل وفهم مطرد الازدياد للحياة ولنفسيهما .. وهذا ما كان يجعلهما على غير شاكلة سواهما !**

ــ ١١ ــ

ــ **يجب** أن تعود لاسرتك بطبيعة الحال ، فلست أبغى أن استبقيك يوما اكثر مما ينبغى .. ومع ذلك ، فانظر الى ما يجرى ! .. انك لاتعرف الى أى مدى تبدلت الامور بينما كنت مريضا . فما أن أصبحنا جزءا من روسيا السوفييتية ، حتى رحنا فى غمرة تفككها وانحلالها .. ان مؤننا تفد من (موسكو) ، وهى ــ بالنسبة لهم ــ ليست سوى قطرة من محيط ، فكل هذه الشحنات الموسوقة من المؤن تغيب فى بئر لا قرار لها .. ومع ذلك ، فلم يبق لنا ــ فى الوقت ذاته ــ شىء ما .. فلا خدمات بريدية هناك ، ولا مرفق لنقل المسافرين ، اذ أن القطارات جميعا تستخدم لنقل الحنطة .. وثمة نوع من التذمر يسرى فى البلدة ، كما كانت الحال

قبل ثورة « جايدا » .. ومن جديد ، تنطلق «التشيكا» مسعورة ، ردا على هذا التذمر الصريح !

« ولكن ، كيف يتسنى لك السفر وأنت بهذا الضعف ؟ .. انك لست سوى جلد على عظم ! .. هل يدور بخلدك حقا أنك تستطيع أن تسافر ماشيا على قدميك ؟ .. انك لن تستطيع أن تصل اطلاقا . أما اذا تمالكت قواك ، فسوف يختلف الامر . ولو انك أخذت بنصيحتى لسعيت الآن الى الحصول على عمل .. مارس مهنتك .. انهم سيرتاحون الى هذا منك . وقد تحصل على منصب فى مرفق الصحة الاقليمية !

« لا بد لك من أن تفعل شيئا .. ذلك لان ظروفك لا تلوح طيبة للغاية ، فى وضعها الراهن . فقد كان أبوك مليونيرا من سيبريا ، قضى على نفسه منتحرا .. وزوجتك ابنة أحد كبار ملاك الاراضى المحليين .. وانت هارب من قوات العصابات ، وليس فى وسعك أن تمارى .. فلقد هجرت صفوف جيش الثورة .. وهذا يرقى الى درجة الفرار من الجيش النظامى . لذلك فمن الخطر عليك أن تكون متعطلا من العمل . ولست أنا نفسى فى وضع أفضل ، وسيتحتم على أن أؤدى عملا أنا الاخرى .. اننى اعيش على بركان ، فى الواقع ! »

ــ ما الذى تعنين ؟ .. وما بال ستريلنيكوف ؟

ــ أن ما أنا فيه بسببه ، فقد انبأتك من قبل بكثرة من له من أعداء . والآن ، وقد أحرز الجيش الاحمر النصر ، فقد ساء مصير العسكريين غير المنتمين للحزب ، ممن ارتقوا الى قرابة القمة ، وعرفوا أكثر مما ينبغى لمثلهم أن يعرف .. ولسوف يكون من حسن حظهم أن يطردوا من مناصبهم فحسب ، دون ان يمحوا من الحياة محوا ! .. و « باشا » بالذات ، معرض للتجريح ، فهو فى خطر جد عظيم . ولعلك تعرف انه كان فى الشرق ، وقد سمعت انه هرب ، وانه الآن مختبىء وهم ينقبون عنه . ولكن ، دعنا من

هذا الحديث ، فانى أكره البكاء ، واخشى ان انفجر معولة اذا قلت كلمة اخرى !

— هل كنت جد مولعة بحبه ؟ .. وهل لا تزالين ؟

— لا تنس يا حبيبى اننى تزوجت منه ، فهو زوجى ! .. وان له لشخصية رائعة ، مستقيمة ، لامعة . وانى لاحمل نفسى — الى حد بعيد — وزر انحراف زواجنا عن جادة التوفيق . وليس معنى هذا اننى ألحقت به أى ضرر ، فليس القول بهذا من الصدق فى شىء .. على أن « باشا » جد مبرز ، وجد عظيم ، وعلى قدر كبير من التماسك والرصانة .. أما أنا فلست ذات قيمة اطلاقا .. اننى لا شىء بالنسبة له . وهذا مكمن خطأى . ولكن ، دعنا من هذا الحديث ، من فضلك .. لسوف أزيدك منه فى وقت آخر ، وأعدك بذلك !

« ما أجمل زوجتك تونيا .. انها أشبه بلوحة من رسم « بوتيتشيللى » ! .. لقد كنت هناك حين وضعت وليدها . ولقد ائتلفنا معا ، على أبدع حال . ولكنى أرجوك أن تعفينا من هذا الحديث ، هو الآخر ، فى اللحظة الراهنة !

« لنسع معا للحصول على عمل لكل منا ، كما كنت أقول . ولسوف نخرج معا فى كل صباح الى العمل ، ثم نتسلم مرتبينا ، فى نهاية الشهر .. بلايين من الروبلات . أتعرف أن ورق النقد السيبيرى القديم كان سارى المفعول الى عهد قريب ؟ .. ثم ألغى العمل به ، ومكثنا وقتا طويلا — طيلة الفترة التى قضيتها مريضا — دون ما عملة نقدية البتة ! لم تكن ثمة نقود اطلاقا ، بحق ! تصور ذلك ! .. ودبرنا أمورنا بطريقة ما ، وها هم أولاء يقولون أن ثمة قطارا محملا بأوراق النقد قد وصل ، مؤلفا من أربعين عربة على الاقل .. وهى مطبوعة على رقاع كبيرة ، بلونين — أحمر وأزرق — ومقسمة الى مربعات صغيرة . فالمربعات الزرقاء قيمة كل منها مليون روبل ، والحمراء قيمة كل منها عشرة .. وهى رديئة

الطباعة ، فسرعان ما تبهت وتتفسخ ألوانها » ..

ـ أجل ، لقد رأيت هذا النوع من النقود ، اذ طرح للتداول فى (موسكو) قبل أن نغادرها مباشرة .

ــ ١٢ ــ

ـ لماذا مكثت طويلا فى (فاريكينو) يا لارا ؟ هل كان ثمة أحد هناك ؟ .. ظننت انها كانت خاوية تماما ، فليست بها نفس واحدة . فما الذى استبقاك كل هذا الوقت الطويل ؟

ـ كنت وكاتيا ننظف دارك ، فقد خطر لى انك قد تذهب الى هناك فى اللحظة التى تستطيع فيها العودة ، ولم أشأ أن تراها فى الحال التى كانت عليها .

ـ عجبا .. وأى حال كانت عليها ؟ .. أهى بالغة السوء ؟

ـ كانت قذرة ، غير منسقة ، فأصلحنا من شأنها .

ـ يا للاقتضاب والمراوغة ! .. اننى لاشعر بأنك تخفين عنى شيئا . ولكن ، لك ما تشائين ، فلن أحاول أن أنتزع منك ما تخفين . حدثينى عن تونيا ! .. ماذا سموا الطفلة الصغيرة ؟

ـ ماشا .. تخليدا لذكرى أمك .

ـ حدثينى بكل ما لديك عنهم .

ـ ليس الآن ، أرجوك .. لقد قلت لك اننى ـ ولا أزال ـ لا أقوى على الكلام عن هذا الامر دون ان ابكى ..

ـ ان هذا السامديفياتوف ، الذى أعارك الجواد ، شخصية طريفة .. الا ترين ذلك ؟

ـ جدا .

ـ أتعلمين اننى أعرفه معرفة جيدة ؟ .. كان كثير التردد على البيت حين كنا نقيم فيه .. وكانت الظروف كلها جديدة علينا ، فساعدنا على الاستقرار .

ـ أعرف هذا ، فقد أنبأنى به .

ـ لا بد انه نافع لك أنت الاخرى ؟ .. هل ترينه كثيرا ؟

ـ انه يغمرنى بأفضاله فعلا ! .. ولست أدرى ماذا كنت فاعلة بدونه .

ـ هذا ما تصورته ! .. وأحسب أنكما صديقان حميمان ، وانه يأتى الى هنا كلما شاء !

ـ طيلة الوقت ، بطبيعة الحال !

ـ وأحسبك تميلين اليه ؟ .. آسف ، ما كان ينبغى أن أوجه اليك هذا السؤال ، فليس من شأنى ان اسألك . لقد تماديت ، وانى لاعتذر !

ـ أوه ، لا بأس عليك ! .. أحسب ان ما تعنيه حقا ، هو : على أى نوع من العلاقات نحن ؟ .. وهل بيننا ما هو اكثر من الصداقة ؟ .. ليس بيننا ما هو أكثر منهما طبعا . لقد أدى لى خدمات هائلة ، فأنا مدينة له الى حد كبير ، ولكنه لو وهبنى ثقلى ذهبا ، ولو جاد بحياته من أجلى ، لما قربنى هذا منه خطوة أخرى . فلطالما كرهت هذا النوع من الرجال ، وليس بينى وبينه أى ميل مشترك ! .. فهذه الشخصيات الواسعة الحيلة ، المفرطة الثقة بأنفسها ، المتسلطة .. انها فى الامور العملية فوق كل تقدير ، أما فى المسائل العاطفية فلست أرى ما هو أبشع مما اوتوا من اعتزاز وقح بالرجولة ! .. وليست هذه فكرتى عن الحياة والحب يقينا ! .. والواقع أن « أنفيم » ـ كشخص ـ يذكرنى بامرىء غيره .. بشخص أكثر منه اثارة للاشمئزاز ، وبذنبه هو أصبحت ما أنا عليه الآن ؟

ـ لست أفهم .. ماذا تحسبين نفسك ؟ ما الذى يجول بذهنك ؟ .. أوضحى لى ! .. انك خير شخص فى الدنيا !

ـ كيف تقول هذا ، يا يورا الحبيب ؟ .. اننى أتكلم جادة ، فاذا بك تزجى الى المجاملات ، وكأننا نجلس فى قاعة استقبال ، مقيدين بأصول المجاملة ! .. أى شخص ترانى ؟ .. ان فى نفسى شيئا محطما .. بل في كل حياتى شىء مكسور .. لقد اكتشفت الحياة فى سن مبكرة أكثر مما ينبغى .. كان مقدرا على أن اكتشفها ،

وكان مقدرا على أن اراها من اسوأ نواحيها .. رأيت صورة رخيصة ـ مشوهة ـ لها ، خلال عينى عابث مسن خبيث .. واحد من انانيى العهد القديم ، الذين كانوا راضين عن أنفسهم وهم لا نفع لهم ، والذين كانوا يستغلون كل شيء ، ويبيحون لانفسهم كل ما يروق لنزواتهم !

ـ أحسبنى أفهم .. لقد خطر لى أنه كان ثمة شيء . ولكن ، مهلا لحظة ! .. ان بوسعى ان اتصور ما عانيت وانت طفلة .. كان عناء فوق ما يناسب سنك .. كان بمثابة الصدمة التى هزتك وانت غير ذات تجربة .. كان ادراك فتاة جد صغيرة للاغتصاب . ولكن كل هذا راح فى أدراج الماضى . انما أعنى أنه ليس لك انت ان تشقى نفسك بسببه الآن ، فدعى هذا لمن يحبونك .. لمن هم على شاكلتى . فأنا الذى كان يجدر بى أن أقطع شعرى لاننى لم أكن معك لامنع ما جرى ، اذا كان يشقيك حقا .. انه لامر عجيب ! فانى أرى أن ليس بوسعى ان أغار حقا ـ غيرة قاتلة ، مشبوبة ـ الا من شخص احتقره ولا يربطنى به اى شيء مشترك .. من غريم أتطلع اليه مرتقبا أن يغير من حالى وطبعى .. اننى أعتقد انه اذا كان ثمة رجل افهمه واميل اليه ، على حب مع نفس المرأة التى أحبها ، لما شعرت بضغينة نحوه ، ولا ابتغيت الشجار معه ، بل لشعرت بنوع من الاخوة فى الشجن تجمعنا . ومن الطبيعى اننى لا يمكن ان أحلم بأن يشاركنى أحد المرأة التى أحب ، ولكنى اوثر أن أتخلى عنها ، فيكون عذابى شيئا يختلف عن الغيرة .. فهو أقل ضراوة وغضبا . انه اشبه بما اذا صادفت فنانا يقوم بعين ما أفعل ، ويؤديه بأحسن مما أؤديه . فقد يحتمل ان اتخلى عن جهودى ، وقد لا أود أن اقلد عمله ، ولن يكون ثمة مبرر لان امضى فى عملى اذا كان عمله أحسن ..

« ولكن هذا لم يكن موضوع حديثنا .. ما أظن اننى كنت أحبك هذا الحب لو لم يكن لديك ما تشكين منه ، ولا ما تتحسرين عليه .

فلست أحب من لم يزلوا أو يتعثروا ، اذ أن فضيلتهم تكون بلا حياة ، ولا تكون عظيمة القيمة .. ان الحياة لا تكون قد كشفت لهم عن جمالها ! »

– ان هذا الجمال بالذات هو الذى أفكر فيه . فانى أرى أن خيالك يجب ان يكون سليما ، وان بصيرتك يجب أن تكون فى نقاء بصيرة الطفل ، لكى تراه ! .. وهذا ما حرمت منه ! .. كان من المحتمل ان تكون لدى صورة للحياة خاصة بى لو لم تكن هذه الصورة قد طبعت – منذ البداية ذاتها – برأى مبتذل من لدن شخص آخر .. وليس هذا كل ما فى الامر ، فبسبب ما قام به هذا الامعة الانانى عديم الخلق من اقتحام لحياتى – منذ البداية الاولى – قدر لزواجى أن يفسد ، عندما تزوجت – فيما بعد – من رجل كان كبير النفس حقا ، فذا ، أحبنى وأحببته !

– مهلا لحظة ، قبل أن تحدثينى عن زوجك .. اننى لا أغار منه ، فقد أخبرتك بأننى لا أغار الا ممن هم أقل منى شأنا . نبئينى اولا عن هذا الرجل الآخر !

– أى رجل ؟

– ذلك الوحش .. الرجل الذى أفسد حياتك . من هو ؟

– انه محام ذائع الصيت الى حد لا بأس به ، فى موسكو ، وهو صديق لابى .. وكنا – عندما مات أبى – فى ظروف سيئة ، فأعان أمى .. وكان أعزب ، وغنيا . ولعلنى اضفيت طرافة على شخصيته اذ رسمتها بهذا السواد ، ولكنه رجل عادى جدا . ولسوف أنبئك باسمه ، اذا شئت .

– لا حاجة بك الى هذا ، فانى أعرفه .. لقد رأيته مرة !

– أحق هذا ؟

– ذات مساء فى الفندق الذى كنت تقيمين فيه ، ليلة تناولت أمك سما .. كانت الساعة متأخرة من الليل .. وكنت وأنا لا نزال طالبين فى المدرسة .

ـ آه ، اذكر هذا .. لقد جئت مع شخص آخر ، ووقفتما فى الظلال ، عند مدخل الردهة . ولا أدرى ما اذا كان من الممكن أن أتذكر ذلك من تلقاء نفسى ، ولكنى اظنك قد ذكرتنى به مرة ، ولا بد أن ذلك كان فى (ميليوزييفو) .

ـ وكان كومارو فسكى هناك .

ـ أكان هناك ؟ .. من الجائز جدا .. لقد كان من المحتمل كل الاحتمال أن تجدنى معه ، فكثيرا ما كنا معا .

ـ ولماذا يتضرج وجهك ؟

ـ لسماع اسم كومار وفسكى منبعثا من فمك . لقد نسيت أذنى سماعه ، ومن ثم فاننى فوجئت ..

ـ كان ثمة زميل لى فى الدراسة صحبنى فى تلك الليلة ، وهاك ما قاله لى .. لقد كان يعرف كومار وفسكى كانسان ، اذ رآه مرة قبل ذلك ، فى أغرب الظروف عن المألوف . فقد قدر لهذا الزميل ـ « ميشا جوردون » ـ فى أثناء رحلة ، وهو بعد طفل ، ان شهد انتحار ابى .. رجل الصناعة المليونير . كانا معا فى قطار واحد ، وقد ألقى أبى بنفسه من القطار وهو منطلق ، قاصدا أن يقضى على حياته ، فقتل ! .. وكان فى رفقة ابى ـ فى هذه الرحلة ـ كومار وفسكى ، الذى كان محاميه .. كان قد حمل أبى على ادمان الشراب ، واربك أعماله ، ودفع به الى شفا الافلاس ، وساقه الى الانتحار .. وكان الذنب ذنبه أن قتل أبى نفسه ، وتركنى يتيما !

ـ هذا غير محتمل ! .. ما أغربه ! .. امن الممكن ان يكون هذا صحيحا ؟ .. **اذن فقد كان له أثر محزن فى حياتك أنت الآخر ! .. ان هذا يزيدنا تقاربا ، أليس كذلك ؟ .. كأنما كان كل شىء مرسوما فى الغيب من البداية !**

ـ انه الرجل الذى سأظل دائما أشعر نحوه بغيرة جنونية لا شفاء منها !

ـ كيف تقول مثل هذا القول ؟ .. ألا ترى أننى لا أقتصر على

عدم حبه ، بل اننى امقته ؟

ـ أمن الممكن أن تعرفى نفسك الى هذا الحد ؟ .. ان الطبيعة البشرية جد غامضة ، وجد مليئة بالمتناقضات .. لعل فى مقتك اياه بالذات شيئا يضطرك الى أن تكونى مرتبطة به بأوثق مما ترتبطين بأى رجل تحبينه بمحض ارادتك الحرة ، دون ما قسر أو غصب !

ـ ما أفظع ما تقول ! .. وان الطريقة التى تصوغه بها ، لتجعلنى أشعر ـ كالعادة ـ بأن هذا صحيح رغم بشاعته ونبوه عن المألوف الطبيعى ! .. ولكن ، كم هو رهيب اذا صح !

ـ لا تذعرى ، ولا تصغى الى ! .. انما عنيت اننى أغار من كل ما هو معتم ، بعيد عن الادراك .. من الشىء الذى لا تستطيعين ان تتصلى به ، ولا ان تحدسى كنهه !.. **اننى أغار من فرجون شعرك ، ومن قطرات العرق على جلدك ، ومن الجراثيم التى فى الهواء الذى تستنشقينه ، والتى قد تسرى فى دمك وتسممك ! .. وعلى هذا النحو بالذات أغار من كوماروفسكى كما لو كان مرضا معديا ، لانه سينتزعك منى يوما ما** .. وهذا أكيد تأكدنا من أن الموت سيفرق بيننا يوما ما ! .. اننى أدرك ان هذا يبدو اشبه بلغو مشوش ، ولكنى لا املك ان ازيده ايضاحا . اننى أحبك حبا يتجاوز نطاق العقل والذاكرة والقياس !

ـ ١٣ ـ

• **ـ زيدينى** حديثا عن زوجك .. انه « شخص أثبت معى فى كتاب النحس النكد » .. كما قال شكسبير .

ـ أين قال هذا ؟

ـ فى « روميو وجولييت » .

ـ لقد أنبأتك عنه بالكثير ، فى (ميليوزييفو) ـ حين كنت أبحث عنه ـ ثم هنا ، حين سمعت كيف قبض عليك رجاله وساقوك الى قطاره . ولعلنى قد أخبرتك ـ أو ربما أكون قد خلت اننى اخبرتك ـ كيف رأيته مرة عن بعد ، وهو يصعد الى عربته . ولكنك

تستطيع أن تتصور عدد الحراس الذين كانوا يحيطون به ! .. وقد تبينت أنه لم يتغير تقريبا ، فقد ظل له عين الوجه المليح ، الصريح ، الحازم .. أكثر الوجوه التى رأيتها فى حياتى صراحة وأمانة ! .. نفس الشخصية المتصفة بالرجولة والاستقامة ، والتى لا يشوبها ظل من عاطفة أو تظاهر وتمثيل ! .. ومع ذلك ، فقد لمحت اختلافا أزعجنى !

« كأنما كان ثمة ابهام وغموض فى مظهر وجهه .. مما أبداه كصورة خالية من اللون ! .. أشبه بوجه آدمى حى ، تحول الى رمز مجسد لمبدأ .. كأنه صورة فكرة ! .. وقد ساءنى هذا الى أبشع مدى ، حين لمحته . فقد تبينت ان هذا قد اعتراه لانه اسلم نفسه لشىء رفيع ولكنه مميت ، مجرد من الرحمة ، لن يبقى عليه فى النهاية .. تراءى لى كما لو انه كان موسوما بعلامة ، وان هذا هو معنى العلامة .. ولكن ، ربما كان الامر قد أبهم على .. ربما كنت متأثرة بما قلته انت حين وصفت لى لقاءك معه . فأنا — بعد كل شىء — متأثرة بك فى نواح كثيرة ، بغض النظر عما نشعر به ، كل نحو الآخر ! »

— حدثينى عن حياتك معه ، قبل الثورة !

— لقد كنت فى باكورة صباى ، عندما كنت لا أزال طفلة ، متأثرة كل التأثر بالطهر ، فكانت له جاذبية قوية تجتذبنى . وكان «باشا» هو الشخصية التى تحقق هذا الحنين فى نفسى . وانت تعرف اننا نشأنا — طيلة نشأتنا تقريبا — فى بيت واحد : باشا وجاليولين وأنا . ولقد كان « باشا » مفتونا بى فى صغره . فكان وجهه يتضرج ، أويشتد شحوبا ، اذا ما رآنى .. وقد لا يجوز لى أن أتكلم على هذا النمط ، ولكن التظاهر بأننى لم أكن اعرف ، اسوأ وأنكى ! .. ذلك كان الوجد الصبيانى المتسلط ، الذى يتستر الصبى عليه لان كبرياءه لا تسمح له بأن يبديه ، ولكن نظرة واحدة الى وجهه تكفى لان تكشفه لك ! .. وكنا نلتقى كثيرا ، وكان كل

منا يختلف عن الآخر ، بقدر ما كنت أنت واياى نتشابه ! .. ولقد اخترته اذ ذاك - ومنذ ذلك الحين - فى قرارة فؤادى ، وقررت أن أتزوج هذا الولد الفاتن بمجرد أن اكبر ، واعتبرت نفسى - فى خيالى - خطيبة له ، مرتبطة به !

« وأنت تعرف الى أى مدى غير عادى هو موهوب ! .. كان أبوه رجلا عاديا ، عامل اشارة أو حارسا فى السكة الحديدية - فلست أدرى على التحديد أيهما كان - ولكن « باشا » استطاع بعقله وحده ، وبالجد والاجتهاد ، أن يصل الى .. كنت أهم أن اقول « مستوى » ، ولكنه - على الارجح - « قمة » التعليم العالى فى أيامنا هذه ، فى مادتين .. الآداب القديمة ، والعلوم الرياضية ! .. وهذا شىء تعرفه انت ، على كل حال ! »

- فما الذى أصاب حياتكما الزوجية اذن ، ما دام كل منكما كان كلفا بالآخر ؟

- ان الاجابة عن هذا ، من أصعب الامور . ولسوف أحاول أن احدثك عنه ، ولكنك تدرك انه من السخف ان اشرح لك - وانت العاقل الحكيم - ما يجرى للحياة البشرية بوجه عام ، وللحياة فى روسيا ، وأسباب تحطم الاسرات ، بما فيها أسرتك وأسرتى ! .. لعمرى ، انها ليست مسألة الافراد ، وما اذا كانوا متشابهين فى الصفات أو مختلفين ، وما اذا كانوا متحابين أو غير متحابين .. ان كل ما كان راسخا ، مستقرا .. كل ما يتعلق بالبيت ، والنظام ، والوسط المشترك ، قد تداعى وصار ترابا ، وكنس بعيدا فى الانتفاضة العامة ، وفى اعادة تنظيم المجتمع بأسره ! .. لقد هدمت طريقة الحياة البشرية كلها وخربت .. كل ما تبقى هى الروح البشرية عارية ترتجف وقد انتزعت عنها آخر أسمالها .. قوة النفس البشرية العارية التى لم يتبدل شىء بالنسبة اليها ، لانها كانت دائما بارزة ، مرتجفة ، تسعى الى أقرب جار يشبهها برودة ووحدة ! .. انك واياى أشبه بأول اثنين من البشر على الارض ،

فلم يكن لهما ـ فى بداية الدنيا ـ ما يستران به نفسيهما .. وها أنتذا واياى ـ فى نهايتها ـ بلا ستر ولا مأوى ، كما كانت الحال فى البداية ! .. ثم انك واياى آخر ذكرى لتلك العظمة التى لا قياس لها ، والتى خلقت فى هذه الدنيا فى آلاف السنين التى تفصل بين زمننا وزمن الآدميين الاولين .. وما نعيش ، ونتحاب ، ونبكى ، ويتعلق كل منا بالآخر ، الا فى ذكرى كل هذه العظمة التى ولت وتلاشت !

— ١٤ —

• وسكتت برهة ، ثم استطردت ، وهى أكثر هدوءا وسكينة :

ـ سأنبئك .. لو ان ستريلنيكوف صار « باشا أنتيبوف » من جديد .. لو انه كف عن الهياج والثـــورة .. لو ان الزمن أرتد القهقرى ، ولو قدر لى ـ بمعجزة ما ، من حيث لا أدرى ـ أن أبصر نافذة دارنا مضيئة ، وقد انصب ضـوء المصباح على منضـدة « باشا » وكتبه ، ولو كان ذلك فى آخر أطراف الارض ، لزحفت اليه على ركبتى حبوا ! .. لسوف يستجيب كل شىء فى كيانى ! .. لست أقوى قط على أن أعصى نداء الماضى ، نداء الولاء ! .. ما من شىء احجم عن ان اضحى به ، مهما يكن ثمينا .. حتى أنت .. حتى حبنا ، ولو انه جد سعيد ، جد طبيعى ، حتى انه أصبح جزءا منى ! .. أواه ، عفوا ، فما قصدت هذا .. انه غير صحيح !

وألقت بنفسها بين ذراعيه باكيـــة . ولكنها سرعان ما تملكت نفسها ، فمسحت دموعها وقالت : « أليس هذا النداء هو عين نداء الواجب الذى يسوقك ثانية الى تونيا ؟ .. أواه ، يا الهى ، لـكم نحن بائسان ! .. ما الذى سيصير اليه أمرنا ؟ ما الذى نملك أن نفعله ؟ »

واذ استردت جلدها ، عادت تقول : « ولكنى لم أجب عن سؤالك بصدد ما حطم سعادتنا .. لقد فهمته بوضوح تام فيما بعـد . سأخبرك .. انها ليست قصتنا وحدنا ، بل انها أصبحت مصير



كثيرين غيرنا ! »

– حدثينى يا غرامى ، وانت على كل هذه الحكمة !

– لقد تزوجنا قبل الحرب بعامين . وكنا لا نزال نشرع فى بناء حياة خاصة بنا ، من صنعنا – بعد اذ فرغنالتونا من اعداد بيتنا – حين انبثقت شرارة الحرب . وانى لاعتقد الآن ان اللوم يقع على الحرب فى كل شىء ، وفى كل المحن والتعاسات التى توالت ، والتى تنهش جيلنا الى اليوم .. اننى أتذكر تماما ما كانت عليه الحال فى طفولتى .. ما زال بوسعى أن أتذكر الزمن الذى كنا جميعا نتقبل فيه طريقة القرن الماضى فى التفكير المتسم بالسلم والمسالمة .. كان من المسلم به أن تصغى الى العقل ، وأن ترى أن من حقك – ومن الطبيعى – أن تفعل ما يمليه عليك ضميرك .. **كان موت انسان على يد انسان آخر أمرا نادرا ، بل حدثا غير عادى .. شيئا خارجا عن المألوف . كانت الاغتيالات لا تحدث الا فى المسرحيات ، وعلى صفحات الصحف ، وفى الروايات البوليسية ، وليست فى الحياة اليومية ..**

« ثم حدثت الطفرة من هذا الاسلوب الوادع ، البرىء ، المتزن – من أساليب العيش – الى الدم والدموع ، الى الجنون الجماعى ، والى وحشية المذابح التى تحدث كل يوم ، وكل ساعة ، والتى تكتسب صبغة شرعية ، ويكافأ عليها مرتكبوها !

« ولست أحسب أن هذا سيستمر دون عقاب الى الابد .. ولا بد أنك تذكر – أكثر مما أذكر انا – بداية التفكك والانحلال ، وكيف ان كل شىء اخذ يتحطم دفعة واحدة وينهار .. القطارات والامدادات الغذائية فى البلدان ، وأسس الحياة المنزلية ، والقيم والمعايير الاخلاقية الواعية ! »

– امضى فى حديثك ، فانى أدرك ما سوف تقولين بعد هذا .. ما أبدع ادراكك لكل هذا ! .. ان الانصات اليك يطرب النفس !

– فى تلك الفترة ، دخل الزيف أرضنا الروسية .. **وكان نكدنا الاكبر** – أس جميع ما قدر له أن يحدث من شر – **هو فقدان الايمان بقيمة الآراء الشخصية . فلقد توهم الناس أن اتباع ادراكهم الخلقى أمر لا يتمشى مع روح الزمن الحاضر ، وان عليهم أن يتغنوا جميعا بنفس اللحن ، فى انشاد جماعى ، وان يعيشوا على ما يراه الغير من آراء كان يحشى بها حلق كل امرىء** .. وعند ذلك ، قامت قوة العبارات البراقة .. وكانت قيصرية فى البداية ، ثم أصبحت ثورية !

« وأصبح الشر الاجتماعى وباء . كان سريع العدوى ، وقد أصاب كل شىء ، فلم يبق شىء لم يمس به ! .. ولم ننج نحن – فى دارنا – من تأثيره ، فقد طرأ على البيت شىء من الخلل ، وبدلا من أن نكون طبيعيين ، وعلى سجيتينا – كما اعتدنا دائما – بدأ التعاظم والخيلاء يدبان فيما بيننا بطريقة تنم عن غباء . فتسلل الى حديثنا شىء من التظاهر ، والاصطناع ، والافتعال .. كنت تحس أن عليك أن تكون بارعا – بطريقة معينة – بصدد بعض موضوعات معينة ذات أهمية دنيوية . فكيف كان بوسع « باشا » – الذى كان بالغ الحصافة ، مفرط الدقة فى محاسبة نفسه ، والذى كان يميز بين

الواقع والمظهر دون ما خطأ – أن يغفل الزيف والخداع الذى تسلل الى حياتنا ؟

« ولكن هذا بالذات كان موضع غلطته الشنيعة ، القاضية .. لقد أخطأ فهم روح العصر .. أخطأ فهم الشر الاجتماعى العام ، فظنه خاصا ، مقتصرا على حياته الخاصة . كان ينصت الى عباراتنا ومصطلحاتنا المنمقة ، والى لهجتنا الرسمية غير الطبيعية ، فيظن أنه نكرة ، واننا لم نكن نتحدث على هذا النمط الا لانه كان فى الصف الثانى .. ذا قيمة ثانوية ! .. وأحسب أنك لا تصدق انه كان لهذه الامور التافهة أثر كبير فى حياتنا الزوجية ! .. ليس بوسعك أن تتصور مدى ما كان لهذه الامور من أهمية .. ليس بوسعك أن تتصور الاعمال الطائشة التى حمله عليها هذا الهراء الصبيانى !

« ان أحدا لم يطلب اليه أن يذهب الى الحرب ، وانما ذهب لانه توهم نفسه عبئا علينا ، فأراد أن نتحرر منه ! .. وكانت هذه هى بداية جنونه كله ! .. كان – بفضل غرور مراهق سيىء التوجيه – يشعر بأن كرامته جرحت من أشياء لا تنطوى على عدوان على الكرامة . فبرم بمجرى الاحداث ، وسخط على التاريخ ، فهو لا يزال – الى يومنا هذا – يحاول أن ينال منه . وهذا ما يجعله متحرشا مستفزا الى درجة جنونية .. ان هذا الطموح الارعن هو الذى يسوقه الى حتفه . يا الهى ! ليتنى أستطيع أن أوفق الى انقاذه ! »

– ما أطهر حبك اياه ، وأقواه ! .. امضى فى حبك اياه ، امضى ، فلست أغار منه ! .. لن اقف فى طريقكما !

— ١٥ —

• **وأقبل** الصيف وانتهى ، دون أن يفطن اليه أحد .. واسترد « يورى » عافيته . وتولى ثلاثة مناصب – وليس منصبا واحدا – بينما كان يرسم خطته للذهاب الى موسكو . وكان الهبوط السريع

فى قيمة النقود يجعل من العسير عليه أن ينسق أموره .

وكان يستيقظ مع صياح الديكة ــ فى كل صــباح ــ فيغادر البيت ، وينطلق فى شارع (التاجر) ، مارا بدار سينما «العملاق» ، حتى يصل الى دار مطبعة « جيش قوزاق الاورال » سابقا ، التى أصبحت تدعى « جامع الحروف الاحمر » . وعند ناصية شارع (جورودسكايا) ، كان باب قاعة البلدية يحمل لافتة كتب عليها « الشكاوى » . وكان « يورى » يجتاز الميدان ، ويعرج على شارع (بويانوفسكا) ، حتى يصل الى المستشفى ، فيدخل ــ خــلال الباب الخلفى ــ الى « العيادة الخارجيــــة » ، فى القسم الخاص بالجيش ، حيث كان يعمل .. وكان هذا هو منصبه الرئيسى .

وكان الشطر الاكبر من طريقه ــ من دار « لارا » حتى المستشفى ــ يمتد فى ظلال أشجار وارفة ، مارا ببيوت صغيرة غريبة ، من الخشب ، ذات سقوف منحدرة ، وأبواب مزخرفة ، ونوافذ بزينات محفورة وملونة . وكان البيت المجاور للمستشفى مباشرة ، وقد قام فى وسط حديقة خاصة به ، ملكا لارملة التاجر «جورجليادف» ، وقد آل اليها بالوراثة ، وقد كسيت جدرانه بقطع من القرميــد اللامع ، المصقول ، « المشطوف » ــ كقطع الماس ــ على نمط بيوت كبار التجار القديمة فى موسكو .

وكان يورى يحضر اجتماعات مجلس ادارة « مرفق يورياتين الصحى» ــ بشارع (مياسـكى) ــ ثلاث مرات أو أربعا ، خــلال الاسبوع الذى كان يتألف من عشرة أيام .

وفى الطرف الآخر من المدينة ، قام « معهد علم امراض النساء » سابقا ، الذى أنشأه والد سامديفياتوف تخليدا لذكرى زوجتــه التى ماتت أثناء الوضع .. وقد أبدل اســمه الى « معهد روزا لوكسمبورج » . وهنــاك ، كان يورى يلقى محاضرات فى « علم الامراض العام » ، وفى موضوع أو اثنين متعلقين بالبصريات ، كجزء من المنهج الجديد ، المختصر ، لدراسة الطب والجراحة .

وكان ـ اذ يعود بالليل جائعا متعبا ـ يجد « لارا » فى غمرة مهامهما المنزلية ، تطهو أو تغسل . وفى هذه الناحية العادية من وجودها ومن عملها اليومى ـ وقد بدت مشعثة ، وشمرت عن كميها ، ورفعت ذيل ثوبها الى وسطها ـ كانت تلقى الروع فى نفسه ، بجمالها المهيب ، الجليل ، الذى كان يملك عليه أنفاسه أكثر مما لو رآها فى أتم اهبة للذهاب الى مرقص ، وقد بدت أطول مما هى ، وكأنما ازدادت طولا اذ ارتدت حذاءين مرتفعى الكعبين ، وثوبا طويلا ، منحسر الصدر ، جرار الذيل ، ذا حفيف رافل !

وكانت تطهو ، أو تغسل وتستخدم الماء المثقل بالصابون لتمسح به أرض الغرف .. أو تؤدى عملا ادعى للهدوء ، واقل دفعا للدماء الى وجهها ، فترتق وتكوى الثياب الداخلية لثلاثتهم .. أو كانت ـ اذا ما فرغت من الطهو والغسيل والتنظيف ـ تلقى دروسا على « كاتيا » .. أو كانت تعكف على كتبها مجددة تعليمها السياسى لتهيىء نفسها لمهمة التدريس القديمة ، فى المدرسة الجديدة ، وفقا للنظام الجديد .

وكان كلما ازداد قربى من « لارا » وابنتها ، قل اقداما على الاطمئنان لحياتهم العائلية ، وأخذت السيطرة ـ التى كان يفرضها على أفكاره واجبه نحو أسرته والمه لايمانه المنهار ـ تشتد تعسفا . ولم يكن فى هذا ما يمس « لارا » أو « كاتيا » . بل ان مسلكه كان ـ من ناحيته ـ على العكس من ذلك .. كان يحتوى على دنيا من الاحترام الذى يحول دون الالفة المبتذلة .

ولكن هذا الحد الذى أقامه لنفسه كان مبعث أسى وعذاب له ، وما تعوده الا كما يتعود المرء جرحا لا يبرأ ، فهو كثيرا ما ينكأ !

— ١٦ —

وبعد شهرين أو ثلاثة من الاقامة على هذا النمط ، قال يورى للارا ذات يوم :

ـ أتعرفين انه يبدو اننى قد أضطر الى الاستقالة من مهامى ؟

انه دائما عين الشيء ، يحدث مرارا وتكرارا .. فكل شيء رائع في البداية : « تعال ، فنحن نرحب بكل عمل طيب أمين .. اننا نرحب بالافكار ، وبالافكار الجديدة بوجه خاص .. أي شيء أفضل من هذا يروق لنا ؟ .. أد عملك ، وابحاثك ، وكافح ، وامض في سبيلك ! »

« ثم تجدين — عند التطبيق العملي — ان ما يقصدونه بالافكار ليس سوى كلمات .. كلمات طنانة تشيد بمديح الثورة ونظام الحكم . لقد سئمت ومللت هذا كله .. وهو ليس بالشيء الذي أصلح له !

« وأحسب انهم على صواب ، من وجهة نظرهم .. ولست في صفهم ، بطبيعة الحال . وكل ما هنالك انني أجد من العسير على أن أتقبل الرأي القائل بأنهم ابطال متألقون ، وانني — شخصيا — لست سوى شخص حقير ، صغير الشأن ، يناصر الظلم والظلامية (١) . هل سمعت يوما عن نيكولاي فيدنيابين ؟ »

— طبعا ! .. سمعت عنه قبل مجيئك ، ثم مما قلته لي أنت نفسك . وكثيرا ما تتحدث عنه « سيما تونتسيفا » ، فهي من كبار المعجبين به . ويخجلني انني لم أقرأ أي كتاب من كتبه ، فأنا غير مولعة بالمقالات الفلسفية .. **واعتقد انه لا بد من اضافة شيء من الفلسفة الى الحياة والفن ، على غرار « البهارات » الفاتحة للشهية ، أما اتخاذها اختصاصا للمرء ، فهذا ما يلوح لي عجيبا ، عجب الاقتصار في الغذاء على المخللات وحدها !** .. على انني آسفة اذ شغلتك بهذياني هذا !

— لا ، فهو في الواقع قريب كل القرب مما أراه أنا نفسي .. وان كنت — من جراء خالي — اعتبر مفسودا بفضل تأثيره على . فان من خطاياي الاعتقاد بالبديهة . ولكن ، انظري كم هو مضحك

---

(١) الحيلولة دون نشر أنوار العلم والمعرفة .

.. انهم يقولون جميعا ــ بأعلى أصواتهم ــ انني مبدع في تشخيص الامراض .. والواقع أن من الصحيح انني نادرا ما أخطىء في تشخيص أي مرض .. فماذا يعتبر هذا الادراك السريع للموقف ــ في مجموعه ــ اذا لم يكن هو البديهة التي يرونها ممجوجة ؟!

« شيء آخر .. فأنا في حيرة وشغل بمشكلة التمثيل والمحاكاة .. التقليد والتشـــكل .. تكيف كائن حي ــ من حيث المظهر الخارجي ــ بلون بيئته . اذ اعتقد انها تلقي ضوءا مذهلا على العلاقة بين دخيلة النفس والعالم الخارجي .. ولقد أقدمت على ذكر هذا في محاضراتي . وسرعان ما ارتفعت الاصوات : « مثالية ، مذهب أهل الباطن ، فلسفة « جيته » عن الطبيعة ، فلسفة شيللينج في ثوب جديد ! »

« لقد آن لي أن أنأى .. ولسوف أبقى في المستشفى الى ان يطردوني منه . ولكني سأستقيل من المعهد ، ومن ادارة الصحة . ولست أبغي أن أسبب لك ازعاجا ، ولكن شعورا يراودني ــ من آن الى آخر ــ بأنهم قد يأتون ويعتقلونني في أي يوم من الايام » .

ــ معاذ الله أن يسمح بذلك . ان الامر لم يصل الى هذا الحد بعد ، لحسن الحظ . ولكنك على صواب ، ولا ضير في الاخذ بمزيد من الحذر . ولقد لاحظت أن هذا العهد كلما حصـــل على سلطان سار في مراحل معينة منتظمة .. فالمرحلة الاولى انتصار العقل ، انتصار روح النقد ، والكفاح ضد المعتقدات القديمة ، وما اليها ..

« ثم تأتي المرحلة الثانية .. فيتجه التركز كله الى القوى المحوطة بالظلام ، والى الانصار الزائفين ، والى المترددين . فاذا الشبهات في ازدياد مضطرد .. واذا هناك وشاة ، ودساسون ، وأحقاد .. وانك لعلى صواب تام ، فنحن نلج الآن المرحلة الثانية .. ولسوف أطلعك على مثال يثبت ذلك . فان المحكمة الثورية المحلية حظيت بعضـــوين جديدين ، نقلا اليهـــا من (خوداتسكوي) .. وهمـــا معتقلان سياسيان قديمان ، من العمال : تيفرزين ، وأنتيبوف .

وكلاهما يعرفانني تمام المعرفة ، بل ان احدهما حماى ، فى الواقع وبصريح العبارة ..

« ومع ذلك ، فانني لم أبدأ أرتجف فرقا ، خوفا على حياة كاتيا وحياتى ، الا منذ وصولهما .. ان أنتيبوف لا يحبنى ، وانى لاعتقد أنهما معا قادران على أى شىء ، ولن يكون مستغربا منهما ان يقضيا على ، بل وعلى باشا نفسه ، فى يوم من الايام ، باسم العدالة الثورية العليـا » !

* * *

وحدث مصداق هذا الكلام ، بعد وقت جد قصير . فقد أجرى تفتيش ــ ذات ليلة ــ فى دار الارملة « جورجليادوفا » ، رقم ٤٨ بشارع (بويانوفكا) ، المجـاورة للمستشفى . فعثر على مخبأ للاسلحة ، واكتشفت مؤامرة ضد الثورة .. واعتقـل عدد من الناس ، واســتمرت موجــة التفتيش والاعتقالات . وتطايرت الشائعات بأن بعض المشتبه فيهم قد هربوا عن طريق النهر . فقال الناس : « ومع ذلك ، فماذا يجديهم الفرار ؟ .. هناك فارق بين أنهار وأنهار .. خذ نهر (أمور) مثلا ، عند (بلاجوفيشتشينسك) .. ليس عليك سوى ان تقفز اليه ، وتعبره سباحة ، فاذا بك فى الصين ! .. هذا هو النهر حقا ، وهذه مسألة أخرى ! »

وقالت لارا : « ان الجو يزداد اكفهرارا . لقد ولى زمن سلامتنا ، ومن المؤكد انهم عاقدو العزم على اعتقالك واعتقالى ، فماذا يجرى لـكاتيا اذ ذاك ؟ .. اننى أم ، ولا أستطيع ان ادع هـذا النحس يحدث ، بل لابد من التفكير فى مخرج .. يجب أن ارسم خطة .. ان هذا الامر يكاد يخرجنى عن رشدى ! »

ــ دعينا نحاول ونفكر ، بالرغم من اننا لا نملك شيئا ازاء حال كهذه .. أليس دفع هذه الضربة فوق طاقتنـا ؟ .. أليس الامر كله موكولا للقدر ؟

ـ من المحقق ان لا نجاة لنا ، ولا مكان هناك نذهب اليه . بيد اننا قد نستطيع أن نخرج من نطاق الانوار الكاشفة .. قدنستطيع أن نذهب الى (فاريكينو) مثلا ، فاني لا افتأ افكر فى الدار التى هناك .. انها بمعزل ، ومهملة ، ولكنا هناك نكون أكثر بعدا عن الاحداث منا هنا ، وقد لا نجتذب كثير اهتمام .. ان الشتاء مقبل ، ولست أرى بأسا البتة فى قضائه هناك . والى أن يصلوا الينا ، نكون قد اكتسبنا عاما من الحياة ، وهذا كسب يذكر دائما ! .. ولسوف يعنى سامدُيفياتوف بجعلنا على اتصال بالبلدة . بل انه قد يساعدنا على الاختباء كذلك ! .. فما رأيك ؟ .. من الصحيح ان ليست ثمة نفس حية هناك ، فالدار خاوية ، موحشة ، أو انها كانت كذلك عندما ذهبت اليها فى شهر مارس . ويقال ان ثمة ذئابا . وهذا أمر يدعو الى الخوف ، ولكنا يجب أن لا ننسى ان أمثال تيفرزين وانتيبوف اكثر اخافة من الذئاب ، فى هذه الايام !

ـ لست أدرى ماينبغى أن اقول . الم تكونى تستحثينني ـ طيلة هذه المدة ـ على الذهاب الى موسكو ، وتطالبينني بأن لاأرجىء ذلك ؟ .. لقد أصبح هذا أسهل تحقيقا ، اذ سألت فى المحطة .. والظاهر انهم قد كفوا عن الانشغال بالمتجرين فى السوق السوداء . ولم يعودوا ينتزعون من القطار كل من ليست أوراقه مكتملة ، وقل عدد من يرمونهم بالرصاص .. لقد تعبوا وسئموا !

« انما يزعجنى اننى لم اتلق ردا عن خطاباتى الى موسكو ، وجدير بى أن أذهب الى هناك ، لاتبين ما يجرى لهم .. انك لا تفتأين تنصحينني بذلك ، أنت نفسك ! .. ثم ، كيف لى أن أقتنع بما تقولينه عن (فاريكينو) ؟ .. من المؤكد انك لا تجرؤين على الذهاب الى مكان كهذا ـ بعيد عن العمران ـ وحدك ..

ـ لا ، بطبيعة الحال .. سيكون هذا مستحيلا بدونك !

ـ ومع ذلك ، فأنت تطالبينني بالذهاب الى موسكو ؟

ـ أجل ، يجب أن تذهب .

ـ اسمعى ، لقد واتتنى فكرة رائعة ! .. لنذهب ـ ثلاثتنا ـ الى موسكو .

ـ الى موسكو ؟ .. انك مجنون ! ما الذى أفعله فى موسكو ؟.. لا ، لابد لى من المكث هنا ، يجب أن أظل على مقربة من هنا . فهنا سيتقرر مصير « باشا » ، ولا بد لى من أن انتظره ، وان اكون على مقربة منه اذا ما احتاج الى !

ـ اذن ، فلنفكر فى أمر « كاتيا » !

ـ لقد كنا نتحدث عنها .. مع سيما .. سيما تونتسيفا ، فهى تأتى لزيارتى أحيانا .

ـ أجل ، اعرف هذا ، فانى كثيرا ما اراها .

ـ لو كنت فى مكانك لوقعت فى هواها ، فى الحال .. لست أدرى اين عيونكم أيها الرجال .. يالها من حبيبة ! .. رشيقة ، لطيفة ، ماهرة ، متعلمة ، كريمة ، عاقلة !

ـ لقد قصت لى أختها شعرى يوم وصولى .. جلافيرا ، الخياطة .

ـ أعرف هذا . فهما تعيشان مع أختهما الكبرى « أفدوتيا » .. امينة المكتبة . انهن يؤلفن اسرة صالحة ، عاملة ، شريفة .. ولقد فكرت فى أن اسألهن ـ لو حدثت اسوأ الامور ، والقى القبض عليك وعلى ـ عما اذا كن يرين مانعا من ان يأخذن كاتيا ويرعينها !

ـ هذا اذا لم يكن ثمة تدبير آخر .. فلندع الله ان لا تتطور الامور الى هذا الحد .

ـ انهم يقولون ان « سيما » غريبة الاطوار نوعا ما .. ليست مكتملة العقل . والحق انها لاتبدو عادية تماما ، ولكن هذا انما يرجع الى انها عميقة ، فذة فى نوعها .. انك واياها تتشابهان فى الآراء الى درجة عجيبة . وأعتقد اننى اكون جد مطمئنة الى حال « كاتيا » ، لو ان « سيما » تولت تربيتها !

— ١٧ —

• **وذهب** يورى الى المحطة مرة أخرى .. ومرة أخرى ، رجع صفر اليدين . كان كل شىء لايزال غير محسوم ، وكان و «لارا» يقفان أمام المجهول .. وكان الجو باردا ومعتما ، كما هى الحال قبيل تساقط الدفعة الاولى من الجليد . وكانت السماء تتشح ـ حيثما يقدر لك أن ترى رقعة كبيرة منها ، عند مفترق الطرق ـ بغلالة الشتاء ..

وكانت ثمة زائرة لدى لارا ، هى « سيما » ، وقد راحتا تتبادلان الحديث ، ولكن كلامهما كان أشبه بمحاضرة تلقيها « سيما » على مضيفتها . ولم يشأ « يورى » أن يثقل عليهما ، كما انه كان يبغى ان يخلو الى نفسه ، فاستلقى على الاريكة فى الحجرة المجاورة . وكان الباب ـ بين الحجرتين ـ مفتوحا ، وثمة ستارة تنسدل عليه ، من « الشراعة » حتى الارض ، ولكنها لم تحل دون أن يسمع « يورى » ما كانتا تقولان .

ـ سأستمر فى الحياكة ، ولكن لا تحفلى بهذا يا عزيزتى سيما ، فانى مصغية اليك ، وكلى آذان .. لقد درست التاريخ والفلسفة أثناء وجودى فى الكلية . وانى لاميل كثيرا الى نظرتك الى الامور . فضلا عن أننى أشعر بارتياح اذ انصت اليك .. **اننا لم نحظ بالنوم كثيرا ـ فى الليالى القلائل الاخيرة ـ لفرط قلقنا من أجل «كاتيا» . فأنا اعرف ان من واجبى كأم لها ان أطمئن الى سلامتها ، لو ان شيئا جرى لنا** . وخليق بى أن أفكر فى ذلك بهدوء وروية ، ولكنى لا أصلح كثيرا لذلك ، وكم يحزننى ان اتبين ذلك .. اننى حزينة ، لاننى متعبة ، ولم أحظ بنوم كاف ، ولكن الانصات اليك يرد الى اتزانى . ثم ان الجليد لن يلبث أن يتساقط فى أية لحظة ، وانا أحب ان اصغى الى حديث طويل ، حكيم ، حين يتساقط الجليد ! .. هل لاحظت انك اذا نظرت الى النافذة ـ عندما يتساقط الجليد

ـ فانك تشعرين دائما بأن ثمة شخصا ما مقبل على البيت عبر الحديقة ؟ .. امضى فى حديثك يا عزيزتى سيما ، فانى مصغية اليك !

ـ أين وقفنا فى الحديث ، فى المرة السالفة ؟

ولم يسمع « يورى » رد لارا ، ولكنه لم يلبث ان سمع «سيما» تقول :

ـ لست أحب الكلمات التى من قبيل « ثقافة » و « حقبة من التاريخ » ، فهى تؤدى الى اضطراب الذهن . وانى لافضل أن أعبر عنها بطريقة أخرى . فان الانسان ـ فى رأيى ـ مصنوع من شطرين : الله والعمل . فكل مرحلة تتلو أخرى ـ فى تطور النفس البشرية ـ تمتاز بتحقيق عمل شديد البطء ، طويل الاجل ، يستغرق أجيالا عديدة .. ولقد كانت (مصر) مثالا لهذا العمل ، و (اليونان) مثالا آخر ، وفقه أنبياء العهد القديم (التوراة) مثالا ثالثا . وآخر مثال ـ فى الترتيب الزمنى ـ هو الذى لم يبدل بعد بعمل آخر .. هو « المسيحية » .. وهى ـ كعمل ـ لا تزال تستكمل على أيدى الملهمين فى زمننا ..

« ولكى أبين لك هذا الشىء الجديد ـ تمام الجدة ـ الذى جلبته المسيحية على العالم بكل نضرتها وجدتها ـ لا كما عرفتها وألفتها ، وانما بمزيد من البساطة ، والقصد المباشر ، وعدم التوقع ـ اود أن استعرض بضعة احداث مقتبسة عن النصوص الدينية .. مجرد مقتبسات قليلة ، وموجزة لهذه الغاية :

« ان طائفة من النصوص الدينية تبين فى مجموعها نظريات « العهد القديم » و « العهد الجديد » (١) ، وتسوقها بعضها بجانب بعض .. مثال ذلك الدغل المحترق ، والخروج من مصر ، والاطفال فى الاتون المتأجج ، ويونان (يونس) والحوت .. وهذه ـ فى « العهد القديم » ـ تقارن بولادة العذراء ، وبعث المسيح ، فى

(١) التوراة والانجيل .

« العهد الجديد » .. مثل هذه المقارنة تبين بوضوح مدهش جدا - فيما ارى - كيف ان « العهد القديم » قديم ، و « الجديد » جديد .. **وكثير من النصوص تقيس ولادة العذراء بعبور اليهود البحر الاحمر** .. فهناك - على سبيل المثال آية تبدأ ب : « ان مثل العروس العذراء قد ضرب يوما فى البحر الاحمر » . ثم تستطرد لتبين انه : « كما ان البحر أصبح متعذر العبور ، بعد ان اجتازه بنو اسرائيل ، فكذلك كانت الطاهرة غير مفسودة بعد مولد عمانوئيل » (١) .. **أى أن عبور البحر سيرا على الارض ، أصبح مستحيلا بعد ان اجتازه اليهود ، وكذلك ظلت بكارة مريم دون سوء بعد مولد الرب . وهكذا أقيم شبه بين الحادثين . فأى نوع من الاحداث هما ؟ .. كل منهما خارق للطبيعة ، وهما سواء من حيث اعتبارهما معجزتين معترفا بهما** . ولكن ثمة فارقا بين المعجزتين .. فارق فى نوع الشىء الذى كان الناس يرونه معجزة فى تينك الحقبتين المختلفتين من الزمن . فقد كانت احداهما قديمة ، بدائية .. وكانت الاخرى جديدة ، بعد قيام الرومان ، فهى أكثر تقدما .

« وفى احدى الحالتين ، تجدين زعيما قوميا - هو زعيم العشيرة موسى - يأمر البحر بالانحسار ، فاذا البحر ينشق تحت ضربة عصاه السحرية ، فيتيح لشعب بأسره - لا حصر لعدد نفوسه .. مئات الآلاف من الناس - بالمضى خلاله ، حتى اذا اجتازه آخر رجل منهم ، اذا به ينطبق ثانية ، فيبتلع المصريين الذين يطاردونهم ويغرقهم . ان الصورة كلها رسمت وفقا للاسلوب القديم .. فاذا العناصر تطيع الساحر .. وجحافل حاشدة من الناس - كجيوش الرومان - تسير قدما .. شعب وقائد زعيم .. كل شىء واضح ، بين ، مدو ، هائل !

« وفى الحالة الثانية ، تجدين فتاة - عادية الشكل جدا ، حتى لقد

---

(١) « عمانوئيل » اسم ورد فى انجيل متى للمسيح ، ومعناه : « الله معنا »

كان من الممكن ان لا تثير أى اهتمام فى العالم القديم ـ تنجب طفلا فى هدوء وتكتم .. تنجب حياة .. تنجب معجزة الحياة ، « حياة الكل » كما أطلق عليه فيما بعد .. ومولد طفلها لا يقتصر على انه غير مشروع ـ وفقا للشرائع ـ فحسب ، بل انه ضد قوانين الطبيعة . وهى لا تلد بحكم الضرورة ، وانما بمعجزة .. بالهام . ومنذ ذلك الحين ، لم يعد أساس الحياة هو الاضطرار ، وانما أصبح اساسها ذلك الالهام بالذات ، وهذا ما يوحيه « العهد الجديد »... أصبح أساسها « غير العادى » بدلا من « العادى » ، « الاحتفالى » بدلا من « العمل اليومى » ، « الالهام » بدلا من « الاضطرار » .

« وبوسعك أن ترى أى تبدل عظيم المعنى هذا الذى جرى ! .. فلماذا يقاس حادث بشرى خاص ، غير ذى قيمة البتة ـ اذا قيس بالمعايير القديمة ـ بهجرة شعب بأسره ؟ .. لماذا تكون له هذه القيمة فى نظر السماء ؟.. اذ ان الحكم عليه لابد ان يتم على ضوء نظرة السماء اليه ، لانه لا يقام للأمر كله وزن الا امام وجه السماء ، وفى الضوء القدسى المنبعث عن تفرده الفذ .

« لقد تغير شىء ما فى الدنيا . كانت (روما) قد بلغت نهايتها ، وحكم الجماعات قد بلغ غايته .. وألغى الواجب الذى فرضته القوة المسلحة .. الواجب الذى كان يفرض على الفرد أن يعيش مغمورا ، فلا وجود الا للشعب .. للأمة فى مجموعها .. أصبح الزعماء والامم يمتون الى الماضى ، وحل محلهم مذهب الشخصية الذاتية والحرية .. وصارت قصة حياة بشرية ، هى سيرة الرب ، التى ملأت الكون .. وكما ورد فى النصوص الدينية ، فى « عيد البشرى » ، ان آدم حاول ان يكون ربا فأخفق .. ولكن ها هو ذا الرب قد جعل انسانا ، حتى يتسنى جعل آدم ربا ! »

* * *

وأمسكت سيما عن الاسترسال لتقول : « سأعود الى هذا بعد

لحظة ، فانى أحب أن اخرج عن الموضوع قليلا .. ففى كل مايتعلق برعاية العمال ، وحماية الام ، والكفاح ضد سلطان المال ، نجد ان عهدنا الثوري عهد رائع ذو اصلاحات جديدة ، باقية ، دائمة .. أما تفسيره للحياة ولفلسفة السعادة التى يبشر بها ، ف .. فمن المستحيل أن يصدق المرء انه تفسير جدى ، اذ انه بقية هزلية متخلفة من الماضى ـ ولو كان لكل هـذه البـلاغة ـ عن الزعماء والشعوب ـ قوة على قلب التاريخ ، لردتنا آلاف السنين الى عهود التوراة .. عهود الرعاة وزعماء القبائل . ولكنها ـ لحسن الحظ ـ لا تملك هذا .

« والآن ، لننقل بضع كلمات عن المسيح ومريم المجدلية .. انها ليست من الاناجيل ، وانما هى من الصلوات فى يوم من أيام الاسبوع المقدس ، وأظنه يوم الثلاثاء أو الاربعـاء . انك تعرفينها جميعـا يا لاريسا فيودوروفنا ، وانما اريد ان اذكرك بشىء ما .. فان كلمة « العـاطفة » لدى الكنيسة السـلافية تعنى ـ قبل كل شىء ـ « الالم » ، ألم المسيح : « احتمل المسيح أمله » . كذلك تستعملها النصوص الدينية بمعناها الذى ترجمت اليه بالروسية فيما بعد ، معنى الشهوات والرذائل : « نفسى تستعبدها الشـهوات ، وقد أصبحت كوحوش الحقل» .. « اما وقد طردنا من الجنة ، فلنجعل أنفسنا أهلا للعودة اليها ، بالعزوف عن شهواتنا » ، وما الى ذلك .. وقد أكون مخطئة ، ولكننى لا اميل الى النصوص التى وردت فى الصوم الكبير بشأن كبح الاحاسيس وقمع شهوات الجسـد . انها فجة ، بلا روح ، مجردة من شاعرية الكتابات الروحية الاخرى ، الى درجة عجيبة . وقد درجت دائما على الظن بأنها من نظم رهبان سمان ، لم يكونوا يراعون سنن نظامهم ! .. وليس معنى هـذا اننى أحفل بخرقهم هذا النظام ، وبخداعهم الناس ، ولا بأنهم عاشوا وفقا لما كان ضميرهم يوحيه اليهم ، فليس الرهبان هم الذين أعنى بهم ، وانما الذى أعنى به هو المضمون الحقيقى لتلك الفقرات ..

ان كل هذا الندم يضفى أهمية أكثر مما ينبغى على علل الجسد ، وعلى ما اذا كان سمينا أو كان مهزولا .. انه لامر يثير الاشمئزاز ! لكم يلوح لى انه يخلع شيئا غير طاهر ، ولا ذا بال ، وانما هو ثانوى الاهمية ، على كرامة لا تمت اليه بصلة .. الا اغفرى لى هذه الشطحات !

« ومما يثير اهتمامى دائما ان مريم المجدلية قد ذكرت عند الاستعداد لعيد الفصح بالذات ، على أعتاب موت المسيح وبعثه . ولست أدرى السر فى ذلك ، ولكن هذه التذكرة تبدو لى كما لو كانت قد سيقت فى وقتها المناسب ، فى لحظة وداعه الحياة ، وقبل عودته اليها ثانية .. فانظرى الى الطريقة التى سيقت بها هذه التذكرة .. أية عاطفة حقيقية توجد فيها ، واية صراحة مباشرة مستهترة !

« وهناك بعض شك فيما اذا كانت هذه التذكرة تقصد المجدلية، أو تقصد اية مريم من « المريمين » الاخريين . ولكنها ـ على اية حال ـ تتوسل الى ربنا قائلة : « فك دينى ، كما أفك شعرى » ! .. أى « خلصنى من ذنبى كما أحل شعرى » . فهل ثمة تعبير عن الندم ، وعن التعطش للمغفرة ، أشد من هذا رسوخا ، واكثر من هذا وضوحا ؟ !

« وتأتى بعد ذلك ـ فى النصوص الدينية الخاصة باليوم ذاته ـ فقرة أكثر تفصيلا ، ويكاد يكون من المؤكد فى هذه المرة ، انها تشير الى مريم المجدلية :

« ومرة أخرى ، يشتد بها الحزن بشكل ملموس فظيع ، على ماضيها وعلى الفساد الذى تغلغل فيها ، حتى انه كان يبعث فيها فى كل ليلة ، من جديد : « ان تأجج الشهوة أشبه لدى بالليل .. انه سورة الاثم المظلم ، الذى لا قمر له » ! . وهى ترجو المسيح ان يقبل دموع توبتها ، وان يتأثر بصدق تنهداتها ، حتى تستطيع أن تجفف قدميه المفرطتى الطهر بشعرها .. فتذكره بأن حواء

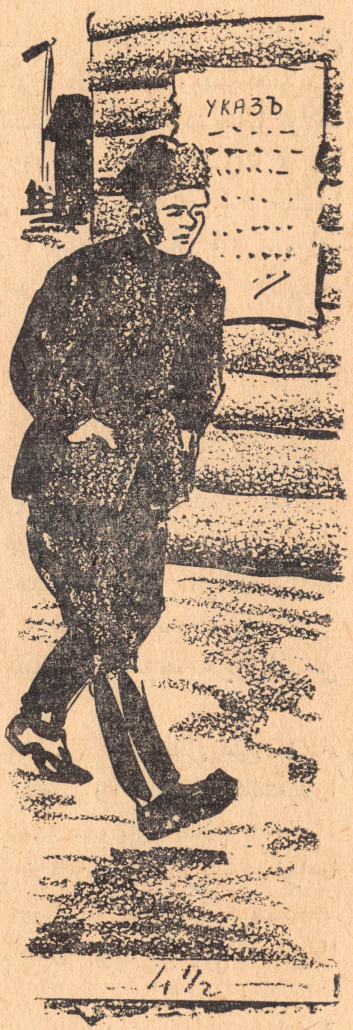
لاذت بأمواج شعرها المتدافعة ، عندما طغى عليها الخوف والخجل في الجنة : « دعني أقبل قدميك المفرطتي الطهر ، وأرويهما بدموعي، وأجففهما بشعر رأسي ، الذى كسا حواء وسترها عندما تولاها الخوف فى هدوء يوم الجنة الرطيب ، اذ ملأ اذنيها الصوت » .. وسرعان ماتهتف ، بعد كل هذا الذى قيل عن شعرها : « منذا الذى يستطيع ان يسبر غور خطاياى ، وعمق حكمك ؟ » .. أية ألفة ، وأية تعبيرات متساوية بين الرب والحياة ، والرب والفرد ، والرب وامرأة ! »

— ١٨ —

• **كان** يورى قد عاد من المحطة منهوك القوى .. وكان اليوم يوم عطلته الاسبوعية ، وقد اعتاد ان ينام فيه نوما يكفيه طيلة الايام التسعة الاخرى من الاسبوع الذى كان يتألف من عشرة أيام .. واستلقى على الاريكة ، وراح يتمطى عليها من آن الى آخر . ومع انه كان يصغى الى « سيما » خلال ضباب النعاس الزاحف ، الا أن تأملاتها أطربته . فقال فى نفسه : « لقد أخذتها كلها من كتب الخال كوليا ، طبعا ! .. ولكن ، لكم هى ذكية موهوبة بالرغم من هذا ! »

ونهض من رقدته فسار الى النافذة .. وكانت تطل على فناء الدار ، وكذلك كانت نافذة الحجرة المجاورة ، حيث كانت لارا وسيما تتحدثان دون ان يستبين حديثهما . وكان الظلام يزحف ، وبدا كأنما الجليد يتساقط . وطار غرابان من الطريق ، فراحا يحومان بحثا عن مكان يستقران فيه ، والريح تعبث بريشهما . وحطا على غطاء مستودع القمامة ، ثم طارا فوق السياج ، وهبطا الى الارض ، وراحا يقفزان فى الفناء .

وقال يورى فى نفسه : « الغربان نذر الجليد » . وفى اللحظة ذاتها ، قالت سيما — فى الحجرة المجاورة — بصوت مرتفع : « الغربان نذر الانباء . سيأتيك ضيوف ، أو خطاب ! »



« كان يورى قد عاد من المحطة منهوك القوى .. وكان اليوم يوم عطلته الأسبوعية .. »

وان هو الا قليل ، حتى جذب شخص ما مقبض جرس الباب ، الذى كان « يورى » قد أصلحه . وبرزت لارا من وراء الستار ، وسارت بخفة عبر البهو لتفتح الباب . وسمعها يورى تتحدث الى «جلافيرا» ، شقيقة «سيما» :

ـ أجئت فى طلب أختك ؟ .. أجل ، انها هنا !

ـ لا ، لم آت من أجلها ، وان كان من الممكن أن نعود معا الى البيت ، اذا كانت سيما متأهبة .. لقد أحضرت خطابا لصديقك . ومن حسن حظه اننى كنت أعمل يوما فى مكتب البريد .. لست أدرى كم من الايدى قد مر بها ، فهو من موسكو ، وقد استغرق خمسة أشهر فى الطريق . ولم يوفقوا الى العنوان . ثم خطر لهم ـ آخر الامر ـ أن يسألونى ، فعرفت بالطبع .. لانه جاءنى مرة لاقص له شعره .

وكان الخطاب الطويل ـ الذى كتب على عدة صفحات من الورق ، مكرمشة ، ومتسخة ، فى المظروف الممزق الذى فض فى مكتب البريد ـ كان الخطاب من تونيا . وألفاه « يورى » بين يديه ، وان

لم يدر كيف وصل اليهما ، اذ انه لم ير لارا وهى تبسطه اليه . وعند ما بدأ يقرأه ، كان لا يزال يدرك انه فى (يورياتين) ، فى دار « لارا » . بيد انه لم يلبث - كلما راح يوغل فى القراءة - ان راح يفقد كل شعور بذلك . وخرجت « سيما » فحيته ، ثم تهيأت للانصراف ، فرد عليها بعبارات مناسبة - بطريقة تلقائية - بيد انه لم يعرها اهتماما ، ولا فطن البتة الى انصرافها !

وبعد برهة ، نسى كل شىء عما كان يحيط به .. كانت تونيا قد كتبت له :

« يورا : أتعرف اننا قد رزقنا ابنة ؟ .. لقد عمدناها باسم « ماشا » ، اكراما لذكرى أمك .

« والآن ، هناك شىء آخر .. ان كثيرا من المبرزين ، والاساتذة الذين كانوا ينتمون الى حزب الطلبة العسكريين والاشتراكيين اليمينيين ، وميليوكوف ، وكيزيفيتر ، وكوسكوفا ، وآخرين عديدين - منهم خالك كوليا ، وأبى ، وبقيتنا - ينفون الآن من روسيا ..

« وهذا من سوء الطالع ، لا سيما فى غيابك ، ولكن علينا ان نتقبله ، ونحمد الله على ان اقصاءنا يتخذ صورة هينة لينة ، فى مثل هذا الوقت العصيب الذى كان من المحتمل أن تكون الامور فيه أسوأ من هذا ، بالنسبة الينا . ولو انك كنت هنا ، لامكنك ان تأتى معنا . ولكن اين انت ؟ .. اننى ارسل هذا الخطاب الى عنوان أنتيبوفا ، وسوف تسلمه اليك حين تعثر عليك . لكم يحيرنى اننى لا ادرى ما اذا كانت « تأشيرة الخروج » - التى نحصل عليها كأسرة - ستمتد بحيث تشملك فيما بعد ، عند ما يتسنى العثور عليك ، ان شاء الله .

« اننى لم أتخل بعد عن الايمان بأنك على قيد الحياة ، وانك لن تلبث ان تظهر . ان قلبى يحدثنى بهذا ، وانى لاثق فيه . ولعل

الظروف فى روسيا تكون اذ ذاك — عندما تظهر ثانية — أهون شأنا ، فنعمل على الحصول على « تأشيرة » منفصلة لنفسك ، فيقدر لنا أن نجتمع مرة أخرى فى مكان واحد . على اننى — اذ اكتب هذا — لا أومن فى دخيلة نفسى باحتمال توفر كل هذا القدر من السعادة !

« **ان كل نكبتى هى اننى أحبك وأنت لا تحبنى . ولا أفتأ أحاول ان اكتشف معنى هذا القدر الذى قضى على به .. ان افهمه .. أن أتبين سببه** .. اننى أفتش فى نفسى ، واستعرض كل حياتنا معا وكل ما أعرفه عن نفسى ، فلا استطيع ان اعثر على البداية ، ولا أتذكر ما الذى فعلته ، وكيف اجتلبت على نفسى هذا النكد . ان لديك فكرة زائفة ، قاسية عنى ، فأنت ترانى فى مرآة مشوهة !

« **أما انا ، فاننى أحبك . ألا ليتك تدرك كم أحبك ! .. اننى احب فيك كل ما هو غير عادى ، اللائق منه وغير اللائق .. وكل الاشياء العادية التى تسمو قيمتها فى نفسى ، لاجتماعها فيك بطريقة غير عادية .. ووجهك الذى يكسبه محياك جمالا ، وان كان خلوا من الجمال بدون هذا التعبير الذى يتجلى على محياك .. وذكاءك ، وموهبتك التى تحل محل ارادتك .. فانك بلا ارادة . كل هذا عزيز على ، ولست اعرف احدا أفضل منك فى الدنيا .**

« ولكن ، أسمع .. هذا ما ابغى ان أقوله لك .. حتى اذا لم تكن عزيزا لدى الى هذا الحد ، وحتى اذا كنت أقل حبا لك وميلا اليك ، لظللت أرى اننى أحبك ، ولظلت الحقيقة البغيضة — وهى اننى كنت عديمة الاكتراث — خافية على ، ولحرصت — دون ان افطن — على تجنب تبين اننى لم أحبك ، لمجرد الخوف من ان انزل بك مثل هذا الهوان .. مثل هذا العقاب الفتاك . وما كنت لتعرف هذا ، ولا كنت أعرفه انا . فان قلبى كان خليقا بأن يظل خافيا عنى ، **لان عدم الحب يكاد يشبه القتل ، وما كنت لاجد القوة على ان أوجه مثل هذه الضربة الى اى امرىء !**

« لم يستقر الرأى بعد على شيء،بوجه قاطع ، ولكن من المحتمل أن نذهب الى (باريس) . سأكون فى تلك البلاد النائية التى اصطحبوك اليها وانت طفل ، والتى نشأ فيها أبى وعمى . ان ابى يبعث اليك بتحياته . ولقد كبر « ساشا » كثيرا ، وهو ليس مليحا الى درجة ملحوظة ، ولكنه ولد ضخم قوى ، وكلما تحدثنا عنك بكى أحر بكاء ، ولم يتقبل أية تسرية .

« ليس بوسعى ان أمضى ، فلست أملك ان اكف عن البكاء . فوداعا .. دعنى أرسم عليك علامة الصليب ، واباركك بما يكفى لجميع السنين المقبلة ، والفراق الذى لا نهاية له ، والمحاكمات ، والهواجس .. ولكل طريقك الطويل ، الطويل ، المظلم . لست ألومك على شيء ، ولست أعتب عليك ، فتول تشكيل حياتك كما تبغى ، فليس من المهم سوى ان تكون بخير .

« قبل أن تغادر (الاورال) ــ ولكم تجلى انه كان مكانا مقيتا ، مشئوما ، بالنسبة لنا ــ قدر لى ان أعرف « لارا فيودوروفنا » معرفة وثيقة . وانى لاشكر لها وجودها الدائم بجوارى ، عند ما كنت فى الضيق ، ومساعدتها اياى فى مخاضى . ومن واجبى أن أقر ــ بأمانة وصراحة ــ بأنها طيبة صالحة ، ولكنى لا أبغى أن أكون مرائية .. فهى على النقيض تماما منى . لقد فطرت أنا على تبسيط الحياة ، والسعى الى حلول معقولة .. أما هى ، فقد فطرت على تعقيد الحياة ، وزيادة اضطرابها .

« لقد آن ان اكف عن الكتابة ، فليحفظك الله ! .. لقد جاءوا يطلبون الرسالة ، وحان وقت حزم المتاع . اواه يا يورا ، يا يورا ، يا عزيزى ، يا حبيبى ، يا زوجى ، يا والد طفلى !.. ما الذى يجرى لنا ؟ .. هل تدرك أننا لن نلتقى أبدا ، أبدا ؟ .. هل تتبين معنى هذا ، بعد اذ كتبته ؟ .. هل تفهم ، هل تفقه ؟ .. انهم يتعجلوننى ، فكأنهم جاءوا ليحملونى الى حتفى . يا يورا ! .. يا يورا ! »

* * *

وفرغ « يورى » من القراءة ، فرفع عينيه .. كانت نظراتهما غائبة ، وكانتا خاليتين من الدموع ، جافتين من الحزن ، ناضبتين لفرط العذاب . فلم يكن يرى أو يعى شيئا مما حوله .

وكان الجليد يتساقط فى الخارج .. واخذت الريح تدفعه ، وهو يزداد كثافة ، ويشتد سرعة ، وكأنه كان يحاول أن يلحق بشىء ما .. فأخذ يورى يحملق فيه .. لا كما لو انه كان يبصر الجليد ، وانما كما لو انه كان لا يزال ماضيا فى قراءة خطاب تونيا .. وكأنما النتف البيضاء — التى راحت تمر أمامه سريعة — لم تكن نتف الثلج الصغيرة ، اليابسة ، وانما كانت الفراغات التى كانت تتخلل الحروف الصغيرة السوداء .. فراغات بيضاء ، لا نهاية لها !

وصرخ دون ما ارادة منه ، وضم يديه الى صدره بشدة .. وشعر بأنه يوشك أن يغمى عليه ، فترنح بضع خطوات حتى بلغ الاريكة ، وهوى فوقها فاقد الوعى !

الفصل الرابع عشر

العودة إلى ڤاريكينو



« ٠٠ واخذ يهمس : « يا الهى ! يا الهى ! كل هذا لى أنا ؟ لم هذا الكرم ؟ لماذا جعلتنى أمثل تحت ظل عرشك ؟ كيف فتحت لى أبواب الحياة بين كنوزك ، وتحت النجوم ، واسلمتنى الى حب شقى جموح لا يئن ولا يشكو ؟ »

الفصل الرابع عشر

العودة الى فاريكينو

— ١ —

• كان الشتاء قد استتب ، والثلج ينهمر غزيرا .. وكان يورى قد عاد لتوه من المستشفى ، حين قابلته « لارا » عند الردهة ، فقالت له بصوت تخنقه الحيرة والانزعاج ، وقد وقفت كالمأخوذة أذهلها الارتباك :

ـ كومار وفسكى هنا !

ـ أين ؟ فى مسكننا ؟

ـ كلا ، هذا محال ، انه جاء فى الصباح وقال انه سيعود هذه الليلة ، وأحسبه على وشك القدوم . انه يريد أن يكلمك .

ـ ولماذا جاء ؟

ـ لم أفهم كل ما قاله ، ذكر أنه رحل الى الشرق الاقصى وانه عرج علينا ليرانا ، وبالاخص ليراك أنت و « باشا » . وقال ان ثلاثتنا فى خطر ، أنت وباشا وأنا ، وانه وحده الذى يستطيع انقاذنا اذا اتبعنا نصيحته !

ـ اننى سأخرج ، فلست أريد أن أرى وجهه !

فانفجرت لارا باكية ، وهمت بأن ترتمى تحت قدميه وتحتضن ركبتيه ، ولكنه أرغمها على الوقوف . وأخذت تناشده :

ـ أرجوك ان تبقى ، من اجلى انا .. لا لاننى اخاف ، بل لاننى أكره الانفراد به ، فأنقذنى من أن أقابله وانا وحدى . ثم انه رجل عملى محنك ، فلعل فى جعبته حقا نصيحة تنفعنا . اننى أعلم كم تشمئز منه ، ولكن نح عنك هذا الشعور وابق معى .

ـ ماذا دهاك يا حبيبتى ؟ لا تستسلمى هكذا للانزعاج . ما الذى

تريدين فعله ؟ كفى عن السجود وقفى مبتسمة منشرحة الفؤاد . ينبغى لك التخلص من الخوف من هذا العفريت الموهوم ، انه ملأك رعبا شديدا ، اننى بكلمة منك أقتله عن طيب خاطر .

وحل المساء بعد قرابة نصف ساعة ، وأطبق ظلام حالك . وكانت قد انقضت ستة أشهر منذ أن سدت جحور الفئران فى المسكن ، وظل « يورى » يرقب هل من فأر طارىء يلزم أن يسد على الفور جحره !

وكانا قد استبقيا أيضا بمسكنهما قطا كبيرا ناعم الشعر يمضى وقته فى التأمل ، وكأنه يبطن — فى غموض — أسراره .. ذلك أن الفئران لم تكن قد بارحت مسكنهما ، غير انها صارت أشد حذرا .

وأخذت « لارا » — وهى تترقب قدوم « كومار وفسكى » — تقطع شرائح من خبز البطاقات الاسود . وتضع على المائدة طبقا به حبات قليلة من البطاطس المسلوق . وقرر الاثنان أن تتم المقابلة فى حجرة الاكل التى خلفها سكان المنزل السابقون — وكانا لا يزالان محتفظين بعادة تناول الطعام بها — بمائدتها السوداء الكبيرة الثقيلة المصنوعة من خشب البلوط ، والبوفيه الباقى من أثاثها القديم . وكانت فوق المائدة زجاجة كبيرة من زيت الخروع بها فتيل ، يستخدمونها كقنديل متنقل .

وهبط عليهما « كومار وفسكى » — كأنما انشقت عنه غياهب ليل ديسمبر الحالك — تتساقط عن قبعته ومعطفه وحذائه نتف من الثلج المتراكم عليها ، وتتحول على أرض الحجرة الى برك صغيرة من الوحل .. وقد لطخ الثلج شاربه ولحيته ، فبدا أشبه بمهرج فى سيرك ! (وكان فى الايام الخالية أمرد الوجه) . وكانت بذلته أنيقة — ولو انها قديمة — وبنطلونه المخطط محتفظا بثنيته . ومن قبل أن يلقى عليهما تحيته ، صرف وقتا غير قصير فى ترجيل شعر رأسه المبتل بمشط جيبى صغير ، ثم مد يديه وهو صامت باشارة تومىء بتوجس شر قادم .. مد اليد اليسرى الى « لارا »

واليمنى الى « يوري » .. ثم التفت الى « يورى » قائلا :

ـ دعنا نفترض أن بيننا معرفة قديمة ، فلعلك تعلم أننى كنت صديقا حميما لابيك ـ بل لقد مات بين ذراعى ! ـ وانى لارقبك لاعرف هل نشأت على شاكلته ، ولكنى لا أظن أنك تحذو حذوه ، اذ كان رجلا مندفعا ، يفتح قلبه ويطيع أول نوازعه ! .. على أنك فيما يبدو ورثت عن أمك رقتها واستغراقها فى الاحلام ..

« لقد سألتنى « لارا فيودوروفنا » أن أقابلك ، وقالت أن لديك مسألة تريد ان تبحثها معى ، وقد وافقت ـ فلست أنا الذى أردت هذا اللقاء ـ وعندى أن لقاءنا هو لقاء بين غريبين ، فهل نشرع فى التحدث عن هذه المسألة ؟ ماذا تريد ؟ اننى سعيد يا عزيزى أن أراكما معا. **اننى فاهم،فاهم كل شىء،واسمح لنفسى بأن أقول اننى أرى كلا منكما لائقا للآخر ، فنعم التوافق بينكما !**

ـ كفى ، أرجـوك ! اهتم بشئونك انت ولا دخل لك بنا . لسنا فى حاجة الى عطفك ، انك تنسى نفسك .

ـ لا تسرع يا فتى بالهياج والغضب . يخيل الى الآن انك ورثت طباع أبيك ، اذ كان يفقد حلمه كما تفعل أنت . على كل حال اننى أتمنى لكما كل خير ، ولكنكما لسوء الحظ طفلان غريران ، لا على سبيل المجاز ، بل هو الحق . طفلان غارقان الى آذانهما فى الجهـل والغفلة ، وقد علمت عنكما فى يومى هذا أشـياء أكثر مما تعلمانه ـ يقينا أو حدسا ـ عن نفسيكما . **انكما تمشيان ـ وانتما لا تدريان ـ على حافة هاوية ، فاذا لم تجدا لكما حيلة ، فان أيامكما فى التمتع بالحرية ـ بل وربما بالحياة ذاتها ـ تصبح معدودة !**

« إن هناك منهجا شـيوعيا يا « يورى أندريفيتش » ، لا يقوى عليه الا القليلون ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يتحدى ويهزأ علنا ، كما تفعلان ، بهذا المنهج الجديد فى الحياة والفكر . لا افهم لـماذا تداعبان الخطر ! انكما تجعلان نفسيكما بمثابة دليل سبة وسخرية بهذا المنهج . وليت ماضى حياتكما كان سرا مجهولا ، فهناك أناس

من موسكو يعرفون دخائلكما ، وليس بين أصحاب السلطة رجل واحد يكن لكما الحب ، بل ان الرفيق « أنتيبوف » والرفيق « تيفرزين » يشحذان مخالبهما للانقضاض عليكما !

« يا « يورى أندرييفيتش » : انت رجل رشيد وانت سيد نفسك ، يحل لك ان ترتكب ما تشاء من الحماقات ، وتخاطر بحياتك ان أعجبك هذا ، **ولكن « لارا فيودوروفنا » ليس لها شأن بالسياسة . انها مسئولة عن حياة ابنتها ، ولا تستطيع أن تغمض عينيها عن الحقيقة وتسبح فى الخيال** . ولقد أضعت صبيحة هذا اليوم فى محاولة اقناعها بأن تنظر الى الواقع نظرة الجد ، فلم تأبه لكلامى ، فهلا أقنعتها أنت — بفضل سلطانك عليها — بأنها ليس لها حق العبث بسلامة ابنتها ، وانها ينبغى أن لا تغفل الحجج التى تستند اليها نصيحتى ؟

— اننى لم أفرض قط آرائى على أحد من الناس ، ومن باب اولى أحرص على أن لا أفرضها على من هم بجانبى . ان للارا فيودوروفنا كل الحق — كما تشاء وتهوى — ان تقتنع بقولك أو لا تقتنع . هذه مسألة ترجع اليها وحدها . ثم اننى لم أسمع بعد هذه الحجج التى تقول أنك تستند اليها !

— انك تذكرنى — أكثر فأكثر — بأبيك ، فقد كان عنيدا مثلك . دعنى الآن أشرح لك الامر . انها مسألة معقدة ، فاصبر على ولا تقاطعنى : سيدخل تعديل على السياسة العليا — نعم ، صدق هذا لاننى علمته من مصدر موثوق به . ان فى عزمهم التحول الى نظام أكثر ديموقراطية ، استرضاء منهم لمن يطالبون بنظام شرعى للحكم ، وسيحدث هذا فى القريب العاجل . وهذا التحول سيقضى بالغاء مناصب العملاء الذين عهد اليهم بتنفيذ حملات الانتقام والتطهير ، ولذلك فانهم يسرعون الآن فى تقفيل حساباتهم ، كل فى دائرته . **ولذلك ستمر بنا — قبل اجراء هذا التحول — فترة يعم فيها ارتكاب الفظائع ، بوحشية وقسوة لم تعرفا من قبل ، وانت**

يا يورى أندرييفيتش من بين من تقرر اهدار دمهم ، ان اسمك مدرج فى القائمة السوداء . انه جد لا هزل ، لقد رأيت اسمك بعينى .. فينبغى ان تتدبر كيف تنجو بنفسك قبل فوات الاوان . كلامى هذا كله بمثابة مقدمة ، وسأصل الى صميم المسألة .

« أن العناصر السياسية التى لا تزال موالية للحكومة المؤقتة وللجمعية التأسيسية المنحلة ، تحتشد الآن فى الولايات المجاورة للمحيط الهادىء ، ويتجمع فيها رجال من ذوى النفوذ ، كأعضاء مجلس الدوما والمجالس البلدية والقروية ، وغيرهم من شاغلى المناصب العامة ورجال الاعمال والصناعة ، وكذلك بقية من الجيش الذى كان قد تألف من المتطوعين . وفى عزمهم أن يقيموا «جمهورية الشرق الاقصى » ، وفى نية الحكومة السوفييتية أن تغض الطرف عنها ، اذ ترى من صالحها الآن أن تقام هناك حكومة تكون بمثابة سد يحمى سيبيريا من عدوان العالم الخارجى ، وتصر موسكو على أن يكون أكثر من نصف اعضائها من الشيوعيين ، ثم تعمد فى الوقت الذى يروق لها الى تدبير انقلاب فى هذه الجمهورية وتخضعها لسلطانها . ان هذه الخطة واضحة كالشمس ، ولكنها تتيح لكما فسحة من الوقت لطلب النجاة ، فاعرفا كيف تحسنان الانتفاع بهذه الفرصة . وقد كنت قبل الثوره أتولى فى وقت من الاوقات أعمال مصارف وشركات كثيرة فى فلاديفستوك ، فأنا معروف هناك . وقد جاءنى رسول من قبل مجلس وزراء الجمهورية ــ وهو لم يعلن عن نفسه بعد ــ يعرض على منصب وزير العدل فى الحكومة القادمة ، وقد حدث هذا المسعى سرا ولكن برضاء غير رسمى من جانب السوفييت . وقد قبلت ، وها أنذا فى طريقى اليهم . وكل الذى قلته لكما يحدث برضاء ضمنى من قبل الحكومة السوفييتية ودون أن تفصح عنه علنا ، لهذا ليس من الحكمة أن تفيض الالسن بالتحدث عن خبره . وفى استطاعتى أن آخذكما معى ــ أنت و « لارا فيودوروفنا » ــ ومن هناك يسهل عليك ركوب

باخرة تحملك الى أسرتك فى الخارج ، فأنت تعلم ولا ريب أنها نفيت من روسيا ، وكان لهذا النفى وقع كبير ، ولا تزال موسكو تتحدث عنه طويلا . وقد وعدت « لارا فيودوروفنا » أن أنقذ ستريلنيكوف وفى وسعى ـ اذ أصبح عضوا فى حكومة مستقلة تعترف بها موسكو ـ أن أبحث عنه فى سيبيريا الشرقية ، وأعينه على اجتياز الحدود الى اقليمنا المتمتع باستقلاله . اما اذا لم ينجح فى الهرب ، فاننى سأقترح تبادله مع أسير آخر ـ ممن فى قبضة الحلفاء ـ تود حكومة موسكو وضع يدها عليه .

تابعت لارا شرح كوماروفسكى بمشقة،ولكنها أعارته أذنيها حين بدأ يتحدث عن الخطة المرسومة لنجاة يورى وستريلنيكوف . ثم تورد وجهها خجلا وقالت ليورى :

ـ أنت ترى يا عزيزى أن هذا الامر هام بالنسبة لك ولباشا .

ـ يا عزيزتى ، أنت سريعة التصديق . وهناك فرق بين خطة لا تزال فى دور الاعداد ، وبين تنفيذها فعلا . أنا لا أقول أن « فيكتور ابوليتوفتش » يغرر بنا عن عمد ، ولكنه لم يزد عن أن يبنى لنا قصورا فى الهواء !

ثم التفت الى « كوماروفسكى » وقال له :

ـ أما عن نفسى فانى أشكرك على عنايتك بشئوني ، ولكن اياك أن تحسب انى ادعك انت تتولى تدبيرها لى. اما عن «ستريلنيكوف» فان لارا ستفكر فى الامر .

وقالت لارا :

ـ كل المسألة : هل نذهب معه أم لا نذهب ؟ وانت تعلم حق العلم أننى لا أذهب الا اذا كنت معى .

وأخذ « كوماروفسكى » يحتسى الكحول المخفف بالماء ـ الذى سبق ليورى أن جاء به من المستشفى ـ وفمه مشغول بمضغ البطاطس المسلوق ، وقد بدأ الخمر يغتال وعيه شيئا فشيئا .

— ٢ —

• تثاءب الليل ، وكان الفتيل كلما شذب طرفه يثور ويتوهج ويعم ضياؤه الحجرة ، ثم يخفت فيطبق الظلام من جديد . ودب النعاس الى جفون « لارا » و « يورى » ، انهما يريدان أن يبحثا — على انفراد — شؤونهما ، ثم يأويا الى فراشهما . ولكن كوماروفسكى باق لا يبرح مكانه ، وقد ضاقا ذرعا بصحبته ، كما ضاقا ذرعا برؤية البوفيه الثقيل ، وبظلام ليل ديسمبر الحالك من وراء النوافذ .

وكانت نظرة كوماروفسكى — اذ تنبعث من عينين أضفت عليهما الخمر لمعان الخزف وجموده — غير مصوبة اليهما ، بل تمر فوق رأسيهما الى هدف بعيد ، وهو ماض فى حديثه ، يغالبه النعاس ، فى ثرثرة لا تنقطع ، تبعث على الضجر . وكانت كثرة التحدث عن الشرق الاقصى قد صارت هوايته الاخيرة ، فأخذ يشرح ما لمنغوليا من أهمية سياسية ، وهذا موضوع لم يكن يهم « لارا » ولا « يورى » ،فلم يصغيا الى المقدمات ، وحين انتبها عند النتائج تعذر عليهما فهمها ، مما زاد من ضجرهما من حديثه ..

وكان يقول :

— سيبيريا هى أمريكا الجديدة ، كما يقال . انها تعد بامكانيات هائلة ، انها مهد مستقبل روسيا وعظمتها ، ومقياس تقدمنا نحو الديموقراطية والنضج السياسى والاقتصادى . بل ان منغوليا الخارجية ، جارتنا الكبرى فى الشرق الاقصى ، تفوقها فى هذه الإمكانيات التى ستتكشف مستقبلا . ماذا تعلمان عنها ؟ ألا تخجلان من التثاؤب واستسلام عيونكما للنعاس ؟ هل تعلمان أن مساحة منغوليا هى مائة مليون ميل مربع ، وان فى باطنها ثروة معدنية طائلة ؟ انها أرض بكر ، تطمع فيها الصين واليابان والولايات المتحدة . انهم على استعداد للانقضاض عليها اضرارا بمصالح روسيا وطننا ، على أن مصالحنا قد اعترف بها غرماؤنا ، كلما جرى

ذكر تقسيم هذا الركن المنعزل من العالم الى مناطق نفوذ .

« والصين – عن طريق مشايعتها لطائفة اللاما – قساوسة منغوليا – تستغل لمنفعتها نظامها الاقطاعى الرجعى المعتمد على رجال الدين .. واليابان تعتمد على الامراء ملاك الرقيق .. أما روسيا الشيوعية الحمراء فقد وجدت حليفا لها فى اتحادات الرعاة المنادين بالثورة . اننى أتمنى أن أرى منغوليا تنعم بالرخاء ، وتقوم فيها حكومة معتمدة على مجلس نيابى يتم انتخاب أعضائه فى جو من الحرية ، أما ما يهمكما أنتما فهو انكما – حين تجتازان الحدود الى منغوليا – تنفتح لكما أبواب الحرية ، وتصبح الدنيا كلها فى متناول أيديكما .

أنهكت هذه الثرثرة اعصاب « لارا » ، وتملكها الضجر والاعياء حتى كادت تذرف الدموع . فمدت له يدها تقول له فجأة وهى لا تخفى نفورها :

– لقد تأخرنا وآن أوان انصرافك ، فانى فى حاجة الى النوم .

– أرجو ألا يبلغ بك انكار واجب الضيافة ان تقذفى بى الى الخارج فى مثل هذه الساعة من الليل ، فما أحسبنى مهتديا الى طريقى فى هذا الظلام المطبق ، وانا لا اعرف مسالك المدينة .

– كان الاولى بك أن تفكر فى ذلك من قبل ، بدلا من أن تطيل جلستك ، ونحن لم نسألك البقاء معنا .

– لماذا تتحدثين الى بهذه اللهجة الجافة ؟ . انت لم تسألينى على الاقل هل لى مكان آوى اليه ..

– لا يهمنى ذلك قط ، وأنت قادر على أن تدبر امورك ، واذا كنت تتصيد دعوة منى للبقاء هنا الليلة فانى لا استطيع ان اجعلك ترقد فى الحجرة التى ننام فيها نحن و « كاتيا » ، أما بقية الحجرات فهى تعج بالفيران .

– اننى لا أخافها ولا أبالى بها .

– اذن انت وشأنك ..

— ٣ —

• — ماذا دهاك يا ملاكى ؟ تتوالى عليك الليالى وأنت لا تنامين ولا تأكلين ، وينقضى نهارك وأنت شاردة اللب . فيم تفكرين ؟ لا تدعى الهموم تفترسك .

— ان « ايزوت » خفير المستشفى عاد من جديد ، انه يأتى لزيارة الغسالة تحتنا — فبينهما علاقة غرام — وقد عرج على ليحمل الى نبأ سارا : « ان زوجك مشرف على السجن ، ثم لا تلبثين أن تلحقى به أنت » ! وقد سألته : « من أين علمت هذا ؟ » ، فأجاب بأن الخبر أكيد ، وأنه استقاه من الغراب الاسود ! هكذا يسمى اللجنة المركزية للمجلس البلدى !

فاندفع الاثنان يضحكان . وقال « يورى » :

— انه على حق ، فقد يحدث هذا فى أية ساعة . ان الخطر على الابواب ، وينبغى لنا أن نختفى فورا ، ولكن أين نذهب ؟ هذه هى



المسألة . ينبغى أن نفلت من ايديهم فى هدوء ، ولكن لن نستطيع الذهاب الى موسكو ، اذ لا يتأتى لنا ترتيب سفرنا دون اثارة الانتباه الينا . أنصتى الى يا عزيزتى ! لماذا لا ننفـــذ رأيك فنذهب الى « فاريكينو » ونعيش هناك مستترين أسبوعا او أسبوعين ، وربما شهرا كاملا ؟ .

ـ أشكرك ، أشكرك يا حبيبى ، ما أسعدنى ! انك تكره هـذا السفر ، ولكننا لن نسـكن فى منزلك ، فانك لن تقـوى على رؤية الحجرات المهجورة ، وسيملأك الاسى وأنت تستعيد ذكريات الماضى وتقارنها بالحاضر . هل تظننى لا أفهمك ؟ اننى أعلم عذاب من يبنى هناءه على حطام الآخرين ،ومن يدوس بالاقـدام كل ما هو عزيز مقدس . اننى لا أقبل مثل هذه التضحية منك . ولكن لا داعى للحيرة ، فان منزلك أصبح مخربا لا تصلح حجراته للسكنى ، ومن رأيى أن نقيم فى المنـزل الذى كانت تقيم فيــه من قبـل أسرة « ميكوليتسين » .

ـ هذا حق ، وانى أشكر لك رقتك وفهمك لمشاعرى ، ولـكن انتظرى لحظة . على لسانى سؤال أنســاه دائما : ماذا حــدث لكومارو فسـكى ؟ هل لا يزال هنا أم سافر ؟ اننى منذ عراكى معه وطردى له لم أسمع عنه شيئا !

ـ وأنا كذلك لا أعلم شيئا عنه ، ماذا يعنيك من أمره ؟ لا تشغل بالك به .

ـ يزداد اقتناعى بأنه ما كان ينبغى لنا نحن الاثنين أن يتفـق رأيانا فى نصيحته ، فوضع كل منا يختلف عن الآخر . ان لك بنتا لا مفر لك من الاهتمام بأمرها ، وحتى لو أردت مشـــاركتى فى المخاطر فهذا ليس من حقك . دعينا نتحدث عن (فاريكينو) من جديد ، الواقع أن الاقامة فى هذا التيه فى عز الشتاء بلا طعام ولا جلد ولا أمل هو الجنون بعينه ، ولكن لم لا يا حبيبتى ، اذا لم يكن قد بقى لنا شىء سوى هذا الجنون ؟ سنعيش فى تقشف ، ونناشد

« سامديفياتوف » أن يعيرنا حصانا ، ثم نسأله هو – أو نسأل الخاضعين له من المضاربين فى السوق السوداء – ان يقدموا لنا حاجتنا من الدقيق والبطاطس تحت الحساب ، طبقا لتقديرهم لما فى وعدنا بالدفع من ضمان ، ثم نقول له الا يتذرع بما يسديه الينا من معروف ليأتى لزيارتنا فورا ، بل يؤجل زيارته فلا يأتى الا حين يحتاج الى حصانه ، وبذلك نخلو لانفسنا برهة من الزمن ..

« فلنمض الى هناك يا حبيبتى ، وسنشعل الموقد ونقطع من الحطب فى أسبوع واحد ما يزيد عما تنفقه ربة بيت مدبرة فى سنة كاملة أثناء السلم . اغفرى لى مرة أخرى جيشان عواطفى ! كم أود أن أكلمك وانا رابط الجأش غير مندفع فى خطب رنانة . ولكنك ترين ان قولى حق ، فليست لنا حيلة اخرى . ومهما كان تفسيرك للامر الواقع ، فان الموت يدق أبوابنا . ان أيامنا أصبحت معدودة ، فلنحسن الانتفاع بها كما نحب ونهوى . دعينا نستنفد هذه الايام الباقية من عمرنا ، فنقول وداعا للحياة ، وتضمنا نحن الاثنين وحدنا خلوة للمرة الاخيرة قبل الفراق الابدى . سنقول وداعا لكل ما كان عزيزا لدينا : لمألوف عاداتنا ، لاحلامنا عن المستقبل ، لمبادئنا فى الحياة ، ويقول كل منا للآخر : وداعا ! .. لتكن كلماتنا بقية من هذا الهمس الذى نتناجى به . الليل فى سكينة وانطلاق ، وكأن هذا الهمس يستمد وصفه من اسم المحيط الهادى الفسيح . انه قدر عجيب أن ألقاك بجانبى يا ملاكى الخفى المحرم على ، وأنا فى نهاية العمر تحت سماء الحروب والكروب ، كما لقيتك فى عهد الطفولة تحت سمائها الوادعة . فى تلك الليلة – وانت فى زى المدرسة الثانوية بلونه الكستنائى – حين أبصرتك فى ظلام حجرة الفندق ، كنت – كما أراك الآن – تبهريننى بجمال مشرق طاغ . وقد حاولت مرارا – منذ ذلك الحين – ان اجد اسما ، او وصفا محددا ، لهذا السحر المشرق الذى غرست يدك بذوره فى قلبى ، هذا الضوء الذى ظل يتراجع على مهل ، وهذه الالحان الهاربة التى

سرت فى كيانى وأصبحت رائدى فى فهم كل شىء آخر فى هـذه الدنيا ، والفضل راجع لك أنت . وحين انفلت شخصك كالشبح من ظلام الحجرة ، احس الصبى الذى لم يكن يدرى عنك شيئا ، ولا يدرك سر هـذه الاستجـابة المضيئة التى قفزت من قلبه .. أحس هذا الصبى من فوره أن هذه الفتاة النحيلة الرقيقة ، يسرى فى جسدها ـ كتيار الكهرباء ـ كل ما أودع من انوثة فى بنات حواء قاطبة ! .. ولو قد اقتربت منك أو لمستك فى ذلك اليوم ، ولو بأطراف أصابعى ، لانبعثت شرارة أضاءت الحجرة ، فاما صرعتنى على الفور أو ملأتنى بقية العمر ـ واذا مشدود اليك ـ بأنين فيض من الوجد والضنى . لقد فاض بى الدمع واخذت أبكى ، وبين جنبى نور وهاج . شعرت باشفاق شـديد على الصبى الذى كنته ، وباشفاق أشد نحو الفتاة النحيلة التى هى أنت .. وانى لاسائل نفسى فى حيرة : اذا كانت معرفة القلب للحب واهتزازه بتيـاره الكهربائى تولد بين أحضانه مثل هذا الضنى ، فكم يبلغ ضنى هذه الانثى التى تهب هذا الحب كله وينبعث منها تياره الحارق ؟ هاأنذا أفصحت عما أريد قوله ـ وانه ليبعث على الجنون ـ وقد وضعت فيه كل عواطفى ومشاعرى .. »

وكانت « لارا » راقدة بملابسها على حافة الفراش منهوكة القوى ، تضم ساقيها اليها وتختبىء تحت دثار ، بينما جلس « يورى » على مقعد الى جانب الفراش يناجيها بحـديثه العذب ، تقطعه فترات صمت طويلة . وكانت « لارا » ترفع أحيانا جيدها ، معتمدة على كوعها مسندة ذقنها الى كفها ، وتنظر الى « يورى » وشـفتاها منفرجتان ، ثم تحنى رأسها على كتفه وتبـكى ـ دون أن تفطن لدموعه ـ بكاء رقيقا ينطق بالغبطة . ثم مالت اليه وطوقته بذراعيها وهمست له فى جذل :

ـ ما أبرعك يا حبيبى « يورى » . لا يغيب شىء عن علمك أو فهمك . أنت حصنى وملاذى ، غفر الله لى هذا الشرك . كم أنا

سعيدة . دعنا نذهب يا حبيبى ، وهناك سأذكر لك شيئا يقلقنى .
وظن « يورى » أنها توحى اليه – وهى لا شك واهمة – أنها حبلى ، فأجابها :
– نعم ، اننى أعلم .

— ٤ —

• ورحلوا عن المدينة فى صباح يوم شتاء ملبد بالسحب الداكنة ، لم يكن يوم عطلة ، وكان الناس فى الشوارع ماضين الى أعمالهم ، فعرفوا بينهم عددا غير قليل . وحين بلغوا مفارق الطرق عند التلال وجدوا صفوفا من النساء ممن ليس لديهن آبار فى أفنية دورهن ، يقفن أمام مضخة الماء القديمة ، وقد وضعن الدلو وحمالته الخشبية بجانبهن على الارض . وتفادى « يورى » – بحذر – المرور بجانبهن ، وأخذ يشد اللجام يكفكف من جموح الحصان الاغبر الذى أعاره لهم سامديفياتوف . وكانت الزحافة تنزلق الى حافة الطريق المنبعج وتعلو الارصفة ينعقد فوقها الماء المتناثر من العجلات والاقدام فى طبقة من الثلج ، أو تصطدم بأعمدة النور .. ثم أرخى يورى العنان لحصانه حتى لحق بسامديفياتوف وهو يسير أمامهما فى الطريق ، وسبقه دون أن يلتفت وراءه ، ليرى هل عرفهم الرجل أو عرف حصانه ، أو هل لديه ما يقوله لهم . ثم صادف بعد قليل كوماروفسكى ، فمرق من جانبه دون أن يلقى اليه بتحية .

ووقفت جلاشا جانستيفا تهتف لهم عبر الطريق :
– ما أكذب الناس ! قالوا أنكم رحلتم بالامس ، هل تذهبون لاحضار البطاطس ؟

وعبرت باشارة منها عن أنها لا تسمع ردهم ، ولوحت بيدها متمنية لهم رحلة موفقة .

ولم يحاول « يورى » أن يخفف من سرعته الا حين صادف

« سيما » ، ولكن الطريق كان منحدرا بحيث يتعذر الوقوف . وكلما شد اللجام جذبه الحصان من بين شدقيه . وكانت «سيما» تتغطى من رأسها الى ساقيها بأكثر من شال واحد ، وجسدها متخشب كأنه جذع شجرة مستدير،وقد اقتربت منهم حتى بلغت وسط الطريق بخطى جامدة متعثرة ، فألقت عليهم التحية وتمنت لهم رحلة طيبة ، ثم قالت « ليورى » :

ـ لابد أن أراك حين تعود ، فانني أريد ان اتحدث اليك .

واخيرا خلفوا المدينة وراءهم . ومع ان « يورى » كان قد سبق له أن عبر هذا الطريق مرارا ـ ابان الشتاء ـ الا أنه لا يذكره الا كما كان يبدو له أيام الصيف ، بحيث كاد الآن أن تنكره عيناه .

وكانوا قد دفنوا أكياس الطعام والحزم الاخرى فى بطن التبن الموضوع فى مقدمة الزحافة . ربطوها بحبال . وكان « يورى » يسوق اما راكعا على ركبتيه فوق أرض الزحافة ـ كما يفعل الفلاحون فى تلك الارجاء ـ أو جالسا على حافتها مدليا قدمين يدفئهما حذاء من الفرو تلقاه من « سامديفياتوف » .

وبعد العصر ـ حين يوهم النهار الناس بضوئه الشاحب ، بأنه سيولى من قبل غروب الشمس ـ أخذ « يورى » يلهب ظهر الحصان بلا رحمة ، فانطلق كالسهم والزحافة تتواثب فوق الحفر كأنها سفينة تتلاعب بها العواصف .

وغرقت « لارا » و « كاتيا » فى معاطف الفرو حتى تعذرت عليهما الحركة ، والزحافة تمرق مندفعة تدور حول المنحنيات أو تقفز فوق الحفر ، فتتمايلان من جنب الزحافة الى جنب ، كأنهما زكيبتان من التبن ، وتضجان بالضحك . وكان « يورى » ، على سبيل المزاح ، يميل الزحافة الى طرف الطريق ، حتى يرتفع جانبها فوق الثلج المتراكم وتنقلب ، وتسقط « لارا » و « كاتيا » على الارض سقطة لا تؤذيهما ، وتنطلق الزحافة به وهو متشبث باللجام ، ثم يوقف الحصان ويعدل الزحافة ، ويتلقى احتجاجات

حامية من « لارا » و « كاتيا » وهما تنفضان الثلج عنهما ، ثم تأخذان مقعديهما فى الزحافة ، وهما تتضاحكان وتزعمان الغضب .
وحين ابتعدت المدينة من ورائهم ، قال لهما « يورى » : « سأريكما الموضع الذى قبض الثوار على عنده » . ولكنه لم يستطع الوفاء بوعده ، اذ أبهم عليه المكان وضاع منه وسط عرى الغابات فى الشتاء ، ومن حولها صمت القبور وخلاء التيه . ثم رأى على الطريق أول لافتتين مكتوب عليهما (موروفيتشكين) فصاح : « هاهنا ! » ، وخلط بذلك بين موضع فى عرض الطريق وبين موضع القبض عليه وسط الغابات . ولما مروا سراعا باللافتة الثانية — وهى لا تزال باقية بمكانها القديم ، وسط شجيرات ملتفة عند مفرق طرق يؤدى أحدها الى قرية (ساكما) — أخطأتها عيونهم ، فلم يروها من خلال ستار صفيق من الثلج المتجمد ، منسدل على الشجيرات ، له لمعان يخطف الابصار ، وتتزين الغابات منه بشرائط فضية تتدلى وسط السواد .

وبلغوا (فاريكينو) عند الغسق ، وكان منزل « جيفاجو » أول مالقوه . لذلك وقفوا عنده وولجوه متعجلين — كأنهم لصوص — اكتسابا للوقت من قبل أن يحل الظلام وشيكا ، فوجدوا الظلام قد سبقهم اليه ، فلم ير « يورى » مالحق المنزل من خراب واهمال . وكان بعض الاثاث الذى يذكره باقيا ، فان (فاريكينو) أصبحت مهجورة ليس بها أحد يتم تخريب المنزل . وهذا الاثاث الذى يذكره ، كان غائبا عنه حين فارقته الاسرة ، فهو لا يدرى الآن ما الذى أخذته الاسرة منه وما الذى خلفته . وأخذت « لارا » تقول له :

— أسرع .. سيحل الظلام عاجلا .. ليس لدينا وقت لنقف ونفكر . ان كنا سنبقى هنا فينبغى وضع الحصان فى الاصطبل ، والطعام فى المدخل ، وأرتب أنا هذه الحجرة لنا . ولكنى لست من هذا الرأى . لقد فرغنا من تدبر هذه المسألة من قبل ، ان اقامتك

هنا فيها الم لك ، ومن ثم ففيهـا ألم لى انا ايضـا . فيم كانت تستخدم هذه الحجرة ؟ أهى حجرة نومك ام حجرة الاطفال ؟ هذا هو مهد ابنك ، ولا أظنه يتسع لكاتيا . غير أن النوافذ بقيت سليمة ، والسقوف والجدران خالية من الشقوق ، والموقد بديعـا . لقد أعجبت به حين جئت هنا آخر مرة . اذا كنت تصر على البقاء هنا — وان كنت أخالفك — فدعنى أخلع معطفى وابدأ العمل من فورى . اول شىء نفعله هو ان نشعل الموقد طلبا للدفء . الدفء ! الدفء ! سنشعله بلا انقطاع ليل نهار ثلاثة أيام متتالية . ولـكن .. ماذا بك يا حبيبى ؟ انك لا تنطق بكلمة واحدة !

— اصبرى قليلا . اننى بخير . أرجو المعـذرة ، الحق معك . يحسن بنا أن نلقى نظرة على مسكن ميكوليتسين .

ومضوا اليه .

— ٥ —

• كان باب منزل « ميكوليتسين » مغلقا بقفل خارجى ، فخلع « يورى » مساميره ، لكنها انتزعت معهـا شظايا من الخشب . ودخلوا هذا المنزل أيضا متعجلين ، وذهبوا من فورهم الى الحجرات الداخلية دون أن يخلعوا معاطفهم وقبعاتهم وأحذيتهم المصنوعة من الفرو . وقد دهشـوا حين رأوا بعض الحجـرات نظيفة مرتبـة ، وبخاصة حجرة مكتب ميكوليتسين . لاشك أن بعض الناس كان يسكن المنزل الى عهد قريب . ولكن من ؟ أهى أسرة ميكوليتسين ؟ فاذا صح هذا ، فأين ذهبوا ؟ ولماذا سمروا الباب ولم يكتفوا بغلقه بمفتاحه ؟ واذا كان الامر كذلك ، فلماذا لم يجد القادمون الحجرات كلها — لا بعضها فحسب — نظيفة مرتبة ؟ ان الدلائل تدل على أن الساكن كان مغتصبا للمنزل . فمن يكون ؟ ولـكن « يورى » و « لارا » لم يقلقهما هذا الغموض ، ولا همـا أجهـدا فكرهما فى البحث عن تعليل له . فقد شاع فى تلك الايام — التى كثر فيهـا

المهاجرون — اغتصاب المنازل ونـهبها . قال أحدهما للآخر : قد يكون ضابطا من الجيش الابيض هاربا يتخفى . اذا عاد فسنتفق معه ، فالمنزل يتسع لنا جميعا .

ومرة أخرى وقف « يورى » — كما كان يفعل من قبل — عند باب حجرة المكتب ، معجبا باتساعها وأثاثها المريح الذى ينم عن الجد والوقار ، وبخاصة المنضدة العريضة الوافية بجانب النافذة ، التى تغرى بالانكباب عليها فى عمل صبور مثمر .

وكانت ملحقات المنزل تضم الاصطبل — وهو مبنى ملاصق لمخزن التبن ، وكان مقفلا . على أن « يورى » لم يعمد الى فتحه لانه توقع أن يجده غير صالح للاستعمال ، وقرر أن يمضى الحصان الليل فى مخزن التبن ، وبابه يفتح بسهولة . ففك عن الحصان طقمه ، وتركه ينتعش قليلا ، ثم أتى له بماء من البئر . وكان يريد أن يقدم له التبن الموضوع فوق الزحافة ، ولـكنه ألفاه قد نعم كالتراب تحت أقدامهم . وعثر لحسن الحظ على قدر من التبن فى أركان المخزن .

أما هم فقـد رقدوا — دون أن يخلعوا ملابسـهم — متدثرين بمعاطفهم ، فاستغرقوا من فورهم فى نوم عميق آمن لذيذ ، كأنهم أطفال أمضوا نهارهم جريا ولعبا فى الهواء الطلق .

— ٦ —

وأخذ « يورى » — منذ اللحظة التى هبوا فيها من النوم — يرمق المنضدة الموضـوعة بجانب النافذة ، كأنها تناديه . كانت أصابعه متلهفة الى الورق والقلم ، ولكنه أجل الكتابة الى المساء ، عازما على أن يصبر الى أن تأوى «لارا» الى الفراش ، والى أن تحل الساعة التى يفرغ هو فيها من العمـل ، حتى ولو اقتصروا على ترتيب حجرتين اثنتين فحسب .

على أنه — فى ترقبه هذا للمساء — لم يكن فى ذهنه موضوع حاضر

يسجله ، ولكنها شهوة الكتابة .. لا بد له أن يكتب شيئا ، ولذلك فسيعمد أول الامر الى تسجيل خواطر قديمة باقية فى ذهنه لم يكتبها بعد ، وبذلك تنطلق يده ، وسيتاح له مستقبلا ، فيما يرجو - اذا أتيح له ول « لارا » البقاء فى المنزل - أن يؤلف شيئا جديدا يرضى عنه .

- هل أنت مشغول ؟ ماذا تفعل ؟

- لا أكف عن اشعال الموقد . وأنت ؟

- اننى فى حاجة الى طست لغسل الملابس .

- سينفد الحطب اذا استمر اشعال الموقد بلا انقطاع ، ينبغى أن أذهب لمخزن بيتنا القديم لارى هل فيه بقية منه . من يدرى ؟ فان وجدت أتيتك به ، سأفعل ذلك توا . اتحتاجين الى طست ؟ اظن اننى رأيت طستا فى مكان ما هنا ، ولكن لا اذكر اين .

- وانا مثلك قد رأيته ، ولكن لا أدرى أين هو . لا شك انه موضوع فى غير المكان المعد له ، وهذا ما يجعلنا لا نذكر اين رأيناه . دعنا منه الآن . اننى أسخن قدرا من الماء لاغسل ارض الحجرة ، وما يتبقى منه أغسل به ملابسى وملابس « كاتيا » ، فأعطنى ملابسك أنت أيضا ، ثم نستحم فى المساء حين نفرغ من عملنا وقبل أن نأوى للفراش .

- شكرا ، سأجمع لك ملابسى الآن ، وقد أزحت كل الاثاث الثقيل عن الجدران كما أردت منى .

- حسنا ، واذا لم نجد الطست فاننى سأغسل الملابس فى حوض الاطباق ، ولكنه ملطخ بالدهن ويتطلب منى أن أحكه .

- سأنتظر حتى تسرى النار فى الحطب ثم أنقب فى بقية الادراج ، اذ عثرت فيها على صابون وثقاب وورق وقلم وحبر وقلم رصاص ، والمصباح الموضوع فوق المنضدة ممتلىء الى نصفه بالبترول . أنا واثق أن أسرة «ميكوليتسين» لم يكن لديها بترول ، فلا شك أن مصدره أناس غيرهم . يا لحسن الحظ ! انها مخلفات هذا المغتصب

المجهول ، نكتشفها كما يكتشف أبطال القصصى « جول فيرن » عجائب الارض ، ولكن ها نحن نستغرق من جديد فى الثرثرة والماء يغلى فى القدر ويتدفق منه .

وانطلقا بين الحجرات ذهابا وجيئة ، وأيديهما غير فارغة أبدا ولا تكف عن الحركة ، ويصطدمان أحدهما بالآخر ويتعثران بـ « كاتيا » وهى لا تنفك تعترض سبيلهما ، فاذا زجراها امتعضت ، وهى ترتعش وتشكو من البرد . قال «يورى» لنفسة :

ـ يا لبؤس أطفال هذا العهد الجديد ! انهم ضحايا حياتنا المقلقلة ، نجرهم ويعيشون معنا متشردين .

وقال لـ « كاتيا » :

ـ أين جلدك ومرحك يا فتاتى ؟ كيف تشعرين بالبرد والموقد محمر من شدة النار ؟

ـ هو محمر من شدة النار وأنا مصفرة من شدة البرد !

ـ اذا صبرت قليلا حتى المساء فستتأجج النار فى الموقد وتنعمين بحمام ساخن كما قالت لك أمك . والآن مدى يديك والتقطى هذه اللعب .

وكوم أمامها على الارض لعب « ليبريوس » القديمة ، وكان قد وجدها فى مخزن الحطب . لعب بعضها سليم وبعضها معطوب : قطع من خشب مكعبة ومستطيلة ، قطارات سكك حديدية ، لوحات مقسمة الى مربعات أو عليها صور أو أعداد لالعاب يستخدم فيها النرد .. الخ

لكن « كاتيا » أجابته محتجة بلهجة الكبار :

ـ ماذا جرى لك يا « يورى أندريفيتش » ؟ انها ليست لعبى . انها لعب تصلح للاطفال ، أما أنا فأكبر من هذه السن .

ولكنها لم تلبث أن هيأت لنفسها مكانا مريحا وسط السجادة ، وأخذت تصف قطع الخشب لتبنى بها منزلا لـ « نينا » ـ الدمية التى جاءت بها من المدينة ـ وبنت منزلا لعله أكثر استقرارا وأقرب

الى فهمها من منازل الاغراب التى انقضت حياتها فى التنقل بينها ، لا تمكث فى كل منها الا زمنا قصيرا .

وأخذت « لارا » ترقبها من المطبخ وهى تقول :

ـ أنظر الى غريزة البحث عن عش ، انها تثبت أن لا شىء يطفىء جذوة الحنين الى مأوى مرتب هادىء . أن الاطفال أكثر منا صدقا وصراحة ، انهم لا يخافون الحقائق ، أما نحن ، ففى خشيتنا من أن نرى أنفسنا متخلفين عن الزمن ، لا نتورع عن خيانة كل ما هو عزيز لدينا ، ونمدح ما نكره ، ونقر ما لا نفهم !

وعاد « يورى » من مدخل المنزل المظلم وهو يقول :

ـ ها هو الطست ! انه لم يكن حيث نظنـه ، بل كان فى المدخل موضوعا تحت شق فى السقف ، وأظنـه بقى فى ذلك المكان منـذ الخريف الماضى .

ـ ٧ ـ

. انتفعت « لارا » بذخيرة المأكولات التى جاءوا بها ، وأعدت طعاما يكفى ثلاثة أيام ، وقدمت لهم عند العشاء مأدبة لا يحلمون بها : حساء بطاطس، ولحم ضأن وبطاطس مشوية . وأكلت «كاتيا» ملء بطنها ، وأخذت تضحك وتعبث ، فلما خدرها الشبع والدفء، التفت فى شال أمها على الاريكة واستغرقت فى النوم .

أما « لارا » فبعد أن اجهدها التعب وحرارة الفرن ، امست لا تقل عن ابنتها ميلا الى النوم ، ولكنها كانت سـعيدة بأن أجادت طبخ الطعام ، فلم تتعجل رفع الاطباق عن المائدة ، وجلست تلتمس فترة من الراحة . ولما وثقت من أن ابنتها مستغرقة فى النوم ، أخذت تقول وهى مستندة الى المائدة ورأسها معتمد على قبضة يدها :

ـ اننى راضية أن أشقى كالعبد الرقيق ، وأكون سعيدة لو وثقت من أن هناك جدوى من هذا العناء ، وانه لا يضيع سدى . ولكن

ها أنذا أحيد عن الصواب .. أنت لا يضـيرك أن تفكر مرة ومرتين وأن تتردد ، أما أنا فينبغى لى أن اخضـع للمنطـق وان اتبعـه باخلاص وثبات .. أنت حين دخلت منزلك ورأيت مهد ابنك كاد يغمى عليك ـ ولك كل الحق فى ذلك ـ اما انا فلا يسمح لى بأن ينتابنى القلق والخشية على « كاتيا » ، او ان افكر فى المستقبل ، فكل شىء ينهزم امام حبى لك .

ـ « لارا » يا حبيبتى ، اهدئى روعا وأعملى فكرك ، فان الوقت لم يفت بعد ان أردت العدول عن قرارك . ولقد كنت انا اول من اشار عليك بالاستجابة الى نصيحة « كوماروفسكى » ، والحصان لا يزال باقيا لدينا ، فاذا شئت عدنا من الغد الى « يورياتين » ، فلا يزال « كوماروفسكى » فيها لم يبرحها . لقد رأيناه فى الطريق ، وان كنت أظن انه لن يلحقنا ، وانى واثق اننا سنجده .

ـ ها أنا لم أكد أفتح فمى بكلمة حتى غضبت . ولكن خبرنى: هل أنا مسرفة فى الخطأ ؟ ألم يكن الاجدى أن نبقى فى « يورياتين » ما دمنا لا نحسن هنا اخفاء انفسنا ؟ اذا كنا نطلب النجاة حقا فلا مفر من أن تكون لنا خطة محكمة ومرسومة ، هذا هو صميم نصيحة « كوماروفسكى » . انه وغد ولكنه ليس بالاحمق ، انه رجل عملى يعرف حقائق الامور . والواقع أن هذا المكان أشد خطرا علينا من أى مكان آخر . فكر فى الامر قليلا ، اننـا نعيش وحدنا فى تيـه مكشوف لا نهاية له ، تجتاحه الرياح . فلو انهمر علينا الثلج فى الليل لما عرفنا فى الصباح كيف نشق طريقنا للخروج . أو قدر أن رب نعمتنا المجهول ، ساكن هذا البيت ، قد يكون من قطاع الطرق فيدخل علينا ويذبحنا ! هل لديك ـ على الاقل ـ بندقية ؟ لا أظن ذلك ! أترى ؟ ان ما يزعجنى فى طبعك هو قلة مبالاتك ، وقد انتقل الى هذا الطبع بالعدوى ، فلا أستطيع أن افكر تفكيرا مستقيما .

ـ ولكن ماذا تريدين ؟ ماذا تريدين أن أفعل ؟

ـ اننى أنا نفسى لا ادرى كيف اجيب ، ابقنى دائما فى قبضـة

يدك وشد على ، ذكرني دائما انني جارية لك تحبك ، وان لا شأن لى بالفكر والجدل .. سأقول لك كيف أرى الواقع . آن زوجتك « تونيا » وزوجي « باشا » هما أسعد حالا منا ألف مرة ، ولكن ليست هذه هي المسألة . المسألة أن نعمة الحب ـ مثل أي نعمة أخرى ـ مهما كبرت لا تزال في حاجة الى أن يباركها الله حتى تنطق بكل معانيها . انني واثقة، كأنما تعلمنا فى السماء كيف نحب ، ثم بعث الله بنا معا الى الارض ليرى مبلغ انتفاعنا بما تعلمنا . ان ما بيننا هو ذروة الانسجام والتوافق ، لا حدود ولا درجات ، نجد فى كل شيء قيمته المثلى ، ونجد فيه النشوة والجذل . كل شيء ينقلب بين أيدينا الى روح ، ولكن هذا الحنان الجامح ـ الذى يتلقفنا فى كل وقت ـ مركب غيرذلول ممتنع علينا . انه قوة طاغية محطمة تجافى الامن فى عش هادىء ، ومن واجبى أن أخشاه ولا أثق به .

وطوقته بذراعيها وهى تغالب دموعها ، ومضت تقول :

ـ ألا ترى أن وضعنا مختلف ؟ انك أعطيت اجنحة تحلق بها فى السماء . ولكننى امرأة ، أجنحتى اعطيت لى لابقى على الارض احمى صغارى .

وملأه قولها سرورا كبيرا ، ولكنه لم يفصح عنه خشية أن يبدو لها رجلا سريع الاستجابة للعاطفة . وقال :

ـ حقا ان حياتنا المتنقلة غير المستقرة لا تخلو من الزيف والافتعال . انك على حق . ولكن هل اخترنا نحن طواعية هذا النمط من الحياة ؟ ان هذا التنقل المخبول من مكان الى مكان حادث لكل الناس ، انه طابع العصر الذى نعيش فيه . لقد ظللت أفكر فى هذا الامر طول اليوم ، وسأبذل جهدى للبقاء هنا بعض الوقت . انك لا تعلمين كم أتوق للعودة الى العمل ، وانا لا أقصد زرع الارض كما كنا نفعل من قبل. نعم ان الزراعة كانت عمل الاسرة كلها وسر نجاحها ، غير انني لا اجد فى نفسى القوة لان اعود للزراعة من جديد . وفى ذهنى فكرة أخرى ، ان النظام يستتب شيئا فشيئا ، وسيأتى

يوم يعود فيه طبع الكتب ، فالذى أوحر فيه هو : هل نستطيع أن نصل الى اتفاق مع « سامديفياتوف » بأن يتكفل بنا ستة أشهر لقاء ربح غير قليل نضمنه له ، على أن أفرغ فى هذا الوقت من تأليف كتاب ، وليكن مثلا كتابا مدرسيا فى علم الطب ، او كتابا فى الادب ، ديوان شعر ، أو أترجم عن اللغات الاجنبية اثرا قيما ؟ لقد رأيت من قبل أعلانا عن ناشر فى (بطرسبرج) لا يطبع الا الكتب المترجمة ، وانى واثق ان أجرى سيدفع فورا . ويسعدنى أن اكرس نفسى لهذا العمل .

قالت له « لارا » :

— يسرنى أن ذكرتنى بهذا الامر ، فقد كنت اليوم أفكر فى شىء مثله ، ولكنى لا أثق بمستقبلنا هنا ، بل يخالجنى شعور بأننا سنتعرض لاجتياح جديد ، وسيقذف بنا مرة أخرى الى مكان أبعد ، وما دام لا يزال أمامنا فسحة من الوقت نتنفس فيها بأمان ، فانى أسألك أن تسدى الى معروفا : اننى اريد منك ان تكرس بعض الساعات كل مساء فى الايام القادمة لتحرر القصائد التى كنت تنشدها لى فى مختلف الاوقات ، لقد أضعت نصفها والباقى لم تكتبه قط ، وأخشى أن تنساها وتضيع ايضا كما حدث لك من قبل ، باعترافك .

— ٨ —

• وفى نهاية اليوم اغتسل الاثنان بماء ساخن كثير ، وأشرفت « لارا » على استحمام « كاتيا » ، واستمتع « يورى » بنعمة النظافة وجلس الى المنضدة فى مواجهه النافذة ، مديرا ظهره للحجرة وللارا ، وهى ملتفة بدثار الحمام تفوح منها رائحة الصابون ، وقد عقصت شعرها وكومته فوق رأسها كالعمامة ، ولفته بفوطة تركية ، وأرقدت « كاتيا » فى الفراش وحبكت الغطاء حولها . ومع أن « يورى » كان يتهيأ للاستمتاع بلذة الاستغراق فى العمل ، الا انه كان يحس بكل ما يجرى حواليه ، ويتتبعه بانتباه



مطمئن مريح . وأغمضت « لارا » عينيها توهمـــه انها غارقة فى السبات ، الا انها استسلمت اخيرا لسلطان النوم ، وكانت الساعه قد بلغت الواحدة صباحا ، وكان قميص نومها وقميص « كاتيا » وأغطية الفراش ـ لحداثة عهدها بالغسل والكى ـ تستريح العين لنظافتها ولجمال زينتها المصنوعة من الدانتلا . وقد أتيح « للارا » ـ حتى فى تلك الايام ـ أن تظفر بما تحتاجه لزينة ملابسها من النشا . ووجد « يورى » الصمت من حوله مفعما بالسعادة والحياة : فضوء المصباح يسقط فى صفرة رقيقة على بياض الورق، والحبر يلمع فى الدواة بلون ذهبى ، ووراء النوافذ يسدل صقيع الشتاء على الكون غلالة من ضوء شاحب ضارب الى الزرقة .

وأراد « يورى » أن يتملى من منظر الليل ، فخرج الى الحجرة المجاورة غير مكترث ببردها ، ومد بصره من خلال النافذة ، فاذا ضوء البدر المكتمل يسيل على السهول كأنه الزلال أو دهان صمغى أبيض . ان جمال ليالى الشتاء القارس يجل عن الوصف . وامتلأ

قلبه بالامن والطمأنينة ، وعاد الى نور حجرته ودفئها .. وبدأ يكتب .

وحرص « يورى » على أن ينطق خطه بنبض يده ، لئلا تفقد خلجات قلبه روحها وتوثبها حتى فى مظهرها الخارجى . وأخذ يسجل مرة بعد مرة ، وكلما فعل كانت اللاحقة أفضل من السابقة ، حتى ابتعد كثيرا عن النص الاول . وكانت أكثر قصائده بقاء ووضوحا فى ذاكرته : قصيدة « نجم عيد الميلاد » و « ليلة شتاء » ، وقصائد أخرى من نوعهما أضاعها فيما بعد ولم يعثر عليها انسان .

ولما فرغ من هذه القصائد الكاملة القديمة ، بدأ يسجل القصائد التى كان بدأها ولم يتمها . فجعل يتلو مطالعها ليستلهم منها خواتمها ، وهو لا يأمل أبدا أن يتمها فى جلسته . وأخيرا سلس قياد قريحته ، وجرى تيار أفكاره ، وبدأ يكتب قصيدة جديدة .

لقد فاضت من ذهنه مطالع القصيدة ، وتداعت له تشبيهات دهش لها هو نفسه ، فاستحوذ عليه قلقه وأحس أن ما يسميه بالوحى سيهبط عليه وشيكا . فى هذه الآونة تنقلب العوامل التى تخلق الاثر الفنى رأسا على عقب ، فلا تبقى فى قمتها ملكة الكاتب أو المعانى التى تدور فى رأسه ويريد ان يعبر عنها ، بل الذى يقفز الى القمة هو اللغة : أداة التعبير . فاللغة هى المأوى والمستكن للجمال والمعانى ، اذا استحضرها الانسان أخذت هى ـ مستقلة ـ تفكر وتنطق له ، وتذوب كلها فى لحن موسيقى ، لا تتبين نغمته فتسمعها الآذان ، بل هو لحن يغمره فيض داخلى بفضل قوته واندفاعه ، وحينئذ يصبح تيار النهر العظيم ـ الذى يصقل الاحجار ويدير الطواحين ـ يشبهه فيض الكلام : يخلق فى تدفقه ـ وبفضل قوانين يختص بها لذاته ـ نغمة وراء نغمة ، بل يخلق ما هو أهم من ذلك : أشكالا وتراكيب لا حصر لها ، لم يسبق لاحد من قبل ان فطن لها او اكتشفها او وجد لها اسما .

وأحس « يورى » حينئذ أنه ليس هو صانع هيكل الاثر الفنى ، بل هى قوة مجهولة تعلوه وتسيطر عليه ، هذه القوة هى ذهن الكون

وقصيده فى تلك الآونة وفى المستقبل ، وأن الذى يسيره انما هو خطو هذه القوة فى تطور تاريخها ، وانه هو فى يدها ليس الا ذريعة ، وأداة ، ومرتكزا .

ولقد أنقذه هذا الشعور برهة من ضجره بنفسه ، التى كان يلومها ولا يرضى عنها . وتحت وطأة شعوره بالتلاشى ، رفع رأسه وتلفت حوله .

رأى رأسيهما راقدين على الوسادة البيضاء كالثلج .. واذا براءة ملامحهما ، ونظافة الفراش والحجرة ، والليل والثلج والنجوم والقمر ، قد اختلطت كلها وطغى مدها فى معنى واحد ملأه جذلا بانتصار طهارة هذا الوجود . وأخذ يهمس : « يا الهى ! يا الهى ! كل هذا لى أنا ؟ لم هذا الكرم ؟ لماذا جعلتنى أمثل تحت ظل عرشك ؟ كيف فتحت لى أبواب الحياة بين كنوزك ، وتحت النجوم ، واسلمتنى الى حب شقى جموح لا يئن ولا يشكو ؟ »

ومضى الوقت حتى بلغ الساعة الثالثة ، فرفع وجهه عن الورق ، وعاد من استغراقه - الذى طوح بروحه بعيدا - الى الواقع والى نفسه ، يحس بالسعادة والقوة والامن ، واذا بصمت هذا التيه المترامى من وراء النافذة يقطعه عويل ينقبض له القلب ، فمضى الى الحجرة المجاورة الغارقة فى الظلام . ولم يستطع أن يرى شيئا ، اذ كان الثلج قد انعقد فوق زجاجها حين كان يعمل، فذهب الى المدخل وجر السجادة الملفوفة والمدسوسة فى عقب الباب لتمنع تيار الهواء ، وارتدى معطفه وخرج . خطف بصره لألاء ضوء القمر ينعكس على الثلوج العارية بلا ظلال ، فلم يستطع أول الامر أن يتبين شيئا ، ثم وصله مرة أخرى نفس العويل ينبعث من اعماق السهول ، متقطعا مكتوما لانه يأتى من بعيد ، ولمح ظلالا أربعة طويلة نحيلة كأنها خط رسم بقلم على حافة السهل من وراء الاخدود ، ووقفت الذئاب فى صف ، برؤوسها مرتفعة ومخاطمها مصوبة الى الدار ، تنبح القمر ولألاءه الفضى على زجاج النافذة .

ولم يكد « يورى » يفطن الى انها ذئاب حتى استدارت وركضت مثل الكلاب كأنها قرأت أفكاره ، وضاع منه شبحها قبل أن يلحظ الى اين كان اتجاهها . واذ اختفت ، قال لنفسه :

ـ لا ينقصنا الا هذا ! هل جحرها قريب؟ لعله فى بطن الاخدود . ان حصان « سامديفياتوف » فى مخزن التبن ، ولا شك انها شمت رائحته .

ولم يشأ أن يوقظ « لارا » وينبئها بالخبر المقلق ، لكنه دخل وأغلق كل الابواب بين الحجرات الباردة والحجرات الدافئة ، ودس السجاد والملابس فى الشقوق ، ليصد تيار الهواء ، وعاد الى المنضدة : وكان المصباح لا يزال يضىء بنور فياض ، ولكنه لم يجد فى نفسه اقبالا على العمل ، ولم تهدأ نفسه بعد أن استحوذت على فكره الذئاب والمشاكل المعقدة التى تنتظرهم ، ثم لانه فوق ذلك أمسى متعبا جدا . وهنا استيقظت « لارا » وقالت له بصوت يغالبه النعاس :

ـ ألا تزال تعمل يا حبيبى ؟ انك تتقد وتضىء كأنك شمعة تحترق بالليل . تعال اجلس الى جانبى قليلا لاروى لك أحلامى . وأطفأ المصباح .

— ٩ —

• ومر يوم آخر من حياة طيشهم واستهتارهم ، وكانوا قد عثروا على زلاقة للاطفال ، فركبتها « كاتيا » وهى متشحة بمعطفها ، وأخذت ـ وهى تصيح وتضحك ـ تنزلق بها فوق منحدر اقامه « يورى » بضغط الثلج بمجرفته وصب الماء فوقه لينعقد سطحه ويصبح املس ، ثم لا تكف عن الصعود من جديد الى قمة المنحدر وهى تجر اليها الزحافة بحبل ، والابتسامة لا تفارق وجهها .

واشتد الصقيع وانعقد الثلج وجمد ، ولكن الشمس ظلت ساطعة تنعكس أشعتها بلون أصفر على الثلج عند الظهر ، ثم

تتشرب شيئا فشيئا بلون برتقالى ينبىء عن أقتراب الغروب . وكان الغسيل والاستحمام ، بالامس ، قد ملأا منزلهم بالرطوبة ، واعتم البخار زجاج النوافذ وتثلج فوقها ، وجعل يتساقط فى فتات ، وأنبعج ورق الجدران وتموج ، وازعجهم فى الحجرة ظلامها وافتقادهم الراحة فيها . وظل « يورى » ينقل الحطب والماء ويديم التنقيب فى الدار ، لا ينفك يكتشف كل يوم شيئا جديدا ، وهو الى ذلك يعاون « لارا » أيضا فى خدمة الدار .. وكان يحدث فى زحمة العمل أن تتلامس أيديهما فيلقيان ما بها ويعقدان رأسيهما فى غمرة من اللهفة والحنان . ثم تمر الساعات فينتبهان فى جزع الى أن « كاتيا » بقيت طويلا وحدها مطلقة القياد ، أو أن الحصان لم يصب شيئا من الماء أو القوت ، فيهرعان نادمين لملاقاة هذا النسيان .

لم يرتو « يورى » من النوم ، فهو يحس فى رأسه بدوار خفيف كأنه مخمور ، وجسده من الضعف فى خدر لذيذ . وانه ليترقب المساء فى شغف ليعود الى استئناف عمله . اما هيكل البناء الذى سيقيمه ، فقد تكفل به عنه هذا الخدر الذى تملكه والذى اطلقه من أسر أفكاره الحاضرة وتأثره المباشر بما حوله ، فكأن هذا الغموض الذى يلف كل أحاسيسه مرحلة لازمة للوصول الى الدقة والوضوح الناصع فى الصورة الاخيرة للأثر الفنى ، وكما أن تزعزع المحاولة الاولى واضطرابها يفضيان به الى الدقة والوضوح ، فكذلك فراغه ساعة بعد ساعة بالنهار تمهيد لازم لاستغراقه فى العمل بالليل ، وهو بسبب هذا الفراغ والملل لا يكف عن الحركة ، وانه ليتناول كل ما يقع تحت يده فينقله أو يبدله على هيئة جديدة .

وشعر « يورى » أن أحلامه فى البقاء فى (فاريكينو) لن تتحقق ، وان ساعة الافتراق عن « لارا » قد قربت ، وانه لا شك سيفقدها وسيفقد معها كل ارادة له فى البقاء على قيد الحياة ، بل قد يفقد الحياة ذاتها ! وامتلأ قلبه بالاسى والفجيعة ، ولكن أكبر عذابه كان فى ترقبه للمساء ، حتى يعبر عن هذا الضنى الذى لو وقع فيه غيره

لعبر عنه بالدموع .

ان منظر الذئاب لم يبرح ذاكرته طول النهار ، لم تعد عنده ذئابا تعوى عبر السهول تحت ضوء القمر ، بل دلالة ترمز الى قوة معادية عازمة على تحطيمه هو و « لارا » ، وعلى طردهما من (فاريكينو) .

ونمت فى ذهنه فكرة جبروت هذه القوة المعادية ، حتى اذا جن الليل انقلبت الى صورة غول من عصور ما قبل التاريخ ، يطلع عليهما متعطشا الى دمه ، متحرقا فى غلمته الى اغتصاب « لارا » !

* * *

وأقبل المساء ، وأضاء « يورى » المصباح ، وآوت « لارا » و « كاتيا » الى الفراش مبكرتين .

أمامه الاوراق التى سودها بالليل تنقسم الى نوعين : الاول مكتوب بخط جميل ، وهى النسخة النهائية لقصائده الاولى بعد تنقيحها . والنوع الثانى مكتوب بخط غير واضح مضطرب مملوء بالاشارات والفجوات ، وهى أولى محاولاته فى قصائده الجديدة . ولما فك رموز هذا الخط ، أحس ــ كعادته ــ بخيبة أمل كبيرة . فهذه العبارات البكر التى دهش لها حين صاغها فى أبيات من الشعر فى الليلة الماضية ، واغرورقت عيناه من فرط فرحته بتوفيقه اليها ، هذه الابيات ذاتها ملأته حزنا حين أعاد قراءتها ، اذ وجدها بينة الافتعال ، مولودة فى توتر وعسر . وقد ظل يطمع ــ طول حياته ــ أن يبتدع له أسلوبا أصيلا مبتكرا يعتمد على الهمس والتلميح ، متخفيا ــ مع ذلك ــ تحت قناع بقية الاساليب الجارية المألوفة . انه سعى طول عمره ــ فى نصب شديد ــ ليصل الى أسلوب متحفظ لا يتباهى ببراعته ، تنتقل به المعانى الى القارىء أو السامع واضحة جلية ، دون أن يحس بالجهد الذى بذله صاحبها فى صياغتها .. انه يجرى وراء أسلوب يخامر القارىء دون أن يقلقه باثارة انتباهه ، ولشد ما يرعبه ان يرى انه لا زال قاصرا عن أن

يبلغ امله المنشود .

لقد حاول فى الليلة الماضية ـ بكلمات بسيطة مسربلة بالحياء ، مكتوبة كأنها مناغاة أم تنيم طفلها ـ أن يعبر عما يساور قلبه من شعور مختلط يجمع بين الحب والاسى ، الخوف والاقدام ، على صورة تبرز فيها المعانى بفضل كيانها وحده ، كأنها ليست فى حاجة الى ألفاظ . ولما اعاد تلاوة محاولاته الاولى وجد أنه تنقصها الفكرة الاساسية التى تربط أجزاءها ، وتجمع ابياتها فى وحدة متناسقة . فألغى ماكتب عن منزلة القديس جورج للتنين ، واستعان ببحر فسيح من بحور الشعر ، الا انه وجد أن سلاسة الكلام ليست وليدة المعانى ذاتها ، بل مستمدة من نغمة البحر ذاته ، وأكربته منه تفاعيله المتتالية الرتيبة ، فعدل عن هذا البحر الرنان المنغم الى بحر قصير يختصر لغو الابيات الطويلة ، كماتختصر الالفاظ الزائدة فى النثر .

وبدا له بلوغ الهدف الجديد أشد عسرا ، وان كان أشد استمالة للنفس . ودبت الحياة فى الكلمات ، وان لم تخل بعد من الاطناب ، فعدل من جديد الى بحر أقل طولا ، حينئذ وجد الالفاظ تتجمع محدودة بلا اطناب ، وأصبح « يورى » فى تمام الوعى والحماس ، وساق له وزن البحر طلبته من الالفاظ الصائبة ، وأخذ الاسلوب يوحى اليه بمعان مستكنة من غير حاجة الى الاشارة اليها ، حتى ليسمع فى قصيدته وقع حوافر الحصان كما يسمعه فى احد الحان شوبان : هذا هو القديس جورج على حصانه ينهب البرارى المترامية الى مالا نهاية ، انه يستطيع ان يراه يتضاءل كلما ابتعد شيئا فشيئا . وأخذ يكتب فى عجلة محمومة ، لا تجارى يده سرعة فيض الالفاظ .. وكانت كلها صائبة ، تسقط فى قالبها المرسوم الذى خلق لها .

ولم يلحظ « لارا » وهى تقوم من فراشها وتقترب من المنضدة ، وقد بدت فى قميص نومها أشد نحولا وطولا ، ففوجىء

بوقوفها بجانبه ، شاحبه الوجه يتملكها الخــوف ، تمد له يدها وتهمس :

ـ أتسمع ؟ هذا كلب يعوى ، بل أظنه عواء كلبين ، آه .. كم هذا مخيف ! انى أراه فألا سيئا ، سنتحمله الى أن يطلع النهار ثم نرحل ، نعم ، نرحل .. لن أبقى هنا دقيقة واحدة !

ولكنها لم تلبث ان هدأت ـ بعد نحو ساعة ـ وهو يلاطفهـا ، وعادت الى النوم . وخرج « يورى » فوجد الذئاب قد ازدادت قربا من البيت عما كانت فى الليلة الماضية ، ثم اختفت فى سرعة أشد ، ولم يلحظ كذلك الى أين كان اتجاهها. ولم يتسع له الوقت ليتبين عددها ، ولكن خيل اليه أنه زاد عن الامس .

ـ ١٠ ـ

• وحل اليوم الثالث عشر من أيام اقامتهم فى (فاريـكينو) ، وكان يوما ليس به شىء جـديد أو غير مألوف ، وعادت الذئاب تعوى بالليل ، وكانت قد اختفت فى أواسط الاسبوع ثم رجعت. وقد ظلت « لارا » تحسب صوتها عواء كلاب ، وانه نذير سوء ، ولم تتخل عن عزمها على الرحيل . فلقد كانت امرأة ذات خبـرة بالعمل الشاق ، لم تألف أن تقضى يومهـا تفضفض بمـا يعتلج فى نفسها من خوالج ومشاعر ، أو وهى تنعم بترف التمسح فى أحضان حنان باذخ ، لذلك كان يتناوبها الهدوء والاتزان تارة ، والحيـرة والقلق تارة أخرى .

وكانا قد ألفا هذا المشهد مرة بعد أخرى ، ولكنه لما تكرر فى ذلك الصباح من الاسبوع الثانى من اقامتهم ، وبدأت « لارا » تجمع من جديد متاعها استعدادا للرحيل ، بدت لهما الايام الماضيـة فى (فاريكينو) كأنها حلم موهوم ..

وغرقت الحجرة من جديد فى الظلام والرطوبة ، اذ كان الجو ـ هذه المرة ـ مغبرا حزينا ، وقد خف الصقيع ، وان أوحت رؤية السحب السود المنخفضة بأن الثلج سيتساقط وشيكا .

وكان « يورى » قد انهكه الاجهاد الجسمانى والذهنى ، اثر ليال عديدة لم ينعم فيها بنوم ، فأحس أن ساقيه ضعيفتـــان ، وذهنه مرتبك ، وهو يرتجف من البرد ويحك كفيه ، ويجول من حجرة الى حجرة ، ينتظر من « لارا » أن تصدر قرارها ليعرف ما سيفعله . ولكنها بقيت فى حيرتها ، لا تدرى هى ذاتها ما الذى تريده . كانت ساعتئذ مستعدة لان تقبل تحمل كل تضحية من أجل أن تستبدل بهذه الحرية التى تبلغ حد الفوضى حياة تخضع لنظام أيا كان،مهما بلغت مشقته ، بل يكفى أن يكون نظاما مستتبا لا يتغير ، يكون لهم فيه عمل وواجبات ، ليستقيم لهم العيش حلالا متحشما معقولا .

وقد استفتحت يومها – كعادتها – بتـرتيب الفـراش وكنس الارض ومسح الاثاث واعداد الفطور ، ثم بدأت تجمـع المتـاع . وسألت « يورى » أن يجهز الحصان ، فقد صح عزمها أخيرا على الرحيل .

ولم يجادلها « يورى » . لقد كانت من الجنون هذه العودة الى المدينة ، حيث بلغت حملة الاعتقالات – بلا شك – ذروتها . ولكن كان من الجنون أيضا البقاء حيث هم ، فى عزلة وبغير سلاح فى هذا التيه الذى يكتنف شتاءه أكبر المخاطر . ثم انه لم يبق من التبن الا حمل ذراع . ولو كان فى استطاعتهم البقاء طويلا فى (فاريكينو) لخرج « يورى » يجول فى المنطقة بحثـا عن طعام لهم ولحصانهم ، ولكن ذلك يصبح جهدا ضائعا لو بذل من أجل اقامة مقلقلة لن تدوم الا أياما معدودة . وصرف «يورى» هذا الخاطر عن نفسه ، ومضى يجهز الحصان .

ثم يحسن وضع العريش وربط أللجام ، وكان «سامديفياتوف» قد علمه كيف ينبغى أن يفعل ، ولكنه كان قد نسى ما تعلمه . ومع ذلك ، أفلح أخيرا فى اعداد الزحافة على قدر علمه ، وقاد الحصان الى المدخل وربطه ، ثم دخل ليناد ى « لارا » .

وارتدت « لارا » و « كاتيا » معطفيهما ، وكانت « لارا » قد أتمت حزم المتاع ، ولكنه وجدها فريسة قلق شديد ، حتى لتكاد تبكى . وسألته أن يجلس قليلا ، ثم أخذت ترتمى على مقعد وتهب واقفة . وتتكلم بصوت عال كلاما مضطربا وهى تتلعثم مرارا ، وتسأله هل هو موافق على رأيها أم غير موافق . كانت تقول :

ـ ليس الذنب ذنبى ، لا أدرى أنا نفسى كيف حدث هذا . أنت ترى بنفسك اننا لا نستطيع الرحيل فى هذه الساعة المتأخرة ، وسيحل الليل سريعا ، وسنضيع وسط ظلام تلك الغابة المخيفة. ألست من هذا الرأى ؟ اننى رهن اشارتك ، ولكنى لا أجد فى نفسى اقداما على الرحيل.شىء يهمس فى صدرى يقول لى أن لا نرحل ، فافعل أنت ما تراه أفضل لنا . لماذا لا ترد بكلمة ؟ لقد أضعنا نصف النهار هباء،أليس من الحكمة ان نؤجل السفر الى غد ؟ وما الضير فى أن نبقى ليلة أخرى ، ونستيقظ غدا مبكرين ، ونخرج أوائل النهار ، فى الساعة السادسة أو السابعة ؟ ماذا تظن ؟ سنشعل الموقد ، وتنصرف أنت هذا المساء الى الكتابة ، ونمضى هنا ليلة أخرى . فكرة بديعة مدهشة ؟ يا الهى ! هل أخطأت من جديد ؟

فقال لها :

ـ انك تبالغين ، فان الغسق لا يزال بعيدا ، وأمامنا متسع من الوقت . ولكن ليكن ما تريدين ، ولنبق هنا هذه الليلة . فيم هذا الانزعاج والقلق ؟ . تعالى نخلع معاطفنا ونفك متاعنا . ان « كاتيا » تقول انها جائعة ، ولا بد من اعداد الطعام . أنت محقة فى رأيك ، فلا معنى لان نرحل هكذا فجأة دون أن نستعد للسفر استعدادا كافيا . لم هذا القلق وهذه الدموع ؟ سأشعل الموقد حالا ، ولكن يحسن بى قبل ذلك ـ ما دامت الزحافة لا تزال امام الباب ـ ان اذهب لاحضر ما تبقى من الحطب من مخزن بيتنا القديم ، اذ لم يبق لدينا هنا شىء منه .. لا تبكى ، سأعود سريعا .

— ١١ —

• رسمت الزحافةعلى الثلج خطوطا عديدة من أثر سيرها فى الايام السابقة الى مخزن الحطب فى منزل « جيفاجو » ، وبقى الثلج على المدخل ملوثا مضغوطا من وقع أقدامه حينما ذهب الى الدار منذ يومين،وانقشعت السحب التى كانت ملبدة فى السماء منذ الصباح، وزال الصقيع . وكان البستان القديم المترامى الاطراف يحيط بالمنزل والفناء ، ويمد فى رحابه حتى يبلغ مخزن التبن ، كأنه يريد أن يلقى نظرة على «يورى» ويذكره بشىء . وكان الثلج قد تساقط غزيرا هذا الشتاء ، وطغى على المدخل حيث بدت سقيفته أقل ارتفاعا ، والمخزن كأنه محدودب ، وتراكم الثلج على السطح الذى يهبط متماسكا حتى يكاد يمس رأس «يورى» فكأنه قبعة ضخمة على هيئة نبات عش الغراب . وتدلى هلال القمر كأنه يكاد ينغرس فى الثلج ، وقوسه يفيض بضياء سنجابى . وملأ الظلام والحزن قلب « يورى » حتى خيل اليه — والنهار لا يزال عند العصر — انه يقف وسط ظلام غابة تتمثل فيها حياته ، وأن القمر الذى هبط الى مستوى نظره نذير بالفراق والوحدة .

وبلغ به التعب أن كاد يعجز عن الوقوف ، ولم يستطع أن يحمل بين ذراعيه من الحطب الا مقدارا أقل مما كان يحمله من قبل ، ولسعه — رغم القفاز — برد الحطب المنعقد حوله كساء من ثلج لزج . ولم يجد فى الحركة دفئا ، ان شيئا فى قلبه قد تحطم ، وأخذ يلعن حظه الاسود ، ويدعو الله أن يصون حياة « لارا » حبيبته ، الوسيمة الحزينة ، المتواضعة الطيبة القلب . وظل القمر يطالعه من فوق السطح ، ينكشف وجهه ولا ينير ، كأنه يسكب بدل النور بردا .

وأدار الحصان رأسه ناحية منزل « ميكوليتسين » . وأخذ يصهل صهيلا خافتا منكسرا ، ثم زاد ارتفاعا ووثوقا ، وراح « يورى » يسائل نفسه : لم هذا الصهيل ؟ أمبعثه السرور أم

الخوف ؟ ليس هو الخوف فان الخيل لا تصهل اذا خافت ، وليس هذا الحصان بالاحمق حتى يثير انتباه الذئاب ان كان قد أحس قربها . الله حنين العودة الى الدار .. فاصبر قليلا ، ها نحن ذاهبون .

وأضاف الى غنيمته شظايا صغيرة من الحطب تصلح لاشعال الموقد ، ولفافات مستديرة من لحاء الخشب ، ووضع فوق حمولة الزحافة كيسا من الخيش وربط عليها بحبل ، ثم استدار ومشى محاذيا رأس الحصان. وأخذ الحصان يصهل من جديد ، مستجيبا هذه المرة لصهيل حصان آخر يأتى من بعيد . ترى ما الخبر ؟ هل تكون (فاريكينو) غير مهجورة من كل سكانها كما كنا نحسب ؟ كيف يدور فى خلده أن ضيوفا قد أقبلوا نحوهما ، أو ان هذا الصهيل يسمع من ناحية مسكنهم ؟

واستدار ليضع الزحافة خلف بناء المزرعة حيث تغيب عنه رؤية المنزل الغارق فى الثلج المتراكم .. وأخذ نفسه بالاناة ، فلم العجلة ؟ .. فصف الحطب وفك الحصان وترك الزحافة بمخزن التبن ، وقاد الحصان الى الاسطبل أمام أبعد مذود، حيث يقل تيار الهواء، ثم وضع له فى الحوض حفنة كانت لا تزال باقية من التبن .

وحين فرغ من مهمته وسار عائدا الى المنزل ، أحس بالقلق ، اذ وجد أمام الباب زحافة عريضة من زحافات الفلاحين معلق بها حصان أسود قوى ، وكان يمشى بجانبها ، جيئة وذهابا ، فلاح مفتول العضل عفى كحصانه ، يربت بين الحين والآخر على ظهر الحصان ويتفحص رباطه .

ووصلته أصوات تنبعث من المنزل ، ولم يكن من طبعه أن يسترق السمع ، فلم يتبين منها الا كلمات عابرة متقطعة. ومع ذلك وقف على غير ارادة منه ، وأخذ يتسمع الكلام ، فتبين صوت « كوماروفسكى » يتحدث الى « لارا » و « كاتيا » ! .. لا شك أنهم فى الحجرة الاولى بجانب الباب . كان الحديث جدلا ونقاشا ،

وصوت « لارا » ينطق بالقلق والبكاء ، فهي ترفض قول محدثها بعنف تارة ، وترضى به مستسلمة تارة أخرى . وأوحى اليه احساس غامض بأن « كوماروفسكى » كان حينئذ يتحدث عنه ، ويقول عنه انه رجل لا ينبغى الوثوق به ! وخيل اليه أنه سمع العبارة الآتية : ان ولاءه موزع بين عاطفتين ، وأنه من العسير أن يعرف هل ولاؤه وقف على « لارا » أم وقف على أسرته ، وان « لارا » ينبغى لها أن لا تعتمد عليه لانها لو فعلت فلن تظفر بشيء وستقع فى مأزق .

وقطع «يورى» استماعه ودخل عليهم ، فوجدهم كما كان يظن، فى الحجرة الاولى على يمين الباب . « كوماروفسكى » يرتدى معطفا من الفرو يهبط كمه الى معصمه ، و « لارا » تمسك بياقة معطف « كاتيا » تحاول عقد أزرارها فلا تصيب العروة ، وتنهر « كاتيا » لتثبت وتكف عن الحركة ، فتجيبها :

– برفق يا ماما ! أنت تخنقيننى ! .

كان ثلاثتهم يرتدون معاطفهم استعدادا للخروج ، فلما دخل يورى أقبل عليه الاثنان يتكلمان فى وقت واحد :

– أين كنت طول هذا الوقت ؟ كنا فى حاجة شديدة اليك .

– كيف حالك يا « يورى أندريفتش » ؟ ها أنت ترى أننى – رغم ما نشب بيننا سابقا من خصام – قد عدت اليكم من جديد ، ومن غير دعوة منكم .

فرد عليه « يورى » بامتعاض قائلا : « كيف حالك ؟ » .

وسألت « لارا » يورى مرة أخرى :

– بحق السماء ، أين كنت ؟ الآن استمع الى ما يقوله واحكم عاجلا بيننا نحن الاثنين ، فليس لدينا وقت نضيعه اذ ينبغى أن نسرع .

– لماذا الوقوف يا « فيكتور أبوليتوفتش » ؟ اجلس من فضلك ماذا تعنين يا حبيبتى بسؤالك اين كنت ؟ أنت تعلمين أننى ذهبت لآتى بالحطب ، وعنيت بأمر الحصان . اجلس يا « فيكتور

أبوليتوفيتش » .

وقالت « لارا » :

ـ ألا تتعجب لرؤيته ؟ لماذا لا تبدو الدهشة عليك ؟ ألم تكن تندم لو رحل عنا دون أن نستجيب لنصحه من فورنا ؟ ها هو ذا أمام بصرك وأنت لا تبدى شيئا من الدهشة . ان اكبر الدهشة فيما يقوله لنا ، أخبره يا « فيكتور أبوليتوفيتش » .

ـ لا أدرى ماذا تعنى « لارا فيودوروفنا » ، ولكنى أستطيع أن أوضح لك امرا واحدا : لقد اشعت عن عمد اننى رحلت ، ولكنى بقيت لاترك لكما فسحة من الوقت للتدبر فيما بحثناه معا ، عسى أن تصلا الى قرار أقل طيشا وحمقا .

وتدخلت « لارا » :

ـ اننا لا نستطيع أن نؤجل العزم دقيقة أخرى ، ان هذا هو أنسب وقت للرحيل ، فى صباح الغد .. ولكن دع « فيكتور أبوليتوفيتش » يخبرك بنفسه .

ـ صبرا يا عزيزتى « لارا » . لماذا نقف مرتدين معاطفنا ؟ فلنخلعها ولنجلس ، فان هناك مسائل ينبغى أن نبحثها فى هدوء ،



« .. لماذا الوقوف يا « فيكتور » .. اجلس من فضلك .. »

ولن نفرغ منها فى غمضة عين . أخشى يا « فيكتور أبوليتوفتش » أن يمس الحديث مسائل حساسة من غير المستساغ أن نفيض فيها ، فهذا يدعو الى الحرج . الواقع أننى لم ارض قط أن أرحل معك ، ولكن موقف « لارا » مختلف . ولقد حرصت فى المرات النادرة التى اختلفت فيها همومنا ،وذكرنا أننا شخصان لا شخص واحد ، حرصت دائما على أن أوصيها بأن تولى نصيحتك قدرا أكبر من الاهتمام والعناية ، وهى فى الواقع لم تكف ابدا عن التفكير فى نصيحتك .. فهى تعود لذكرها مرة وأخرى .

فقاطعته « لارا » :

ـ ولكن بشرط أن ترحل معنا ! .

ـ كم هو عسير عليك كما هو عسير على أن نفكر فى الافتراق ، ولعل الخير فى أن ننحى عواطفنا جانبا ، ونقبل هذه التضحية ، اذ لا أمل فى أن ارحل انا ايضا .

ـ ولكنك لم تسمع حديثه بعد . انت لا تعلم ، فاستمع لما يقوله . غدا صباحا يا « فيكتور أبوليتوفيتش » ..

ـ ان « لارا فيودورفنا » تشير الى الانباء التىسبق أنأخبرتك بها : فى محطة « يورياتين » يقف قطار خاص بعثته حكومة الشرق الاقصى ، وقد وصل أمس من موسكو،وسيتحرك غدا الى الشرق، انه تابع لوزارة المواصلات فى حكومتنا ، ونصفه من عربات النوم ، وسأرحل بهذا القطار ، وقد حجزت فيهمقاعد لمساعدى فيمكنكما السفر معى فى راحة تامة ، ولن تتاح لكما فرصة مماثلة مستقبلا. اننى أعلم أنك لست رجلا جعجاعا ، يعدل عما يقرره ، وأنك عقدت العزم على البقاء ، ولكن الا تتدبر الامر من جديد اكراما لـ «لارا» ؟ لقد سمعتها بنفسك ترفض السفر اذا لم تصحبها . فتعال معنا ، ان لم يكن الى فلاديفوستك،فعلى الاقل الى يورياتين.ليس أمامنا دقيقة نضيعها.انلدى سائقا ـ فأنا لا أسوق بنفسى ـ ولا تتسع الزحافة لخمسة أشخاص ، ولكنى فهمت أنكما تحتفظان بحصان

« سامديفياتوف » . ألم تقل انك ذهبت به لتأتى بالحطب ؟ ألا يزال مربوطا الى الزحافة ؟ .

ـ كلا . لقد فككت رباطه .

ـ اذن، اربطه فورا، وأسرع ما استطعت ، وسيساعدك سائقى، ولكن على فكرة .. لم كل هذا العناء ؟ لننس زحافتك ولنندس خمستنا فى زحافتى ، نستطيع أن نفعل ذلك بأى شكل ، ولكن ـ بحق السماء ـ ينبغى الاسراع . لا تأخذا معكما الا ما يلزمكما من متاع للسفر . فلا معنى لاضاعة الوقت عبثا فى حزم المتاع ، فى حين أن حياة هذه الصبية رهن بالسفر فورا ! .

ـ اننى لا أفهمك يا « فيكتور ابوليتوفيتش » . انك تتحدث كأننى قبلت السفر ، اذهب .. وأتمنى لك حظا سعيدا . وان شاءت « لارا » ، رحلت معك . لا تلقيا بالا الى المنزل ، فانى سأنظفه واغلقه بعد سفركما .

فقالت « لارا » :

ـ عن أى شىء تتحدث يا « يورى » ؟ ما هذا الهراء ؟ أنت نفسك لا تقصد ما تقول . لو شاءت « لارا » ؟ حقا ؟ كأنك لا تعلم حق العلم أننى لا أرحل دونك ، ولن أتخذ قرارا قط يتعلق بشخصى وحدى . وما هذا ؟ .. ما معنى هذه البطولة السخيفة والتطوع بتنظيف البيت وغلقه ؟

وقال كوماروفسكى :

ـ أراكما متشبثين برأيكما لا تحيدان عنه ، لذلك أود ـ اذا اذنت « لارا فيودوروفنا » ـ أن أقول لك شيئا يا يورى . ولنتكلم ، ان أمكن ، على انفراد .

ـ بالتأكيد ، ان كان الأمر مهما ، فلنذهب الى المطبخ . عن اذنك يا حبيبتى .

— ١٢ —

• — لقد قبض على « ستريلنيكوف » وحكم عليه بالموت ، وأعدم رميا بالرصاص !

— ياللبشاعة ! أواثق أنت ؟ .

— هذا ما قيل لى ، وأنا واثق ان الخبر صحيح .

— لا تذكر هذا الخبر لـ « لارا » ، انها تجن له !

— بالتأكيد لن أفعل ، ولهذا طلبت أن أتحدث اليك على انفراد . والآن ، وقد حدث هذا ، فانها هى و « كاتيا » فى خطر داهم ، وينبغى أن تساعدنى على انقاذهما . أواثق أنت من ان قرارك بالبقاء لا عدول عنه ؟ .

— كل الوثوق ، وقد أخبرتك بذلك .

— ولكن « لارا » لن ترحل بدونك ، اننى لا أدرى ماذا افعل . ينبغى لك ان تساعدنى بطريقة اخرى . فلنتفق على ان توهمها انك قد تغير رايك ، وانك تميل الى الاستماع الى نصيحتى. اننى لا أقوى على رؤيتها تقول لك : « وداعا » ، وتتملى منك نظرتها الاخيرة ، التى لا لقاء بعدها ! لا أقوى على رؤيتها تفعل ذلك ، لا هنا ولا فى (يورياتين) . فاجعلها تؤمن — كذبا — انك راحل ، ان لم يكن برفقتنا ، فوحدك من بعدنا ، حيث تلحق بنا حين أهيىء لك فرصة أخرى للسفر . وتوهمها انك لن تدع هذه الفرصة تفلت من يدك . ينبغى أن تقتنع هى بقولك ، حتى ولو حلفت لها أيمانا باطلة ، وليس هذا وعدا كاذبا منى ، اننى أقسم لك أننى سألبى أول اشارة منك واهيىء لك السفر الى الشرق ، واتيح لك أن تسافر من هناك الى حيث ترغب . ولكن لا بد أن تقتنع « لارا فيودوروفنا » انك قادم معنا — على الاقل — لتشجيعنا . ينبغى أن تحملها على تصديق قولك . ازعم لها مثلا أنك ستعد الزحافة ، ثم تحثنا على السفر فورا دون أن ننتظرك ، كسبا للوقت ، وتؤكد

أنك ستلحق بنا بمجرد ان تعد الزحافة .

ـ ان خبر أعدام « ستريلنيكوف » قد زلزلنى فلم ألق بالا الى كل ماقلته.أنت على حق ، انهم ما داموا قد أتموا تصفية الحساب مع « ستريلنيكوف » فان منطق هذه الايام يقضى بأن حياة « لارا » و « كاتيا » أصبحت فى خطر . لا بد أن يقبضوا على أحد منا ، وبذلك يتحقق ما نخشاه من الافتراق ، فاذا كان هذا هو الواقع فالخير أن يتم الافتراق على يديك ، وأن تصحبهما الى أبعد ما تستطيع. وما فائدة قولى وقد اصبح الامر بيدك ، وفق رأيك ؟ وقد يأتى يوم أنتهى فيه الى الانهيار فأجثو أمامك على ركبتى ، أسترحمك أن تعيد الى «لارا» وأن تنقذ حياتى وتعمل على نجاتى، ثم يسعدنى ان اتلقى كل هذا الاحسان من كفك انت ! .. ولكن دعنى أرتب أفكارى ، لقد استحوذ على الخبر الذى ذكرت ، انه حطمنى وروعنى فلا أستطيع ان افكر بهدوء . لعلى أستجيب لرأيك فأرتكب حماقة محطمة لحياتى لا علاج لها ، واتفجع لها الى آخر رمق من حياتى .. كل الذى أستطيع أن افعله الآن ان أوافق وأطيعك طاعة عمياء كرجل مسلوب الارادة . حسنا ! اتفقنا ، اكراما لها سأخرج الآن وأقول اننى سأعد الزحافة ، وازعم لها اننى سألحق بكما ، ثم أبقى هنا وحدى . ولكن هناك مسألة أخرى : كيف تستطيعون السفر الآن وقد اقترب الظلام ؟ ان الطريق يشق الغابات والذئاب منتشرة ، فخذوا حذركم .

ـ أعلم ذلك . لا تقلق ، لدى بندقية ومسدس ، وقد أحضرت معى قدرا من الكحول من قبيل الحيطة اتقاء للبرد . هل تتناول قدحا منه ؟ ان لدى قدرا كافيا .

ـ ١٣ ـ

• ماذا فعلت ؟ ماذا جنيت ؟ لقد سرحتها ، تخليت عنها ، نفضت منها يدى ، ينبغى أن ألحق بهم .. لارا .. لارا .. انهما لا

يستطيعان سماعى ، فالريح معاكسة ، ولعلهما يتحدثان بصوت مرتفع . ان لها الحق فى أن تشعر بالسعادة والاطمئنان ، انها لا تدرى اننى خدعتها وكذبت عليها . انها تناجى نفسها ويدهشها أن الامور سارت على خير وجه : ان حبيبها « يورى » العنيد قد لان فى نهاية الامر .. « حمدا لله ، سنذهب الى مكان جميل مأمون ، حيث الناس أكثر اتزانا ، وحيث يسود القانون والنظام . وحتى لو فرضنا ـ من قبيل السخف ـ أنه لن يلحق قطار الغد ، فان « كومارونسكى » سيرسل له قطارا آخر ليأتى به وينضم الينا فى أقرب وقت . انه عاد فى تلك اللحظة الى الاسطبل ، يعمل فى لهفة واضطراب ليجهز الحصان وينهب به الارض ليلحق بنا قبل أن نلج الغابة » .. **هذا ما يجول فى خاطرها ، ونحن قد افترقنا دون أن نشبع انفسنا من التواصى عند الوداع . لم أفعل الا ان لوحت لها بيدى ، ثم ادرت ظهرى ازدرد من الالم ما تكاد غصته تسد حلقى .**

ووقف عند مدخل الدار ومعطفه معلق على كتف واحدة ، ويده الطليقة تشد على عمود المدخل كأنه يريد أن يخنقه . وكان كل انتباهه مصوبا الى نقطة تلوح عن بعد ، حيث كانت تتاح له رؤية جانب قصير من الطريق يصعد التل ، تحوطه شجيرات قليلة ، وأشعة الشمس الغاربة تسقط على السفوح ، وقد اختفت الزحافة فى منحدر ، لكنها لن تلبث طويلا حتى تجتازه وتبين من جديد ، بين لحظة وأخرى .

وفيما هو ينتظر ظهور الزحافة ، راح « يورى » يردد ، فى فحيح خائر، وهو يلتقط بصعوبة انفاسه التى قطع اوصالها هواء الغسق البارد : **« وداعا ! وداعا ! وداعا يا حبيبتى ، وداعا يا حبى الوحيد ، حبى الذى فقدته الى الابد ! »** .. ثم غمغم هامسا لنفسه من شفتين شاحبتين جافتين ، حين رأى الزحافة تمرق كالسهم الى حافة المنحدر وتمر بالشجيرات واحدة بعد الاخرى ،

ثم تتمهل وتقف ـ يا للفرح ! ـ عند آخر شجيرة : « ها هم أولاء .. ها هم ! »

وكادت ضربات قلبه تحطم صدره من فرط اهتياجه ، حتى تخاذلت ساقاه وأحس من ضعفه انه على وشك الانهيار ، وان جسده يتهدل كهذا المعطف الذى يتدلى على كتفه . يا الهى ! هل شاءت رحمتك أن تعيدها الى ؟ ماذا حدث ؟ ما الذى يجرى على الافق عند مغيب الشمس؟ ما معنى هذا ؟ لماذا وقفوا لا يتحركون؟ كلا . انتهى الامر . عادت الزحافة للسير من جديد ، ومضوا فى طريقهم . لا شك انها وقفت لتلقى لارا على المنزل نظرة أخيرة ، أو لعلها أرادت ان تتأكد من اننى بدأت اغادر الدار ، واننى اعدو فى أثرهم لألحق بهم . كلا ، انهم مضوا . وتعلق يورى بأمل أن لا تغرب الشمس ، حتى لا يحجب الظلام رؤيتهم ، فيتملى للمرة الاخيرة بالنظر الى الزحافة وهى تجتاز الاخدود الذى يشق السهل، حيث ارتفع عواء الذئاب منذ ليلتين .

ثم جاءت هذه اللحظة ، ومضت هى الاخرى ، وكانت الشمس لا تزال فى احمرارها كأنها كرة معلقة على الافق وسط ضباب أزرق من غبار الثلج ، ومن تحتها سهول تغطيها الثلوج تتشرب ـ بجشع ـ ضوءها العسلى الرقراق . وتمتم « يورى » حين رأى الزحافة تبدو له ثم تختفى : « وداعا يا لارا ، حتى نلتقى فى العالم الآخر ! وداعا يا حبى ، يا هنائى الذى لا ينفد ولا ينسى الى آخر العمر ، لن أراك ، لن أراك مرة أخرى ! ! »

وحل الظلام ، وابتلع سريعا ما تبقى هنا وهناك على الارض من ضوء أحمر كالبرونز خلفته الشمس الغاربة ، وتحول لون السهول ـ يغطيها ثلج هش ناعم ـ من صفرة النرجس الى لون قاتم كالبنفسج ، وانبهمت وسط ضباب كالدخان أشباح الشجيرات كأنها مرسومة بخط القلم على لوحة الافق الوردى ، وقد رق من أثر الشحوب .

وزاد الالم والتفجع من حدة احساسات « يورى » مائة مرة ، فخيل اليه أن كل شيء حوله يختلف عن العهد به اختلافا بينا ، وكأنه فريد فى بابه . حتى الهواء لم يكن يشبه هواء يوم آخر . وحتى المساء ، انه يتنفس بالعطف عليه ، كأنه شاهد عطوف يرثى لكل ما نزل به . والارض كأنها لم تعرف غسقا مثل هذا من قبل ، وانه ليبسط جناحيه لاول مرة هكذا ليجد فى حنانهما بلسما لجراحه فى وحدته ومصابه . وكأن السهول لم تنبت من قبل أشجارا تواجه الافق . بل كأن هذه الاشجار اتخذت مواضعها حينئذ فحسب ــ عن عمد ــ لتقدم له عزاءها . وكاد « يورى » أن يلوح بيديه لهذا الجمال الناطق ــ كأنه ينفلت من حلقة أصدقاء يحيطونه بعطفهم ــ وهو يتمتم لما بقى من الغسق : « شكرا ! شكرا ! اننى بخير .. »

ووقف عند المدخل يواجه الباب ، موليا ظهره للدنيا كلها ، وصوت قلبه يهمس : « لقد غابت شمسك » .. دون أن يجد فى نفسه القوة لان ينطق بهذه الكلمات !

ثم دخل البيت تتنازع نفسه نجويان ، لا واحدة ، احداهما تختلف عن الاخرى اختلافا شديدا . الاولى أخذ ورد فى جد واقتضاب ، كأنما الامر يتعلق بتصريف عمل ، والاخرى تفيض نحو « لارا » كالنهر المتدفق :

ــ سأذهب الآن الى موسكو ، ان همى الاول ان أحافظ على حياتى . ينبغى أن لا أجعل الارق يتغلب على . فلن آوى الى الفراش ، بل سأكتب طول الليل حتى أسقط من الاعياء . ثم مسألة أخرى ، ينبغى ان اشعل الموقد فورا فى حجرة النوم حتى لا أموت الليلة من البرد .

ثم يستمع الى النجوى الاخرى :

ــ سأتريث معك قليلا يا هنائى الذى لا ينسى ، تذكرك ذراعاى وشفتاى ، سأبكيك لئلا تنفد لوعتى ، بكاء أنت به جديرة . سأسجل

ذكراك فى صورة هى ذروة الالم والعذاب ، وسأبقى هنا حتى يتم لى هذا ، ثم أرحل انا أيضا . سأسجل صورتك هكذا : أرسمها على الورق ، كما يرسم البحر على الشاطىء ، بعد عاصفة رهيبة ، آثار أقوى موجة له ، بلغت أقصى مداها : أعشابا وقواقع وشظايا حجارة هشة كالاسفنج .. هذا الحطام الهين الخفيف الذى يرفعه البحر من أعماقه ويتناثر فى صفوف متقطعة على الرمل ، عند نهاية مده .. هكذا سأقيس مدى طغيانك على قلبى يا حبيبتى ، يا حبيبتى ، يا ذخيرتى !

ثم أغلق الباب وراءه ، وخلع معطفه . ولما ولج حجرة النوم التى أحسنت « لارا » تنسيقها فى ذلك الصباح ، ثم اختل نظامها فى ربكة حزم المتاع ، ورأى الفراش غير المرتب ، ومخلفاتها مبعثرة على المقاعد وعلى الارض ، ركع على الارض فأسند صدره الى قوائم الفراش ودفن وجهه فى غطائه وبكى . أطلق العنان لألمه ودموعه كما يفعل الاطفال .

ثم ما لبث أن قام وأسرع يمسح وجهه ، وادار حوله نظرة حائرة متعبة ، ومد يده الى زجاجة الفودكا التى تركها «كوماروفسكى» ، فنزع سدادتها وصب منها نصف قدح ، أضاف اليه شيئا من الثلج والماء ، وأخذ يصب فى حلقه ـ بلذة ـ جرعات لا تقل شدة نهمه اليها عن شدة الالم واليأس اللذين فاضت بهما دموعه .

— ١٤ —

• **ان** شيئا غامضا غير مفهوم يعتلج فى نفس « يورى » . انه مشرف على الجنون .. فهو لم يألف من قبل حياة غريبة كالتى يعيشها ، وقد أهمل رداءه ، وكف عن العناية بنفسه ، وانقلب الليل عنده نهارا ، وفقد احساسه بالزمن ، منذ أن فارقته « لارا » .. وكلما محا ما كتب ، وأعاد كتابته من جديد ، زادت شخصية « لارا » ـ كما تبدو فى قصصه وخواطره ـ ابتعادا عن « لارا »

كما هى فى حقيقتها ، « لارا » ــ أم « كاتيا » ــ التى رحلت مع ابنتها . وسبب المحو والاعادة هو سعيه للاهتداء الى تعبير قوى محدد ، ولكنه منبعث أيضا من رغبة الكتمان التى تصده عن أن يفضح تجاربه الذاتية وحقائق ماضى حياته ، فى حرية قد تجرح من يتناولهم بالذكر . ولذلك تملصت قصائده من أحضان الحقيقة وأنفاسها الملتهبة ، وبدلا من أن تفقد هذه القصائد نبض الحياة ، وتقع فريسة لاوهام عليلة ، فانها أصبحت تنم عن السلم والمصالحة والوئام ، وترتفع عن الخصوصيات الى عموميات يفهمها الجميع . ولم تكن هذه غايته ــ يسعى اليهـا عن عمد ــ بل تحققت له طواعيـة منها ، كأنها رسـالة عزاء تبعث بها « لارا » اليه من رحلتهـا ، أو بمثابة تحية من بعيد ، أو كأنها طيفها فى المنام ، أو لمسة رأسـها لجبينه .. وسره ان رأى هــذا السمو يتجلى فى شــعره . انه مشغول بنظم قصائده التى يتحسر فيها على « لارا » ، وفى الوقت ذاته يضيف جديدا على المذكرات التى كان يحررها ــ على فترات متقطعة فى الماضى ــ عن الطبيعة وحياته يوما بيوم ، وأشياء أخرى. وهبطت على ذهنه ــ كما كان يحدث له من قبل ، حين يكتب ــ أفكار عن حياة الفرد والمجتمع .

وأخذ يفكر كيف أنه حين يتأمل التاريخ او سير التاريخ ــ كمـا يقال ــ لا يفهمه بالمعنى الشائع بين الناس ، بل يفهمه على صـور وتشبيهات مستمدة من مملكة النبات : فغصون الاشجار العارية فى الغابة ، حين تتجرد من كسائها ، تبدو تحت الثلج تعانى النحـول والفاقة ، كالشعر الضئيل على شامة فى وجه شيخ .. فاذا بهـا بعد أيام قليلة من الربيع تتحول وتمتد فى ثراء منطلقة الى السماء ، حتى ليستطيع السائر أن يختبىء أو يضيع بين خضم اوراقها .. فالغابة ــ وهى تتحول ــ تنمو بسرعة تفوق سرعة نمو الحيوان ، لان الحيوان لا ينمو بسرعة النبات . ومع ذلك فان هذا النمو يحدث دون أن تلحظه العين ، فان الغابة مشدودة الى الارض بجذورها ،

لا تبرح مكانها ، فلانستطيع أن نمكث أمامها نرقب نموها ونراه حين يحدث . فهى ـ مهما أطلت النظر اليها ـ مستقرة لا تحس لهــا دبيبا . وهكذا حيــاة المجتمع فى نمــوها الازلى وتحولها الدائب : تبدو لنا مع ذلك ثابتة لا خطو لها ، شأنها فى ذلك شأن التاريخ فى تحوله الدائم غير المحسوس . هذا هو أيضا رأى « تولستوى » ، وان لم يعبر عنه بمثل هذا التفصيل . انه أنكر أن يكون التاريخ من صنع نابليون او حاكم او قائد غيره ، ولـكنه لم يرتب على هــذا المنطق نتائجه . أن التاريخ لا يصنعه أحد ، وانت لا تستطيع أن تصنع التاريخ ، وتعجز عن أن ترى تحوله ، كمــا تعجز عن رؤية نمو أوراق الشجر . ان الحروب والثورات والملوك والدعاة ـ أمثال « روبسبيير » ـ هم عناصر النمو العضوى للتاريخ ، هم بمثــابة الخميرة للعجين . أما الثورات فمن صنع رجال مدفوعين بالتعصب ، تسيطر عليهم فكرة واحدة ، رجال عمل واقدام ، يصل بهم ضيق ذهنهم الى مرتبات النبوغ . انهم يقلبون النظام القديم فى ساعات وأيام قليلة ، وزلازل الثورة تدوم بضعة أسابيع ، أو قل بضــع سنين على الاكثر ، ومع ذلك يمضى الناس جيلا بعد جيل ، بل قرنا بعد قرن ، وهم يعبدون ـ عبادتهم لصنم مقدس ـ هــذه الفكرة الضيقة التى بعثت الثورة .

كان « يورى » يتحسر على « لارا » كما يتحسر على ذلك الصيف البعيد فى (ميلوزييفو) ، حين هبطت الثورة هبوط اله من السماء على الارض .. فأصبح لكل فرد ما يهوى من جنون . حياته ملك خالص له ، لا تعتسف لتتخذ دليــلا على نظرية تؤيد السياســة العليــــا .

وجعل يسجل خواطره المتناثرة ، ويضيف اليها فقرة تعبر عن ايمانه بأن الفن يهب نفسه دائما لخدمة الجمال ، وان الجمال هو سعادة امتلاك الشكل ، وان الشكل هو مفتاح الكيان العضوى ، اذ لا يستطيع كائن حى أن يتخلق بغير الشكل ، ولذلك فان جميــع

فروع الفن ـ ومن بينها فن المأساة ـ تعبر عن الجــذل بالحياة والوجـود .

وتناوبته هواجس أخرى فى ذلك الاسبوع .. وفى ليلته الاخيرة استيقظ من نومه أثر كابوس مخيف ، رأى فيه تنينا يتخذ حجرة تحت المنزل ، ففتح عينيه .. وفجأة لمع خارج الدار ضوء ، ووصله صدى اطلاق الرصاص . ومن العجيب أنه لم تمض بضـع دقائق على هذا الحادث المفاجىء ، حتى اسـتغرق فى النوم من جديد ، وقال لنفسه فى الصباح انه رآه فى حلم !

— ١٥ —

. أما الذى حدث بعد أيام قليلة ، فهو أن « يورى » قرر اخيرا أن يميل الى الفطنة والحجى ، ورأى انه اذا أراد الانتحار فخير له ان يبحث عن وسيلة اخرى اسرع واقل الما ! وعاهد نفسه ان يرحل فور وصول « سامديفياتوف » .

وقبل الغسق بقليل ، والضياء يجرر أذياله ، سمع صدى صوت تكسر الثلج تحت وقع أقدام انسان يتجه الى المنزل فى رباطة جأش ، له خطوات منطلقة واثقة . هذا عجيب ! من عسى أن يكون القادم ؟ ان « سامديفياتوف » يستعين بحصانه ولا يأتى سيرا على الاقدام ، و (فاريكينو) مهجورة لا يسكنها أحد . وقال « يورى » لنفسه : « انه رسول قادم يحمل الى طلبا او امرا بالعـودة الى المدينة ، أو لعلهم بعثـوا بمن يقبض على . ولـكن لا أظن ذلك ، فلو كان ذلك مقصدهم لبعثوا برجلين لا برجل واحد ، ولبعثوا بعربة تنقلنى » . ثم جعل يقول لنفسه فى فرح : « انه « ميكوليتسين » لا ريب » . وخيل اليه أنه عرف وقع خطوه . ووقف القادم ـ لا يتبين بعد من هو ـ عند المدخل يتحسس مكان القفل المخلوع ، كأنما يتوقع أن يجده حيث كان من قبل . ثم دخل بخطى ثابتة بطيئة ، لا يخطىء الطريق ، يفتح الابواب بين الحجرات ويغلقها وراءه بعناية . وكان

« يورى » جالسا الى مكتبه وظهره الى باب الحجرة ، وحين قام ليستدير ويواجه الباب ، وجد الرجل الغريب قد وصل الى عتبة الباب وتسمرت قدماه فى أرضها .

كانت أول كلمات وردت على خاطر « يورى » ـ دون أن يكشف فيها عن نفسه ـ ان قال له متلعثما : « ماذا تريد؟ » ، ولم يدهش حين لم يجد منه جوابا على سؤاله . وكان القادم الغريب رجلا قوى الجسم ، متناسق الاعضاء ، وسيم الوجه ، يرتدى حلة وبنطلونا من الفرو ، وفى قدميه حذاء من جلد الماعز ، وعلى كتفه بندقية .

وقد دهش « يورى » لمفاجأة الدخول عليه ، لا لقدوم الرجل ذاته . فان دلائل سكن انسان فى المنزل قد أعدته لتوقع قدومه . ان هذا الرجل هو ـ بلا ريب ـ صاحب المؤن التى وجدها ، وقد أدرك أنها ليست من مخلفات أسرة « ميكوليتسين » . ولكن شيئا ما فى الرجل يحدثه بأنه ليس غريبا عليه ، وانه سبق له ان رآه . وكذلك لم يدهش الرجل لرؤية « يورى » كما كان متوقعا ، فلعله سمع من انسان بنبأ احتلال المنزل ، وربما سمع أيضا بأسماء شاغليه ، او لعله تعرف على « يورى » .

وأخذ « يورى » ينقب فى ذاكرته : من يكون ؟ من يكون ؟ أين رأيته ؟ . فى صباح يوم قائظ من شهر مايو ـ والله أعلم من أى سنة ـ فى محطة (رازفيلى) ، فى عربة القوميسار التى توجس منها شرا .. ذكريات عن أفكار قاطعة لا تقبل الجدل ، وذهن يطل من نافذة واحدة ، ومبادىء صارمة ، وايمان لا حد له بأنه على صواب . آه .. انه « ستريلنيكوف » ! ! !

ـ ١٦ ـ

• **ومضت** ساعات طويلة وهما مستغرقان فى **الحديث بلهفة** يختص بها الروس وحدهم فى بلادهم ، يزيدها أن حديثهم أصبح

في تلك الايام العصيبة المخيفة حديث أناس يتملكهم اليأس والفزع . وكان « ستريلنيكوف » يماثل بقية الناس فى هذه الافاضة فى الحديث بدافع القلق ، الا أنه كانت لديه أسباب أخرى تحمله على الكلام بغير انقطاع ، لا يقف هديره ، ويتلمس كل المعاذير للمضى فى الكلام : انه يخشى ان ينفرد بنفسه ، فهل هو خائف من عذاب ضميره ، أم من الذكريات المحزنة التى تلاحقه ، أم يعذبه الحنق على النفس ـ هذا الحنق الذى يجعل الانسان يكره نفسه ولا يصفح عنها ، حتى ليرحب بالموت من شدة الخزى ـ أم أنه اتخذ قرارا مخيفا لا رجعة فيه ويأبى أن يخلو بنفسه اليه وجها لوجه ، فهو يتلهف على وسيلة لتأخير تنفيذه بأن يظل يتحدث الى « يورى » ويبقى فى صحبته ؟ مهما يكن من أمر ، فلم يعد خافيا أن « ستريلنيكوف » يضمر سرا خطيرا يثقل كاهله ، وانه يحول الحديث الى موضوعات أخرى يفتح لها مغاليق قلبه ويفيض فى الحديث بلا توقف !

كان من العلامات المميزة لعهد الثورة وجنونها انتشار وباء من نوع جديد ! فكل انسان أصبح قلبه يختلف تمام الاختلاف عن لسانه وأسارير وجهه ، وما من انسان يخلو ضميره من التلوث ، فكل واحد يشعر بانه مذنب مسئول عن كل شىء ، وانه مخادع ، وانه مجرم متخف لم يقع بعد فى قبضة العدالة . وكانت أهون تعلة ، تكفى لان يندفع الرجل فيبالغ فى تعذيب نفسه وتقريعها .. وان الناس ليتحدثون عن أنفسهم بالسب وتوجيه الاتهامات ، لا عن رعب ، بل متطوعين من تلقاء أنفسهم ، يحملهم على ذلك دافع مدمر وليد ذهن منحرف ، كأنهم منومون يسبحون فى عالم آخر ، تسوقهم شهوة اتهام النفس والانحاء عليها باللوم ، وهى شهوة اذا انطلقت فهيهات أن تكفكف بعد ذلك .

وكان « ستريلنيكوف » من رجال الجيش ، تؤهله رتبته لرياسة المحاكم العسكرية . وقد قرأ بلا ريب اعترافات كثير من

المحكوم عليهم وشهاداتهم . وها هو الآن قد تملكه حافز يدعوه لان يخلع القناع ، وأن يعيد تقييم حياته ، وأن يسجل حساب ما له وما عليه .. يفعل كل هذا فى مبالغة تشوه الحقائق ببشاعة ، من أثر هياجه المحموم . كان كلامه بلا روابط ، يقفز من اعتراف الى اعتراف . كان يقول :



ـ حدث كل هذا بالقرب من « شيتا » . ربما أدهشتك هذه الاشياء العجيبة التى وجدتها فى الادراج . لقد حصلت عليها من المصادرات التى قمنا بها حين احتل الجيش الاحمر سيبيريا الشرقية . وطبعا لم أجازف بحملها أنا نفسى الى هنا ، اذ كان من حولى دواما أناس يوثق بهم وباخلاصهم ، بفضلهم سهلت على الحياة وطابت . هذه الشموع والكبريت والبن ولوازم الكتابة وغيرها ، كلها من المخازن العسكرية التى صادرناها ، بعضها من صنع تشيكوسلوفاكيا وبعضها من صنع انجلترا واليابان . هذا عجيب . أليس كذلك ؟ لعلك لاحظت أن عبارة « أليس كذلك »

كانت تتكرر عادة على لسان زوجتى ، اننى لم اكن ادرى هل اخبرك يسرى حين وصلت أم لا أخبرك ، ولكن دعنى أفض به اليك الآن . اننى جئت لاراها وارى ابنتى ، لم يصلنى خبر وجودهما هنا الا فى وقت متأخر ، ولذلك لم تتح لى رؤيتهما . وحينما علمت – من الشائعات واقوال الناس – انك كنت معها ، وذكر لى اسمك ، لا أدرى لماذا من بين آلاف الوجوه التى رأيتها هذه السنين تذكرت من فورى الدكتور « جيفاجو » الذى قدم لى ذات يوم لمحاكمته ..

– وأسفت أن لم تحكم عليه بالاعدام رميا بالرصاص ؟

وتجاهل « ستريلنيكوف » هذا السؤال ، ولعله لم يسمعه . واستطرد يقول وهو غارق فى أفكاره :

– لا ريب أن الغيرة تملكتنى ، وما زالت ، وهذا طبيعى . انى لم آت الى هذا الاقليم الا منذ أشهر قليله ، بعد أن اكتشفوا أماكن اختبائى فى جهات شرقية بعيدة . كنت سأقدم لمحكمة عسكرية بتهمة باطلة ، ولم يكن من العسير أن أتكهن بالنتيجة ! وكنت بريئا ! فرجوت أن تتاح لى فى المستقبل – حين تنصلح الاحوال – فرصة أدافع فيها عن نفسى وأبرىء سمعتى ، ومن ثم قررت الاختباء – ما دمت قادرا عليه – قبل أن يقبضوا على . وانا اعيش فى الوقت الحاضر متخفيا ، كأنى ناسك يتجول من مكان الى مكان ، ولعلى كنت أستطيع أن أنجح فى خطتى لولا شاب وغد استلب ثقتى وخاننى . حدث هذا وأنا اهرب الى الغرب ، عبر سيبيريا ، أمشى على قدمى فى الشتاء ، أتجنب الناس وأعانى الجوع ، انام تحت عواصف الثلوج أو أنام فى عربات القطارات ، فهى تقف فى صفوف لا نهاية لها تحبسها الثلوج على طول الشريط الممتد عبر سيبيريا .. وحينئذ قابلت هذا الفتى المتشرد . قال لى انه كان ضمن جماعة وقفوا لتنفيذ الحكم باعدامهم رميا بالرصاص على يد الثوار ، ولكنه لم يصب الا بجراح ، وزحف من تحت أكوام الجثث واختبأ فى الغابة حتى اندملت جراحه ، ثم بدأ ينتقل من مخبأ الى مخبأ كما كنت

أفعل . هذه هي قصته كما زعم .. لكنه كان خبيثا شريرا جاهلا ، طردوه من المدرسة لكسله .

وكلما أضاف « ستريلنيكوف » جديدا فى وصفه للفتى ، ازداد ايمان « يورى » بأنه يعرفه ..

ــ أكان اسمه « تيرينتى جالوزين » ؟

ــ نعم .

ــ اذا فكل أقواله عن الفرار وحكم الاعدام كانت صادقة ، انه لم يخترع كلمة واحدة .

ــ كانت فضيلته الوحيدة وفاؤه لامه . لقد قبضوا على أبيه كرهينة ثم أعدموه ، وكانت أمه فى السجن ، قد ينتظرها نفس المصير .. فلما عرف ذلك بذل غاية جهده لانقاذها . فذهب الى ادارة البوليس السرى (التشيكا) حيث سلم نفسه وتطوع لخدمتهم ، فرضوا أن يمدوا له فى حبل الحرية قليلا ، ولكن بشرط أن يأتى لهم بصيد ثمين ، فدلهم على مخبئى ، ولكن لحسن الحظ كنت قد فررت منه قبل ذلك ! .. وبعد جهود شاقة ومغامرات لا نهاية لها ، اجتزت سيبيريا وجئت الى هذا الاقليم ــ فاننى معروف هنا فلا يدور ببالهم اننى أجرؤ على المجىء ! ــ وهكذا ظلوا يقتفون أثرى طويلا فى منطقة « شيتا » ، فى حين كنت أختبىء هنا ، أما فى هذا المنزل او فى منازل اخرى اعرف انها مأمونة . أما الآن فقد بطل تدبيرى ، فقد لحقوا بى .. أصغ الى ، ها هو الليل يقترب ، وانها لساعة لا أحبها . اننى لم أقو على النوم منذ عهد طويل ، ولا بد أنك تدرك هذا العذاب . هل بقى شىء من شموعى ؟ انها شموع جيدة غير مغشوشة ، أليس كذلك ؟ هل نستطيع أن نطيل جلستنا ونتحدث ، بقدر ما تحتمل السهر ، ونتمتع بالليل على ضوء الشموع ؟

ــ ان الشموع باقية كلها ، لم أفتح الا رزمة واحدة ، فقد كنت أستعين بالزيت الذى وجدته هنا .

ـ هل لديك خبز ؟

ـ كلا .

ـ بماذا كنت تقتات ؟ يا له من سؤال سخيف، .. بالبطاطس وحده بطبيعة الحال .

ـ صدقت . أطلب منه ما تريد ، فان أصحاب هذا البيت كانوا مدبرين يحسنون خزن البطاطس ، فهى باقية فى القبو سليمة صالحة للأكل ، لم تتعفن أو تتحجر بفعل البرد .

— ١٧ —

• **واستطرد** « ستريلنيكوف » :

ـ هذا الكلام لا يعنى عندك شيئا ، فانك لا تستطيع فهمه . لقد نشأت أنت على نمط مختلف . كان ذلك عهد الضواحى المهدمة ، والمساكن الفقيرة كالحظائر ، ومستعمرات منازل العمال ، والقذارة والفاقة والزحمة ، وامتهان كرامة الانسان عند العامل ، وامتهان النساء .. وبجانب كل ذلك كان هناك أولاد مدللون ، وطلاب متأنقون ، وسلالة أثرياء التجار .. عهد من الفجور ، من الرذيلة السافرة الوقحة .. أغنياء يهزأون أو يستخفون بدموع الفقراء ، مسلوبى الحقوق ، الذين تصب عليهم الاهانات وتحاك لهم حبائل الاغراء والخداع .. ناهيك بسيطرة الطفيليين ، الذين تنحصر ميزتهم الوحيدة فى أنهم لا يأبهون بشىء قط ، ولا يهبون للدنيا شيئا ولا يخلفون وراءهم أثرا ! أما بالنسبة لنا فالحياة جهاد . لقد فعلنا الاعاجيب من أجل من نحبهم ، فاذا كانوا لم يغنموا منها الا الاسى فاننا لم نقصد قط أن نصيبهم بأدنى أذى ، ولعل الحسرة التى أحسسنا بها نحن كانت تفوق حسرتهم ..

« ولكنى أجد من واجبى ـ قبل أن أمضى فى كلامى ـ ان اقول لك شيئا واحدا : ينبغى لك أن تغادر « فاريكينو » ، لا تؤجل عزمك ان كنت مبقيا على حياتك ! .. انهم يطبقون على ، وسيرتبط مصيرك بمصيرى ، بل أنت أصبحت الآن عندهم متهما ، لا لشىء الا

لانك تحدثت معى اليوم ، هذا بالاضافة الى انتشار الذئاب هنا ، وقد اضطررت وانا اشق طريقى من (شوتما) أن أطلق الرصاص عليهـــا .

ــ كان هذا اذن اطلاق الرصاص الذى سمعته ؟

ــ نعم ، لا شك انك سمعته ، كنت متجها الى مخبأ آخر ، ولكنى قبل أن أبلغه أدركت من اشارات متفق عليها انهم اهتـــدوا اليه ، ولعلهم أعدموا اصحاب ذلك المنزل . اننى لن امكث معك طويلا ، سأبقى الليـــلة وارحل فى الصـــباح .. فلأمض فى الحـــديث اذا أذنت لى :

« .. على أن ما ذكرته لك انما كان شـــائعا فى كل الاقطار ، لم تكن موسكو أو أوطاننا تنفرد وحدها باحتوائها على شوارع للرذيلة ، يخالطها شبان فاسدون همهم أناقة البنطلون وامالة القبعات على الرؤوس ، بالمال يستأجرون الفتيات وبالمال يستأجرون العربات . ان مثل هذا الشارع ، وحياة الليل فى القرن الماضى ، والمراهنات على سباق الخيل ، وعصابات المجرمين ، كل هـــذا كان موجودا فى كل بلاد العالم . لا تنكر وجود كل هذا ، ولكن العلامة التى اختص بها القرن التاسع عشر ــ والتى ميزته كفترة تاريخية هامة فى ســـير الزمن ــ كانت بلا شك مولد الفكرة الاشتراكية .

« لقد نشبت خلاله ثورات .. شبان أنكروا ذواتهم واستشهدوا على المتاريس ، ورجال صحافة كان همهم الوحيد أن يجدوا علاجا يكبح جماح المال ووقاحته البشعة ، وكيف تصان كرامة الفقير .. ونهضت الماركسية تكشف بذور الشر ، وأتت بالعلاج ، فأصبحت القوة الكبرى فى هذا العهد . لم يكن شارع الفساد علامة الفساد وحده ، بل أصبح علامة القذارة والبطولة .. أصبح رمزا لعالم الرذيلة والفقر ، والثورة والقتال من أجلها !

.. واستطرد « ستريلنيكوف » يتحدث عن زوجته « لارا » :

ــ آه ! أنت لا تدرى كم كانت جميلة وهى صـــبية ما تزال فى

المدرسة . كانت تأتى لزيارة زميلة لها فى الفصل تقطن فى منزل بجوارنا ، أغلب سكانه من عمال السكك الحديدية على خط « بريست ليتوفسك » . (هكذا كان يسمى ، وقد تبدل اسمه بعد ذلك مرارا) . وكان أبى – وهو الآن عضو فى محكمة الثورة ب « يورياتين » – مقدم عمال فى محطة . وكان من عادتى أن أذهب الى ذلك المنزل وأراها هناك . كانت لا تزال صبية غريرة ، ولكن وجهها وعينيها كانت تنطق حتى فى تلك السن بما يسود تلك الايام من ترقب ، وانتباه ، وقلق . كانت دلالات العصر كلها : **الدموع ، والاهانات ، والآمال ، والحقد المبيت ، وجراح الكبرياء ، كلها كانت تنم عنها ملامحها ، ومشيتها ، وسلوكها ، اذ تجمع بين خفر العذراء والدلال والجرأة . كان اسمها وكلامها بمثابة عريضة اتهام موجهة للعصر كله .** ولعلك توافقنى على أن ذلك لم يكن أمرا تافها لا يستهان به ، وانما كان نذيرا من نذر القدر . كان هبة من الطبيعة توهب للشخص منذ مولده !

– كم تحسن الحديث عنها ! لقد رأيتها أنا أيضا فى تلك الايام ، فكانت كما وصفتها : فتاة غريرة ما تزال فى المدرسة ، وهى فى الوقت ذاته بطلة مأساة خفية . كانت آية ناطقة بمعانى العجز والاحتراس والتأهب للدفاع عن النفس ، هكذا رأيتها ، وهكذا لا أزال أذكرها . لقد وصفتها انت على حقيقتها .

– تقول رأيتها وتذكرها ، فماذا كانت جدوى ذلك ؟

– هذه مسألة أخرى .

– اذا دعنى أقل لك ، ان القرن التاسع عشر بما شهده من ثورات فى باريس ، وخروج أجيال متتابعة من المهاجرين من روسيا – فى مقدمتها هجرة « هيرزون » – ومن قتل للقياصرة ، بواسطة أناس يقفون عند حد التآمر وأناس يتم على يديهم التنفيذ .. ومن نشوء الحركة العمالية العالمية ، واندلاع الماركسية فى برلمانات أوروبا وجامعاتها ، ومن نشوء نمط جديد للفكر يمتاز بالجدة والمضى السريع

الى النتائج ، كما يمتاز بسخريته وبابتكاره ـ باسم الشفقة ! ـ عالما لا يعرف الرحمة .. كل هذا قد تجمع فى « لينين » وتمثل فى شخصه وتضمن كلامه دستوره المعبر عنه ، الذى يحل بالعالم كأنه عقاب له على آثامه ! وارتسم « لينين » لاعين العالم كله على لوحة فسيحة بلا حد ـ هى روسيا ، تتناهبها ألسنة النيران ـ ليهبط على العالم ضياء يعبر عن خلاصه من المحن والآلام . ولكن لماذا أقول لك هذا الكلام ؟ أنت لا شك تراه هراء ..

« .. من أجل هذه الفتاة كرست نفسى للدراسة ، وأصبحت ناظر مدرسة ، وخرجت أضرب فى أرض مجهولة حتى بلغت (يورياتين) . ومن أجلها التهمت الكتب وعرفت الكثير من العلم ، لاكون رهن اشارتها ، ذا نفع لها ان احتاجت الى معونتى . وتطوعت فى الجيش لاستعيدها الى بعد ثلاث سنوات من زواجنا . ولما انتهت الحرب وعدت ، أردت استغلال الاشاعة التى أكدت نبأ موتى لكى أندفع فى الثورة تحت اسم مستعار .. لكى أنتقم أتم انتقام لكل ما حل بها من غدر وآلام ، وأن أمحو عن ذهنها كل ذكرياتها الحزينة ، حتى لا يكون للماضى والفساد رجعة . وكانت هى وابنتى طوال ذلك الوقت غير بعيدتين عنى هنا . أى جهد بذلت لكى أكبح جماح رغبتى فى أن أنطلق اليهما واراهما ! ولكنى اردت ان اتم رسالتى فى الحياة اولا . وانه لتهون الآن على كل تضحية من أجل أن يتاح لى ان القى عليهما ولو نظرة واحدة . كانت اذا هلت على أحسست ان النوافذ قد انفتحت على مصراعيها ، وغمرنى الهواء والنور .

ـ أعرف كم كنت تحبها ، ولكن اعذرنى اذا سألتك عن مبلغ حبها لك ..

ـ عفوا ! ماذا قلت ؟

ـ سألتك عن مبلغ حبها لك . أهو حب لا تكنه لانسان آخر ؟

ـ ما الذى يدعوك الى هذا القول ؟

ـ لانها أخبرتنى عنه هى بنفسها .

ـ قالت هذا لك أنت ؟

ـ نعم .

ـ معذرة ، اعلم أن سؤالى غير مستساغ ولا مقبول ، ولكنى أرجو ألا تعتبرنى متطفلا اذا سألتك أن تخبرنى بما قالته لك بغير تحريف .. !

ـ بكل سرور . قالت انك كنت انسانا نموذجيا لم تقابل مثله من قبل . وأنك كنت فريدا فى اخلاصك ، وأنه لو أتيح لها أن تعود الى المنزل الذى عاشرتك فيه ، لاقبلت اليه تسعى من نهاية الارض زحفا على ركبتيها ! .

ـ اغفر لى مرة أخرى ، لست اريد ان امس مكنون نفسك ، ولكن أخبرنى فى اى ظرف قالت لك هذا الكلام .

ـ ذات يوم ، حين كانت ترتب هذه الحجرة ، وخرجت الى الباب لتنفض السجادة .

ـ عفوا ، اذا أزعجتك بسؤال آخر : أى سجادة ؟ عندنا سجادتان .

ـ هذه السجادة ، الكبرى .

ـ انها أثقل من أن تحملها وحدها ، فهل ساعدتها أنت ؟

ـ نعم .

ـ امسك كل منكما بطرف ، ثم .. تميل هى الى الوراء ، وترفع ذراعها كأنها تطوح بها ، وتشيح بوجهها عن التراب المنبعث ، وتزد عينيها وتضحك .. أليس هذا ما حدث ؟ كم اعلم طباعها ! .. ثم مشى كل منكما نحو الآخر تطبقان السجادة الى نصفين ، ثم الى ربعين ، وهى تضحك وتعابثك .. أليس كذلك ؟

وهنا نهض الرجلان ، فمضى كل منهما الى نافذة وصوب نظره ناحية الآخر ، وبعد برهة تقدم « ستريلنيكوف » الى « يورى » وأمسك يديه وضمهما الى صدره ، ثم مضى يتحدث مسرعا كما

كان يفعل من قبل :

ـ اغفر لى، اعلم اننى امس مواضيع هى عندك عزيزة مقدسة، ولكنى أود أن أسألك أسئلة اخرى، ان سمحت. ارجوك ان لا تذهب، لا تدعنى وحدى . سأذهب انا بنفسى سريعا . فكر، ست سنوات من الفراق، ست سنوات من الصبر . ولكنى كنت أحلم بأن الحرية لم تكتسب بعد كلها، وقد قلت اننى حين اكسبها ستفك الاغلال عن يدى وأصبح انا ملكا لهذه الايدى، ولكن خاب فألى كله، **فانهم سيقبضون على غدا، وانت قريب منها عزيز لديها، فلعلك ستراها يوما ما . ولكن ماذا أقول؟ اننى مجنون . انهم سيقبضون على، ولن يسمحوا لى بأن أفتح فمى بكلمة واحدة للدفاع عن نفسى، سيأتون الى هائجين شاتمين ثم يكممون فمى، انى أعرف كيف يفعلون !**

— ١٨ —

• **وأخيرا**، نهض « يورى » لينام، ولاول مرة حدث له أنه ما كاد يرقد حتى أطبق الكرى على جفنيه . أما « ستريلنيكوف » فبقى يقظان .. وكان « يورى » قد هيأ له مرقدا فى الحجرة المجاورة .

وكلما فتح « يورى » عينيه، وهو يتقلب فى فراشه أو يجمع الغطاء المتدلى الى الارض، أحس بالعافية التى يبعثها نوم هادىء عميق، واستغرق من جديد ـ بلذة كبرى ـ فى الكرى . وراودته فى النصف الثانى من الليلة أحلام قصيرة، واضحة، غنية بالتفاصيل، تعيد له صور طفولته، حتى ليظن الحلم حقيقة ! .. من ذلك انه رأى فى الحلم لوحة مرسومة بألوان الماء من عمل أمه، تصور شاطىء نهر فى ايطاليا، تخلع فجأة من على الجدار وتسقط على الارض، فيوقظه صوت الزجاج حين تحطم، فيفتح عينيه ويقول : « لا، ليس ما حدث هو سقوط اللوحة، بل هو « ستريلنيكوف »

زوج « لارا » يروع الذئاب فى (شوتما) بطلقات الرصاص . ولكن هذا غير معقول ، لا بد انه صوت سقوط اللوحة ، وها هو زجاجها متناثرا على الارض » . يؤكد ذلك لنفسه وهو مستغرق فى الحلم !

واستيقظ وهو يحس بصداع ، لانه أفرط فى النوم . ومضت به برهة لا يدرى من هو،او فى اى عالم يعيش . ثم عادت له ذاكرته وقال لنفسه : « ستريلنيكوف امضى الليل هنا . ان الوقت متأخر وينبغى أن أرتدى ملابسى ، انه لا شك قد غادر فراشه ، والا فانى سأوقظه وسأعد القهوة ونشربها معا » .

ونادى صائحا :

ـ بافيل بافلوفيتش !

فلم يسمع جوابا . اذن فهو لا يزال نائما ، ان نومه عميق .

وارتدى « يورى » ملابسه ودخل الحجرة المجاورة . ان قبعة « ستريلنيكوف » ـ التى هى على نمط قبعات أهل القوقاز ـ موضوعة على المنضدة ، أما « ستريلنيكوف » نفسه فلم يكن فى المنزل . وقال « يورى » لنفسه : « انه خرج يتريض ، عارى الرأس ، طلبا للمناعة من البرد . ينبغى أن اودع اليوم (فاريكينو) وأعود الى المدينة ، ولكن الوقت متأخر فقد نمت طويلا ، وهذا ما يحدث لى كل صباح » .

ثم أشعل « يورى » الموقد فى المطبخ ، وأخذ دلوا ومضى الى البئر ، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات مبتعدا عن سلم المدخل حتى فوجىء بجثمان « ستريلنيكوف » ممددا ـ بالعرض ـ على الارض ، ورأسه غارق فى الثلج .. **لقد انتحر ! .. وتكور الثلج المشرب بالدم تحت صدغه الايسر ، على حين انعقدت كرات دم صغيرة فى كل جانب ، أشبه شىء بثمار العناب المثلجة ..**

الفصل الخامس عشر



الخاتمة



« .. فمعظمنا يجبر على أن يعيش حياة نفاق متصل منظم ! ولابد أن تتأثر صحتك اذا كنت - يوما بعد يوم - تضطر الى أن تقول عكس ما تشعر به ، والى أن تنحنى احتراما - حتى لتزحف - أمام ما تكره ، وترحب بما لا يجلب لك غير التعاسة ! . »

الفصـــل الخامس عشر

الخاتمـة

— ١ —

• **لم يبق** ما يحكى الا قصـــة قصـيرة عن الثمـانى أو العشر سنوات الاخيرة من حياة (الدكتور) جيفاجو ، وهى السنوات التى راحت تقربه أكثر فأكثر من الشيخوخة، وتفقده شيئا فشيئا علمه ومهارته كطبيب وككاتب ، وتخـرجه من حالة الركود فيستـأنف عمله ، ليعود فيقع فى فترات طويلة من عدم الاهتمام بنفسه وبكل ما فى الدنيا ، بعد فترة قصيرة توهج فيها نشاطه . وفى خلال هذه السنوات تفاقم عليــه مرض القلب ، الذى كان قد كشــفه ـ هو شخصيا ـ وان كان لم يدرك فى البداية مدى خطورته .

لقد عاد الى موسـكو فى بداية عهد « السياسة الاقتصـادية الجديدة » ـ أكثر عصور السوفييت زيفا وغموضا ـ وكان يبدو أكثر نحولا وأهمالا لزيه مما كان حين ذهب الى (يورياتين) عقب الهرب من أنصار الحزب . **وفى خلال رحلته عاد الى التخلص مما بقى له من ملابس لها بعض القيمة ، مستبدلا اياها بالخبز وبعض الاسمال القديمة يستر بها عريه . وهكذا تخلص من معطفه الفرو وسترته ، ووصل الى شوارع موسكو وقد ارتدى قبعة رمادية من جلد الغنم ، وحذاء طويلا بأربطة ، ومعطفا عسكريا لم يبق به زر واحد ، حتى غدا أشـبه « بعفريتة » السـجناء !** .. ولم يكن فى الامكان تمييزه وهو فى هذا الزى من الالوف التى لا حصر لها من رجال الجيش الاحمر الذين ازدحمت بهم محطات المدينة وشوارعها وميادينها .

ولم يحضر وحده . لقد كان يتبعه أينما ذهب فتى فلاح وسيم يرتدى هو الآخر الملابس العسكرية ، وقصدا وهما على هذه الحال

الى تلك الغرف التى قضى يورى فيها سنوات حداثته بموسكو ، وهناك تذكره القوم ورحبوا به وبرفيقه (بعد تحريات دقيقة عن نظافتهما وترددهما على الحمام ، فقد كان التيفوس لا يزال متفشيا) . وسرعان ما قصوا عليه الظروف التى رحلت خلالها أسرته من موسكو .

وكان يورى والفتى يخجلان الى أقصى حدود الخجل ، حتى أنهما تفاديا الاندماج بالناس على انفراد ، خوفا من التورط فى الحديث ، وجرت عادة هذين النحيلين عند ظهورهما فى أى مجتمع حافل بأصدقاء يورى ، أن ينعزلا فى ركن قصى ، يمكنهما فيه قضاء السهرة فى صمت دون أن يضطرا الى الاشتراك فى المناقشة العامة .

وبدا الطبيب الطويل الهزيل ، وهو فى أسماله البالية ، يرافقه الغلام أينما سار ، كفلاح « باحث عن الحقيقة » ، وبدا رفيقه كمريض مطواع أو تلميذ كرس نفسه — تكريسا أعمى — لخدمة معلمه .

ترى من يكون ذلك الرفيق ؟

— ٢ —

• **قطع** يورى المرحلة الاولى من رحلته بالقطار ، وان كان قد سار الجزء الاول والاطول من الطريق على الاقدام .

ولم تكن القرى التى مر بها أحسن حالا من تلك التى خلفها وراءه فى سيبيريا والاورال بعد أن ترك أنصار الحزب . كل الفارق أن الفصل كان شتاء هناك بينما اصبح الآن فى نهاية الصيف وبداية خريف دافىء جاف ، وقد يسر تحسن الطقس الامور .

وكانت نصف القرى قد خلت ، وهجرت الحقول فلم تمتد اليها أيدى الحاصدين ، كما هو الحال عادة بعد غزو العدو . تلك كانت آثار الحرب .. الحرب الاهلية ! .. وقد سار « يورى » ثلاثة ايام فى نهاية شهر سبتمبر بمحاذاة شاطىء النهر الذى يتدفق تياره الى

يمينه ، والى يساره كانت الحقول الشاسعة التى لم تحصد ممتدة الى مدى الافق ، تحت غلالة من السحب المتراكمة . وكلما قطع من الطريق مسافة كانت تعترضه غابات معظمها من أشجار البلوط والإسفندان والدردار. غابات تتجه فى أخاديد عميقة الى النهر ، فتنحدر عموديا ، قاطعة الطريق . وقد انتشرت حبوب القمح الناضجة على أرض الحقول المهجورة ، فجمع يورى بيديه حفنا منها ، **وحين كان يتعذر سلقها – فى أسوأ الظروف – كان يلوكها فى فمه بصعوبة ، كما لو كان يطحنها بأسنانه . وكان يعانى صعوبة فى هضم هذا العلف الخام نصف الممضوغ !**

ولم يسبق ليورى أن رأى فى حياته شعيرا بنى اللون داكنه ، صدئا كهذا الشعير الذى حال لونه فأصبح كالذهب القديم المعتم ، بينما العادة جرت – حين يحصد فى أوانه – أن يبدو فى لون أخف من هذا بكثير .

وكانت هذه الحقول التى فى لون اللهب ، كأنها تحترق بلا نار ،



« .. فجمع يورى بيديه حفنا منها، وحين كان يتعذر سلقها ، كان يلوكها فى فمه .. »

وتعلن سخطها فى صمت .. تحدها فى برود سماوات هادئة شاسعة ، على أساريرها معالم الشتاء ، وتظللها سحب الجليد المستطيلة ، الدائمة الحركة ، المعتمة فى وسطها ، البيضاء فى حوافيها ..

وكان كل شىء يتحرك فى حركة دائبة موزونة بطيئة : فهنا النهر المتدفق ، وهنا الطريق يمتد ليقابله ، ويورى يسير على الطريق فى الاتجاه الذى تتحرك نحوه السحب . ولم تك حقول الشعير بلا حراك ، ان شيئا يقلبها ، انه شىء يملؤها من أولها الى آخرها بنبش طفيف متواصل ، تقززت به نفس يورى وامعاؤه ! .. لم يسبق أن أصيبت البلاد بطاعون من الفئران مثل هذا ! لقد تكاثرت فى أعداد لا يمكن تصورها ، وبطريقة لم ترها عين من قبل ، انها تجرى فوق وجه يورى ويديه ، وتدخل أكمامه وبنطلونه فى الليل ، حين يفاجئه الظلام ، فلا يجد مندوحة عن قضاء ليلته فى الهواءالطلق .. وفى النهار تجدها تتسابق فىعرض الطريق متزاحمة متضاربة ، صارخة تنثر الاوحال اذا وطأتها الاقدام .

.. لقد توحشت حيوانات القرية ، فراحت تتبعه على مسافة قريبة ، وهى تتبادل النظرات كما لو كانت تتخذ قرارا لاختيار أحسن لحظة للهجوم عليه ، وتمزيقه اربا ! .. كانت تقتات على الجيف ، ولا تتورع عن أكل الفيران . وحين لمحت يورى من بعد راحت تتحرك خلفه فى ثقة ، كأنما تنتظر أمرا ما . ولسبب غير مفهوم لم تدخل الغابات مطلقا ، وكلما اقترب من أحدها تقهقر ولوى ذيله واختفى !

وكان التناقض كاملا فى تلك الايام بين الحقول من ناحية والغابات من ناحية أخرى . فالحقول تبدو بعد أن هجرها الانسان ، يتيمة كأنما أصابها غيابه عنها بلعنة ، ولكن الغابة التى تخلصت منه انتعشت فى كبرياء وأخذت حريتها كمن انطلق من الاسر .

ولم تكن الفرصة تترك للبندق حتى ينضج ، فالناس ـ ولا سيما أطفال القرية ـ يتخاطفونه وهو أخضر ، فيكسرون أثناء ذلك غصونا برمتها .. وكانت الغابات فى فصل الخريف قد تكاثفت فوق التلال وفى الاخاديد ، وامتلأت بأوراق الشجر الخشنة وقد بدا لونها الذهبى متربا ، وقفعتها الشمس .. ومن بينها تبرز عناقيد البندق ، كل ثلاثة أو أربعة معا ، كما لو كانت متصلة بشريط يجمعها ، وقد نضجت واستعدت للخروج من قشرتها المتفتحة . وكان يورى يقشرها طوال سيره ، ويملأ بثمارها جيوبه وحقيبته الخوص ، حتى انه قضى أسبوعا كاملا يعتمد عليها كغذاء .

وقد شعر يورى بأنه رأى الحقول وهى تعانى من حمى خطيرة ، ورأى الغابات كما لو كانت تقضى فترة نقاهة .. لقد أحس بأن الله يقيم فى الغابات ، وان الشيطان يسعى بين الحقول !

— ٣ —

• ووصل يورى عند هذه المرحلة من رحلته الى قرية مهجورة محترقة . وكانت البيوت جميعا مصفوفة على الطريق مواجهة للنهر ، وهناك مسافة خالية من المبانى بين صف البيوت وحافة شاطىء النهر المنحدر ، ولم يبق منتصبا سوى بيت أو بيتين ، وان كانا قد اسودا من الحريق ، ولكنها جميعا مهجورة ، أما البيوت الاخرى فلم يبق منها الا أطلال وحطام ، وقد برزت منها مواسير الافران .

وكانت المرتفعات المواجهة للنهر مرصعة بنقر ، كان القرويون يقتطعون منها حجارة طواحينهم فتساعدهم على مواجهة أعباء المعيشة . ورأى يورى ثلاثة من تلك الاحجار لم يتم نحتها ملقاة امام آخر باب فى صف البيوت ، وهو واحد من القلة التى بقى هيكلها قائما . ولكن هذا البيت كان غير مسكون ايضا ، كسابقيه .

ودخل يورى ، وكان مساء ساكنا ، ولكن خيل اليه أن لفحة من

ريح شديدة انفجرت فى البيت لحظة وطأت قدماه مدخله . وكانت أكوام القش والدريس تملأ الارض ، وقد تدلت بقايا الورق الممزق على الجدران ، وبدا الكوخ كله فى حالة اضطراب وخشخشة ، فالفئران قد جعلت منه مسرحا لها تعيث فيه وتقفز صارخة فى كل اتجاه .

وخرج يورى ، وكانت الشمس تغرب على حافة الحقول خلف القرية ، وأشعتها الذهبية الدافئة تغمر الشاطىء المواجه بما عليه من أعشاب وشجيرات ، ويصل خيالها الباهت المنعكس على صفحة الماء الى منتصف عرض النهر . وعبر يورى الطريق ، ثم جلس على حجر من حجارة الطواحين كان ملقى وسط الحشائش .. واذ ذاك رأى رأسا كثيف الشعر أشقر يبرز من حافة الشاطىء ، ثم ظهرت الكتفان ، ثم الذراعان . أن أحدا يتسلق المنحدر حاملا دلو ماء . وحين رأى يورى توقف ، ولم يكن يبدو منه سوى الجزء الاعلى حتى الوسط .

ـ هل تريد جرعة ماء ؟ اذا لم تؤذنى فلن ألحق بك أذى .

ـ نعم . أود لو أشرب . ولكن تعال هنا . لا تخف . لماذا تتوقع الاذى منى ؟

وكان حامل الماء صبيا بين العاشرة والعشرين ، حافى القدمين ، منفوش الشعر . رث الثياب . وراح الصبى يحدق فى يورى بعينين قلقتين يملؤهما الشك ، رغم كلمات يورى التى تعبر عن الصداقة . ولامر ما بدا ان قلقه يتزايد أكثر فأكثر ، وأخيرا وضع الدلو على الارض ، واندفع نحو يورى . ولكنه توقف فى منتصف الطريق ، وراح يتمتم :

ـ لست .. لا يمكن أن تكون .. لا بد اننى أحلم . أيها الرفيق ، أتسمح لى أن أسألك ؟ لقد خطر ببالى اننى اعرفك .. نعم ! . نعم . بكل تأكيد ! ألست أنت الطبيب ؟

ـ ومن أنت ؟

ـ ألا تعرفنى ؟

ـ كلا .

ـ لقد كنا فى القطار ذاته الذى خرج من موسكو ، وفى العربة ذاتها . لقد جندونى لمعسكرات العمل .

انه « فاسيا بريكين » .. ورمى بنفسه على الارض أمام يورى وراح يبكى ويقبل يديه ! .. كانت الاطلال المحترقة هى أطلال قريته (فيريتين كى) ، وقد توفيت والدته ، وحين دمرت القرية ، اختبأ « فاسيا » فى كهف بالمحاجر ، وظنت والدته انه أخذ بعيدا عن القرية ، فجنت من الحزن وأغرقت نفسها فى النهر ! .. نهر (بلجا) هذا الذى ينساب عند سفح الهضبة التى يجلسان عليها ويتحدثان ، وقيل أن شقيقتيه « آليا » و « آريا » قد التحقتا بملجأ للأيتام فى منطقة أخرى ، ولكنه لم يعلم شيئا مؤكدا عنهما ، وقد شخص الى موسكو مع يورى ، وفى الطريق تحدث اليه عن فواجع أخرى عديدة .

— ٤ —

ـ **هذا** قمح الشتاء الماضى ، انه يضيع هكذا هباء فى الحقول . كنا قد انتهينا لتونا من البذر حين بدأت متاعبنا . وكان ذلك بعد أن ذهبت العمة « بوليا » . هل تذكر العمة بوليا ؟

ـ كلا . انى لم أعرفها مطلقا . من تكون ؟

ـ لم تعرف العمة بوليا مطلقا ! لقد كانت معنا فى القطار ! انها تلك السمينة الشقراء ، التى كانت تنظر الى عينيك مباشرة .

ـ تلك التى كانت تضفر شعرها ثم تعود فتطلقه ، لتضفره مرة أخرى ؟

ـ نعم ، تلك السيدة ذات الضفائر .. انها هى !

ـ انى أذكرها . لحظة واحدة ، انى أتذكرها الآن . لقد قابلتها أخيرا فى احدى قرى سيبيريا . تقابلنا فى الشارع .

ـ أنت لا تعنى ما تقول ! أنت قابلت العمة بوليا !

ـ ايه .. ماذا جرى لك ؟ لماذا تهز يدى بهذا الشكل ؟ حاذر لئلا تخلعهما . ولماذا يحمر وجهك خجلا هكذا كالفتيات ؟

ـ أرجوك أن تحكى لى بسرعة ، كيف حالها ؟ حدثنى .

ـ كانت بخير حال حين رأيتها . لقد تحدثت عنك وعن اهلك . ألم تقل انها كانت تعيش معكم ، أم ترانى مخطئا ؟

ـ نعم كانت تعيش معنا . طبعا كانت معنا ، كانت تعيش معنا ، كانت أمى مغرمة بها كما لو كانت أختها بالضبط . انها هادئة وعاملة ممتازة . انها ماهرة جدا فى اشغال الابرة . كانت لدينا وفرة فى كل شيء فى البيت طوال اقامتها معنا . ولكنهم جعلوا حياتها جحيما فى (فيريتين كى) ، بما كانوا يتقولونه عنها ! .. كان فى القرية رجل يدعى « روتين كارلام » ، كان يجرى وراء بوليا ، انه نمام يسعى بالوشاية ويعيش على الافتراء ! وقد جدع أنفه ، ولم تكن هى تهتم حتى بالالتفات اليه ، فحقد على بسبب ذلك ، وراح يتقول الاقاويل عنى وعنها ! هكذا بدأ كل شى ، وفى النهاية تركتنا ، لم تستطع أن تقاوم ، وكان ذلك بداية لمتاعبنا جميعا .. **اذ لم تلبث أن وقعت جناية قتل شنيعة فى مكان قريب . قتلت أرملة فى بيت بالغابات بالقرب من (بايوسكوى) .** كانت تعيش وحيدة على دخل حقل يقع فى أطراف الغابة . وقد اعتادت الخروج فى حذاء رجالى له أربطة من المطاط . وكان عندها كلب مفترس ربطته فى سلسلة طويلة . وكانت السلسلة من الطول بحيث يستطيع الكلب أن يدور حول البيت كله . وكانت تسميه « جورلان » . وكانت تقوم وحدها بأشغال البيت والحقل دون مساعدة من أحد .. ثم جاء الشتاء الماضى مبكرا قبل أن يتوقعه أحد ، وتساقط الجليد قبل موعده ، ولم تكن تلك السيدة العجوز قد غرست تقاوى البطاطس بعد ، فجاءت الى (فيريتين كى) وقالت لى : « ساعدنى وسأدفع لك أجرك نقدا ، أو أعطيك نصيبا

من البطاطس .» .. ووافقت على العمل معها، ولكنى حين ذهبت الى الحقل وجدت « كارلام » هناك . لقد اغتصب العملية قبلى ، ولم تهتم هى بابلاغى ذلك . وما كنت لاشاجره لهذا السبب ، ولذا اشتركنا فى العملية سويا . وكان الجو لعينا ، أمطار وثلج وطين وأوحال ، فرحنا نحفر ونحفر .. وكنا نحرق فوهات الحفر حتى نجفف التقاوى على الدخان . ولما انتهينا سوت حسابنا بالحق والعدل ، وتركت « كارلام » يرحل ، ولكنها غمزت لى بعينها ، كأنما تطلب الى أن أنتظر أو اعود اليها بعد حين !

« ولهذا عدت اليها ، فقالت لى : « اننى لا اريد ان اعطى الفائض للدولة (١) . وانت فتى طيب ، انى أعلم انك لن تتخلى عنى أو تقف ضدى ، وأنت ترى اننى لا اخفى عنك شيئا . اننى استطيع ان انقر الحفرة بنفسى ، ولكنك أعلم بالحالة فى الحقل ، لقد تأخرت جدا وحل الشتاء واصبحت لا استطيع معالجة الامور بنفسى ، فاذا واصلت الحفر لى لن يخلو جيبك » .

« وهكذا نقرت حفرة تصلح كمخبأ ، ضيقة الفتحة واسعة القاع ، أشبه بالابريق ، وأشعلنا النيران مرة أخرى فدفأناها وجففناها بالدخان ، وتم ذلك كله وسط عاصفة ثلجية عاتية ، ووضعنا البطاطس فى الحفرة وعدنا فأغلقنا فتحتها بالطين والتراب ، وكانت عملية متقنة الى اقصى حدود الاتقان ، وبالطبع لم أفتح فمى بكلمة لمخلوق ، حتى أمى واخواتى .. لا سمح الله !

« **ولم يكد يمر شهر واحد ، حتى سرق الحقل ! .. وقال**

---

(١) قضت « حرب الشيوعية » ــ التى استغرقت الفترة من عام ١٩١٧ الى ١٩٢١ تقريبا ــ على الفلاحين بضرورة توريد « فائض » محصولهم الى مخازن الدولة . وكانوا يعنون بالفائض كل ما لا يستهلكه المنتج ولا يستخدم فى البذار . وكان التسليم اجباريا ويقوم بجمعه جنود مسلحون كثيرا ما قوبلوا بمقاومة عنيفة . وقد تغيرت الأحوال بعد عام ١٩٢١ حين أصبح الفلاحون يوردون قسطا معينا للدولة من انتاجهم كضريبة عينية ولكن لهم الحق فى بيع بقية الفائض .

القادمون من (بايوسكوى) ، الذين مروا به ، أن الباب كان مفتوحا على مصراعيه ، وقد نظف كل شىء .. ولم يكن هنـــاك أى أثر للأرملة ! .. كما قطعت سلسلة الـكلب « جورلان » واختفى هو الآخر !

« وبعد فترة قصيرة ، أخذ الثلج يذوب ، وكان عيد الميلاد قد اقترب ، وامطرت السـماء ليلة عيد « سانت بازيل » فمسحت الثلج عن الاراضى المرتفعة ، فصار فى الامـكان أن ترى بنفسـك الارض جرداء . وعاد جورلان الى الحقل ووجد المكان الذى دفنت فيه البطاطس .. لقـد انزاح الثلج كله وأخـذت البطاطس تبث جذورها فى الارض. وراح الكلب يحفر ويحفر وينثر الارض حوله .. **حتى ظهرت أقدام السيدة بارزة من الحفرة ، فى ذلك الحذاء الرجالى ذى الاشرطة من المطاط ، الذى اعتادت أن ترتديه . ما أفظعه منظرا !**

« ولقد حزن على تلك الارملة جميع من كان فى (فيريتين كى). ولم يشك أحد فى « كارلام » . وكيف يمكن أن يشك أحد فيه ؟ وكيف يمكن حتى أن يخطر بالبال مثل هـذا الامر ؟ واذا كان هو الذى ارتكب الجريمة فهل كان يجرؤ ان يبقى فى (فيريتين كى) ، وأن يجول فى القرية كعادته ؟ لا بد أنه كان يهرب ، هكذا فكروا ، لا بد أن يهرب الى أبعد مكان يستطيعه بعيدا عن (فيريتين كى) !

ولم يرتح لجريمة الحقل سوى « كولاك » القرية (١) .. انهـا فرصتهم لاثارة المتاعب فى القرية ، هكذا ظنوا ، وقالوا :

ــ هذا ما فعله أهالى القرية بكم . لقد فعلوا ذلك كدرس لـكم وتحذير حتى لا تخفوا الحبوب وتدفنوا البطاطس ! وانتم تظنـون ان قطاع الطريق القادمين من الغابات هم الذين ارتكبوا الجريمـة وقتلوها . انكم مهابيل ! اذهبوا وافعلوا ما يأمركم به رجال القرية ،

---

(١) الكولاك هم أغنياء الفلاحين الروس ، ولا سيما أولئك الذين يكونون ثرواتهم من عرق الكادحين الصغار ، أو هم أولئك الذين يرفضون التعاون مع الحكومة .

ان لديهم الكثير مما يخفونه عنكم ، فلسوف يستولون على كل شيء ويتركونكم تموتون من الجوع . فاذا رغبتم أن تعرفوا ما هو الاصلح لكم ، فاستمعوا الينا كي نعلمكم بعض الحكمة . حين يأتون ليأخذوا منكم ما جنيتموه بعرق جبينكم ، قولوا لهم انه ليس لديكم حبة من الحنطة ، فما بالكم بالفائض ؟ وفي حالة العنف استخدموا فؤوسكم . واذا وقف واحد ضد ارادة القرية فالاولى به أن يغادرها ! »

وكان أن تحدث الكبار الى بعضهم ، وعقدوا اجتماعات قروية .. وكان ذلك ما يريده « كارلام » تماما ، فما كان منه الا أن ذهب الى القرية يحكي قصته ويقول :

ـ احداث بديعة تجري في القرية ! فكيف تتصرفون حيالها ! « لجنة الفقراء » (١) . هذا هو ما نحن في حاجة اليه . اعطوني كلمة وسأجعلهم يمسكون بخناق بعضهم البعض قبل أن يرتد اليكم طرفكم !

وسار الى مكان ما ، ولم يظهر مرة أخرى في نواحينا !

.. وما حدث بعد ذلك ، وقع من تلقاء نفسه هكذا .. لم ينظمه أحد ، ولا يلام عليه أحد : بعثوا من المدينة برجال الجيش الاحمر ، وعقدوا محكمة . وبدأوا بي ، وكان ذلك نتيجة لما تقوله « كارلام » عني . اتهموني بأنني فررت من الخدمة في معسكرات العمل .. وانني الذي قتلت الارملة العجوز .. وانني الذي أثرت القرية ! هكذا ادعوا علي . وحبسوني . ولكن لحسن الحظ ، كان لي من الفطنة ما جعلني أخلع لوحا من أرضية السجن فتح لي طريق الهروب . واختفيت في غار في المحاجر القديمة ، وحرقت القرية بسببي ، ولكنني لم أرها .. وأغرقت أمي نفسها في حفرة في جليد النهر ، ولم اعلم . حدث هذا كله من تلقاء نفسه هكذا . لقد وضعوا رجال الجيش الاحمر في بيت وحدهم ، وأعطوهم الفودكا ،

(١) لجان تشكلت من المعدمين لاثارة « حرب الطبقات » في القرى الروسية .

حتى ماتوا من الشراب .. وفى المساء اشتعلت النيران فى البيت نتيجة للاهمال ، وانتقلت النيران من بيت الى بيت . ولما بدأت ، قفز رجال قريتنا من بيوتهم وفروا . ولكن أهالى المدينة — ولا تنس أن أحدا لم يعرضهم للحريق — احترقوا بالطبع حتى الموت . لم يطلب أحد من اهالى قريتنا ان يفروا او ان يبتعدوا عن دورهم المحترقة . ولكنهم خافوا ان تصيبهم كارثة أخرى . فقد أشاع « الكولاك » ان كل عاشر رجل يقبض عليه سيضرب بالنار فورا ، وحين خرجت من الغار كان الجميع قد ذهبوا . لم أجد نسمة واحدة . لقد تشتتوا وتشردوا هنا وهناك ! »

— ٥ —

• **وصل** يورى و « فاسيا » الى موسكو فى ربيع عام ١٩٢٢ ، حين بدأ تطبيق « السياسة الاقتصادية الجديدة » . وكان الطقس بديعا ، يشيع فيه الدفء . وكانت خصلات من أشعة الشمس تترامى على قباب كنيسة « المخلص » الذهبية ، حتى تصل الى الميدان الفسيح تحتها ، حيث كانت الحشائش قد نمت فى الفواصل بين بلاط الارض .

وكان حظر الاشتغال بالاعمال الخاصة قد رفع ، وسمح بعمليات تجارية فى نطاق حدود ضيقة معينة ، وكانت الصفقات تعقد على نطاق صفقات باعة المخلفات والفضلات القديمة ، **فأدى الربح الضئيل الذى كان يعود من ورائها الى تشجيع الاختزان والاتجار فى الاسواق السوداء والمضاربات المالية . ولم تتكون ثروات جديدة من أثر هذا النوع من التعامل . كما انه لم يخلص المدينة من قذارتها وبؤس سكانها ، اذ كانت الارباح تجنى من وراء تكرار بيع بضائع سبق أن بيعت عشرات المرات !**

وقام عدد كبير من أصحاب المكتبات الصغيرة فأنزلوا ما لديهم من كتب عن أرففها ووضعوها جميعا على بعضها . ثم أبلغوا المجلس

البلدى برغبتهم فى افتتاح مكتبة تعاونية ، وقدموا طلبا لتسليمهم مبنى ، فمنحوا حق استخدام مخزن كان قد خلا منذ الايام الاولى للثورة بعد أن أغلق المحل الذى يتبعه أبوابه ، فراحوا بين سراديبه الشاسعة يبيعون مجموعاتهم الصغيرة التى جمعوها من هنا وهناك ، بلا ترتيب ولا تنظيم !

وراحت زوجات الاساتذة ــ اللاتى كن فى الايام العصيبة الماضية يخبزن الارغفة البيضاء ، ويبعنها سرا ، مخالفات للوائح ــ رحن الآن يتجرن فيها علنا فى هـذا الحانوت او ذاك من الحوانيت التى استولت عليها الحكومة وتركت خالية طوال تلك السنوات . لقد تغيرن وقبلن الاوضاع الثورية ، حتى انهن أصبحن يقلن «بالتأكيد» عوضا عن « نعم » أو « حسنا جدا » .

وحين وصلا الى موسكو ، قال يورى :

ــ عليك أن تعمل أى عمل يا فاسيا .

ــ أحب ان استكمل تعليمى .

ــ هذا يتم دون أن تتحدث عنه .

ــ ولى حلم آخر أريد تحقيقه ، ذلك انى اريد أن ارسم صورة والدتى من الذاكرة .

ــ وهذه أيضا فكرة طيبة ، ولكن ينبغى لتحقيقها أن تعرف كيف ترسم . هل حاولت الرسم من قبل ؟

ــ عندما كنت صبيا لعمى ، اعتدت أن أعبث هنـا وهنـاك بالفحم ، حين أعرف أنه لا يرى ما أفعل .

ــ لست ادرى لماذا لا تحقق حلمك هذا . سنرى ما يمكن عمله فى هذا السبيل .

ولم يبد فاسيا أى نبوغ ذى بال ، كفنان ، وان كانت لديه مقدرة متوسطة كصاحب حرفة . واستطاع يورى بمعونة أصدقائه أن يلحقه بما كان معروفا باسم « معهد ستروجانوف » ، وهناك تلقى دراسات فى المعلومات العامة ، ثم تخصص فى الطباعة والتجليد وتصميم الكتب .

، وكتل يورى وفاسيا جهودهما ، فكان يورى يؤلف كتيبات لا تزيد صفحاتها على الثلاثين ، فى موضوعات متعددة ، وكان فاسيا يجمع حروفها و « يوضب » صفحاتها ويطبعها فى حجم صغير ، كجزء من دراسته العملية فى المعهد . وكانت الكتيبات توزع عن طريق مكتبات بيع الكتب المستعملة التى افتتحها منذ عهد قريب بعض الاصدقاء .

وكانت تلك الكتيبات تحوى فلسفة يورى فى الحياة ، وآراءه فى الطب وتفسيراته للصحة والمرض ، ونظراته فى التطور والنشوء والارتقاء ، ونظريته عن الشخصية كقاعدة بيولوجية لتكوين الاعضاء ، وتأملاته الدينية وتعليقاته التاريخية ، وكانت آراؤه فى عمومها على نسق آراء خاله وآراء « سيما » ، كما كانت كذلك قصائده ، وقصصه القصيرة ، وتخطيطاته عن اقليم (بوجاشيف) الذى زاره . وقد كتبها فى أسلوب حوار سهل ، ولكنها لم تكن ذات حظ من الشعبية ، لانها عالجت أفكارا تقدمية كانت مثار جدل ، لم يتخذ فيها قرار ولبس لها سنديشبتها ، رغم أنها كانت ملبئة بالحياة والاصالة والجدة ، وقد بيعت تلك الكتب فى سهولة ويسر وأثارت اعجاب من قرأوها وقدروا لها قيمتها .

وفى تلك الايام ، حين كان هناك من تخصصوا فى كل شىء حتى قرض الشعر ، وفن الترجمة الحرفية ، وحين كانت المعاهدات تكتب ، والمعاهد تنشأ لدراسة كل شىء تحت الشمس دراسة نظرية ، بحيث برزت الى الوجود جميع أنواع أبراج الفكر ، وأكاديميات الافكار الفنية ، كان يورى يعمل كمستشار طبى لنحو نصف هذه المعاهد الزائفة !

وأستمرت صداقته لفاسيا وقتا طويلا ، وكانا يشتركان فى السكن يتنقلان من غرفة الى أخرى آيلة للسقوط ، وكانت كلها لعينة غير صالحة للسكنى فيها . وبمجرد أن وصل يورى الى موسكو زار بيته القديم فى شارع (سيفتسيف) ، فقيل له أن

أسرته لم تفطن فيه عند مرورها بموسكو ، فقد غير نفيها من مركزها الاجتماعي . وأعطيت الغرف التي كانت تشغلها الاسرة لسكان جدد ، واختفت آثار ((الاثاث)) اختفاء كاملا . وصارت أية صلة بيوري نفسه تعد خطرا ، فبات الجميع يتفادونه كما لو أن طاعونا.

ولم يكن ((ماركل)) هناك ، لقدخرج الى الدنيا ، وعين مشرفا على بيت في (موشنوى جورود) حيث كانت أسرة ((سفنتتسكى)) تقيم في الماضى ، وقد وضعت غرفة المشرف تحت امره ولكنه فضل حجرة البواب المسن ، رغم انها لم تكن مبلطة ، وان كانت تضم فرنا روسيا ضخما وصنابير الماء . وكانت مواسير المياه والدفايات التى بالمساكن قد انفجرت أيام البرد الشديد ، ولكن جحر البواب بقى دافئا على الدوام ، وجافا ، والمياه لا تنقطع عنه ..

وجاء وقت بردت فيه حرارة الصداقة بين يورى وفاسيا ، فقد تطور فاسيا بصورة ملحوظة . لم يعد يفكر أو يتكلم كما كان يفكر ويتكلم ذلك الفتى الرث الثياب ، الحافى القدمين ، الاشعث الشعر ، القادم من (فيريتين كى) ، فقد اجتذبته الحقائق التى أذاعتها الثورة ، بما حوته من وضوح وأدلة ذاتية ، وبهرته ، بينما أصبح كلام يورى فى نظره غامضا خياليا يصدمه ويبدو له فى صورة صوت الخطأ ، المدرك لضعفه ، والذى يتهرب لهذا السبب من مواجهته..

وكان يورى يتردد على مصالح حكومية عديدة . كان يحاول الحصول على شيئين ، الاول رد اعتبار أسرته سياسيا ، والاذن لافرادها بالعودة الى روسيا ، والثانى الحصول على جواز سفر أجنبى لنفسه ، والسماح له بالبحث عنهم فى باريس .

وكان فاسيا يعجب من عدم اكتراثه ، وضعف حماسته فى جهوده . كان يورى يبدو دائما وكأنه يتعجل الاقتناع بأن جهوده قد فشلت ، ويتحدث بيقين ورضى عن عدم جدوى بذل أى جهد آخر .

وكان فاسيا يرى أخطاء يورى تتزايد يوما بعد يوم ، ورغم أن

هذا لم يكن يضايقه النقد الصادق ، الا أن علاقته مع فاسيا أخذت تنهار ، وأخيرا انفصمت عرى الصداقة وفضت الشركة ، فترك يورى الغرفة التى كان يشترك فيها مع فاسيا وانتقل الى (موشنوى جورود) حيث كان السلطان قد أصبح فى يدى « ماركل » هناك ، فأعد له ركنا خلف ما كان فى يوم من الايام شقة أسرة « سفنتتسكى » ، وكان الركن يحتوى على حمام مهجور وغرفة بها نافذة وحيدة ملحقة به ، ومطبخ مهدم ، عدا المدخل الخلفى .

وما أن انتقل يورى الى هذا المسكن حتى تخلى عن مهنة الطب وأهمل نفسه ، وتوقف عن رؤية أصدقائه ، وعاش فى فقر مدقع .

— ٦ —

وفى يوم أحد معتم من أيام الشتاء ، كان الدخان يتصاعد كالاعمدة فوق السطوح ، فى نفثات سوداء سميكة ، من النوافذ التى كانت لا تزال تستخدم رغم اللوائح كمخارج للمداخن المعدنية المركبة على أفران الطبخ . ولم تكن المدينة قد استعادت بعد حيويتها وملاهيها ، فكان سكان (موشنوى جورود) يخرجون دون أن يغسلوا وجوههم ، وكانوا يعانون من الدمامل ، ويرتجفون من البرد ..

ولما كان اليوم يوم أحد ، فقد بقى « ماركل شيشابوف » فى البيت مع أسرته . وكانوا يتناولون الطعام على مائدة مطبخ ضخمة ، كانت بذاتها تستخدم فى الايام الماضية — عندما كان الخبز يوزع بالبطاقات — فى جمع كوبونات جميع السكان وتفصيلها وترتيب فئاتها وعدها ولفها فى قطع من الورق أو حزمها فى مجموعات وفقا لفئاتها ، قبل ان ترسل الى الخباز فى الفجر . وهنا أيضا ، عند ما يطلع النهار ويأتى الخبز من المخبز ، كانت الارغفة تقطع وتوزن وتوزع وفقا لحصص السكان . ولكن ذلك كله أصبح الآن مجرد ذكريات ، فقد استبدل نظام الحصص الغذائية بأشكال أخرى من الرقابة ، وأخذ أفراد اسرة « شيشابوف » يأكلون فى الظهر وجباتهم حتى تمتلىء

بطونهم . كانوا يلوكون أكلهم ويمضغونه هنيئا مريئا .

وكان الفرن الروسى يحتل نصف الغرفة ويتوسطها ، يعلوه غطاء وتتدلى الى جانبه معدات الطبخ . وبالقرب من مدخل الغرفة تجد صنبورا - كان يؤدى عمله بالفعل - بارزا من الحائط ، مركبا فوق حوض للغسيل . وقد صفت المقاعد الى جانبين من جوانب الغرفة . ووضعت الاسرة حاجياتها تحت تلك المقاعد ، فى لفائف وصناديق ، وكانت المائدة الى يسار الداخل ، وقد ركبت فوقها « مطبقية » .

وكان جو الغرفة شديد الحرارة ، والفرن فى أقصى سخونتها ، وقد وقفت أمامها « أجاثا » زوجة ماركل ، مشمرة أكمامها الى ما فوق المرفقين ، وكانت تستخدم « ماشة » طويلة لتحريك « الحلل » و « البرم » داخل الفرن ، مقربة اياها نحو بعضها البعض ، أو مبعدة لها حسب الحاجة . وكان وجهها ينضح عرقا ، وقد أضاءه اللهب المنبعث من الفرن ، واحاطته حرارة الطبخ بما يشبه الضباب . وحركت « الحلل » الى جانب ، ثم تناولت من خلفها فطيرة محشوة كانت تسوى على « صفيحة » من الحديد ، فقلبتها على وجهها الآخر واعادتها مرة أخرى ليكمل نضجها ويتلون الوجه الآخر . وجاء يورى يحمل دلوين :

- بالهناء والشفاء .. أرجو لكم شهية مفتوحة ..

- اعتبر نفسك فى بيتك . اجلس وتناول طعامك معنا .

- شكرا .. لقد تناولت طعامى .

- اننا نعرف ماذا تعنى بطعامك . لماذا لا تجلس لتأخذ شيئا ساخنا ؟ لن تحتاج الى سد أنفك بعيدا عنه ، انه مأكول طيب ، بطاطس فى الفرن وفطيرة محشوة وبعض « الكاشا » .

- كلا وشكرا .. حقا .. يؤسفنى ان أبقى الباب مفتوحا فيدخل اليكم البرد ، فانى أريد أن آخذ اكبر قدر من الماء . لقد غسلت الحوض ، وسأملأه هو والبراميل ، لذلك سأضطر الى الدخول هنا بضع مرات ، على ان لا أتعبكم بعد ذلك الى وقت طويل . اعذرونى

اذ أرهقكم هكذا، ولكنى لا أستطيع الحصول على الماء من أى مكان آخر .

ـ خذ ما شئت ، لو انك طلبت « شربات » لما استطعنا أن نقدمه لك ، أما الماء فلدينا منه الكثير . خذ ما تريد ولن نحاسبك عليه .

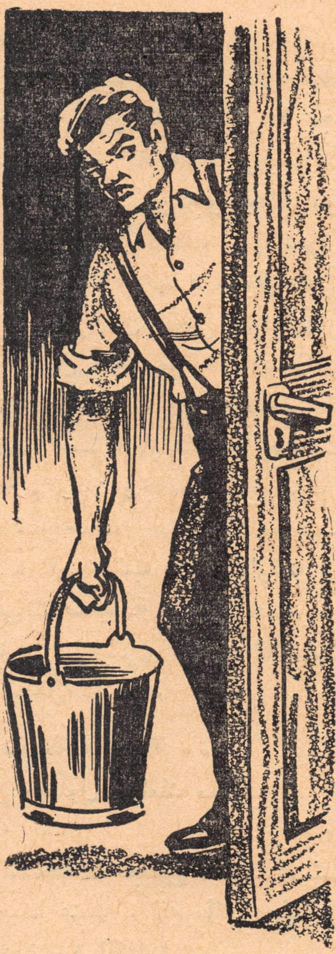
وضحك الجميع ..

وحين عاد يورى ليملأ دلوه الثالث والرابع تغيرت نغمة الحديث :

ـ ان أزواج بناتى يسألوننى من تكون .. وقد قلت لهم من أنت ولكنهم لا يصدقوننى . استمر فى ملء دلائك بالماء ، لا تهتم بنا . فقط لا تجعل الماء يتدفق على الارض فيسىء الى مظهرها ونظافتها ، لانه ان تجمد فلا أحسبك ستأتى بعتلة لرفعه ! .. **واغلق الباب خلفك جيدا أيها البليد، فان تيار الهواء يؤذينا . نعم . كنت أقول لهم من أنت ولكنهم لم يصدقونى . الاموال التى أنفقت عليك ! كل ذلك التعليم، ماذا أجدى وأين انتهى بك ؟ بودى لو أعلم .**

ولما دخل يورى للمرة الخامسة أو السادسة عبس « ماركل » :

ـ مرة واحدة بعد هذه وكفى . ان هناك حدودا لكل شىء ، أيها



« .. ولما دخل يورى للمرة الخامسة أو السادسة عبس ماركل : « مرة واحدة بعد هذه وكفى .. »

الرجل المسن . لولا ان « مارينا » الصغيرة فى صفك لاغلقت دونك الباب بالمسامير . انك تذكر مارينا ، أليس كذلك ؟ هذه هى .. السمراء التى تجلس الى طرف المائدة . أنظر ، لقد احمر وجهها كله . انها تكرر قولها لى : « لا تجرح شعوره يا أبى » . كما لو كان هناك من يريد أن يجرح شعورك . انها عاملة تلغراف فى مكتب البريد المركزى ، وهى تجيد اللغات الاجنبية . انها تقول : « انه سيىء الحظ » . انها ترثى لحالك . وتود لو تمدك بالرى والدفء ، أو تبذل أى شىء فى سبيلك . انها تلومنى كما لو كنت أنا سبب فقرك المدقع . ما كان لك أن تسافر الى سيبريا ، تاركا بيتك فى ذلك الوقت العصيب . **انه خطؤك انت ، انظر الينا هنا ، لقد احتفظنا ببيتنا خلال أيام المجاعة والحصار الابيض ، لم نهرب . وهكذا بقينا فى أمن وسلام وصحة . لاتلومن الا نفسك . لو انك اعتنيت جيدا بتونيا لما أصبحت شريدة فى الخارج فى هذه الايام .** ومع كل فهذا شأنك أنت . ماذا يهمنى ؟ ان كل ما اريد معرفته ــ ولا تؤاخذنى فى ذلك ــ هو ماذا تريد أن تفعل بكل هذا الماء ؟ هل أجرت نفسك لتنشىء حلبة انزلاق أو شيئا من هذا القبيل ؟ انت وهذا الماء ! انك لا تكاد تثير غضبى وتخرجنى عن صبرى ، فما أنت الا دجاجة مبتلة ! !

وضحك الجميع مرة أخرى ، الا مارينا ، فقد راحت تتلفت حولها فى غضب وثورة . وقد تعجب يورى لنبرات صوتها ، وان كان لم يستطع أن يحدد لماذا حرك أشجانه ذلك الصوت ! .. واستطرد :

ــ ان البيت فى حاجة الى تنظيف كثير يا ماركل ، لابد لى من مسح البلاط ، كما سأقوم بغسل ملابسى .

وظهر العجب على وجوه أسرة ششابوف :

ــ من المخجل أن تقول هذا الكلام . اذهب وقم بهذه المهمة وحدك . لعلك ستفتح مغسلا صينيا بعد قليل !

وقالت « أجاثا » : « دعنى أرسل اليك ابنتى . ستغسل لك

حاجياتك ، وتمسح لك الارض ، كما ستصلح لك ما يحتاج الى ترقيع ، اذا وجدت شيئا من ذلك . لا يجدر بك أن تخافى منه يا ابنتى العزيزة . هل أنت تدركين كيف تربى ؟ انه لا يمكن ان يؤذى بعوضة ! »

فأجابها يورى : « ما أبدعها من فكرة يا « أجاثا ميخايليلوفنا » . ما كنت أحلم بأن أدع « مارينا » تمسح بلاطى ، لماذا يحق الارض تتسخ يداها من أجلى ؟ كلا .. أنى أجيد هذه العمليات بنفسى . »

وانفجرت مارينا تقاطعه : « انت تستطيع ان تدع يديك تتسخان ، وانا لا أستطيع .. اهذه هى المسألة ؟ لا تكن ثقيلا يا يورى أندرييفيتش . اظن اننى اذا ذهبت اليك فلن تطردنى ؟ »

كانت « مارينا » تصلح — لو دربت — لان تصبح مغنية ، فقد كان لها صوت نقى ، رخيم ، قوى . ورغم انها لم تنطق بهذه العبارات بصوت مرتفع ، فان صوتها كان أقوى مما تدعو اليه المناقشة العادية . وكان صوتها يبدو كما لو لم يكن صادرا منها ، وانما كان صوتا له حياته الخاصة المستقلة ! كان يخيل لمن يستمع اليه انه صادر من خلفها ، أو من الحجرة الاخرى .. كان صوتها هو حاميها ، وهو ملاكها الحارس ، ولا يستطيع رجل أن يؤلم أو يضايق امرأة لها مثل هذا الصوت !

وهكذا كان لعمليات حمل الماء ونقله أيام الآحاد نتيجتها ، فقد نبعت صداقة بين يورى ومارينا ، وكثيرا ما كانت تصعد الى غرفته لتعاونه فى ترتيب شئونه وتنظيمها . وفى أحد الايام بقيت معه ولم تعد الى غرفتها ! .. وهكذا غدت زوجة يورى الثالثة ، وان كان لم يطلق من الاولى ، ولم يسجلا زواجهما . ثم أنجبا أبناء . وكان ماركل وأجاثا يتحدثان عن ابنتهما كزوجة « للدكتور » فى كبرياء واعتزاز . وقد أبدى والدها تذمره لان مراسم الزواج المتعارف عليها لم تتم لا فى الكنيسة ولا فى مكتب التسجيل . ولكن أجاثا كانت تقول له :

ـ هل خرجت عن وعيك يا رجل ؟ ان تونيا لا تزال على قيد الحياة ، وهذا يعد تعدد زوجات !

ـ انك انت التى خرجت عن وعيك يا أجاثا .. ما دخل تونيا فى هذه المسألة ؟ انها الآن كما لو كانت فى عداد الاموات . ليس هناك قانون يحميها .

وكان يورى أحيانا يقول ضاحكا ان علاقتهما ليست سوى غرام فى عشرين دلوا ، كما يمكن أن تقول عن رواية انها من عشرين فصلا! .. وقد اغتفرت مارينا ليورى مساوئه المتزايدة ، كالقذارة وانعدام النظام الذى يثيره فى البيت ، وأطواره الغريبة ، وخيالاته .. كانت تصرفات رجل يترك نفسه على هواها بارادته ، وقد احتملت مارينا سخطه وغضباته وفورات أعصابه .. **بل لقد تطور ولاؤها له الى ما هو أبعد من ذلك . ففى بعض الاحايين كان يرتكب أخطاء تعود عليه بفترات من الفقر المدقع ، فكانت تضطر ـ كى لا تتركه وحيدا فى محنته ـ الى أن تترك عملها فى مكتب البريد ، (حيث كانوا ـ لحسن الحظ ـ يعتمدون عليها ، فكانوا يقبلون عودتها الى العمل فى كل مرة بعد غيابها الاضطرارى !) .**

وكانت تطيع يورى فى نزواته فتخرج معه لتؤدى أعمالا غريبة ، من بيت الى بيت : كانا يكسران الخشب لمستأجرين كثيرين فى مختلف الطوابق ، ومنهم كثير من الانتهازيين الذين جمعوا ثروات خلال السنوات الاولى من « النظام الاقتصادى الجديد » ، ومنهم الفنانون والعلماء الذين يؤيدون الحكومة ، وكانت بيوتهم مفتوحة على مستوى مترف .. وفى أحد الايام كان يورى ومارينا يسيران فى حذر بأحذيتهما المصنوعة من اللباد ، حتى لا تتسخ السجادة بنشارة الخشب . وكانا يحملان بعض قطع الخشب الى مكتب أحد المستأجرين ، الذى كان قابعا فى قلة ذوق ، يقرأ شيئا ، ولم يكلف نفسه عناء ازجاء التحية لهما ، ولو بنظرة ! .. وكانت زوجته هى التى طلبت اليهما تكسير الخشب ونقله ، واتفقت معهما على

الاجر .. فعجب يورى ، وراح يتمتم فى سره :

— ترى فيم يحشر هذا الخنزير أنفه ؟

ذلك ان الرجل كان يخط شيئا فى عصبية غاضبة على هوامش كتاب أمامه . وألقى يورى نظرة من فوق أكتاف الرجل فى احدى المرات وهو يمر به . كان الكتاب طبعة قديمة من أحد الكتيبات التى ألفها يورى وطبعها فاسيا .

— ٧ —

• **أصبح** يورى ومارينا يقطنان فى شارع (سبيرىدونوفكا) ، و « جوردون » يقيم فى غرفة بالقرب منهما فى شارع (برونى) . وقد أنجبت مارينا ليورى بنتين : كابكا (كابيتولينا) ، وقدأصبح عمرها ٦ سنوات ، وكلازكا (كلوديا) التى كانت لا تزال فى الشهر السادس من عمرها .

واشتدت الحرارة فى مستهل صيف عام ١٩٢٩ ، وكان سكان الشوارع المتقاربة يتزاورون حاسرى الرءوس ، وقد رفعوا أكمام قمصانهم فوق المرفقين .. وكانت غرفة جوردون جزءا من مبنى عجيب كان فى يوم من الايام محلا لخياط . يتألف من طابقين يصل بينهما سلم حلزونى ، وتطلان كلاهما على الشارع بنافذة واحدة ذات لوح زجاجى ضخم كتب عليه اسم الخياط وطبيعة عمله بحروف ذهبية .

وقد قسم المحل الى ثلاثة أقسام ، اذ أنشئت بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا غرفة ثالثة استخدم فى انشائها مزيد من ألواح خشب الارضية . وكان لها ، كغرفة للجلوس ، نافذة عجيبة ، ارتفاعها حوالى ثلاثة أقدام ، وتبدأ من مستوى الارضية ، وقد غطيت جزئيا ببقايا اسم الخياط . واذا رفع سائر فى الشارع بصره ، يرى الشخص الذى يكون فى الغرفة حتى ركبتيه ، من طريق الفجوات التى بين حروف الكتابة . **وكانت هذه هى الغرفة التى**

يقيم بها جوردون . ونحن نرى معه ، فى هذه اللحظة : جيفاجو ، ودودوروف ، ومارينا ، وطفلتيها ـ وكانتا ، بعكس الكبار ، تظهران بكامل هيئتهما للمارة فى الشارع ـ ولم تمكث مارينا كثيرا ، بل سرعان ما خرجت تاركة الرجال الثلاثة معا ..

ودارت بينهم مناقشة من تلك المناقشات الهادئة التى يشيع فيها الكسل بسبب حرارة الصيف ، وهى مناقشات تدور بين زملاء الدراسة الذين مرت على صداقتهم سنوات عديدة . ولدى بعض الناس كلمات كثيرة تحت تصرفهم تكفيهم لحديث طبيعى متماسك . وكان يورى ـ دونهم ـ من ذلك الفريق من الناس . أما صديقاه فكانا دائما يعوزهما التعبير عما يجول بخواطرهما ، وكانا ـ لكى يقتصدا فى الكلام ـ يذرعان الغرفة جيئة وذهابا ، ينفثان دخان السجاير ، ويتمتمان ويكرران ما يقولان ، كأن يقول أحدهما :

ـ من الواضح أن هذا خيانة ، أيها الرجل المسن . خيانة ، نعم ، نعم ، هذا هو كل ما فى الامر ، خيانة .. وهكذا .

ولم يكن أحدهما يدرك ان هذا الحوار الطويل ، أبعد ما يمكن ان يدل على الحماسة وسعة الافق ، وانه كان ـ على العكس ـ من أدلة ضيق الافق وضعف المقدرة .

وقد عاش كل من جوردون ودودوروف فى أوساط الجامعة ، وقضى كل منهما حياته بين الكتب الجيدة ، والمفكرين ، والمؤلفين ، والموسيقى ـ التى كانت ولا تزال ، وستبقى ، شيئا طيبا على الدوام ـ ولكنهما لم يدركا ان انسانا متوسط الذوق اسوأ بكثير من انسان عديم الذوق بالمرة !

ولم يدرك جوردون أو دودوروف أن لومهما ليورى يرجع الى عدم قدرة أى منهما على التفكير بحرية ، أو توجيه الحديث فى حرية ، أكثر مما يرجع الى رغبتهما فى التأثير على تصرفاته . كانا كعربة ضالة فشلت فى نقلهما الى حيث يريدان . وما داما لا يستطيعان السيطرة عليها ، فقد بات من المؤكد ان يصدما بها أى شىء . وهكذا

اصطدما مع يورى ، وراحا يكيلان له غمرا من العظات والتعليمات.

وكانت عواطفهما ، وتدليلهمـا على مختلف نواحى الحديث ، واهتزاز عطفهما عليه ، من الوضوح فى نظر يورى مثل الشمس فى رائعة النهار . ولكن كان من الصعب عليه أن يقول لهما : ما أكثر سطحيتكما أيها الصديقان . انتما سطحيان فى محيط حديثكما ، وبالنسبة للاسماء والشخصيات التى تنقلون أقوالها ولمعانها ، والفن الذى تعجبان به كل هذا الاعجاب ! والشىء الوحيد البراق الذى تشيع فيه الحيوية فيكما هو أنكما تعيشان فى ذات العصر الذى أعيش أنا فيه ، وانكما صديقان لى !

ولكن كيف يمكن أن يصرح أى انسان بمثل هذه الافكار ؟ ولهذا، وحتى لا يجرح شعورهمـا ، راح ينصت اليهما فى حلم . وكان دودوروف قد عاد منذ وقت قريب من المرحلة الاولى من مراحل النفى ، وقد أعيدت اليه حقوقه المدنية وسمح له باستئناف أبحاثه ومحاضراته فى الجامعة . وراح يبث لصديقيه مشاعره وانطباعاته عن المنفى ، ولم تكن تعليقاته متأثرة بالجبن أو بأى اعتبار خارجى .

.. كان يقول ان مناقشات محاكمته ، ومعاملته فى السجن ، وبعد خروجه منه ، ولا سيمـا حديثـه القلبى مع المحقق ، كانت بمثابة النافذة التى أدخلت الهواء النقى الى عقله وثقفتـه سياسيا من جديد ، وفتحت عينيه على أشياء كثيرة لم يـكن قد رآها من قبل ، وجعلته يحس أنه أصبح انسانا كاملا !

وقد أعجب جوردون بهذه الانطباعات لمجرد ابتذالها ، فكان يهز رأسه مؤمنا على كل ما يقول دودوروف ، وكانت تفاهة أحاديث دودوروف وأحاسيسه وتعبيراته هى التى تثيره اكثر من أى شىء آخر ، فقد اعتبر مشاعره دلالة على انسانيتهما المشتركة .

وكانت تفاهات دودوروف تتمشى وروح العصر ، وكانت صحتها وشفافيتها هما سببا غيظ يورى منها . كان يرى ان الرجال غير الاحرار يقدسون عبوديتهم دائما . هكذا كانت الحال فى العصور

الوسطى ، وهكذا كان « الجزويت » يتصرفون . ولم يكن يورى يستطيع ان يحتمل تأليه المثقفين الشيوعيين لمبادئهم السياسية ، بينما كان ذلك بالذات هو ما يعدونه أعلى ما وصلت اليه جهودهم الناجحة ، وهو الذى يوصف بأسلوب ذلك العصر بأنه « قمة روحانية العصر » . ولكن يورى احتفظ بذلك أيضا لنفسه ، حتى يتفادى ايلام مشاعر صديقيه .

وكان أهم ما أثار اهتمامه من قصة « دودوروف » حكايته عن « بونيفيس اورليتزوف » ، زميله فى زنزانته ، وكان من القساوسة التيخونوفيت (١) . كانت « لاورلتزوف » بنت فى السادسة من عمرها ـ تدعى « كريستينا » ـ تحبه حب العبادة ، وقد أصيبت « كريستينا » بسبب القبض عليه وما أعقب ذلك من أحداث ، بضربة قاصمة ، وبات يخيل اليها أن لقبه الدينى و« التجريد من الحقوق المدنية » وصمة عار ، وصمة لعلها أقسمت فى قلبها الصغير على أن تطهر منها اسم والدها فى يوم من الايام . وكان هذا الهدف البعيد ، الذى أدركته فى هذا الوقت المبكر ، وتعهدته بتصميم مشتعل ، قد جعلها تؤمن فى حماسة لا تناسب سنها بما خيل اليها انه مما لا ينقض فى الشيوعية .

وقال يورى :

ـ لا بد لى من الذهاب . لا تعارضنى يا ميشا ، فالجو خانق هنا ، فضلا عن الحرارة فى الخارج . انى لا أكاد أجد الهواء الكافى للتنفس .

ـ ولكن انظر . ان النافذة مفتوحة ، هناك بالقرب من الارض . انى آسف ، لقد كنا نكثر من التدخين . اننا ننسى دائما انه يجب

(١) القس التيخونوفيت هو من بقى على ولائه للبطريرك « تيخون » ، رئيس الكنيسة الأرثوذكسية الروسية الذى أعدموه لأنه قاوم استيلاء الدولة على نفائس الكنيسة . أما القساوسة التيخونوفيت فكانوا يعارضون « الكنيسة الحية » التى كانت تتمتع فى ذلك الحين بقدر من التأييد الحكومى .

علينا ان نتوقف عن التدخين فى حضورك . ليس الخطأ خطأى اذ أصبح الجو خانقا هكذا ، انه خطأ الطريقة الغبية التى صممت بها النافذة بهذا الشكل . ينبغى أن تجد لى غرفة أخرى .

ـ لا بد لى من الذهاب يا ميشا ، لقد تحدثنا كثيرا . وانى أشكركما على اهتمامكما بى . اننى لا أتصنع كما تعلمان ، وانما هذا مرض أصبت به ، انه تصلب القلب . ان جدران عضلات القلب تبلى وتصبح الجدران رقيقة ، وفى أحد الايام الممتعة ستنفجر .. فى حين انى لم أصل الى الاربعين بعد ، وما كنت بسكير مدمن ، وما أشعلت الشمعة من ناحيتيها !

ـ كلام فارغ . لن نسمح لجنازتك بأن تشيع بعد . انك ستعيش لتدفننا !

ـ ان حالات نزيف القلب تتزايد أكثر فأكثر فى هذه الايام . وهى ليست مميتة دائما ، فهناك بعض الناس يتغلبون عليها . انها المرض الذى تفشى فى عصرنا ، واعتقد أن أسبابه الرئيسية نفسية ، **فمعظمنا يجبر على أن يعيش حياة نفاق متصل منظم ! ولا بد أن تتأثر صحتك اذا كنت ـ يوما بعد يوم ـ تضطر الى أن تقول عكس ما تشعر به ، والى أن تنحنى احتراما ـ حتى لتزحف ـ أمام ما تكره ، وترحب بما لا يجلب لك غير التعاسة !** .. ان جهازك العصبى ليس خرافة ، انه جزء من تكوينك الجسمانى ، وروحك تشغل هذا الجسم وتعيش داخله ، كما تعيش أسنانك داخل جمجمتك . وانت لا تستطيع المضى فى انتهاكه دون أن تلقى جزاءك ! .. لقد آلمنى أن أسمع منك قصة ما جرى لك فى المنفى يا نيكى ، وكيف أنضجتك سنوات النفى وصقلتك ، وأتمت ثقافتك . كنت كمن يستمع الى حصان يروى قصة ترويضه فى حلبة !

فقال ميشا جوردون : « يجب على أن أقف فى صف دودوروف ، والمسألة ـ ببساطة ـ انك أصبحت يا يورى غير معتاد على الاستماع لكلام الآدميين ، فكلماتهم لم تعد تصل اليك . »

ـ قد يكون هذا صحيحا يا ميشا ، ولكنى مضطر الى الذهاب على أية حال ، فأرجو أن تسمحا لى بالانصراف .. اننى أتنفس بصعوبة . انى أتحدث اليكما باخلاص ، ولست ابالغ فيما أقول .

ـ انتظر لحظة واحدة . انك تحاول أن تتهرب من الموضوع . لن نسمح لك بالذهاب حتى تجيبنا اجابة صريحة قاطعة : هل توافق أو لا توافق على انك ينبغى أن تغير حياتك وتصلحها ؟ ماذا تنوى أن تفعل حيال ذلك ؟ فأولا ينبغى أن تلقى مزيدا من الضوء على علاقاتك مع تونيا ومع مارينا . انهما بشر .. انهما امرأتان لهما مشاعرهما وآلامهما ، وليستا مجرد أفكار لا كيان لها تصطرع فى رأسك ! وثانيا : انها لفضيحة أن رجلا مثلك يضيع هباء هكذا ، فعليك أن تصحو لنفسك وأن تنظر الى الاشياء بغير هذه العجرفة التى لا مبرر لها .. نعم .. نعم .. بغير هذا التعالى ازاء جميع الناس ، وهو تعال لا يغتفر لك .. ثم يجب عليك أن تعود الى العمل وأن تمارس مهنتك .

ـ حسنا ، هذا جوابى ، فلقد كنت أفكر فى شىء من هذا القبيل منذ عهد قريب ، ولهذا أستطيع فعلا أن أعدك بأن تغييرا ما سوف يحدث . واعتقد أن كل شىء سينصلح حاله ويصبح فى وضعه الطبيعى ، وسوف يتم ذلك فى أقرب وقت ، وسترى .. كلا ، انى أتحدث بكل أمانة واخلاص ، فكل شىء آخذ فى التحسن . **ان لى رغبة عارمة لا يمكن وصفها فى الحياة ، والحياة طبعا تعنى الكفاح ، والتقدم ، والارتفاع ، والجهاد فى سبيل الكمال والوصول اليه .. وانى سعيد يا ميشا لوقوفك الى جانب مارينا ، تماما كما كنت دائما تقف فى صف تونيا ، ولكنك تعلم اننى لم أتشاجر مع أى منهما ، ولست على خلاف معهما ، أو مع أى شخص آخر يعنيه هذا الامر** .. انك كنت تلومنى فى أول الامر لان مارينا كانت تخاطبنى بكلمة «حضرتك» ، وتناديني باسمى الرسمى «يورى أندريفيتش» ، بينما كنت أناديها « بأنت » وباسمها المجرد « مارينا » .. كنت

تلومني على ذلك كما لو كان ذلك لا يضايقنى أنا أيضا ! ولكنك تعلم أن السبب الذى كان يكمن وراء هذه الاوضاع غير الطبيعية قد أزيل منذ عهد بعيد ، فقد تمت تسوية كل شيء وسادت المساواة .

« والآن أستطيع أن أضيف الى هذا انباء طيبة : لقد بدأت أتلقى مرة أخرى رسائل من باريس ، وهى تفيدنى أن الاطفال يكبرون ، وأن لهم كثيرا من الاصدقاء الفرنسيين من سنهم .. وان « ساشا » يكاد يتم دراسته الابتدائية ، و « ماشا » ستدخل قريبا المدرسة ــ وانت تعلم اننى لم أرها مطلقا ! ــ وعندى شعور برغم كل شيء أنهم على الرغم من كونهم قد أصبحوا مواطنين فرنسيين ، الا أنهم سوف يعودون ، وسوف تسوى جميع المشاكل ، بطريقة أو أخرى !

« ويبدو أن تونيا وصهرى يعرفان مسألة مارينا وأولادنا ، وان كنت لم أشر الى هذا الموضوع فى رسائلى ، ولا بد أن يكونا قد سمعا عنها بطريقة ما . **ومن الطبيعى أن يشعر الكسندر الكسندروفيتش بالغضب الشديد ، كوالد ، ولا بد أنه يتألم من أجل تونيا .** وهذا يفسر لماذا انقطعت مراسلاتنا قرابة خمس سنوات . وكنت قد اعتدت أن أكتب اليهما بعد عودتى الى موسكو ، ولكنهما توقفا فجأة عن الرد !

« والآن ، ومنذ عهد قريب جدا ، عادت المراسلات تصلنى من جديد منهم جميعا ، حتى الاولاد . **وهم يكتبون بلهجة تنطق بالحرارة والحب ، وكأنهم قد رضخوا للواقع ! ولعل تونيا قد عرفت شخصا آخر . انى أرجو من الله أن يكون الامر كذلك .** على أى حال ، لست أدرى . وانا بدورى أكتب اليهم من وقت الى آخر .. ولكن ، معذرة ، فالحق اننى لا أستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك .. لا بد أن أذهب ، والا أصابتنى نوبة القلب .. فوداعا . »

وفى الصباح التالى جاءت مارينا الى جوردون وهى تلهث ، وقد بدا أنها فى ضيق شديد .. ولما لم يكن هناك من تستطيع أن تترك

معه الاولاد ، فقد حملت على أحد ذراعيها الوليدة الصغيرة ملفوفة فى ملاءة ، بينما كانت تجرجر « كابكا » باليد الاخرى ، وقالت بصوت تشيع فيه نبرات الرعب :

ـ هل يورى هنا ياميشا ؟

ـ ألم يعد الى البيت فى الليلة الماضية ؟

ـ كلا ..

ـ اذن لا بد أن يكون قد قضى ليلته عند نيكى .

ـ لقد جئت توا من هناك . ان نيكى فى الجامعة ولكن الجيران ، وهم يعرفون يورى ، قالوا لى انه لم يكن هناك !

ـ اذن أين يمكن أن يكون يا ترى ؟

ووضعت مارينا الوليدة « كلازكا » على الاريكة ، وراحت تنشج فى حالة هيستيرية ..

ـ ٨ ـ

• **ومضى** يومان لم يستطع جوردون ودودوروف خلالهما أن يتركا مارينا وحدها ، فراحا يتناوبان العناية بها والبحث عن يورى .. بحثا عنه فى جميع الاماكن التى يمكن أن يذهب اليها ، فقصدا الى (موشنوى جورود) ، والى شارع (سيفيستيف) ، والى جميع « قصور الفكر » و « بيوت الرأى » التى سبق له أن عمل فيها ، وزارا جميع أصدقائه الذين صادف أن ذكر أسماءهم لهما وكانا يعرفان عناوينهم .. ولكن كل هذا الجهد كان بلا نتيجة !

ولم يبلغا قوات « الميليشيا » عن اختفائه .. فرغم انه كان مقيدا فى الدفاتر ـ وان لم يكن له سجل لدى البوليس ـ فقد كان من الانسب عدم توجيه أنظار السلطات الى رجل يعد ، بالنسبة للاوضاع السائدة حينذاك ، خارجا عن العرف ، لا يحيا الحياة المثالية الواجبة .. ولهذا قررا ألا يدعا البوليس يبحث عنه ، الا كحل أخير !

.. وفى اليوم الثالث ، **وصلت الى كل من جوردون ودودوروف ومارينا رسائل من يورى ، من جهات مختلفة ، أبدى فيها أعمق الاسف على ما سببه لهم من متاعب وقلق ، ثم رجاهم ألا يهتموا به ، واستحلفهم بكل ما يقدسون أن يكفوا عن البحث عنه ، قائلا ان هذا البحث لن يأتى بثمرة ما !** .. وأضاف انه ، كى يستطيع أن يعيد بناء حياته من جديد ، وفى أسرع وقت ممكن ، رغب أن يمضى فترة من الوقت منفردا بنفسه ، مركزا كل همه فى شئونه الخاصة .. وانه بمجرد أن يستقر فى عمل ، وحين يستوثق ـ ثقة مستندة الى أساس ـ انه لن يرتد مرة أخرى الى أساليبه القديمة ، فعندئذ سيغادر مخبأه ويعود الى مارينا والاولاد .

.. وكتب فى رسالته الى جوردون يقول انه يبعث اليه باذن صرف بعض النقود لمارينا ، ثم سأله أن يستخدم من تعنى بشئون الاطفال ، كى تعود مارينا الى عملها . وفسر لماذا لم يبعث بالنقود الى مارينا مباشرة بأنه يخشى أن يرى بعضهم اذن الصرف معها فتتعرض للسرقة . وتم قبض النقود بعد قليل ، وكان المبلغ أكبر من أى مبلغ سبق ليورى أو أصدقائه ان حملوه . وعلى الاثر استخدموا مربية وعادت مارينا للعمل فى مكتب البريد . وكانت لا تزال فى ضيق واضطراب ، ولكنها استطاعت مواجهة مشكلة هروب يورى الاخيرة هذه ، فانها كانت قد ألفت تصرفاته السيئة الغريبة . **وقد واصل ثلاثتهم البحث عنه ، ولكنهم انتهوا بالتدريج الى عدم جدوى البحث عنه ـ كما كان قد حذرهم من قبل ـ اذ لم يتمكنوا من العثور له على أثر !**

— ٩ —

• **ومع هذا** ، فقد كان يورى طوال الوقت يعيش على مرمى حجر منهم ، تحت عيونهم وأنوفهم ، فى وسط المنطقة التى « نبشوها » بحثا عنه !

وكان ـ فى يوم اختفائه ـ قد ترك جوردون ومضى الى شارع

(برونى) قبيل الغروب ، ومن هناك اتخذ طريقه الى بيته .. ولكنه استدار فجأة . قبل أن يصل الى البيت بنحو مائة ياردة ، متجها صوب أخيه غير الشقيق « ايفجراف » الذى كان قادما فى الشارع ذاته فى مواجهته ، ولم يكن قد رآه أو سمع عنه منذ أكثر من ثلاث سنوات ! وظهر أن « ايفجراف » قادم لتوه الى موسكو ، و - كالمعتاد - بدا كأنه قد هبط من السماء .. واستطاع أن يتخلص من الاجابة على أسئلة يورى الكثيرة ، بابتسامة أو نكتة .. بينما استطاع من ناحية أخرى - من بضعة أسئلة وجهها هو الى يورى - أن يدرك متاعبه فى الحال . وبين لفتة وأخرى ، وخلال منعطفات الطريق الضيق المزدحم الذى سارا فيه ، **كان قد وضع خطة عملية لانقاذه من متاعبه ، اذ كانت فكرة اختفاء يورى وبقائه فى مخبأه بعض الوقت ، هى فكرة ايفجراف !**

واستأجر له غرفة فى شارع (كاميرجر) ، كما كان يطلق عليه حتى ذلك الحين ، بالقرب من مسرح الفنون . واتخذ من التدابير ما يسر له الحصول على مركز طبيب فى احد المستشفيات ، حتى تتاح له الفرصة لمواصلة أبحاثه . ثم أمده بالنقود وعاونه من كل سبيل ، وأخيرا أبلغه أن الغموض الذى يحيط بأسرته فى باريس سوف ينقشع ، وانه اما أن يسافر - يورى - اليهم فى باريس ، أو يحضروا هم اليه . وكان « ايفجراف » يباشر كل هذه الشئون بنفسه شخصيا ، وكانت معوناته ومساعداته هذه سببا فى تجدد نشاط يورى وتشجيعه ، **وان كان مصدر نفوذ « ايفجراف » ذاك قد بقى سرا خافيا على يورى كالعادة ، ولم يحاول الاخير أن يخترق حجب هذا اللغز!**

— ١٠ —

• **وكانت** واجهة غرفته قبلية ، تكاد تلاصق المسرح وتطل على الاسطح المواجهة . وكانت الشمس تغمرها ، ولكن الشارع كان فى منطقة الظل ..

وكانت الغرفة بالنسبة ليورى أكثر من مكان عمل ، أكثر من مكتب ! .. ففى تلك الفترة من النشاط المحموم ، حين كانت أكداس كراسات المذكرات التى فوق مكتبه لا تكاد تتسع لجميع مشروعاته ، وحين كانت الرؤى التى يتصورها ويستحضرها فى مخيلته تحوم محلقة فى جو الحجرة وأركانها ، مثل مشروعات الرسام التى تسند الى الجدار أو تترك على الارض فى كل ركن ، حتى تزحم مرسمه .. فى تلك الفترة ، كانت غرفة الطبيب بمثابة « قاعة ولائم » لروحه ، ومستودع للمكتشفات ، ومخزن يغلق فيه الباب على الغباء والجهل !

ومن حسن الحظ أن مفاوضات « ايفجراف » مع المستشفى طال عليها الامد ، وبدا أن وظيفة يورى الجديدة قد تأجل حصوله عليها الى أجل غير مسمى ، فمنحه هذا التأخير فرصة للكتابة .

وقد بدأ بمحاولة تنسيق قصائده القديمة التى استطاع أن يتذكر منها بعض الابيات ، أو تلك التى أتى له ايفجراف بأصولها ، وكان بعضها بخط يورى وبعضها الآخر بخط غيره . ولكن هذه المواد المشوشة جعلته يستنزف نشاطا أكثر مما كان يفعل فى الاحوال العادية . وسرعان ما ترك هذا العمل وبدأ فى عمل جديد . صار يكتب مسودة لمقال ، من نوع تلك المذكرات التى كان يخطها حين ذهب الى فاريكينو لاول مرة ، أو يكتب الجزء الاوسط من قصيدة ، أو نهايتها ، أو بدايتها ، كما يتبادر الى ذهنه .. وكانت تمر به أوقات لا يكاد يستطيع فيها أن يتابع افكاره ، حتى مع استعماله طريقته الخاصة للاختزال التى تعتمد على الحروف الاولى من الكلمات .

لقد كان فى عجلة من أمره .. وحين كان خياله يكل ، ونشاطه يتراخى ، كان ينشطهما برسوم يخططها فى الهوامش ، رسوم تمثل غابات ، أو ملتقى للطرق فى مدينة ، وعليها لافتات كتب عليها

عبارات : « مورو و فيتشينكين » و « محاريث للبذور » و « آلات حصاد » .. الخ

وكانت جميع المقالات والقصائد تدور حول موضوع واحد ، هو « المدينة » .

— ١١ —

• **وقد** وجدت بين أوراقه ، فيما بعد ، هذه المذكرات :

« حين عدت الى موسكو سنة ٢٢ ، وجدتها خاوية على عروشها ، يشيع فيها الخراب . كانت قد مرت لتوها بتجارب السنوات القليلة الاولى التى أعقبت الثورة ، وهى ما تزال تبدو بنفس المظهر الى اليوم . سكانها قلة متناثرة ، ومبانيها القديمة لا تجدد ، وما من مبان جديدة تشيد فيها . لكنها برغم حالتها هذه ، ما تزال مدينة عظيمة عصرية . والمدن هى مبعث الوحى الوحيد للفن العصرى الحقيقى .

« وان ما عمد اليه الرمزيون — أمثال « بلوك » و « فيرهارين » ، و « ويتمان » — من سرد غير منظم للاشياء والآراء ذات المظهر المتنافر ، والتى انما جمعوا بينها بطريقة تحكمية محضة ، لهو أمر بعيد عن أن يكون نزوة من نزوات الاسلوب . انه ترتيب جديد للانطباعات والمشاعر قد استمدوه مباشرة من الحياة ، ونقلوه عن الطبيعة ذاتها . وكما يصورون المناظر المتتابعة فى عجلة ، من خلال سطور قصائدهم ، كذلك تتتابع شوارع المدينة المزدحمة أمامنا ، بجموعها وزحامها وعرباتها التى كانت تجرها الجياد — فى نهاية القرن الماضى — أو بقطاراتها الكهربائية ومركبات الترام والاوتوبيس ، فى مستهل هذا القرن !

« فمن أين يمكن أن تأتى بساطة الفن الريفية فى مثل هذه الحياة ؟ .. وحتى حين تبذل المحاولات فى هذا السبيل ، فانها بحكم تجردها من الفن انما تكون تزييفا أدبيا ، غير مستوحى من الريف بل مأخوذا من فوق أرفف المكتبات الاكاديمية ! .. ذلك أن



اللغة الحية التى تتجاوب مع روح عصرنا الحاضر هى لغة المدن لا الريف !

« .. انى أعيش فى مفترق طرق صاخب .. وشمس الصيف تعشى الابصار فى موسكو ، وأفنية المدينة المرصوفة بالاسفلت تشع حرارة لافحة ، ونوافذ الطوابق العليا يعكس زجاجها أشعة الشمس فى كل اتجاه .. والالوان الزاهية فى شوارعها تتعانق مع ألوان السحب التى تتمشى فى سمائها .. كل ذلك يطن من حولى ، أشبه بدوامة ، فيدير رأسى .. ويريد منى أن أدير رؤوس الآخرين بما أكتبه فى وصفه ! .. من أجل هذا لقنتنى المدينة الادب ، ووضعت مشعل الفن بين أناملى !

« وان الصخب والضجيج المتواصلين ، ليل نهار ، فى الشارع ـ خلف جدران مسكنى ـ ليتصلان اتصالا وثيقا بأفكار جيلنا ، مثلما تتصل أنغام « الافتتاحية » الموسيقية بستارة المسرح

« .. ونوافذ الطوابق العليا يعكس زجاجها أشعة الشمس فى كل اتجاه.. »

المسدلة ، يخيم عليها الغموض والظلام ، وان أضرمت النار فيها

أضواء الخشبة الامامية .. فالمدينة التى تطن وتصخب دون انقطاع خلف الابواب والنوافذ ، ان هى الا « افتتاحية » ضخمة هائلة لحياة كل منا . وعلى هذا المقياس ، وفى هذا المعنى ، أود أن أكتب عن المدينة . »

على ان كراسة القصائد التى تركها « جيفاجو » بعد موته لم تتضمن شيئا فى هذا المعنى .. وان كان يحتمل ان تدخل قصيدته « هملت » فى هذا النطاق .

— ١٢ —

• **وذات** صباح ، فى أواخر أغسطس ، ركب يورى الترام من ناصية شارع (جازتنى) ليذهب الى مستشفى بوتكين ، (الذى كان معروفا فى ذلك الحين باسم مستشفى سولداتنكو) . وكان ذلك يومه الاول فى عمله الجديد .

على انه لم يكن حسن الحظ فى ركوبه ذلك الترام ، اذ كان محركه مليئا بالعيوب ، فانتابته جميع أصناف المتاعب : من توقف لان عربة وقفت فى طريقه ودخلت عجلاتها فى شق القضبان .. أو انقطاع للتيار الكهربائى فى سقفه أو فى أسفله .. أو تطاير شرارة محدثة ضجيجا وفرقعة ،نتيجة خلل فى الدائرة الكهربائية .

وكان السائق يخرج من مكانه فى كل مرة ، وينزل ليدور حول القاطرة ، ثم يروح يبحث هنا وهناك عن سبب العطل الطارىء ، محاولا اصلاحه ..

وهكذا أوقف ذلك الترام اللعين حركة المرور فى الخط كله ، وامتلأ الشارع بالقطارات الاخرى التى توقفت بدورها عن المسير ، وكان كل قطار يأتى يضطر الى الوقوف بدوره فى الطابور الذى وصل الى ميدان (مانيج) وما بعده !

وانتقل الركاب من نهاية الطابور الى مقدمته ، بأمل كسب بعض الوقت .. واذا بهم يتجمعون فى العربة التى كانت سبب العطل

كله ! .. وكان الجو حارا فى ذلك الصباح ، وازدحمت العربة حتى كادت تخلو من الهواء . وخيمت فوق رءوس تلك الحشود التى كانت تجرى فى الشارع غيوم راعدة ، أخذت تعلو وتعلو فى السماء ، منبئة باقتراب العاصفة .

وجلس يورى على مقعد منفرد الى اليسار ، واتكأ على النافذة. وكان يرى الجزء الايسر من شارع (نيكيتا) ، وجانبا من معهد الموسيقى ، فراح يرقب المارة وهو شارد الذهن ، مشغول بالتفكير فى أشياء أخرى . كان يرى الناس يسيرون ، أو يقودون سياراتهم، ولم يغفل عن مشاهدة أى من السائرين .

ولمح يورى على الرصيف سيدة رمادية الشعر ، ترتدى قبعة خفيفة من القش محلاة بالزهور ، وعليها رداء قديم يميل لونه الى الحمرة ، وكانت تحمل ربطة رقيقة تحركها كالمروحة لجلب الهواء، وقد أمسكت بمنديل فى يدها الاخرى تمسح به شفتيها وجبهتها من العرق ، اذ بدا ان حرارة الجو والمشد القاسى الذى يلف جسدها قد أرهقاها .

وكانت تسير فى اتجاه مواز للترام ، ثم اختفت عن نظر يورى عدة مرات حين تحرك الترام بعد أن أجريت له الاصلاحات ، لكنه عاد فتوقف مرة أخرى ، واذ ذاك لحقت هى به بعد ان كان قد جاوزها .

وراح يورى يفكر فى ألغاز دروس الحساب حين كان المدرس يسأله عن الوقت الذى يتقابل فيه قطاران قاما من مكانين متقابلين يسيران كل بسرعة تختلف عن سرعة الآخر حتى يصل كل الى هدفه ، وحاول أن يتذكر كيف كانت تلك المسائل تحل ، ولكنه لم يستطع .. وانتقل من تلك الذكريات المدرسية الى غيرها ، أكثر منها تعقيدا .. راح يفكر فى عديد من الناس تجرى حياة كل منهم متوازية مع الاخرى ، قريبة منها ، ولكن لكل حياة سرعتها الخاصة، وكان فى عجب من الظروف التى تجعل بعضهم يتقدم على الآخر

ويتركه متخلفا وراءه . هذا يموت وذاك يعيش وهكذا . وطافت يذهنه نظرية أشبه بالنسبية تنطبق على مسير الحياة البشرية ، ولكنها اختلطت فى ذهنه فلم يجد مندوحة عن تركها .

وبرق البرق وقصف الرعد ، وتوقف الترام السيىء الحظ للمرة العشرين ، توقف فى منطقة على سفح التل بين شارع (كودرينسكى) وحديقة الحيوان . وظهرت السيدة ذات الرداء الاحمر من نافذة الترام ومرت بها ثم سارت فى طريقها .. وسقطت أول قطرات المطر الثقيلة على الطريق وعلى الرصيف وعلى السيدة . وصفعت ريح قاسية الاشجار وهزت أوراقها هزا عنيفا ، كما هزت قبعة السيدة ولفعت ذيلها ثم سكنت فجأة .

وشعر يورى بأنه مريض يكاد يغمى عليه ، ولكنه تغلب على ضعفه وقام يحاول فتح النافذة بشد حبالها ، ولكنه لم يستطع تحريكها .

وصاح الناس فيه قائلين ان النافذة موصدة ، وانها مثبتة فى مكانها بالمسامير ، ولكن يورى كان يكافح الاغماء ، وقد أصابه ما يشبه الذعر والفزع ، فلم يدرك معنى الصيحات ولا انها موجهة اليه . وكان لايزال يحاول فتح النافذة فجذب حبالها الى فوق والى تحت والى ناحيته ، وفجأة شعر بألم جديد مميت . وأدرك ان شيئا ما قد تمزق فى جسمه ، لقد قام بحركة قاتلة ، وأحس أن هذه هى النهاية . وفى تلك اللحظة تحرك القطار ، فسار قليلا فى شارع « برسنيا » ثم توقف مرة أخرى !

وبارادة فوق طاقة البشر ، شق يورى طريقه وسط الزحام ، يتخبط ويكافح حتى وصل الى الجزء الخلفى من العربة ، وكان الناس يعترضون طريقه ويشدونه فى كل اتجاه ، وبدا أن الهواء النقى أنعشه ، وجال بخاطره احتمال عدم ضياع كل شىء ، وانه قد تحسن نوعا ما .. وراح يشق طريقه مرة أخرى فى الجزء الخلفى من العربة ، متعرضا لكل أنواع الضغط والرفس والشتائم .

ولم يهتم بكل ذلك حتى تحرر من الزحام واستطاع النزول من العربة الى عرض الطريق ، وسار خطوة وثانية وثالثة .. ثم سقط على الارض ، ولم يقم مرة ثانية !

وكثر الكلام والمناقشات والنصائح . ونزل كثيرون من الترام وتجمعوا حوله ، وتأكدوا بعد قليل انه لا يتنفس ، وان قلبه توقف عن الخفقان !.. واتسعت الحلقة المحيطة بالجسد المسجى ، بمن انضم اليها من السائرين على الرصيف .. وكان بعضهم يبدى ارتياحه ، بينما خاب أمل الآخرين لان الميت لم يدهسه الترام بل مات ميتة طبيعية ! .. وزاد عدد الحشد ، وجاءت السيدة ذات الرداء الاحمر أيضا ، ووقفت لحظة ، وألقت نظرة على الجثة ، واستمعت الى مايقال ، ثم ذهبت الى حال سبيلها . وكانت أجنبية ، ولكنها أدركت ان بعض الواقفين يحبذون وضع الجثة فى الترام لنقلها الى المستشفى ، بينما كان غيرهم يرى استدعاء الميليشيا فى الحال ، ولكنها لم تنتظر لترى النتيجة .

كانت السيدة ذات الرداء الاحمر سويسرية . انها الآنسة « فليرى » من (مليوزييفو) ، وكانت قد بلغت من السن عتيا ، ومنذ اثنى عشر عاما كانت تكتب الى السلطات فى موسكو للسماح لها بالعودة الى وطنها ، وأخيرا جاءتها الموافقة على الرحيل وأجيب طلبها . وقد جاءت الى موسكو لتحصل على تأشيرة الخروج ، وكانت فى تلك اللحظة فى طريقها الى سفارتها لاخذ التأشيرة ، وقد أخذت تجلب الهواء على وجهها بأوراقها ومستنداتها ، التى لفتها فى ربطة بشريط . وهكذا سارت ، فجاوزت عربة الترام للمرة العاشرة ، دون أن تلقى بالا الى انها خلفت وراءها جيفاجو ميتا ، بينما عاشت هى .

— ١٣ —

• كان السائر فى الممر يرى ركن الغرفة ، خلال الباب المفتوح ، ويرى المنضدة وقد وضعت بزاوية ازاء الحائط . ووضع النعش

على المنضدة ، فبدا كما لو كان قاربا قد اتجه طرفه الضيق الى الباب ، وهو الطرف الذى يضم قدمى الجثة . وكانت المنضدة هى بعينها التى كان يورى فيما مضى يستخدمها للكتابة ، ولم يكن بالغرفة غيرها، وقد رفعت من عليها جميع الاوراق المخطوطة فنقلت الى درج ، ووضع النعش محلها ، وقد رفع رأس يورى على مخدات فمال الجسد كما لو كان على سفح تل .

وأحيط الجثمان بقدر كبير جدا من الزهور . شجيرات بأكملها من الزنبق الابيض ، الذى يصعب الحصول عليه فى هذا الموسم ، الى جانب زهور « السيكلامان » و « السنيراريا » التى ملأت الاصص والسلال . وكانت أشعة الشمس الداخلة من النوافذ تتخلل الزهور المكدسة ثم تسقط على وجه الميت ويديه ، وعلى بطانة النعش وجوانبه الخشبية . بينما ترامت الظلال على المنضدة فى اطار من أوراق الشجر والاغصان ..

وكانت عادة حرق أجساد الموتى قد انتشرت على نطاق واسع فى ذلك الوقت .. وعلى أمل الحصول على معاش للاولاد ، وتقديرا لمستقبلهم فى المدرسة ، ومن أجل مركز « مارينا » فى مكتب البريد، تقرر غض النظر عن اقامة صلاة دينية على الجثمان ، وقصر الجنازة على عملية الحرق المدنية . وأبلغت السلطات المختصة بذلك ، وكان وصول ممثلى تلك السلطات منتظرا بين لحظة وأخرى .

وفى فترة الانتظار هذه ، بدت الغرفة كما لو كانت خالية ، كما تبدو الشقة بعد أن يخرج سكانها ، وتبقى فى انتظار السكان الجدد . ولم يعكر السكون سوى تنقل المعزين على أطراف أصابعهم الى حيث الجسد المسجى ، لوداعه .. ولم يكن عدد المعزين كبيرا ، ولكنه كان على أية حال أكثر مما كان متوقعا . وكان نبأ وفاة هذا الرجل ، الذى يكاد يكون غير معروف لهم ، قد انتشر فى محيطهم بسرعة البرق . وكان من بين المعزين من تعرفوا اليه فى مراحل حياته المختلفة ، ثم انقطعت صلتهم به فيما بعد ، ونسيهم هو .

وكان شعره وأعماله العلمية تجتذب اليه أصدقاء كثيرين . أناسا لم يقابلوا الرجل أبدا ولكنهم انجذبوا اليه وجاءوا الآن ليروه للمرة الاولى والاخيرة .

وفى هذه الساعات التى ساد فيها الصمت ، دون أن يتخلله أى مظهر من المظاهر الجنائزية ، أصبح واضحا ان الجو لا يحتمل ، اذ يسوده شعور بالخلو مما يجب أن يكون فيه . ولم تكن هناك سوى الزهور لتحل محل التراتيل الدينية والادعية . والواقع ان تلك الزهور كانت تقوم بدور أكثر من تجميل المنظر وبث الروائح الجميلة ، كانت أشبه بفتيات فرق المنشدات فى الكنائس ، تنتظم عقودا ، ويتدفق عبيرها ، وتصل روائحها القوية الى كل من يدخل الحجرة ، فبدت كما لو كانت تقوم وحدها بالطقوس الدينية ، التى حرمتها الظروف .

وفى تفكيرنا يمكن اعتبار مملكة النباتات أقرب الجيران لمملكة الموت . ولعل أسرار الخلق وخفايا الحياة التى نتعذب فيها تتركز جميعا فى خضرة الارض وبين أشجار المقابر وسيقان النباتات التى تزهر من براعمها . وحين خرج المسيح من القبر لم تتعرف عليه مريم ، وحسبته بستانى المقبرة !

— ١٤ —

• **وحين** جىء بجثة يورى الى شقة شارع (كاميرجر) ـ وكان هذا آخر عنوان مسجل له ـ هرع الاصدقاء الذين أبلغوا بالوفاة فهزهم النبأ ، عبر الباب المفتوح على مصراعيه ، وجاءوا معهم بمارينا . وكانت الصدمة والحزن قد أتيا على نصف عقلها ، فألقت بنفسها على الارض وراحت تضرب رأسها بحافة الصندوق الخشبى الذى وضع فى الردهة ، والذى تركت عليه الجثة حتى تكنس غرفة الجلوس ، وحتى يصل النعش الذى أوصوا باحضاره . **وكانت الدموع تنهمر من عينى مارينا ، وهى تصرخ وتولول ، وتنشج**

وتقف الكلمات فى حلقها ، ثم تصرخ من جديد . كان حزنها يجعلها تتكلم كثيرا كالفلاحين ، دون أن تعير التفاتا لوجود غرباء حولها . وتشبثت بالجثمان ، وكان من الصعب الى حد كبير زحزحتها عنه حين جاء الوقت لنقله الى الغرفة و «تغسيله» ووضعه فى النعش .

وقد حدث هذا كله فى اليوم السابق ، أما اليوم فقد خفت حدة الحزن نوعا ، وحل محله خدر قلق ، فجلست فى سكون وان كانت لا تزال فى شبه غيبوبة لا تكاد تحس بنفسها ولا بمن حولها . لقد جلست طوال اليوم السابق وطول الليل دون أن تتحرك من مكانها ، وجىء اليها بالطفل لتطعمه ، ثم جاءت «كابكا» مع مربيتها الصغيرة لتراها .

واحاط بها الاصدقاء ، وحزن جوردون ودودوروف بقدر حزنها ، وكان ماركل والدها جالسا على المقعد بجوارها يبكى بصوت مرتفع لا يفوقه الا صوت أنفه وهو يعتصره فى منديله ، وجاءت أمها الباكية وأخواتها ثم ذهبن .

وكان بين الجمع رجل وامرأة ، وقفا بعيدا عن الآخرين ، لم يدعيا أنهما أقرب الى الميت من الآخرين . ولم ينافسا مارينا وأولادها وأصدقاءه فى الحزن . ولكن رغم انهما لم يزعما أى زعم ، فقد كان من الواضح ان لهما حقوقا خاصة على يورى . ولم يستهجن أحد أو يتساءل عن السيطرة الصامتة التى بدت عليهما الى أقصى حد . انهما الشخصان اللذان تعهدا بأن يقوما بتنظيم الجنازة ، وقد اهتما بكل شىء من أول لحظة فى سخاء بدا انه يرضيهما ، وقد ساد شعور غريب من تصرفهما وثبات جأشهما ، كأنهما ليسا مسؤولين عن الجنازة فحسب بل عن الوفاة كذلك ، لا على أساس انهما ــ بطريق مباشر أو غير مباشر ــ قد ارتكبا جرما ، ولكن على أساس انهما من أولئك الذين يرون أنه اذا وقعت الواقعة فلا بد من مواجهتها ، ثم يتصرفون على أن ما حدث ليس هو أهم شىء مرتبط بيورى . وكانت قلة من المعزين تعرفهما ،

وقلة أخرى تخمن من يكونان ، أما الاغلبية فلم تكن لديها أية فكرة منهما .

ومع هذا ، فحينما كان الرجل ، ذو العينين القرغيزيتين الضيقتين ، المثيرتين للعجب ، والمعبرتين عنه ، حينما كان يدخل الغرفة مع السيدة الجميلة ، كان جميع من بالغرفة ، حتى مارينا ، ينهضون من على مقاعدهم دفعة واحدة ــ كما لو كانوا على اتفاق ــ ويخرجون فيحتشدون فى الممر والردهة ، تاركين الاثنين وحدهما خلف أبواب نصف مغلقة ، كما لو كانا مستشارين احتاج الامر اليهما لتنفيذ شىء يتصل اتصالا مباشرا بالجنازة ، وان هذا الذى يستشاران فيه أمر حيوى .

هكذا كانت الحال فى تلك المناسبة .. بقيا وحدهما جالسين على مقعدين بالقرب من الحائط ، وراحا يتحدثان كرجال الاعمال :

ــ ماذا وجدت يا ايفجراف أندريفيتش ؟

ــ ستحرق الجثة الليلة ، سيحضرون خلال نصف ساعة من نقابة الاطباء للكشف على الجثمان ثم يأخذونه الى ناديهم . وتقام الجنازة المدنية فى الساعة الرابعة . لم تكن ورقة واحدة من أوراقه مرتبة ، ولم يكن يسجل شيئا فى دفتر الانتاج منذ عهد بعيد ، ووجدت عنده بطاقة نقابية قديمة ، لم يستبدلها بالبطاقة الجديدة ، ولم يدفع الاشتراكات منذ عدة سنوات . ولا بد من تنظيم هذا كله ، وهذا هو السبب فى ضياع كل هذا الوقت . ولا بد لنا من الاستعداد قبل أن يأخذوه ، وسوف يتم هذا عاجلا . سأتركك هنا بمفردك كما طلبت ، وانا آسف . هذا هو التليفون . لن أتأخر دقيقة ..

وخرج ايفجراف الى الممر المزدحم بزملاء يورى الذين لا يعرفهم ، وبأصدقاء الدراسة ، وصغار موظفى المستشفى ، وبعض الطباعين وباعة الكتب ، وجلست مارينا وقد احتضنت ولديها ، وعمدت الى تدفئتهم بادخالهم تحت المعطف الذى وضعته على كتفيها ، فقد

كان اليوم باردا . وجلست على حافة المقعد الخشبي فى انتظار العودة الى حجرة الجلوس ، كزائر جاء ليرى سجينا فى زنزانته ، فهو ينتظر وصول الحرس لادخاله الى غرفة الزيارة . وكان الممر والردهة قد ازدحما بأكثر مما يحتملان ، وقد فتح الباب الخارجى ووقف كثيرون يدخنون أو يتحركون جيئة وذهابا فى المدخل ، بينما وقف آخرون على درج السلم المؤدى الى الطابق الارضى ، وكان أعلاهم صوتا وأكثرهم حرية أولئك الذين كانوا فى نهاية السلم بالقرب من باب الشارع .

وكان ايفجراف يجيب على أسئلة تلقى اليه فى التليفون عن ترتيبات الجنازة والظروف التى توفى فيها الدكتور ، وكان يبدو عليه الضيق من الضجيج والصخب حوله ، وقد ظهر ذلك فى نبرات صوته الاجش . ولما انتهت المكالمة عاد الى غرفة الجلوس واستأنف الحديث :

ـ أرجوك يا « لارا فيودوروفنا » ألا تختفى عن ناظرى بعد حرق الجثة . انى لا أعلم أين تقيمين . أرجو ألا تختفى دون ان تبلغينى ، فسوف ألتمس منك معروفا جزيلا : انى اريد فرز أوراق أخى بأسرع مايمكن ، غدا أو بعد غد ، وسأحتاج الى معونتك ، فأنت تعرفين عنه الكثير ـ ربما أكثر من اى انسان آخر ـ وانت تقولين انك جئت من (اركتسك) منذ يومين ، ولن تمكثى طويلا ، وانك جئت الى هنا بمحض الصدفة ، لسبب غير هذا ، دون ان تعرفى ان هذه شقة أخى فى الشهور الاخيرة ، أو ان شيئا قد حدث له . اننى لم أفهم كل ما قلت ، ولست أطلب اليك ايضاحات ، ولكنى أرجوك الا تذهبى دون ان تتركى لى عنوانك . وانى أفضل قضاء بضعة الايام التى نحتاج اليها لفرز هذه المخطوطات فى هذا البيت بالذات أو بالقرب من هنا على الاقل ، وقد يكون ذلك فى غرفتين من هذا المبنى . ويمكن تدبير ذلك فانى أعرف مدير المبنى .

ـ تقول انك لم تفهم كلامى ؟ ماذا تريد أن تفهم ، أو ماذا هنالك يحتاج الى فهم ؟ ! لقد وصلت الى موسكو وتركت حقائبى فى المحطة ورحت أتمشى فى بعض شوارع موسكو القديمة ، وأدركت اننى لم أتعرف على نصفها ، فقد مضى وقت طويل منذ تركتها . وهكذا سرت وسرت وعبرت كوبرى كوزنتسكى وسرت فى حارة كوزنتسكى ، وفجأة .. وجدت نفسى أسير فى شارع قريب جدا الى نفسى هو شارع كاميرجر . كان هذا الشارع موطن انتيبوف زوجى الذى قتل ، حين كان طالبا . كان يقطن فى هذا البيت وفى هذه الحجرة بالذات التى نجلس فيها الآن ! .. وقررت أن أدخل، فمن يدرى ، لعل السكان القدامى لا يزالون هناك ، انى أحب أن أزورهم ، وهكذا ترى اننى لم اكن أعلم ان كل شىء قد تغير ، فان أحدا لا يكاد يذكر أسماءهم ، ولم اكتشف ذلك الا متأخرة فى اليوم التالى ، وجاء ذلك بالتدريج عن طريق سؤال الجيران . ولكنك كنت هنا . لست أدرى لماذا أقول لك هذا . لقد صعقت تماما . الباب مفتوح على مصراعيه والناس محتشدون فى كل مكان ، وهناك نعش فى الغرفة وبه رجل ميت ! ترى من يكون ؟ دخلت وتقدمت لارى ، خيل الى اننى جننت واننى أهذى ، ولكنك كنت هناك ورأيتنى ، أليس كذلك ؟ لست ادرى بحق الارض لماذا اقول لك هذا كله ؟

ـ لحظة .. لحظة واحدة يا لارا فيودوروفنا . لقد قلت لك انه لا يورى ولا أنا كانت لدينا أية فكرة عن صلتك الغريبة بهذه الغرفة أو ان انتيبوف كان يشغلها فى وقت ما . ولكن الذى يدهشنى أكثر من كل شىء هو تعبير استخدمته الآن عن انتيبوف ستربلنيكوف . لقد قابلته فى بداية الحرب الاهلية مرتين أو ثلاث مرات ، دون أن أدرك طبعا ان اسمه سيعنى الكثير بالنسبة لى ، لاسباب عائلية .. ولكن اعذرينى ، قد أكون أخطأت فى الانصات اليك ، أو لعلها فلتة لسان ، ذلك انك قلت انه « قتل » . لابد

انك تعلمين بالتأكيد انه قتل نفسه .. أطلق على نفسه الرصاص !؟

ـ نعم .. لقد سمعت هذا ولكنى لا أصدقه . ان بافيل بافلوفيتش ليس من أولئك الرجال الذين ينتحرون !

ـ ولكن ذلك ليس مؤكدا كما تعلمين .. لقد قال يورى أن انتيبوف أطلق الرصاص على نفسه فى ذلك البيت الذى كنتما تقيمان فيه قبل ان تذهبى الى فيلاديفستك . وقد حدث ذلك بعد أن سافرت مباشرة ، وقد وجد أخى جثته ودفنه . فكيف لم يبلغك ذلك ؟

ـ ان ما قيل لى يختلف عن هذا .. فهل أطلق على نفسه الرصاص حقيقة ؟ .. ان الناس قالت ذلك ، ولكنى لا أصدقه .. وفى ذلك البيت بالذات ؟ ان ذلك لا يبدو ممكنا .. ان هذه التفاصيل هامة جدا بالنسبة لى . اذن انت لا تعلم اذا كان قد تقابل مع جيفاجو ، أو انهما كانا يعرفان بعضهما ؟

ـ لقد تبادلا حديثا طويلا كما قال لى يورى .

ـ هل هذا حق ؟ اذن أشكر الله .. أشكر الله ، فهذا أفضل !

ورسمت أنتيبوفا الصليب ببطء ، واستطردت تقول :

ـ ما أعجب هذه المصادفات ! هل تسمح لى أن أعيد سؤالك فى هذا الموضوع فيما بعد ؟ ان كل شىء من تفاصيله عزيز على جدا . ولكنى الآن لا أستطيع . انى فى غاية الاضطراب . سأهدأ قليلا لاستجمع أفكارى . هل تعذرنى ؟

ـ طبعا . ! طبعا !

ـ آه .. نعم .. لقد كدت أنسى . لقد طلبت الى الا أسافر بعد حرق الجثة . حسنا .. أعدك . لن أختفى . سأعود الى هنا معك وسأبقى حيث تريدنى أن أبقى ، طالما كان وجودى ضروريا . سنفرز كل مخطوطات يورى ، وسأعاونك فى ذلك . وفى الحق قد أكون ذات فائدة لك . انى أعرف خطه جيدا . أحفظه عن ظهر قلب . انى أعرفه بكل قطرة فى دمائى . ثم ان هناك شيئا أحب ان

أسألك عنه وأود أن تعاوننى فيه . أحسبنى سمعت انك محام ؟ أو على الاقل انت على علم بعادات هذه الايام ولوائحها . وثمـة شىء آخر ، انى فى حاجة الى معرفة أية مصـلحة حكومية أستطيع أن أتقدم اليها للحصـول على معلومات . ان قليـلا من النـاس من يستطيعون الاجابة عن سؤال كهذا . ألست تعتقد ذلك أنت أيضا ؟ **انى فى حاجة الى نصيحتك فى أمر مرعب ، امر مرعب حقا . انه امر طفل . ولكنا سنتحدث عن ذلك فيما بعد ، بعد أن نعود من عملية الحرق . قل لى .. افرض .. انه ، فى حالة خيالية تماما ، كان من الضرورى اقتفاء أثر طفل ، طفل سلم لبعض الاجانب لتربيته ، فهل تعتقد أن هناك أى نوع من مصادر المعلومات العامة عن «بيوت حضانة الاطفال» فى أنحاء البـلاد كلها ؟** وهل هناك أى نوع من السجلات عن اللقطاء والمشردين ، أو أن هناك محاولات من هـذا القبيل ؟ كلا .. لا تقل لى شيئا الآن . ارجوك . سنتحدث فى هذا فيما بعد . انى خائفة الى أقصى حد . ان الحياة مرعبة ، ألا ترى هذا الرأى ؟ لست أدرى شيئا عن المسـتقبل حين تجىء ابنتى لتعيش معى ، ولكن فى اللحظة الراهنة لا أجد ما يمنعنى من البقاء فى هذه الشقة . ان « كاتيـا » تظهر مواهب موسـيقية خارقة ، ومواهب أخرى فى التمثيل . انها تجيد تقليـد الناس وتغنى أوبرا كاملة سماعيا . انها طفلة عجيبة .. ألست من هذا الرأى ؟ أريد أن الحقها بالفصول الاولى بمدرسة الدراما ، أو بمعهد الموسيقى ، أيهما يقبلها ، ولا بد لى من الحاقها بالقسم الداخلى . ولهذا السبب جئت بدونها حتى أتخذ التدابير اللازمة لذلك . **ان الامور معقدة الى حد كبير .. ألا ترى ذلك ؟ . انك لا تسـتطيع أن تفسر كل شىء . ولكنا سنتحدث فى هذا فيما بعد . والآن سأبقى هنا بعض الوقت ، وسأستجمع قواى . سـأبقى هادئة وأستجمع أفكارى وأحاول ألا أبدو خائفة .** وفضلا عن هذا فقد تركنا أصدقاء يورى بالخارج مدة اطول من اللازم . وقد خيل الى اننى سمعت بعضهم

مرتين يدق على الباب . وهناك أشياء تحدث بالخارج ، ولعلهم قد عادوا من عند « الحانوتى » . سأبقى ساكنة هنا بعض الوقت ، فيحسن بك أن تفتح الباب وتسمح لهم بالدخول ، فقد حان الوقت . ألست ترى ذلك ؟ انتظر .. انتظر .. ينبغى أن يكون هناك مقعد صغير حتى يمكن الارتفاع الى مستوى النعش . لقد حاولت رؤية يورى وأنا أشب على أطراف أصابعى ، وكان ذلك من الصعوبة بمكان . ولا شك ان مارينا والاطفال سيحتاجون الى ذلك . فضلا عن أن ذلك منصوص عليه فى الطقوس الدينية التى تقول « وستقبلوننى القبلة الاخيرة » .. أوه .. كلا .. اننى لا أحتمل .. لا أستطيع .. ما أبشع هذا .. الا ترى هذا الرأى ؟ ؟

ـ سأسمح لهم بالدخول ، ولكن هناك أمرا واحدا قبل ذلك .. لقد قلت أشياء كثيرة غامضة ، وسألت أسئلة من الواضح انها تؤلمك حتى انى لا أدرى ماذا أقول لك . ولكن هناك شيئا واحدا أريد أن تعرفيه . ارجوك الاعتماد على معاونتى لك فى كل ما يقلقك . انى أعرض ذلك عليك بكل رضى وارتياح ومن كل قلبى ، واذكرى انه ينبغى عليك ألا تفقدى الامل أبدا .. أبدا مهما كانت الظروف . أن نأمل وان نعمل هذا هو واجبنا فى الملمات ، أما ألا نعمل شيئا ونستسلم لليأس فذلك اهمال لواجبنا . والآن سأذهب لادخال المعزين ، وانت على حق بالنسبة لذلك المقعد الذى تطلبينه . سآتى به فورا .

ولكن « لارا » لم تكن تنصت اليه . لم تسمعه وهو يفتح الباب ، ولم تر الناس وهم يندفعون الى الحجرة من الممر ، ولم تسمع توجيهاته لمنظمى الجنازة ولاهم المعزين . لم تسمع ضجيج الزحام ولا بكاء مارينا ولا نحنحة الرجال وولولة النساء وبكاءهن .

كان الحشد يتحرك حولها والاصوات الرتيبة تجعلها تحس بالغثيان ، وقد جاهدت بكل قواها حتى لا يغمى عليها . كان قلبها يكاد ينفجر ورأسها مصدوعا . فأغلقت عينيها وانطلقت تفكر فى

ذكرياتها وتقديراتها وتخميناتها . هربت من الواقع الى الخيال ، عاشت فى مستقبل قد لا تراه ، مستقبل يكبرها ببضعة أجيال ، مستقبلها حين تصبح مسنة !

لم يبق أحد . لقد مات واحد ، وانتحر الآخر ، والوحيد الباقى حيا الذىكان ينبغى أن يقتل، الذىحاولت أن تقتله يوما واخفقت ، الغريب الذى لا تجمعها به صلة ، الذى جعل حياتها سلسلة من الجرائم دون أن تعلم .. ذلك الوحش الذى يطوف بربوع آسيا ، والذى لا يعرفه الا هواة جمع طوابع البريد .. نعم ، لم يبق لها واحد من الاقربين ، أو الضروريين النافعين .

كان ذلك فى ليلة عيد الميلاد منذ دهر طويل ، حين صممت على قتل ذلك اللعين ، وكان قد دار بينها وبين «باشا» حوار فى الظلام ، فى هذه الغرفة بالذات ، وكان « باشا » لا يزال صبيا صغيرا ، ولم يكن يورى ، هذا الذى يودعونه الآن ، قد دخل حياتها بعد .

وشحذت ذاكرتها لتذكر ذلك الحديث الذى تبادلته مع باشا ليلة عيد الميلاد ، ولكنها لم تذكر سوى الشمعة التى كانت موقدة على حافة النافذة ، وقد أذابت جزءا مستديرا من الثلج العالق بزجاجها .

ولكن كيف لها أن تعرف أن يورى ، هذا الذى ترقد جثته هنا على المنضدة ، كان قد رأى تلك الشمعة من الخارج حين مر بالدار .. وانه منذ اللحظة التى رأى فيها لهب الشمعة ، تغير مجرى حياته !

وراحت أفكارها تسبح .. كانت تفكر : « يا للحسرة ! .. لكم يحزننى انهم لن يصلوا عليه فى الكنيسة ، ان مراسم الدفن رائعة وعظيمة . انها أعظم مما يستحق كثير من الناس حين يموتون، ولكن حبيبى يورى يستحق هذه الفرصة النبيلة ! انه يستحق كل هذا البكاء الذى يتحول الى تسابيح . »

وشعرت بموجة من الاعتزاز والارتياح ، كما يحدث لها دائما



« .. هذه اللذة يمكن أن تجنيها اذا ذهبت لوداعه .. اذا استعملت هذا الحق والفرصة لتبكى ما وسعها البكاء .. »

حين يخطر يورى ببالها ، وفى الفترات القصيرة من حياتها التى قضتها الى جواره . وامتلأت رئتاها بنسمة من تلك الحرية وعدم المبالاة التى كانت من خصائصه ، يشيعها جوه . ونهضت فاقدة الصبر من مقعدها . **ان شيئا لا تدركه يحدث لها . انها فى حاجة ، ولو لبضع دقائق ، الى أن تفر بمعونة يورى الى الحرية ، الى الانطلاق من الاحزان التى تقيدها ، وأن تشعر مرة أخرى بلذة التحرر. وخيل اليها أن مثل هذه اللذة يمكن أن تجنيها اذا ذهبت لوداعه ، اذا استعملت هذا الحق والفرصة لتبكى ما وسعها البكاء دون ان يمنعها مانع ..** وتلفتت حولها فى الزحام وقد امتلأت بحماسة العاطفة ، بعينين متألمتين لا تريان ، من فرط ما ملأتهما الدموع . كانت كمن ذهبت الى طبيب العيون فقطر لها فى عينيها مادة كاوية ! .. وبدأ الناس يتحركون ويخرجون من الغرفة، تاركينها أخيرا وحدها خلف أبواب نصف مغلقة .. فاتجهت الى المنضدة التى يعلوها النعش ، حيث رسمت الصليب بسرعة ،

وصعدت فوق المقعد الصغير الذى أحضره ايفجراف ، ثم رسمت الصليب ثلاث مرات على الجثة وضغطت بشفتيها على الجبين البارد واليدين .. وقاومت ذلك الشعور الذى انتابها بأن البرد جعل الجمجمة تنكمش كما تنكمش قبضة اليد ، فجاهدت لاستبعاد هذا الخاطر . ووقفت جامدة صامتة لحظة او نحوها ، لا تفكر ولا تبكى .. ثم انحنت فوق النعش ، والزهور والجثة ، فغطتها جميعا بجسمها كله ، برأسها وصدرها وقلبها ويديها .. بقوة كقوة قلبها !

— ١٥ —

• **وارتجف** جسمها كله من شدة البكاء ، وكانت تكافح دموعها بقدر ما تستطيع ، ولكن ذلك كان فوق طاقتها ، فكانت الدموع تتفجر منها ، وتتدفق على وجنتيها ، وتتساقط على ردائها ويديها والنعش الذى تشبثت به ..

ولم تنطق أو تفكر . ان أفكارا عديدة ، عموميات ، حقائق أكيدة ، راحت تتتابع — بارادتها — فى رأسها ، حرة الحركة كالسحب فى السماء ، أو كتلك المحاورات التى كانا يتبادلانها فى الظلام فى الايام الخوالى . تلك المحاورات التى كانت تجلب لهما السعادة والشعور بالتحرر فى تلك الايام .. كانت تجلب لهما معرفة لا تنبع من الرأس ، بل معرفة دافئة كانا يتبادلانها تلقائيا وبالغريزة ..

مثل هذه المعرفة تغمرها الآن ، معرفة مظلمة مبهمة عن الموت ، استعداد للموت محا كل الشعور بالعجز فى مواجهته . أحست كما لو كانت قد عاشت عشرين مرة ، وانها فقدت يورى مرات لا تعد ، وانها مرت بهذه المشاعر القلبية مرات متعددة .. وخيل اليها أن كل ما تشعر به وما تفعله بجوار هذا النعش صواب الى أقصى حد ، وفى موضعه .

لطالما شعرا بصحة ما كان يتغنى به الناس عن الحب : « أى حب كان حبنا .. أى حرية كانت فيه ، أى جدة اتصف بها ، انه كان

شيئا لا مثيل له فى الوجود ! »

انهما لم يتحابا من أجل ضرورة .. لم تستعبدهما العاطفة ، كما يوصف العشاق . وانما تحابا لان كل ما كان حولهما أراد ذلك : الاشجار ، السحب ، السماء التى تظللهما والارض التى تحت أقدامهما . العالم الذى يحيط بهما والاغراب الذين يقابلونهما فى الطريق . المناظر الطبيعية التى تمتد أمامهما حين يسيران معا ، الغرف التى عاشا فيها أو تقابلا ، هذه كلها كانت راضية عن حبهما أكثر مما كانا هما نفساهما !

لقد كان ذلك ، بالطبع ، هو ما جمعهما وجعلهما مرتبطين هكذا ، لم يفقدا شعورهما أبدا .. أبدا .. ولا حتى فى أقصى لحظات سعادتهما الضارية المفعمة .. لم يفقدا شعورهما بما هو أعلى وأسمى ، بجمال الدنيا وبهجة الوجود ، وأشكال هذه البهجة ، وجمالها ، واحساسهما بصلتهما بها وانهما جزء منها .. من بهجة الوجود !

وكان هذا الانسجام هو نسيم حياتهما ، ولهذا لم تجتذبهما فكرة تأليه الانسان التى تفشت أخيرا ، فمثل هذه الفكرة الاجتماعية التى استخدمت فى السياسة كانت تصدمهما ، كفكرة هواة صنعت محليا ، ولم يكن فى قدرتهما استيعابها والاستجابة لها !

— ١٦ —

• والآن راحت تودعه وترثيه بكلمات سهلة ، متداولة ، واقعية ، لا تكاد تعنى شيئا . لا تعنى أكثر من الترديد .. انها أشبه بالمنلوجات التى تحشر فى التراجيديات ، أو بأسلوب الشعر أو الموسيقى ، أو بأى تعبير آخر تبرره ظروف العواطف المتأججة .

وكان التبرير فى هذه الحالة التى سيطرت على الالفاظ التى نطقت بها فى يسر ودون اعداد ، هو دموعها التى استحمت فيها كلماتها ، وسبحت ، وغرقت !

وبدا أن هذه الكلمات المختلطة بالدموع تترابط ببعضها البعض من تلقاء نفسها ، وتتصل فى تمتمة رقيقة ، سريعة ، ناعمة .. « ها نحن أولاء مرة أخرى أيها العزيز يورى ، يا حبيبى يورشكا (١) .. يا لغرابة الوسيلة التى يجمع بها الله شملنا !.. ما أفظع التفكير فيها .. لم أعد أستطيع الاحتمال . آه يا الهى . لم أعد أستطيع سوى ان أبكى وابكى . أترى ؟ .. هاك وجها جديدا للشبه بيننا ، يجمعنا .. ان فى ذهابك نهايتى ! .. وهاك شيئا آخر جليلا لا مهرب منه . نحن نفهم لغز الحياة .. ولغز الموت .. وجمال العبقرية .. وجمال الحب .. نعم ، كل هذا نفهمه . أما تلك التفاهات كمسألة اعادة تشكيل العالم ، هذه الاشياء ، كلا وشكرا ، انها ليست لنا .. !

« وداعا يا أعظم ما لى ، يا أعز ما لى ، يا مملكتى ، وكبريائى .. وداعا يا نهرى السريع العميق ، الى أى حد أحببت موجاتك المتلاحقة ، والى أى حد أحببت السباحة بين طياتها المنعشة !

« تذكر كيف تبادلنا الوداع فى ذلك اليوم ، وتحت كل ذلك الصقيع .. أى لعبة تلك التى لعبتها ؟ هل كان يمكن أن أذهب بدونك ؟ أوه . انى اعرف . اعرف انك اضطررت اليها ، وكنت تعتقد أن ذلك لصالحى . وبعد ذلك سار كل شىء فى الطريق الخاطىء .. يا الهى ، ماذا فعلت بعدئذ ، وأى طريق سرت فيه ! ولكن .. انك لا تعلم شيئا عن ذلك كله . أى شىء فعلت يا يورا .. أية حماقات ! .. انى مجرمة .. اكثر مما تتصور ! .. ولكنها لم تكن غلطتى . لقد مرضت بالمستشفى ثلاثة شهور ، وقضيت شهرا كاملا فى غير وعيى . ومنذ ذلك الحين وحياتى لا قيمة لها يا يورى . ضاع السلام من قلبى . لست أستطيع أن أحيا حياة البؤس والشفقة .. ولكنى لم أحدثك عن أهم شىء . انى لا أقوى

---

(١) « يوروشكا » هو لفظ التدليل بالروسية لاسم « يورى » : انظر ألفاظ التدليل لجميع الأبطال فى صفحات « شخصيات القصة » فى بداية الكتاب .

على أن أقوله . ليست لدى القدرة على النطق به . فى كل مرة أفكر فى تلك الفترة من حياتى أشعر بالعجز .. شعر رأسى ينتصب . ما أفظع ذلك . ولعلك تعرف اننى لست متأكدة اننى سأعود الى طبيعتى مرة أخرى .. ولكنك ترى ، اننى لم أصبح سكيرة كما يفعل كثيرون ، لقد قاومت ذلك لان المرأة السكيرة .. انها النهاية . ان ذلك مستحيل . ألا ترى ذلك ؟ »

وراحت تتكلم وتتكلم ، وتبكى ، وتعذب نفسها .. وفجأة رفعت رأسها ، ونظرت حولها فى دهشة .. كان آخر عهدها بالغرفة انها تعج بالضوضاء التى يثيرها المعزون .. فأين ذلك كله ؟ .. وهبطت من فوق مقعدها الصغير ، وابتعدت عن النعش وهى تضغط براحتيها على عينيها كما لو كانت تريد التخلص من الدموع التى لم تنضب بعد ، لتنثرها بأصابعها على الارض .

وتقدم ستة رجال الى النعش ، ورفعوه ، وحملوه الى الخارج ..

— ١٧ —

• **مكثت** لارا عدة أيام فى شارع (كاميرجر) . وكان فحص أوراق « يورى » قد بدأ بمساعدتها ، ولكنه انتهى بدونها .. كانت قد أفضت الى « ايفجراف » بسر خطير ! .. **وذات يوم ، خرجت لارا ، ولم تعد .. ولا بد أنها اعتقلت فى الطريق ـ فكثيرا ما كان هذا يحدث ، فى تلك الايام ـ ثم ماتت أو اختفى أثرها فى مكان ما ، منسية .. مجرد رقم ـ دون اسم ـ فى قائمة نسى أمرها فيما بعد ، فى واحد من معسكرات الاعتقال المختلطة ، أو معسكرات الاعتقال النسوية ، التى لا حصر لها .. فى الشمال !**

الفصل السادس عشر نهاية المطاف



« وبينما كان جوردون يغسل ثيابه ، استطرد يروى لصديقه دودوروف : « .. كانوا يسمون فصيلتنا بفصيلة الموت . والواقع انها محيت تماما .. أما كيف قدر لى البقاء فهذا ما لست أدريه . ومع ذلك .. تصور ان كل هذا الجحيم المباشر ، لم يكن شيئا يذكر .. بل كان « نعيما » ، اذا قيس بأهوال معسكر الاعتقال !.. »

الفصل السادس عشر

نهاية المطاف

— ١ —

• **كان** جوردون — الذى رقى أخيرا الى رتبة الملازم — والميجور « دودوروف » عائدين الى وحدتيهما : الاول من مهمة رسمية فى موسكو ، والآخر من عطلة استغرقت ثلاثة أيام . وكان ذلك فى صيف سنة ١٩٤٣ ، عقب اختراق حصار (كورسك) ، وتحرير (أوريل) .

والتقيا فى الطريق ، فقضيا الليلة فى (تشيرنى) ، وهى بلدة صغيرة لم تكن قد دمرت تماما ، وان غدت أطلالا خربة ، كما كانت حال معظم الاماكن المأهولة فى هذه « المنطقة الصحراوية » ، التى تركت فى أعقاب الغزاة الالمان المتراجعين .

وبين أكوام الطوب المهشم ، والاحجار المسحوقة الى تراب رفيع ، وجدا مخزنا للغلال لم يصب بضر ، فاستقرا فيه ليقضيا ليلتهما . وما أن أغفى « دودوروف » أخيرا ، حوالى الساعة الثالثة صباحا — قبيل الفجر بقليل — حتى استيقظ سراعا ، على حركات « جوردون » المتململ المضطرب .. كان يغوص فى التبن الناعم ، ويخوض خلاله وكأنه فى ماء ، وقد جمع بعض الثياب فى حزمة ، وأخذ ينزلق فى ارتباك من قمة كثيب التبن ، نحو مدخل المخزن .

وسأله دودوروف : « الى أين تراك ذاهبا ؟ .. ان الوقت مبكر »

— اننى ذاهب الى النهر ، ابتغى غسل ثيابى .

— هذا جنون ، اذ أننا لن نلبث أن نكون فى وحدتنا حوالى المساء ، وسوف تعطيك « تانيا » — الفتاة الموكلة بالمغسل — غيارا نظيفا .. ففيم التعجل ؟

— لست أريد أن أنتظر حتى ذلك الحين ، فان الملابس قذرة ،

تنضح بالعرق . ولسوف أفركها بسرعة ، ثم اعصرها جيدا ، ولن تستغرق وقتا يذكر – فى هذا الحر – حتى تجف .. ومن ثم أستحم واستبدل ثيابى .

– انها مسألة غير مستحبة ، فأنت – على أية حال – ضابط !

– ان الوقت مبكر ، وليس ثمة انسان ما ، فالجميع نيام . ومهما يكن، فسوف أستتر وراء بعض الاشجار الكثيفة ، أو أى شىء آخر . ولن يرانى أحد . فكف عن الحديث ، وعد الى نومك، والا استكملت صحوك .

– الواقع اننى لن أنام ثانية ، بعد هذا .. سآتى معك !

وهكذا ذهبا الى النهر ، وتجاوزا الاحجار البيضاء المهدمة ، التى زادتها الشمس الحامية بياضا ، برغم انه لم يكن قد انقضى وقت يذكر على الشروق . كان النـــاس ينـامون على الارض ، تحت الشمس ، فى البقاع التى كانت شوارع يوما ما ، وقد سال عرقهم ، واحمرت وجوههم ، وارتفع غطيطهم . وكان أغلبهم من أهالى البلدة الذين فقدوا بيوتهم ، من كهول ونساء واطفال ، وبينهم حفنة من رجال الجيش الاحمر الذين فقدوا الاتصـــال بوحداتهم ، وكانوا يحاولون اللحاق بها .

وتجاوزهم « جوردون » و « دودوروف » ، وهما يختاران مواقع أقدامهما فى حـذر ، حتى لا يزعجـا نومهم .. وهمس جوردون لصاحبه : « خفض من صوتك والا أيقظت المدينة ، واذ ذاك فقل العفاء على غسيلى ! »

ومن ثم واصلا الحديث الذى بدآه فى الليلة السابقة ، بصوت خفيض .

– ٢ –

– ما هذا النهر ؟

– لست أدرى .. لعله نهر (زوشا) .

ـ لا ، ليس هذا (زوشا) .
ـ اذن فلست أدرى ما هو ..
ـ انك لتدرى أن على نهر (زوشا) جرى كل شىء .. أعنى مسألة « كريستينا » !
ـ أجل ، ولكن هذا حدث فى المجرى الادنى ولا بد .. ويقولون أن الكنيسة قد طوبتها .. هل قدر لك أن تعرف تفصيلات أخرى علاوة على ما نشر فى الصحف ؟

ـ لا ، فى الواقع . لقد كان ثمة مبنى حجرى قديم ، كانوا يطلقون عليه اسم « الحظائر » ، اذ كان يستعمل من قبل كحظائر لمزرعة لتربية الخيل .. وها قد قدر للاسم أن يسجل فى التاريخ .. انه مبنى جد عتيق ، ذو جدران ضخمة سميكة ، وقد حوله الالمان الى حصن، منيع .. وكان يقوم فوق تل ، فاستطاعوا أن يجعلوا المنطقة كلها تحت نيرانهم ، وأن يوقفوا تقدمنا فى الزحف . فلم يكن ثمة بد من هدمه . **وعلى ذلك ، استطاعت « كريستينا » ـ بمعجزة من معجزات الشجاعة والعبقرية ـ أن تصل الى داخل الصفوف الالمانية ، وأن تنسف المكان .. وقد أخذوها حية ، وشنقوها !**
ـ ولماذا تسميها « كريستينا أورليتسوفا » وليست « دودوروفا » ؟
ـ لقد كنا خطيبين فحسب ، كما تعلم . وقد قررنا فى صيف سنة ١٩٤١ أن نتزوج فى نهاية الحرب . ثم رحت أتنقل بعد ذلك فى كافة الارجاء مع الجيش ، اذ نقلت وحدتى عددا لا حصر له من المرات .. وفى سياق ذلك فقدت الاتصال بها ، ولم يقدر لى أن أراها ثانية البتة ، وان كنت سمعت عن بسالتها وعن ميتتها البطولية ـ كما سمع أى امرىء آخر ـ من الصحف ومن أوامر الجيش . ويقولون انهم سيقيمون نصبا تذكاريا لها فى بقعة قريبة من هنا . كما سمعت أن « جيفاجو » ـ الجنرال ، أخا «يورى» ـ

يطوف بالمنطقة ليجمع مزيدا من البيانات عنها .

— أرجو المعذرة .. فما كان ينبغى أن أسوقك الى الحديث عن هذا الامر . لقد كدرتك .

— لا ، ليس الامر كذلك .. على اننى لا اريد ان أعوقك ، فاخلع ثيابك ، وانزل الى الماء ، وقم بمهمتك . أما أنا فسأستلقى على الضفة ، وأمضغ عرقا من العشب وانصرف الى التفكير .. بل اننى قد انام قليلا .

وبعد لحظات قلائل ، شرعا يتجاذبان أطراف الحديث ثانية :

— أين تعلمت أن تغسل الثياب على هذا النحو ؟

— الضرورة أم الاختراع ! .. كنا منكودى الحظ ، وقد أرسلنا الى أسوأ معسكر تأديبى تقريبا ، حتى انه لم يعش منا سوى نفر ضئيل .. ولكن ، لنبدأ بالوصول .. هبطنا من القطار ، فاذا بنا فى صحراء جليدية ، وكانت ثمة غابة عن بعد ، وحراس ذوو بنادق شرعت فوهاتها نحونا ، وكلاب ضخمة « وولف » ! .. وجىء — فى الوقت ذاته تقريبا — بجماعات أخرى ، ووزعونا على المساحة كلها ، فتكون منا شكل هندسى عديد الاضلاع ، بحيث كانت وجوهنا الى الخارج ، حتى لا يرى كل منا الآخر . ثم أمرنا بأن نركع على ركبنا . وان نصوب أنظارنا الى الامام باستمرار ، وأنبئنا بأن الموت جزاء من يخالف .. ثم كان نداء الاسماء ، وهى عملية مهينة ، لا نهاية لها ، استمرت ساعات وساعات ، ونحن — طيلة الوقت — ركوع على ركبنا . ثم نهضنا ، وأمرت الجماعات الاخرى بالسير فى اتجاهات مختلفة . أما نحن ، فقد بقينا . وقيل لنا : « ها أنتم أولاء .. وهذا معسكركم ! » .. حقل فضاء ، مكشوف ، يكسوه الجليد ، وليس فيه سوى عمود قائم فى وسطه ، يحمل هذا البيان : « جولاج ٩٢ — ى . ن — ٩٠ » (١) ... وكان هذا كل ما هناك !

---

(١) Gulag : الأحرف الأولى من كلمات روسية ، معناها : « الادارة الرئيسية للمعسكرات » ، وهى احدى الادارات التابعة للمباحث والبوليس السياسى .

ـ أما نحن فان الامور لم تصل معنا الى هذا الحد من السوء ، فقد كنا أحسن حظا . وكنت أنا فى الواقع أقضى « ثانى » مدة لى فى المعتقلات ،وقد أعقبت الاولى من تلقاء ذاتها .. ثم ان الحكم صدر على وفقا لمادة أخرى ، ومن ثم فان الظروف كانت مختلفة (١) .. وعندما غادرت المعتقل ، رددت الى مكانتى ـ كما كنت فى أول مرة ـ وأبيح لى أن أستأنف القاء المحاضرات الدراسية . ثم دعيت للخدمة بالطريقة العادية ، فلم ألحق بكتيبة تأديبية مثلك !

ـ أجل .. المهم انه لم يكن هناك سوى العمود ، واللوحة التى تحمل : « جولاج ٩٢ ـ ى . ن ـ ٩٠ » . ورحنا ـ فى بادىء الامر ـ نكسر الشجيرات بأيدينا ، فى الصقيع ، لنحصل على خشب لنشيد أكواخنا . وسواء صدقتنى أم لم تصدقنى ، فأننا بنينا معسكرنا بأيدينا ، فى النهاية ! .. أقمنا سجننا ، والسياج المحيط به ، و « زنزانات » العقاب ، وأبراج مراقبتنا .. كل هذه بأيدينا نحن ! .. ثم شرعنا فى العمل الذى فرض علينا ، وهو قطع الاخشاب . فكنا نقتطع الاشجار ، وكنا نربط أنفسنا كالخيل ـ كل ثمانية الى زحافة ـ ونجر الخشب الغفل ، ونغوص فى الجليد حتى رقابنا .. ولقد مكثنا زمنا لا ندرى انه كانت ثمة حرب ، اذ أخفوا عنا ذلك . ثم جاءنا هذا العرض بغتة : قالوا لنا ان بوسعنا أن نتطوع للخدمة فى خط الجبهة ، فى احدى الكتائب التأديبية ، فاذا قدر للواحد منا أن يخرج من الحرب حيا ، صار حرا ! .. وتلا ذلك هجوم أثر هجوم ، وميل بعد ميل من الاسلاك الشائكة المكهربة ، والالغام ، والمدافع الثقيلة .. وشهر بعد شهر تحت ستار من قذائف المدفعية . وكانوا يسمون فصيلتنا بفصيلة الموت . والواقع

---

(١) من الواضح أن « دودوروف » و « جوردون » كانا قد عوقبا لجرائم سياسية . ولكن شدة العقاب كانت تتوقف على مادة قانون الجنايات التى خضع لها الاتهام الذى وجه الى كل منهما فى التطهير . وكانت أقسى عقوبة من نصيب من يقع اتهامه تحت المادة ٥٨ ، الخاصة بالدعاية ضد نظام الحكم ، وبأعمال التخريب ، والارهاب .. الخ.

انها محيت تماما .. أما كيف قدر لى البقاء ، فهذا ما لست أدريه . ومع ذلك .. تصور أن كل هذا الجحيم المباشر ، لم يكن شيئا يذكر .. بل كان « نعيما » ، اذا قيس بأهوال معسكر الاعتقال ! .. ولم يكن ذلك من جراء الاحوال المادية ، وانما كان لاسباب أخرى !

ــ حقا .. انك خضت كثيرا من المحن !

ــ لم يكن غسيل الثياب هو كل ما تعلمناه هناك .. وانما كنا نتعلم كل ما يمكن أن يتعلمه المرء !

ــ انه لشىء غريب حقا ، لا بالنسبة لحياتك كسجين فحسب ، وانما بالنسبة لكل شىء فى العقد الرابع من هذا القرن ، بل بالنسبة لظروفى المواتية فى الجامعة ، وسط الكتب والمال والرفاهية .. ذلك انه حتى بالنسبة لى هناك ، جاءت الحرب أشبه بنسمة عليلة .. ببشرى للخلاص .. بموجة مطهرة !

« اننى أرى أن الحركة الجماعية كانت خطأ وفشلا فى آن واحد . ولما لم يكن من الممكن الاقرار بذلك ، **فقد كان من الضرورى استخدام كل وسيلة للتخويف والارهاب ، لحمل الناس على أن ينسوا كيف يفكرون ويحكمون ــ بينهم وبين أنفسهم ــ ولغصبهم على أن يروا ما لم يكن له وجود ، وعلى أن يقنعوا أنفسهم بعكس ما كانت أعينهم تحدثهم به** . ومن هنا كانت قسوة ارهاب « ايجوف » التى لا مثيل لها ، واعلان دستور لم تكن ثمة نية البتة لتطبيقه ، وعقد انتخابات لم تكن قائمة على مبدأ التصويت الحر !

« وعندما نشبت الحرب ، كانت فظائعها الحقيقية ، وأخطارها الواقعية ، وما كانت تهدد به من موت فعلى .. كل هذه كانت نعمة اذا قيست بما كان للكذب من سلطان لا يمت الى الانسانية بصلة .. كانت مبعث راحة ، لانها حطمت سحر الحروف الجامدة ! (١)

---

(١) الحروف الجامدة يقصد بها دعاية السلطات السوفييتية التى قامت على تمويه الحقائق على الشعب .

« ولم يكن هذا محسوسا لدى رجال فى مثل مركزك ــ فى معسكرات الاعتقال ــ فحسب ، وانما لدى كل امرىء بلا استثناء ، سواء فى الوطن أو فى الجبهة . فتنفس الجميع الصعداء، وألقوا بأنفسهم فى أتون ذلك الصراع المميت ، المحرر ، باغتباط وابتهاج حقيقيين !

« أن للحرب طابعها الخاص ، كحلقة فى سلسلة العقود (١) الثورية . فهى تبين نهاية المفعول المباشر للاسباب الكامنة فى طبيعة الانتفاضة ذاتها .. وقد أصبحت ــ الآن ــ ثمة أسباب ثانوية تعمل ، فنحن نرى ثمرة ثمرتها ، ونتيجة نتائجها .. شخصيات ذللها النحس والمحن ، فهى غير مفسودة ، ذات بسالة وبطولة ، مستعدة للقيام بأعمال جليلة ، مستبسلة لم يسمع لها بمثيل .. هذه الصفات الاسطورية ، المدهشة ، هى مظهر ازدهار هذا الجيل.

« اننى حين أرى مثل هذه الاشياء ، أفعم بالسعادة ، بالرغم من استشهاد كريستينا ، وخسائرنا ، وجراحى .. وبالرغم من الثمن الفادح الذى دفعناه للحرب من دمائنا .. ان رؤية ضوء التضحية بالنفس ، الذى ينير ميتة أورليستوفا وحياتنا جميعا ، يساعدنا على احتمال ما منيت به بفقدها !

« لقد اطلق سراحى عندما كنت أنت ــ أيها الصديق المسكين ــ تعانى كل هذا العذاب .. ولم تلبث « كريستينا » أن وفدت على الجامعة ــ بعد ذلك بقليل ــ لتدرس التاريخ ، فصرت أدرس لها .. وكنت قد انتبهت اليها ــ كفتاة رائعة ــ قبل ذلك بزمن طويل ، عندما كانت بعد طفلة ، فى نهاية المدة الاولى التى قضيتها فى السجن .. ولعلك تذكر ، فقد أخبرتك انت و « يورى » ــ وكان لا يزال على قيد الحياة ــ ومهما يكن الامر ، فقد أصبحت كريستينا من تلاميذى .

---

(١) العقد : عشر سنوات .

« تلك كانت الفترة التى بدأت فيها بدعة انتقاد الطلبة أساتذتهم . فأصبحت « كريستينا » أشد المتحمسين لذمى ، ولم أستطع أن اتصور ما ارتكبت حتىاثيرها بهذه الضراوة ! .. كانت شديدة التهجم ، غير منصفة ، حتى أن الطلبة الآخرين كانوا يحتجون ويدافعون عنى ، فى بعض الاحيان . وكانت على قدر كبير من روح الفكاهة ، فكانت تغتبط ايما اغتباط بالتفكه بى والسخرية منى فى « صحيفة الحائط » ، مطلقة على أسماء مبتكرة كان كل امرىء يدرك اننى المقصود بها ! .. **ثم تبينت فجأة ـ وبمحض المصادفة المطلقة ـ ان هذا العداء العميق ، لم يكن سوى ستار لحبها إياى .. حبا قويا ، راسخا ، كانت قد أحست به منذ زمن طويل ، وكنت أقابل عداءها دائما بمثله ، دون أن أعرف انها كانت تحبنى !**

« وقضينا صيفا بديعا فى سنة ١٩٤١ ، قبيلوبعيد بداية الحرب مباشرة .. وكانت كريستينا ، ضمن فريق من الطلبة ـ رجالا ونساء ـ جندوا فى احدى ضواحى موسكو ، حيث كانت وحدتى معسكرة كذلك . وبدأت صداقتنا ، وأخذت تجرى فى مجراها ، فى جو من تدريبهم العسكرى . وكان العمل يجرى فى تكوين وحدات الحرس الوطنى فى الضواحى ، فراحت كريستينا تتدرب لتكون فى فرق المظلات .. وكان الغزاة الالمان الاوائل يصادون من فوق سطوح بيوت موسكو ، ويصدون .. وفى تلك الآونة أصبحنا خطيبين ـ كما قلت لك ـ ولكننا اضطررنا الى أن نفترق بعد ذلك مباشرة ، لان كتيبتى نقلت .. ولم أرها ثانية اطلاقا !

« وبعد ذلك ـ عندما كانت الامور تتحسن بالنسبة لنا ، وكان الالمان يتراجعون بالآلاف ـ نقلت من القوات المضادة للطائرات ، بعد أن كنت قد جرحت مرتين ، الى أركان حرب الفرقة السابعة ، حيث كانوا بحاجة الى من يعرفون اللغات . وهذا هو الذى مكننى من أن أدبر أمر قبولك ، بعد أن كنت قد اصطدتك من قاع البحر! »

ـ ان « تانيا » ، عاملة المغسل ، كانت صديقة لكريستينا . فقد

تعارفتا فى الجبهة . وهى كثيرة الحديث عنها .. هل لاحظت كيف تبتسم « تانيا » ، الابتسامة التى تشيع فى كل وجهها ـ على نسق يورى ؟ .. أراك نسيت الانف الافطس ، والوجنتين البارزتين ، فأنت تظنها جميلة جذابة .. انها من عين الطراز الروسى الذى كان ينتمى اليه يورى ، والذى تصادفه فى كل مكان .

ـ أعرف ما الذى تعنيه .. لا ، لم ألاحظ شيئا .

ـ يا له من اسم بربرى ، شنيع .. « تانيا المنبوذة » .. ليس من المحتمل انه كان اسمها الاصلى . وانى لاتساءل ، كيف التقت به ؟

ـ لقد أخبرتنا بذلك .. كانت طفلة ضالة ، غير معروفة الوالدين (١) ، أطلقوا عليها « بيزوشيريدنايا »(٢) ـ وهو تحريف لـ « بيزوتشايا » ، بمعنى « بلا أب » ـ وكان ذلك حيث نشأت ، فى مكان ما فى أعماق الريف ، وحيث لا تزال اللغة نقية صريحة . ثم تحول الاسم فى المدينة ـ حيث لم يبد مفهوما ، وحيث يلتقط كل شىء فيصقل ـ الى اسم أكثر تمشيا مع الاحداث ، واصطباغا برواء المدينة ! (٣)

ـ ٣ ـ

• قدر لجوردون ودودوروف ـ بعد هذا الحديث بفترة من الزمن ـ أن يكونا فى بلدة (كاراتشيف) ، التى كانت قد دكت دكا . وكانا لايزالان يلاحقان وحدتهما ، وقد وجدا فى (كاراتشيف)

---

(١) انتشر فى أرجاء روسيا فى فترات ـ مثل الفترة بين سنتى ١٩٢٢ و١٩٢٥ ـ وفى أعقاب حملة نشر المزارع الجماعية ، فى سنة ١٩٣٢ ، جماعات من الأطفال المشردين ، الذين قتل أهلوهم فى الحرب الأهلية ، أو اختفوا فى حركات التطهير .. فكانوا من المشكلات الخطيرة التى صادفت نظام الحكم هناك .

(٢) منبوذة ، أو مهملة .. أى لقيطة .

(٣) المقصود بهذا ان الفتاة كانت تدعى فى الريف ـ حيث الصراحة ـ « تانيا اللقيطة » ، فلما وفدت الى المدينة ، هذب اسمها الى « تانيا المنبوذة »

بعض فلول المؤخرة التى كانت تلحق بالقوة الرئيسية .

وكان الصيف قائظا ، وقد ظل الجو خفيفا وراكدا لاكثر من شهر . وكانت الارض السوداء تمتد ـ وقد أرهقها الحر ـ تحت سماء زرقاء ، خالية من السحب .. أرض (بريانشتشينا) ـ المنطقة ذات الخصب المبارك ، بين (أوريل) و (بريانسك) ـ التى حرقتها الشمس فأحالت لونها بنيا ، أشبه بلون « الشيكولاتة » .

وكان الشارع الرئيسى يشق البلدة ، ويتصل فى نهايته بطريق السيارات الضاربة فى الريف ، وقد قامت على احد جانبيه دور نسفت وتحولت ـ بفعل الالغام ـ الى ركامات من فضلات البناء . وكانت هذه الاطلال محوطة بأشجار البساتين التى مسحت عن وجه الارض ، وقد انتزعت من جذورها ، فتطايرت أجزاء منها ، واحترقت أخشابها .. أما قطع الارض الخلاء ـ على الجانب الآخر من الشارع ـ فمن المحتمل أنه لم تقم عليها مبان أصلا ، ومن ثم فان النار والخراب تجاوزا عنها ، اذ لم يكن فيها ما يلتهمانه !

وكان السكان المشردون ينقبون فى الرماد الذى لا يزال يتلظى ـ فى الجانب الذى كانت فيه المنازل من قبل ـ يلتقطون كل ما يمكن التقاطه من مختلف أركان الخرائب ، ويجمعونها كلها فى مكان واحد . بينما كان سواهم يحفرون ـ فى عجلة ـ خنادق ليقيموا فيها مأوى تحت سطح الارض ، ويقطعون حزما من الحشائش ليتخذوا منها سقوفا .

أما البقاع الفضاء ـ على الجانب الآخر من الشارع فقد ابيض لونها بما تناثر عليها من خيام ، وازدحمت بسيارات النقل والعربات التى تجرها الخيل ، والتى تنتمى الى كافة أنواع الخدمات المساعدة .. فكانت ثمة مركبات اسعاف ، من وحدات الميدان ، قد ضلت عن فرقها ، وأقسام من كل ادارات المهمات الحربية ، وقد امتزج أفرادها بعضهم ببعض ، وغاصوا وسط الخيام ، ثم راح كل فريق يحاول أن يلم شمل أفراده .. وهنا أيضا كان ثمة فتيان ـ من

فصائل التعزيزات والاستحكامات ــ عجاف ، أشبه بعروق العشب ، ذوو قلنسوات فى لون التبن الاسمر ، ومعاطف ثقيلة طووها فوق ظهورهم ، ووجوه مغبرة ، أهزلتها الديسنطاريا وامتصت دماءها . وقد تخففوا من أمتعتهم ، وناموا ، وحظوا بأكل خفيف ، قبل أن يواصلوا سعيهم صوب الغرب .

وكان نصف البلدة المنسوفة ، الممزقة ، لا يزال يحترق ، والانفجارات لا تزال تتردد فى الفضاء حيث كانت الالغام البطيئة المفعول .. فكان القوم المنهمكون فى الحفر والتنقيب يشعرون ــ بين آن وآخر ــ بموجات الاهتزازات الناجمة عن الانفجارات ، تحت أقدامهم ، فيعتدلون فى وقفتهم ، ويستندون الى معاولهم ، ويستريحون وهم يتلفتون وينظرون ناحية الانفجار .

هناك كانت سحب من دخان بلون الطوب الاحمر ، يشوبه اسمرار وسواد ، ولهب وشظايا أحجار تتصاعد الى السماء فى اندفاع النافورات ــ فى بادىء الامر ــ ثم بمزيد من التكاسل ، كأنها



« أما البقاع الفضاء فقد ابيض لونها بما تناثر عليها من خيام ، وازدحمت بالسيارات والعربات .. »

قاذورات ترتفع متثاقلة عن الارض ، ثم بانفـراج وانتشـار كأنها مروحة يتفتح ريشها ويتباعد ، ولم تلبث أن تبعثرت فى النهاية ، وهوت عائدة الى الارض .. واذ ذاك عاد الذين كانوا يحفرون الى الحفر .

* * *

وبين البقاع الخلاء المواجهة للخرائب ، كان ثمة حقل يحف به سياج ، وتطل عليه أشجار ضخمة ، وارفة ، وقد لاح الحقل ــ فى ظلال الاشجار ، ونطاق السياج ــ كما لو انه ساحة مسقوفة فصلت عن بقية الدنيا ، ظليلة ، عليلة ، تملأها عتمة خفيفة ، وتتوفر فيها الخلوة .. وهنا كانت « تانيا » عاملة المغسل ، وعدة أفراد آخرين من الكتيبة بينهم دودوروف وجوردون ، ينتظرون منذ الصباح سيارة النقل التى أرسلت لنقل الفتاة .. وكان غسيل الكتيبه الموكول اليها محزوما فى صناديق وضع كل منها فوق الآخر فى الحقل . وكانت « تانيا » تراقب هذه الصناديق بيقظة ، دون أن تبتعد عنها خطوة واحدة .. وكذلك كانت بقية الثلة لا تحول أعينها عنها ، خشية أن تفوتها فرصة الانتقال فى السيارة !

وطال بهم الانتظار الى أكثر من خمس ساعات . واذ لم يكن لديهم ما يشغلهم ، فقد أقبلوا ينصتون الى الفتاة التى رات فى حياتها كثيرا من الامور ، والتى كانت تثرثر دون انقطاع . وكانت فى تلك اللحظة تروى لهم كيف التقت بالميجر جنرال جيفاجو (١) :

ــ لقد قابلته فعلا ، وكان ذلك بالامس . فلقد أخذونى شخصيا لاقابل القائد ، الميجر جنرال جيفاجو نفسه ! .. كان يمر بهذه المنطقة ، وكان مهتما بكريستينا ، وقد وجه الى أسئلة عنها .. كان راغبا فى أن يرى شهود عيان عرفوها فى حياتها ، ولذلك ذكرونى لديه ، وقالوا اننا كنا صديقتين ، فطلب اليهم أن يحضرونى اليه ،

---

(١) أخو « الدكتور جيفاجو » غير الشقيق .

ومن ثم جاءوا يستدعونني .. ولم يكن مخيفا فى شيء ، وما من شيء خاص يميز شخصيته ، فهو كأى شخص آخر ! .. وله عينان منحرفتان ، وشعر أسود . المهم فى الامر ، اننى أخبرته بكل ما كنت أعرف . وأصغى الى حتى انتهيت ، فشكرنى وقال لى : « ومن أنت ؟ .. من أين قدمت ؟ » .. ومن الطبيعى اننى لم أكن أعتزم أن أنبئه ، اذ ما الذى لدى حتى أزهو به ؟ .. اننى شريدة – كما تعلمون – ترددت على الاصلاحيات ، ولم يستقر بى المقام يوما فى مكان . ولكنه لم يشأ أن يدعنى وشأنى ، بل قال : « هيا تكلمى ، ولا تدعى الحياء يغلبك ، فليس ثمة ما تخجلين منه » .. حسنا ، لم ألبث – فى بادىء الامر – أن ذكرت له كلمة أو اثنتين ، فى غمرة الخجل .. ثم أفضيت له بقليل من البيانات الاخرى ، فظل يهز رأسه وكأنه يقول لى : « امضى فى حديثك ! » ، ولهذا ازددت اقداما . والحق ان لدى الكثير مما يقال .. وما أراكم تصدقون لو اننى قلته لكم ، بل أحسبكم ستقولون : « انها تتظاهر بما ليس لها ! » .. حسنا ، لقد كان هذا الشأن معه هو الآخر . وعندما فرغت ، نهض وراح يذرع أرض الكوخ ، ثم قال : « سبحان الله ! .. ليس لدى متسع من الوقت الآن ، ولكنى سأستدعيك مرة أخرى .. ثقى من هذا ، سأطلبك وسأستدعيك ثانية .. ما تصورت قط اننى سأسمع مثل هذا ! .. لن أدعك هنا ، ولكننى مضطر الى أن أتحرى بعض بيانات فلائل . ثم ، من يدرى ؟ .. قد أجدنى مسوقا الى أن أعلن اننى عمك ، فيرقى شأنك اذ تصبحين ابنة أخ القائد ! .. وسوف أرسلك للدراسة وأوفر لك وسائل التعلم ، فى أى معهد شئت ! » .. أشهد الله على أن هذا كان ما قاله .. يا له من رجل يجيد الضحك والمداعبة !

وفى تلك اللحظة ، أقبلت على الحقل عربة طويلة ، فارغة ، ذات جوانب مرتفعة ، من ذلك النوع الذى يستخدم فى نقل التبن فى بولندا وغربى روسيا .. وكان يقود الجوادين – الملجمين الى ذراعى العربة –

جندى من سلاح النقل بالجياد ، ممن كانوا يسمون فى ماضى الايام « حوذية العلف » .. فأوقف الجوادين ، وقفز من مجلسه ، وشرع يفك جوانب المركبة . والتف كل امرىء حوله ـ اللهم الا « تانيا » وجندى أو اثنان ـ وراحوا يلحون عليه أن يقلهم الى حيث كانوا ماضين ، ذاكرين له ـ بطبيعة الحال ـ انهم كفيلون بارضائه ! .. بيد أن الحوذى رفض ، قائلا انه لم يكن يملك أن يستخدم العربة أو الجوادين الا فيما أمر به . وقاد الجوادين بعيدا ، ثم اختفى عن الانظار .

وصعدت « تانيا » والجنود ـ الذين كانوا حتى ذلك الحين جلوسا على الارض ـ الى العربة الخالية ، التى تركت فى الحقل .. واستؤنف الحديث الذى كان وصول العربة والمساومة مع الحوذى قد قطعاه ، فقال جوردون سائلا تانيا : « وماذا قلت للجنرال ؟ .. انبئينا ، اذا كان هذا فى وسعك ! »

ومن ثم ، روت لهم قصتها الرهيبة !

ـ ٤ ـ

• ـ أجل، انه لحق أن لدى الكثيرمما يقال .. فهم يقولون اننى من أصل رفيع .. ولست أدرى ما اذا كان الذين انبأونى بهذا أغرابا ، أم اننى كنت أطوى عليه صدرى .. بيد اننى سمعت أن أمى ـ الرئيسة كوماروفا (١) ـ كانت زوجة وزير روسى ، هو الرفيق كوماروف ، الذى كان مختفيا فى منغوليا البيضاء .. بيد انه يلوح أن هذا الـ « كوماروف » لم يكن أبى الحقيقى .. ولا أنكر طبعا اننى لست فتاة متعلمة ، واننى نشأت يتيمة ، بلا أم ولا أب . وقد يبدو لكم ما أقول طريفا ، غريبا ، ولكنى لا أروى سوى ما

---

(١) الكلمة التى وردت فى الترجمة الانجليزية هى Raissa نقلا عن اللفظ الروسى ، الذى يبدو انه تسرب الى اللغة الروسية من اللغة العربية ، وانه أخذ بمعناه: كبيرة القوم .. أو زوجة رئيس القوم أو أحد الزعماء .

أعرف .. وضعوا أنفسكم فى مكانى لتقدروه !

« رلقد جرى كل شىء فيما وراء (كروشيتسى) ، فى الطرف الاقصى من (سيبيريا) ، خلف حدود بلاد القوزاق ، وبالقرب من الحدود الصينية .. فعندما دخلنا ـ أقصد الحمر ـ الى البلدة الرئيسية للبيض ، وضع ذلك الـ « كوماروف » ـ الوزير ـ أمى وجميع خدمها وأهل دارهما فى قطار خاص ، وأمر بنقلهم بعيدا .. وكانت أمى خائفة ، اذ انها ـ كما ينبغى أن تعلموا ـ لم تكن تجسر على الانتقال خطوة بدونه .

« أما أنا ، فلم يكن كوماروف يدرى عنى شيئا .. لم يكن يعرف أن ثمة شخصا ـ هو أنا ـ على الاطلاق . اذ أن أمى انجبتنى بعد ان كانت قد افترقت عنه أمدا طويلا ، فكانت فى خوف مميت من أن يزل لسان امرىء ما ، فيسمع بأمرى .. وكان يكره الاطفال ، ويصرخ ويدق الارض بقدميه حين يراهم . وكان يصيح : « انهم لا يجلبون على البيت سوى القذارة والازعاج .. اننى لا أطيقهم ! »

« حسنا ، ايجازا للقول ، اذكر ان امى بعثت رسولا الى محطة (ناجورنايا) ـ حين شرع الحمر يدخلون البلدة ، كما ذكرت ـ تطلب « مارفا » ، عاملة الاشارة بالسكة الحديدية .. وكانت تلك المحطة على مبعدة ثلاث محطات من البلدة . وسأذكر لكم كيف كان ترتيبها .. كانت هناك ـ أولا ـ (نيزوفايا) ، التى تقوم فى الوادى ، ثم (ناجورنايا) التى كانت فى أعلى التل ، ثم كان هناك ممر (سمسون) .. وهنا ، يخيل الى اننى أدرك سبب معرفة أمى لهذه المرأة عاملة الاشارة .. اذ أظن أن عاملة الاشارة « مارفا » اعتادت أن تفد على البلدة لتبيع فيها اللبن والخضر . أجل ، لا بد أن الامر كان كذلك ..

« واعتقد أن هناك شيئا لا أعرفه .. ويلوح لى أنهم خدعوا ماما ولم ينبئوها بالحقيقة . ولا يعلم سوى الرب أية قصة رووها لها ، واحسبهم قالوا أن الامر كان لأمد وجيز ، مجرد يوم أو اثنين ..

ريثما ينتهي الاضطراب ، وتستقر الامور فحسب ! .. ولكنهم لم يقولوا لها انني كنت سأعطى للاغراب الى الابد .. سأربى بين أغراب . فما كانت ماما لتتخلى عن طفلتها – التي من لحمها ودمها – على هذا النحو !

« وبعد ، فأنتم تدركون كيف يسهل التحايل على طفلة .. « اذهبي فكلمي الخالة .. لسوف تعطيك حلوى ، هذه الخالة الرقيقة .. لا تخافي الخالة ! » . لكم بكيت بعد ذلك حتى نضب معين عيني ! .. وكم أرهقت قلبي بالشقاء ، وأنا طفلة ! .. يحسن أن لا أشرع في الحديث اليكم عن هذا .. لقد اردت ان اشنق نفسي ، بل اوشكت ان افقد عقلي وانا طفلة صغيرة . هكذا كنت طيلة الوقت .. واحسب أن الخالة « مارفا » كانت تحصل على نقود لتكفلني .. مبلغ كبير !

« وكانت للخالة مارفا مزرعة الى جانب العمل في اشارات السكك الحديدية ، وبقرة وحصان وكافة أنواع الدواجن طبعا ، ورقعة كبيرة لزراعة الخضر .. فهناك كان بوسعكم أن تحصلوا على قدر ما تودون من الارض .. ولم تكن تدفع ايجارا بطبيعة الحال ، وكان لها كوخ حكومي بالقرب من السكة الحديدية . وعندما كان القطار يفد من ناحية موطني ، كان يتسلق التل بعناء ، اذ كان هذا شديد الانحدار .. أما حين كان يفد من بقاعكم – من روسيا – فانه كان ينحدر بسرعة كبيرة ، حتى لقد كانوا يضطرون الى استعمال « الفرامل » .. وفي الخريف ، كان باستطاعتكم حين تخف كثافة الغابات أن تروا محطة (نيزوفايا) ، كأنها طبق صغير .

« وكان العم فاسيا ، هو زوج الخالة مارفا .. وقد اعتدت أن أناديه « بابا » ، على عادة الفلاحين . وكان رجلا كريما ، بشوشا ، ولكنه كان صريحا الى حد فظيع ، لا سيما حين كان يثمل .. فكان كل امرىء يعرف كل ما يمكن أن يعرف عنه . كان يفتح أبواب قلبه لكل غريب يلقاه !

« ولكننى لم أستطع اطلاقا أن أدعو عاملة الاشارة « ماما » .. سواء لاننى لم أكن أقوى على نسيان امى الحقيقية ، او لسبب آخر .. ولكنها كانت فظيعة .. كانت فظيعة حقا . ومن ثم فاننى كنت أدعوها « الخالة مارفا » ..

* * *

« **وهكذا** مضى الزمن ، وتوالت السنون ، وان كنت لا أدرى كم سنة .. وبدأت أهرع لالوح براية الاشارة للقطارات ، وأصبحت أقوى على ان اقود البقرة الى الحظيرة ، او ان افك سرج الحصان .. وعلمتنى الخالة مارفا كيف أغزل .. اما عمل البيت ، فلا حاجة بى الى القول بأننى كنت أقوم به .. أى شىء من قبيل الكنس ، والتنظيف ، أو انجاز بعض الطهو .. كل هذا لم يعد شيئا عسيرا على ، فكنت أؤدى هذه الاعمال جميعا . آه ، أجل .. لقد نسيت أن انبئكم بأننى كنت مكلفة ايضا بالعناية بالطفل « بتيا » .. كان عزيزنا « بتيا » ذا ساقين متقلصتين ، وكان فى الثالثة ، بيد أنه لم يكن يقوى على المشى اطلاقا ، فكنت أحمله طيلة الوقت .. **ان الرجفة لا تزال تسرى فى ظهرى - برغم انقضاء كل هذه السنين - حين أتذكر كم كانت « الخالة مارفا » ترمق ساقى وكأنها تريد أن تتساءل : لماذا لم تكن ساقاى متقلصتين معوجتين ، وانه كان من الافضل أن تكون ساقاى هما المتقلصتان ، بدلا من ساقى طفلها « بتيا » . كأنما كنت أنا التى نكبته بالنحس !** .. فهل تستطيعون أن تصدقوا أن ثمة أناسا فى الدنيا بغيضون ومتأخرون الى هذا الحد ؟

« ولكن ، انصتوا الآن الى ما سوف أقوله لكم .. كل هذا لم يكن شيئا يذكر الى جانب ما حدث فيما بعد .. لسوف تدهشون !

« كان ذلك فى عهد السياسة الاقتصادية الجديدة (١) ، والالف

---

(١) برنامج الاصلاح الاقتصادى السوفييتى ، الذى اعلنه « لينين » فى سنة ١٩٢١

روبل لا تساوى فى قيمتها « كوبيك » واحدا .. وقد باع العم فاسيا بقرة فى (نيزوفايا) ، وحصل على زكيبتين مليئتين بالنقود التى كانوا يسمونها « كيرينسكى » .. لا ، آسفة ، فقد كانوا يسمونها «الليمون» (١) اذ ذاك..أجل ، هكذا كانوا يسمونها.وقد سكر العم فاسيا ،وراح يحدث كل امرىء فى (ناجورنايا) عن مدى ثرائه !

« واذكر انه كان يوما شديد الريح ، من أيام الخريف .. وكانت الريح تعصف بالسقف ، وتكاد ترفعك عن الارض ، فلم تستطع القطارات أن تصعد التل ، لان الريح كانت عكس اتجاهها ! .. وفجأة ، اذا بى أرى عجوزا متسولة تهبط من فوق التل ، والريح تملأ ذيل ثوبها ، وتعبث بمنديلها .. وكانت تسير وهى تئن وتتوجع ، وقد شدت يديها الى بطنها ..

« وسألتنا أن ندخلها لدينا ، فدعوناها ، وأجلسناها على مقعد خشبى . وراحت تصرخ : « أواه ، لا أستطيع ان احتمل .. ان النار تدب فى بطنى . ان الموت يهاجمنى .. خذونى الى المستشفى بحق المسيح ، وسأدفع لكم ما تشاءون ! » .. وعمد « بابا » الى الجواد « أودالوى » فشده الى العربة .. ووضع العجوز فى العربة ، وأقلها خمسة عشر فرسخا ، الى المستشفى .

« وبعد ساعات ، ذهبنا الى الفراش ـ أنا والخالة مارفا ـ ولكنا لم نلبث ان سمعنا « أودالوى » يصهل فى الخارج ، والعربة تدرج الى الفناء .. وبدا أنهما عادا فى وقت أقصر مما كانت تستغرقه العودة . بيد أن الخالة مارفا لم تجد بدا من أن تشعل المصباح، وأن ترتدى سترتها ، وترفع مزلاج الباب ، دون أن تنتظر « بابا » حتى يطرقه ..

« وفتحت الباب ، ولكن « بابا » لم يكن الواقف بالباب ، وانما

---

(١) تحريف عامى لكلمة « مليون » .. وكان لفظ « ليمون » يطلق على الورق النقدى الذى تعادل قيمته مليون روبل ، فى أوج التضخم المالى .

كان الواقف رجلا غريبا ، أسمر ، رهيبا ، قال : « أرنى أين النقود التى حصلتم عليها ثمنا للبقرة ! .. لقد قتلت رجلك الكهل فى الغابة ، ولكننى ـ نظرا لانك امرأة ـ سأبقى عليك ، اذا انت أخبرتنى اين النقود .. فاذا لم تخبرينى ، فأنت تعرفين ما سوف يجرى ، ولن تلومى الا نفسك .. ويحسن أن لا تستبقينى فى الانتظار ، فليس لدى وقت للتلكؤ ! »

« فيا لله القدير أيها الرفاق .. ضعوا أنفسكم فى مكاننا ، وتصوروا الحال التى صرنا عليها ! .. رحنا نرتجف من رأسينا الى أقدامنا ، وقد كدنا نموت فزعا ، ولم نستطع أن ننطق بكلمة واحدة .. يالها من أهوال ! .. فأولا ، كان انعم فاسيا قد قتل ، اذ قال الرجل ذلك بنفسه .. قال انه قتله بفأس .. وأصبحنا وحيدتين أمامه ، وحيدتين فى البيت مع قاطع طريق .. قاطع طريق فى دارنا .. وكان بوسعنا أن نرى انه قاطع طريق !

* * *

« وأحسب أن عقل الخالة مارفا قد طاش فى تلك اللحظة ، اذ انكسر قلبها من أجل زوجها ، دون أن تقوى على اظهار حزنها ..

« وارتمت ـ اولا ـ على قدميه ، وهى تقول : « ارحمنى ، ولا تقتلنى ، فلست أعرف شيئا .. أبدا لم أسمع عن أية نقود .. لست أدرى أية نقود تتحدث عنها » .. ولكنه لم يكن ليخدع بهذا ، فما كان بالاحمق المغفل .. ذلك الشيطان ! .. وتحولت تقول له « ليكن ، اذن .. ان النقود فى السرداب ، وسأفتح لك بابه ! » .. ولكنه فطن الى ذلك ، فقال : « لا ، بل ستهبطين أنت ، فانك تعرفين السبيل ، وعليك أن تحضرى النقود .. لست آبه اذا هبطت الى القبو أو صعدت الى السقف ، فكل ما ابتغيه هو النقود .. ولكن ، حذار من أن تحاولى أن تغررى بى ، فلن يجديك أن تحاولى استغفالى ! »

« واذ ذاك قالت له : « معاذ الله أن تكون لديك مثل هذه الشكوك . انني على استعداد لان أهبط عن طيب خاطر ، وأن أحضرها لك بنفسي ، لولا أن ساقي لا تكادان تحملاني ، ولست أستطيع هبوط السلم .. سأقف على الدرجة العليا ، أحمل لك المصباح . لاتخش شرا ، فسوف أرسل ابنتي لتهبط معك ! » .. هكذا قالت ، وكنت أنا المقصودة بقولها . أواه ، أيها الرفاق ! .. هل بوسعكم أن تتصوروا ما اصابني حين سمعت ذلك ؟ .. الحق انني قلت في نفسي أن نهايتي قد حانت ، فاسود كل شيء في عيني ، ولم تعد ساقاي تقويان على حملي ، فخيل الى أنني أوشك أن أخر على الارض !

« ولكن الشيطان كان يقظا ، حاضر البديهة ، فنظر الى كل منا ، ثم أجال انسانى عينيه في محجريهما ، ورمقها بنظرة خبيثة ، فيها شيء من السخرية ، وكأنه يقول : « انني أعرف حيلك ، فلن تستطيعي أن تغرري بي ! » . **فلقد استطاع ان يتبين انني لم أكن أعنى شيئا لها ، لم أكن من دمها ولحمها ، ومن ثم فقد أمسك بتلابيب « بتيا » ، ورفعه بأحدى يديه ، وجذب باب القبو بيده الاخرى . وقال لها : « آتينا بنور ! » . ثم هبط .. نزل السلم الى جوف الارض . ومعه « بتيا » ..**

« واعتقد أنها فقدت عقلها تماما ، ولم تعد تفقه شيئا .. لقد جنت تماما ! .. وما أن هبط الرجل مع « بتيا » الصغير ، حتى دفعت باب القبو بعنف ، واحكمت رتاج بابه ، وشرعت تزحزح حقيبة ثقيلة لتضعها فوقه (١) ، وهي تومىء الى وتشير كى أساعدها ، لان الحقيبة كانت مفرطة الثقل .. واستطاعت أن تجعلها فوق الباب ، ثم جلست فوقها .. وما كان أشد سرور العجوز المخبولة ، اذ ذاك !

---

(١) يلاحظ أن باب القبو كان في أرض المبنى ، ويفتح الى اعلى ، فاذا اغلق كان في مستوى الأرضية .

« وما أن جلست ، حتى راح الشرير يصرخ ويدق سقف القبو .. وما كان بوسعك أن تميز ما كان يقول ، فان خشب الارضية كان شديد السمك . ولكنك كنت تستطيع أن تدرك من صوته ما كان يقصده .. كان يطلب اليها أن تدعه يخرج ، والا قتل «بتيا» . وراح يزأر فى ضراوة تفوق ضراوة الوحش المهتاج ، ليثير الذعر فى نفسينا .. ومضى يصرخ : « سيروح عزيزك بتيا ، لقاء هذا ! » . ولكنها لم تكن تفقه شيئا ، فراحت تضحك ، وتغمز لى بعينها ، وكأنها كانت تقول : « دعيه يصرخ ما شاء له الصراخ ، فاننى أجلس فوق الحقيبة ، وقد ضممت قبضتى على المفتاح ! » .. وقلت لها كل ما كان من الممكن أن يخطر ببالى . ورحت أصرخ فى أذنيها قائلة أن عليها ان تفتح باب القبو لتنقذ بتيا .. وحاولت أن أدفعها عن الحقيبة ، ولكننى لم أستطع ، فقد كانت اقوى منى ، ولم تشأ أن تنصت لى !

« وقصارى القول انه راح يدق السقف ، ويدق ، والوقت يمر ، وهى جالسة تحملق بعينيها ، ولا تصغى الى شىء .. حسنا ، بعد فترة من الوقت .. أواه يا رب ، أواه يا رب ! .. أى شىء لم أره ولم اجتزه فى حياتى ! .. ومع ذلك ، فاننى لم أصادف مثل هذا الهول مرة أخرى ! .. لسوف أظل ــ ما حييت ــ أسمع صوت « بتيا » الرفيع ، الواهن .. لقد راح « بتيا » الصغير يصرخ ويتأوه ، تحت الارض .. فلقد راح ذلك الشيطان يعض الطفل البرىء حتى قضى عليه !

« وبعد ، فماذا كان على أن أفعل ؟ .. ماذا كنت أملك أن افعل بهذه العجوز المجنونة ، وهذا القاتل ؟ .. وشرعت افكر فى نفسى ، والوقت يجرى .. وما أن فكرت فى الامر ، حتى سمعت «أودالوى» يصهل فى الخارج ، فقد كان يقف طيلة الوقت فى الفناء ، مسرجا ، على أتم استعداد .. أجل ، هذا ما حدث . كان « أودالوى » يصهل وكأنه يقول : « لنهرب يا تانيا ، ولنبحث عن بعض أهل

الخير ، وننشـــد عونهم ! » .. واطللت من النافذة ، فتبينت أن الفجـر كان يقترب . وقلت فى نفسى : « فليكن ! .. شكرا لك يا أودالوى اذ اوحيت الى بالفكرة ! .. ليكن ! لننطلق ! » .. ولكننى لم أكد أفكر فى هذا ، حتى خيل الى اننى اسمع صوتا آخر ، كأنما كان يناديني من وراء الغـابة : « انتظـرى ، لا تتعجلى يا تانيـا ، فسندبر الامر بطريقة أخرى ! » .. ومرة أخرى ، ادركت أننى لم اكن وحيدة فى الغابة . فعن بعد ، كانت ثمة قاطرة تطلق صفيرها ، وكأنها ديك يصيح فى فناء دارنا بالذات . وكنت أعرف تلك القاطرة وصفيرها ، فقد كانت تقف دائمـا متأهبة ، ممتلئة بالبخـار ، فى ناجو نايا) .. كانوا يسمونها « المعبرة » ـ (المعدية) ـ اذ كانت تساعد قطارات البضائع على تسلق التـل . وفطنت الى أن ثمة قطارا مشتركا (١) كان مقبلا ، وقد اعتاد أن يمر بنا فى مثل ذلك الوقت من كل ليلة .

« وموجز القول اننى سمعت هذه القاطرة ، وادركت انهـا تنادينى من بعد . ورحت أنصت وقلبى يقفز فى صدرى . وساءلت نفسى : أفقدت عقلى أنا الاخرى ـ كالخالة مارفا ـ حتى أخال أن كل حيوان حى ، وكل قاطرة صماء ، تتحـدث الى بلغة روسـية واضحة ؟ .. على انه لم يكن للتفكير من نفع ، اذ كان القطار يقترب ، ولم يكن ثمة وقت للتفكير .. وامسكت بالمصباح ، اذ لم يكن ضوء الفجر قد وضح بعد ، وأسرعت كالمجنونة الى الخط الحديدى ، ووقفت فى الوسط ، بين القضيبين ، ألوح بالنـور الى أعلى والى أسفل !

* * *

« وبعد ، فماذا بقى ليقال ؟ .. لقد أوقفت القطار ، فقـد كان ـ لحسن الحظ ـ يسير بطيئا بسبب الريح .. بطيئا ، حتى انه

(١) قطار يجمع بين عربات للركاب واخرى للبضائع .

لا يجاوز خطوات السائر على قدميه .. أوقفته ، فمال السائق ـ الذى كان يعرفنى ـ خارج نافذة قمرته ، وصاح موجها الى الخطاب ، ولكننى لم أتبين قوله ، من جراء الريح .. **وصحت أنبئه بأن ثمة قاطع طريق قد سطا على كوخ الاشارة .. قتل وسرقة .. شرير فى الدار ، فساعدنا أيها الرفيق العم ، فنحن فى حاجة الى نجدة عاجلة** .. وبينما كنت أقول هذا ، تقفز رجال الجيش الاحمر من القطار ، واحدا اثر الآخر .. فقد كان القطار يقل جنودا .. أجل ، كان قطار جيش .. وقفزوا هابطين الى الخط الحديدى .. وتساءلوا : « ماذا هناك ؟ » . فما كانوا ليتصوروا سببا لوقوف القطار فى غابة ، على سفح تل منحدر ، فى الليل .. وكان القطار قد وقف تماما . وعندما سمعوا منى كل ما حدث ، ذهبوا فجروا قاطع الطريق الى خارج القبو . وكان يصرخ بصوت أرفع من صوت بتيا : « ارحمونى أيها الطيبون . ولا تقتلونى .. لن أعود الى هذا العمل ثانية ! » .. لكنهم جعلوا من أنفسهم قضاة ، فجرجروه الى « الغلنكات » (١) وأرقدوه عليها ، ثم شدوا يديه وقدميه الى القضبان ، وساقوا القطار فوقه !

« ولم أعد أبدا ، ولو لآخذ ملابسى ، فقد كنت فى خوف شديد . وسألتهم أن يأخذونى معهم فى القطار ، فأركبونى معهم ، وانطلقت .. وطفت بعد ذلك بنصف اقليمنا ، وبأقاليم أخرى ، مع المشردين .. بل اننى لا أدرى مكانا لم أمر به . ولست أبالغ !.. ويا للسعادة ، ويا للحرية اللتين عرفتهما بعد كل أحزان طفولتى ! .. وان كان جديرا بى أن أذكر انه كان ثمة كثير من الشر والشقاء ، كذلك ! .. بيد أن هذا كله وقع فيما بعد ، وسوف أرويه لكم فى وقت آخر ..

« وفى تلك الليلة ـ التى كنت أحدثكم عنها ـ أقبل أحد موظفى السكك الحديدية فى قطار ، وذهب الى الدار ليتسلم ممتلكات

---

(١) الكتل الخشبية التى تمد تحت القضبان وتربط بينها .

الحكومة ، وليصدر تعليماته بشأن الخالة « مارفا » ، وليدبر ما ينبغى أن يجرى من أجلها .. **ويقول البعض انها لم تشف اطلاقا ، وانها ماتت فى مستشفى المجانين .. ولكن غيرهم يقول انها تحسنت وغادرت المستشفى »**

* * *

• **وبعد** أن استمع جوردون ودودوروف الى قصة « تانيا » ، راحا يتمشيان تحت الاشجار – فى صمت – لفترة طويلة ، ثم أقبلت سيارة النقل ، وتحولت فى عنف عن الطريق ، الى الحقل . فرفعت اليها الصناديق .. وقال جوردون :

– هل أدركت من تكون .. تانيا ، عاملة المغسل ؟

– أجل .. طبعا!

ثم أردف بعد صمت : « لسوف يعنى بها « ايفجراف » .. **لقد** حدث هذا عدة مرات ، فى مجرى التاريخ .. حدث أن تحول شيء لم يخطر بالبال الا بطريقة مثالية ، خيالية ، الى حقيقة مادية واقعة ! .. هكذا نشأت روما عن بلاد الاغريق ، ونشأت الثورة الروسية عن تنور الروس ! .. تأمل ذلك السطر من أشعار بلوك : « نحن ، معشر الاطفال الذين تمخضت عنهم سنوات روسيا الرهيبة ! » .. بوسعك أن تلمح اختلاف الزمن فى الحال .. لقد كان – حين قال هذه العبارة ، فى زمنه – يقولها مجازا وتورية .. فما كان الاطفال أطفالا ، وانما كانوا أبناء الطبقة المثقفة ، وخلفاءها .. ولم تكن السنون الرهيبة رهيبة ، وانما كانت غامضة ، مبهمة ، أشبه بالرؤيا التى تكشف عن المرجو من المستقبل .. وهكذا ترى أن الامر كان مختلفا .. أما الآن ، فقد أصبح المعنى المجازى معنى حرفيا ، فان الاطفال أطفال، والرهبة رهيبة .. ها هوذا الفارق ! »

— ٥ —

• فى أمسية هادئة من أمسيات الصيف فى موسكو ـ بعد خمس سنوات أو عشر ـ اجتمع « جوردون » و « دودوروف » ثانية ، وقد جلسا بجوار نافذة تطل من عل على المدينة الهائلة التى كانت تمتد فى جنح الظلام . وكانا يقلبان صفحات كتاب من مؤلفات « يورى » التى كان « ايفجراف » قد جمعها .. كتاب كانا قد قرآه أكثر من مرة ، حتى أوشكا أن يحفظاه عن ظهر قلب !

وأخذا ـ فى الفترات التى كانت تتخلل القراءة ـ يتبادلان الآراء والتأملات ويسرحان مع أفكارهما .. وما لبث أن اشتد الظلام حتى لم يعودا يستبينان الحروف ، واضطرا الى أن يضيئا النور .

وكانت موسكو تمتد تحتهما الى أطراف الافق .. موسكو مسقط رأس المؤلف ، وموطن نصف كل ما وقع له .. لقد تراءت لهما اذ ذاك ، لا كمكان وقعت فيه كل هذه الاحداث ، وانما كبطلة فى قصة طويلة ، كانا يشرفان فى تلك الليلة ـ والكتاب بين أيديهما ـ على نهايتها !

ومع ان النور والتحرر اللذين كان من المرتقب ان يجيئا فى أعقاب الحرب ، لم يجيئا مع النصر ، الا انه كانت ثمة بارقة من الحرية فى الجو ، خلال هذه السنوات التالية للحرب ، فكانت هى المعنى التاريخى الاوحد لتلك السنين .

ولاح للصديقين المكتهلين ، الجالسين الى جوار النافذة ، أن روح الحرية هذه كانت موجودة ، وان المستقبل قد أصبح ـ فى تلك الليلة بالذات ـ مندمجا فى الشارع الممتد تحتهما ، وانهما هما الآخران قد دخلا هذا المستقبل ، وقدر لهما ان يصبحا ـ من الآن فصاعدا جزءا منه !

وشعرا بغبطة وادعة بهذه المدينة المقدسة ، وبكل البلاد ، وبمن قدر لهم البقـاء من أولئك الذين قاموا بدور فى هـذه القصـة ، وبأطفالهم ، وبموسيقى السعادة الصامتة التى ملأتهما ، ولفتهما ، وانتشرت فى طول الحياة وعرضها ..

ولاح أن الكتاب الذى كان بين أيديهما قد أدرك ما كانا يشعران به ، فآزرهما ، وطمأنهما !



الفصل السابع عشر

قصائد "يوري چيفاجو"



الفصل السابع عشر

١ ـ هاملت

وصمت كل صوت ..
فصعدت الى خشبة المسرح
ها أنا أتكىء على الباب وأنصت
محاولا ان أحدس من الصدى البعيد
ماعساه أن يقع خلال حياتى .

أن ظلمة الليل مصوبة الى ،
خلال ألف نظارة مكبرة ..
يا أبت الذى فى السماوات
أعبر عنى ، ان شئت ، هذه
الكأس .
انى أحب قصدك العنيد ،
وأقبل ان أمثل دورى ..
لكن دراما أخرى تمثل الآن
فاعفنى منها هذه المرة .

لكن ترتيب الفصول قد أعد
ونهاية الطريق لا مفر منها .
انى بمفردى ، وكل شىء
يغرق فى نفاق الفريسيين .
ولئن تحيا حياتك ،
ليس ذلك بسيطا كعبورك الحقل

٢ ـ مارس

المجرى يهدر وينطلق ،
ثملا بالشمس . والربيع يكدح
وينجز عملا كثيرا
كراعية بقر قوية الذراعين .

الجليد هزيل ، يذوب
فى ثنايا عروقه الزرقاء
لكن الحياة تخصب فى الحظائر
والمذراة تنضح بالعافية

أى ليال ! أى أيام وأى ليال !
فوق الاسطح يتلألأ الثلج
ثم يذوب قطرة قطرة عند الظهر
والغدران تثرثر ليل نهار .

الحمائم ترعى فى الثلج
والحظائر ، والعنابر مفتوحة
على مصراعيها
وهذا السماد الذى يغذى
ويحمى ، تملأ رائحته الهواء !

٣ ـ أسبوع الآلام

ما تزال الظلمات مخيمة ،
فالوقت مبكر فى أنحاء الكون ،
والنجوم التى لاتحصى ، ساطعة
كالنهار .
.. ولو استطاعت الارض ،
لأحبت ان تنام ، برغم الفصح،
على أنغام المزامير ..

كل ما حولنا ظلمات
فالوقت مبكر جدا على الأرض
وبين الافنية الفسيحة
يمتد مفرق الطرق بلا نهاية
والى أن يعم دفء النهار ،
ما تزال باقية ألف سنة !

الارض عارية تماما
ليس لها ما ترتديه فى الليل
بينما هى تدق الاجراس
ترديدا لتراتيل الكنيسة
ومن خميس العهد
الى سبت النور
تتدفق المياه الى شواطىء النهر
وتصنع حفرا ودوامات

والغابة قد تجردت
عارية تماما
وفى أسبوع آلام المسيح
تراصت أشجار الصنوبر فى
حشد
كمتعبدين اصطفوا للصلاة .
وفى المدينة ،
التأم شمل الاشجار العاريه
كأنها تعقد اجتماعا
متطلعة خلال أسوار الكنيسة.

الذعر يبين فى نظراتها ،
وجذعها واضح للعيان ،
والحدائق تمد أغصانها
من خلال الأسيجة ،
والارض تزلزل زلزالها ،
فانهم يدفنون « الله » !

وفى قدس الأقداس ..
يرون أضواء الشموع ،
ووميض العيون الباكية ،
والنقاب الكبير الأسود ،
..وفجأة يخرج موكب الصليب
متقدما نحوهم بالكفن ،
فتتراجع شجرتان عند المدخل
لتفسحا لهم الطريق .

ويطوف الموكب بفناء الكنيسة
ثم يعود بمحاذاة حافة الرصيف
ويجلب معه الربيع ، وكل

آهازيجه
والنسيم المحمل بمـذاق خبز
العشاء الربانى .
والنفحات الثملة بعطر الربيع .

وينشر « مارس » الجنيد
على جموع الكسيحين عند
الباب
كأن رجلا قد حمل خيمة
الاجتماع الى الخارج ،
ففتحها، ووزع عليهم الخبز
المبارك حتى نفد .

ويستمر الترتيل حتى الفجر ،
واذ يرهقهم النحيب ،
يتردد صدى المزامير
بصوت أكثر خفوتا ،
تحت مصابيح الطريق الساكن،
وفوق الأراضى الخلاء .

لكن جميع الكائنات ،
البشر والوحوش ،
تصمت عند انتصاف الليل ،
حين تسمع الربيع يذيع
الشائعات ،
بأن الموت سوف يمكن قهره
- بمجرد تغير الطقس -
عن طريق القيامة والبعث .

٤ - الليلة البيضاء

أخالنى أرى ماضينا بعيدا
وبيتنا على رصيف بطرسبورج ،
يا ابنة صاحبة العقار الصغير
فى سهول سيبيريا ..
لقد جئت من (كورسك)
لتتعلمى .

لقد كنت فاتنة ، شغف بك
الشبان .
وفى تلك الليلة البيضاء
جلسنا كلانا على حافة نافذتك
ننظر من ناطحة السحاب ،
الى المدينة الراقدة تحت
أقدامنا فى الظلام .

وخفق لهب مصابيح الطريق ،
وقد مسها ندى الصباح ،
كما تخفق الفراشات
الشفافة ..

وهمست لك بصوت ناعم ،
نعومة الافق البعيد الساجى .
وكما تمتد مدينة بطرسبورج
بعيدا وراء نهر (النيفا) الذى
لا شواطىء له

كذلك ربط بيننا نحن الاثنين
ولاء خجول ، لسر غامض .
وهناك بعيدا ، فى الغابة الكثيفة
فى تلك الليلة البيضاء ،
من ليالى الربيع ..
ملأت البلابل أرجاء الغابات
بتغريدها وتسابيحها ..
واستمر ترنيمها المحموم
وأثار صوت العصفور الصغير
لغطا وغبطة ونشوة
فى أعماق الغابة المسحورة
وهناك زحف الليل ..
يحتضن الاسيجة ، كسائح
يجوب الآفاق ، حافى القدمين
وهو يجر خلفه ، من حافة
النافذة
أطياف ذلك الحديث ..
وعلى مرمى السمع من صداه
فى الحدائق المسورة
اتشحت أغصان التفاح والكرز
بالبراعم البيضاء ..
وازدحمت الاشجار فى الطريق ،
بيضاء مثل الاشباح ..
كأنها تلوح بأغصانها مودعة ،
لليلة البيضاء التى شهدت
الكثير !

٥ ـ ذوبان الثلوج .. فى الربيع

كان ضرام الغروب ينطفىء ،
ويموت عند الافق ،
خلال الغابة الكثيفة ..
وامتطى فارس منهوك القوى
جواده عبر طرقات الغابة
التى غمرها فيضان الجليد فى
الربيع
متجها نحو مزرعة منعزلة
من مزارع جبال الاورال
وراح الجواد يلوك اللجام
والمياه تطارد بعضها البعض
فى مجارى القنوات ..
وتجيب على وقع سنابكه !
ولكن حين أرخى الفارس
العنان
وأبطأ من سرعة جواده
واصل فيضان الجليد
دويه الصاخب الهدار
وضحك شخص ، وبكى آخر ،
والاحجار تكسرت الى حصى ،
والاشجار المقتلعة من جذورها ،
جرفها تيار الدوامات .

وفى ضرام الغروب ..
فى ركن مظلم بين الاغصان ،
صدح بلبل مذعور ..
كجرس رنان ينذر بالخطر .
والصفصافة المنتحبة ،
أرخت نقابها الاسود
ـ نقاب الارملة ـ
على شط الغدير ..
وهناك صفر العصفور مرددا
أنغام السنديانات السبع ،
كالبلبل اللص ، قاطع الطريق ،
فى الاساطير القديمة ..
أى نحس ، أية حمى ،
يتنبأ بها هذا العنف ؟
الى من كانت موجهة ..

هذه القذيفة الطائرة ،
فى سماء الغابة الكثيفة ؟

وبدا أن البلبل قد يأتى ،
فى أية لحظة ، كعفريت الغابة
الهارب من مخبأ المجرمين ،
ليلتقى بداوريات أنصار
الحزب ،
من المشاة أو الراكبين .

وأصغت الارض والسماء ،
والغابة ، والحقل
لما كان ينطوى عليه ،
هذا الضجيج غير المألوف ،
من جنون ، وألم ، وسعادة ،
وعذاب !

٦ ـ اعتراف

عادت الحياة على غير انتظار ،
كما كانت قد انقطعت فجأة ،
انى ما زلت أقطن حيث أنا
فى نفس الشارع العتيق ،
الذى كنت أقطنه فى ذلك اليوم
من أيام الصيف . وتلك
الساعة ..

الناس هم أنفسهم ،
والمتاعب هى بعينها ..

والغروب لم يطفىء بعد لهيبه
الذى تركه فى أمسية الموت
مسمرا على جدار (ماينج) (١)
فى عجلة .

والنساء بعينهن ، لا يزلن
فى أثوابهن القطنية الرخيصة ،

---

(١) ميدان (ماينج) فى موسكو ، حيث كان يدور قتال الشوارع ابان الثورة .

البالية ،
يبلين أحذيتهن من التجوال ليلا
ويصلبن من العذاب ..
فى زنزاناتهن العلوية الضيقة
فوق السقف الحديدى .

هذه احداهن تخرج منهوكة
الى عتبة بابها ..
ثم تصعد السلالم فى بطء
من البدروم ، وتعبر الفناء .

ومرة أخرى أستعد لابداء
أعذارى
غير مبال بشىء ..
ومرة أخرى تمضى جارتنا
فتختفى وراء المنعطف
وتتركنا وحدنا .

* * *

لا تبكى ، لا تعضى
شفتيك المتورمتين ،
فحذار ان تلهبى
دمل حمى الربيع !

ارفعى يديك عن صدرى ،
فالتيار يسرى منهما ..
حركة واحدة ..
ويسقط أحدنا بين ذراعى
الآخر !

السنوات سوف تمر ،
وتتزوجين .
وتنسين هذه الطرق غير
المستقرة .
انها لخطوة كبرى أن تكونى
امرأة ،
وانها لبطولة أن تسوقى الآخرين
الى الجنون .

أما انا فأهب الاجلال ،
والولاء مدى الحياة ، كالخادم ،
امام معجزة يدى امرأة ،
وظهرها ، وكتفيها ، وعنقها .

ومهما تعددت أطواق الالم ،
التى يطوقنى بها الليل ..
فان الجذبة المضادة أقوى ،
وهى الرغبة فى الفرار .

٧ ــ الصيف فى المدينة

الحديث يدور همسا ،
تتخلله زوبعة من العجلة ..
وحزمة الشعر كلها

جمعت من العنق .
من تحت المشط الثقيلة ،
تتطلع امرأة ذات خوذة .

رأسها ملقى الى الوراء ،
بكل شعره المضفور .

وفى الخارج ، الليلة الحارة
تنبىء بعاصفة ..
والمارة يتفرقون متثاقلين ،
الى بيوتهم .

وثمة رعد قصير ،
يتردد صداه فى حدة .
والريح تحرك الستارة ،
على النافذة .

حرارة ورطوبة ، معا ..

طقس لزج ، وسكون ..
واصابع البرق ،
تفتش السماء .

وحين يشرق الصباح الدافىء
فيجفف البرك الآسنة فى الطرقات
بعد ليلة مطيرة .

تعبس أشجار الزيزفون
العبقة ، المتفتحة ، العجوز
(حتى ليحسب عمرها بالقرون)
تعبس ، من فرط حاجتها الى النوم .

٨ - الريح

هذه نهايتى، لكنك ستعيشين.
الريح ، الباكية ، الشاكية ،
تلطم المنزل والغابة ..
تلطم الاشجار مجتمعة ،
وليس كل شجرة صنوبر على حدة .

تلطمها الى مسافة غير محدودة،
كما تفعل بهياكل السفن
الراسية فى الميناء .
انها تهزها وتخضخضها ،
لا بدافع الشر والاذى ،
ولا فى سورة غضب بلا هدف ،
ولكن لتخرج لك من حزنها ،
كلمات أغنية خفيفة ،
تهدهد الاطفال حتى يناموا

٩ ـ نشوة الثمل

تحت شجرة الصفصاف التى
يحيط بها اللبلاب ..
ننشـــد المأوى من الطقس
العاصف .
عباءة تغطى كتفينا ..
وذراعاى تطوقانك .

معذرة ، لقد أخطأت .
ان أشجار هذه الاجمة ،
لا يحيط بها اللبلاب ،
بل حشيشة الدينار ..
واذن فمن الافضل
ان ننشر العباءة على الارض .

١٠ ـ صيف هندى

لنبات عنب الثعلب ،
ورق خشن كالخيش ..
وفى البيت يسمع ضحك ،
وصوت زجاج يرن ..
انهم يقطعونه ، ويضعون عليه
التوابل والفلفل .
ثم يعبئونه فى الاوانى .

والغابة العابثة تبعثر كل هذا
الضجيج
سفل السفح المنحدر
المكسو بأشجار البنـدق التى
لفحتها الشمس
فصارت فى لون الصهباء ،
تحت نار أتونها .

وهـذا الطريق المنحدر يقود
الى الوادى الغائر ..

فتحس بالاسى من أجل الاشجار
التى سقطت ،
ومن أجل الخـريف ، تاجر
الفضلات القديمة ،
الذى يكنس كل شىء نحـو
الاخدود .

وأأسفاه لان الدنيا ابسط
مما يحسب بعض النابهين
واأسفاه من أجل الاجمة الذابلة
واأسفاه ، لان لكل شىء نهاية .

واأسفاه لان لا جـدوى من
التحديق ،
اذا كان كل شىء أمامك قـد
احترق .

وهباب الخريف الابيض يتناثر
من النوافذ كنسيج العنكبوت .

وثمة ممر قد انفتح ،
خلال سياج الحديقة ،
ينتهى الى غـابة أشجـار
التامول .
وثمة ضحك وجلبة فى البيت ،
ونفس الضحك والجلبة يسمع
من بعيد .

١١ ــ حفلة العرس

وعبر ضيوف العرس الفناء
متجهين الى بيت العروس
ليحتفلوا حتى مطلع الفجر .

وخلف أبواب مخدع السيد
المبطنة بالصوف العازل للصوت
صمت كل همس أو غمغمة
من الساعة الواحدة الى السابعة

ولكن عند بزوغ الفجر
حين يحلو النوم الى الابد
تعـود موسـيقى الاكورديون
للعزف
تمهيدا لانصراف الضيوف

ومن جديد تعزف الالحان
ألحان منوعة من كل لون
وسط ضجيج الاصوات ،
وتصفيق الايدى ،
ورنين عقود اللؤلؤ ، حـول
النحور .
ومرة بعد أخرى . .
تقتحم موسـيقى الـرقص
الصاخبة
مخدع النائمين فى أعلى
صاعدة اليهما من قاعة الحفل .

وتتسلل فتاة بيضاء كالثلج
تخطر مزهوة كالطاووس
وسط الصيحات والصفير
وهى تؤرجح ردفيها .

وتومىء برأسها
وتلوح بيمناها
وترقص على الرصيف
رشيقة كالطاووس .

وفجأة ، كأنما فى حلم ،
توقف الهرج والمرج
والجلبة فى حلبة الرقص
وغاصت كلها فى القاع .
واستيقظت الساحة بضجيجها
واختلط صـدى الحـركة
اليومية

مع الثرثرة والضحكات .

وطارت من أبراج الحمام ،
مرتفعة نحو السماوات اللانهائية ،
زوبعة من رقع رمادية زرقاء
.. سرب من الحمائم الوديعة .

كأن شخصا صحا من نومه
فأرسلها تتعقب ضيوف العرس
بالامانى لسنوات من العمر
الطويل
فى حين أن الحياة نفسها

ليست سوى لحظة ..
ليست سوى ذوبان نفوسنا
فى نفوس الآخرين
هبة منا لهم !

ليست سوى عرس
يندفع مقبلا من الشارع ،
خلال نوافذ الدار .
ليست سوى أغنية .. سوى
حلم .. سوى حمامة
اختلطت فيها الزرقة بلون
الرماد .

١٢ ـ الخريف

سمحت لأسرتى أن تتبعثر .
كل أعزائى قد تفرقوا ..
وباتت تملأ قلبى والطبيعة ،
وحدة طويلة موحشة ، مدى
الحياة .

وها أنا معك ، فى بيت صغير .
الغابة فى الخارج مهجورة
كصحراء .
وكما فى الاغنية ، تكاد ممراتها
ومسالكها
أن تكون مغطاة بالاعشاب .

والجدران الخشبية حزينة .
ليس لها من يحدق فيها سوانا .

لكننا لم نفكر يوما فى القفز فوق
الحواجز
وانما سنموت بغير خداع .

فى الساعة الواحدة سوف
نجلس الى المائدة ..
وفى الثالثة سننهض ..
أنا بصحبة كتابى ..
وانت بصحبة قماش تطريزك .
وعند الفجر لن نعود نتذكر ،
متى توقفنا عن تبادل القبلات

فيا أوراق الشجر ، أرسلى
حفيفك
وتساقطى ..

فى بهاء ، وتهور متزايد .
املأى كأس الأمس بالمرارة ،
وزيديه من آلام اليوم .

دعى التفانى ، والرغبة ،
والغبطة ،
تتبعثر وسط ضجيج
(سبتمبر) .

وأنت،امضى لتختبئى فى اعطاف
الخريف العاصف ..
فاما تهدئين ، أو تصابين
بالجنون .

انك تخلعين ثوبك وتطرحينه ،
كما تطرح الادغال أوراقها ..
وفى قميصك ذى الطرر
الحريرية
تسقطين بين ذراعى !
أنت الهبة الطيبة لطريق
الهلاك ،
حين تسقم الحياة أكثر من
المرض .
والجمال يستمد جذوره من
الجراة
ذلك ما يجذبنا أحدنا للآخر .

١٣ ـ قصة خرافية

حدث ذات يوم ،
فى مملكة خرافية ،
ان مضى فارس الى القتال ،
فوق الاحراش الشائكة ،
فى سهول سيبريا .

ومن خلال الغبار ،
بدت له غابة مظلمة ،
كأنما هبت لملاقاته ،
متطلعة اليه من بعيد .

وألح على قلبه ،
هاجس من القلق :
حذار من منهل الماء ،

أشدد حزامك جيدا .
لكنه لم يصغ لصوت النذير ،
بل ركض بجواده ..
بأقصى سرعته ..
يصعد منحدر الغابة .

وانطلق بمحاذاة مجرى جف
ماؤه ،
ومر بمرج ..
واجتاز تلا ..

وضل طريقه فى دغل ،
ثم عثر على أثر ،
خلفه وحش من وحوش الغابة ،

يقوده الى منهل ماء .
وإذ أصم اذنيه ،
عن نذير شكوكه ،
ركض هابطا نحو الوادى ..
ليروى ظمأ جواده .

وقرب مورد لـ ،
عبر المخاضة ..
كانت فوهة كهف ،
تضيء كالفوسفور .
وغامت على بصره
سحابة من الدخان القرمزى .
ودوت صرخة بعيدة
اخترقت سكون الغابة .

وأجفل الراكب ، ثم انطلق
يستجيب لصوت الاستغاثة..
واتخذ طريقه حذرا ..
وبغتة أمسك برمحه !
فقد رأى رأس تنين مخيف
ثم ذيله .. ثم بقية جسمه .

كان فمه يقذف
ألسنة من اللهب .
وكان قد اقتنص فتاة ،
وطوى عليها جسمه
.. ثلاث مرات !

وكان عنقه يتلوى
فوق كتفها ..
كطرف سوط لاهب .
فقد جرت تقاليد تلك البلاد
على أن تمنح وحش الغابة
فتاة من حسانها
لتكون أسيرته .. وفريسته !

تلك كانت الاتاوة
التى يدفعها الشعب للتنين
فدية لأكواخهم .
وتهيأ الثعبان ،
لافتراس أسيرته ..
فالتف حول ذراعيها، وعنقها !

ورفع الفارس عينيه ، وصلاته
نحو السماء الشاهقة
وأعد رمحه ..
للقتال !

عيون مغمضة .
تلال . سحب .
أنهار . مخاضات .
سنوات . قرون .

وإذ سقط مهزوما فى المعركة
فقد الفارس خوذته
بينما كان جواده الوفى
يطأ التنين بحوافره ..
ويزهق أنفاسه !
ثم رقد الجواد والتنين الميت ،
جنبا الى جنب على الرمال .

والفارس فاقد الوعى ،
والعذراء فى غيبوبة .

الوقت ظهر ، والجو صحو
وزرقته الرقيقة تشيع الهدوء .
من تكون الحسناء ؟ ملكة ؟
فلاحة ؟ أميرة ؟

أحيانا كان فرط الفرح ،
يضاعف دموعهما اضعافا .
وأحيانا كان نعاس كالموت ،
يأخذهما فى قبضته .

أحيانا كانت عافيته تعاوده .
وأحيانا كان يرقد بلا حراك ،
منهوكا من فرط ما فقد من
دمه [*]

لكن قلبيهما ينبضان ..
وآنا يحاول هو ،
وآونة تحاول هى ،
اليقظة والنهوض ..
ثم لا يلبث كلاهما
أن يستسلم للنعاس .

العيون مغمضة .
تلال . سحب .
أنهار . مخاضات .
سنوات . قرون .

١٤ ــ أغسطس

هذا الصباح ، وفاء بوعدها ،
غمرت الشمس الغرفة ،
من الستارة حتى الاريكة ،
بأشعة من زعفران .

أشعة ساخنة فى لون الكهرمان،
غمرت الغابات القريبة ،
وبيوت القرية ،
وفراشى .. والوسادة المبتلة ،
والجدار خلف خزانة الكتب .

أنا اذكر لماذا ابتلت الوسادة ،
لقد حلمت أنكم قادمون .
واحدا بعد الآخر ،
اجتزتم الغابة ، لتودعونى .

سرتم جماعة مفككة ،
ثم تذكر أحدكم أن اليوم
ــ طبقا للتقويم القديم ــ
هو السادس من أغسطس ،
عيد تجلى المسيح .

فى هذا اليوم ، عادة ،
يهبط من جبل التجلى
ضوء بلا لهب .
والخريف الصافى الاديم ،

يجذب اليه جميع الانظار .
سرتم خلال الدغل الصغير ،
دغل أشجار الحور العارية المرتعشة
متجهين نحو فناء المقبرة
حيث أشجار الزنجبيل الحمراء
التى تتوهج مثل كعكة العسل .

وهاماتها الساكنة تتطاول ،
الى عنان السماء الشاهقة .
والآفاق البعيدة حيث تصدح الديكة ،
تبدو وكأنها تتبادل النداء .

وبين الأشجار ، وسط فناء الكنيسة
وقف الموت ، كمشرف حكومى ..
ونظر الى وجهى الميت ، ليقيس
أبعاد القبر الذى سيحفره لى .
وكان فى وسع الجميع ،
أن يسمعوا بوضوح ،
صوتا هادئا قريبا ..

ذاك كان صوتى المتنبىء ،
الذى لم يمسه الانحلال :

وداعا ، أيها الذهب واللازورد ،
المنتسبين للتجلى ، والمجىء الثانى .
ولتلطفن مرارة ساعة موتى ،
بعناق أخير وملاطفة ، من امرأة .

وداعا أيتها السنوات الخالدة
أيتها المرأة التى تحدت هاوية الاذلال والمهانة .
انى ميدان معركتك .

وداعا يا تحفز الأجنحة المبسوطة .
وداعا أيها الطيران الحر ، الذى يتجاهل العوائق .

ويا صورة العالم كما تجلت فى الكلام ..
ويا موهبة الخلق ، وصنع المعجزات .

١٥ ـ ليلة الشتاء

الجليد يكتسح الأرض ..
يكتسحها من أقصاها الى أقصاها .
والشمعة تشتعل فوق المنضدة ..
ومثل أسراب من حشرات الصيف ،
التى جذبها الضوء ..

هكذا انهالت رقع الجليد
على النافذة ..
والجليد الذى تسوقه الريح ،
رسم على حافة النافذة
دوائر وسهاما ..
والشمعة تشتعل فوق
المنضدة ..

وعلى السقف الناصع ،
تسقط الظلال ..
ظلال الأيدى المتقاطعة ..
والاقدام المتقاطعة ..
والاقدار المتضاربة ..

وسقط على الارض حذاءان ،
أحدثا صوتا ..
ومن ضياء الليل الخافت ،
تساقطت دموع الشمع على
ثوب .

وضاع كل شىء ..
فى الظلمة الجليدية ، البيضاء ،
ذات الشعر الأشيب .
والشمعة تشتعل فوق
المنضدة ..

وهب تيار هواء من الزاوية..
فنفخ فى لهب الشمعة ..
وكما ينشر الملاك جناحيه ،
رفعت حرارة الاغراءجناحين ،
على صورة صليب .

واكتسح الجليد كل شىء ،
خلال شهر فبراير ..
ومن وقت الى آخر ..
الشمعة تشتعل فوق
المنضدة ..

١٦ - فراق

رجل واقف على عتبة بابه
يتطلع الى الداخل ..
لكنه لا يتعرف على بيته ؛
ان رحيلها كان أشبه بالهرب
وآثار الخراب فى كل مكان .

كل الغرف فى حالة فوضى
لكن دموعه وصداع رأسه
لم يمكناه من رؤية
مدى ما حل به من دمار .
فى أذنيه طنين منذ الصباح
أهو يقظان ، أم نائم يحلم ؟
لماذا لا تفتأ فكرة الموج
تلح وتندفع الى خاطره ؟

حين يحجب الجليد المتراكم
على النافذة
منظر العالم الخارجى الفسيح

يصبح قنوط الحزن والاسى
كصحراء « البحر » الرحيبة .

كانت قريبة اليه ، عزيزة عليه
فى كل ملامحها ..
وكما يحدث عقب العاصفة
اذ يغرق العشب تحت الامواج
كذلك الحال فى قلبه
حيث غارت صورتها الى
الاعماق .

فى سنوات التجارب والمحن
يوم كانت الحياة عصيبة على
الفهم
من قاع البحر جاء **مد القدر**
قاذفا بها اليه !

حملها المد اليه
وسط المخاطر المحدقة
والعقبات التى لا تحصى
سالمة الى شاطىء الامان .
لكنها الآن قد مضت وولت

ربما مرغمة
وسيأكل الفراق قلبيهما
وتنهشهما التعاسة ، لحما
وعظما .

وانه لينظر حواليه
كيف قلبت فى ساعة الفراق
كل شىء رأسا على عقب
وقذفت بكل محتويات
الادراج .
وانه ليطوف بالمكان حتى
الغسق
يعيد الثياب المبعثرة
والنماذج التى قصت على
نسقها
يعيدها الى أدراجها .

وتخز اصبعه ابرة .
مثبتة فى ثوب ناقص
فيعاوده طيفها بغتة
ويبكيها فى هدوء .

١٧ ـ لقاء

عندما يغطى الجليد الطرقات
ويتراكم بغزارة فوق الاسطح
سأخرج لاتمشى ، وأراك
واقفة لدى الباب .
وحيدة ، فى معطف للخريف

بغير قبعة ، ولا حذائى انزلاق .
تمضغين حفنة من الثلج
وتحاولين الاحتفاظ بهدوئك .
الاشجار والاسيجة
تختفى فى الآفاق المظلمة

وانت تقفين عند الناصية
وحيدة تحت وابل الجليد .

الماء يقطر من شالك
وينضح الى أكمامك
ويتلألأ كالندى
فوق شعرك .

وخصلة شقراء منه
تضىء وجهك ،
وشالك ،
وقامتك ،
ومعطفك البالى .

الثلج يتلألأ على أهدابك
والاسى يبين فى عينيك
وطلعتك محفورة على قلبى
بأزميل مغموس فى الكحل .

والمذلة البادية فى تعبير وجهك
ستظل فى قلبى مدى الدهر .

أما قلب البشر القاسى
فليس من شأنى .

لهذا تتضاعف وطأة الليل
بجليده وظلمته .

ولست أستطيع أن أرسم حدا
يفصل بينك وبينى .

ولكن ، من نكون ؟
ومن اين نأتى ؟
حين لا يبقى من كل هاتيك السنين
سوى الثرثرة البليدة ..
ولا يعود لنا فى الدنيا وجود ؟

١٨ ـ نجمة عيد الميلاد

كان الشتاء فى أوجه
والريح تهب من السهول
وكان البرد شديداً على الطفل
الراقد فى كهف على سفح التل .
كانت تدفئه أنفاس ثور
فان حيوانات المزرعة جميعها
كانت تأوى الى نفس الكهف
ومرت سحابة دافئة فوق المذود .

ومن مراقدهم التى من قش وتبن
انتفض الرعاة المتدثرون
بجلود الاغنام ،
وكانوا نصف نيام .
ومن حافة الصخرة ،
راحوا يحدقون فى الظلام .
وعلى بعد سحيق
كان حقل يكسوه الجليد

وفنـاء مقبرة ، وأسيجـــة ،
وقبور
وعريش عربة فى مهب الجليد.
وفوق فنـاء المقبـرة ، كانت
سماء مرصعة بالنجوم .

ومن قريب ، لمعت نجمة
لم تكن رؤيت من قبل .
وكانت أشد حياء
من بصيص خافت
فى نافذة كوخ حارس ليلى .
لمعت ، تضىء الطـريق الى
بيت لحم .

وتوهجت ، مثل نار أشعلت
فى جرن دريس ،
أو كحريق شب فى مزرعة .
وانفجرت بنفسها ، بعيدة عن
السماء
وبعيدة عن الله .
وأثار ظهور النجمة الجديدة
دهشة العالم !

وكان وهجها الاحمر
أشبه بعلامة
عرع على أثرها الراصـــدون
الثلاثة
يلبون نداء ضيائها
الذى لم يسبق له مثيل !

وتبعتهم الابل محملة بالهدايا .
والحمير المسرجة .
تكأكأت تهبط التل ،
واحدا أصغر من الآخر .

وكأنما فى رؤيا غريبة
لاح من بعيد
مستقبل كل العصور المقبلة .
كل الافكار، والآمال، وعوالم
القرون الآتية .
مســتقبل معــارض الفن ،
ومتاحفه
كل خدع الجن والمردة
وحيل السحرة وأفعالهم ..
كل شجيرات عيد الميلاد
وكل أحلام الاطفال .

والشموع المتألقة ، المرتعشة
والسلاسل المصنوعة من ورق
وسناء البهرج وألوانه .
.. وفى السهول هبت الرياح
بمزيد من الحدة ، ومزيد من
الغضب
.. كل التفاحات ، والفقاعات
الذهبية .

وكان جانب من البركة
تحجبه أشجار الحور .
أما حيث وقف الرعاة

فكان يرى جانب آخر
بين أعشاش الغربان .
فوق هامات الشجر
ووقف الرعاة
يراقبون الجمال والحمير
تسير بمحاذاة الركة .
وقالوا : «لنذهب مع الآخرين»
ثم تدثروا بجلود الاغنام
قائلين : «فلنسجد للمعجزة» !

ودب الدفء فى أجسامهم
من السير الوعر فوق الجليد ،
وعلى الاديم الابيض
بدت آثار أقدام
تلمع كالزجاج
متجهة نحو الكوخ .
وعلى ضياء النجمة
نبحت الكلاب على آثار الاقدام
كما تنبح أمام جذوة نار .

وكانت الليلة المقرورة
شبيهة بليالى قصص الخرافات
فكانت أشباح غير منظورة
لا تفتأ تذهب وتجىء
وتهبط من منحدر الجليد
والكلاب تتبعها ،
وهى تنظر حولها فى قلق ،
وتتمسح بأقدام أسيادها

الرعاة .
وفى نفس القرية ، ونفس الطريق
راح ملائكة عديدون
يسيرون بين الجموع
بأجسام غير منظورة .
خطواتهم فقط تركت آثارها
على الجليد .

وكان جمع قد التأم شمله
بجوار صخرة ، عند المدخل
وقد أوشك الفجر أن يشرق
وظهرت جذوع أشجار الارز ،
فسألتهم مريم : « من أنتم ؟ »
« نحن جماعة من الرعاة ، رسل
من السماء ، جئنا نمجد
كليكما »
« لن تستطيعوا الدخول
جميعكم فى وقت واحد .
انتظروا قليلا عند الباب. »

وراح الرعاة يحومون فى المنطقة
فى الغسق الرمادى ، قبيل
الفجر
وبجوار جذع شجرة مفرغ ،
اتخذوه منهلا للماء ..
تبودل القسم واليمين ،
بين الفرسان والراجلين .
وزمجرت الابل ، ورفست

الحمير .
واشرق النهار
واكتسح الفجر بقية النجوم
كما يكنس الرماد .
ومن بين كل الجموع المنتظرة
لم تسمح مريم
لغير المجوس وحدهم ،
بالدخول الى حيث كان المذود.
كان مضطجعا فى مذود من
البلوط
يشع جبينه بالنور ، كشعاع
القمر
وبدلا من التدثر بجلود الاغنام
كان لباسه الوحيد ،

فى ذلك الزمهرير القارس
أنفاسا من خياشيم ثور ،
وشفتى حمار !

ووقف المجوس فى الظل ،
يتهامسون، ولا يكادون يجدون
الكلمات .

وفجأة ، امتدت يد من الظلام
أزاحت أحدهم جانبا ، الى
يسار المذود
فنظر حواليه ..
واذا بنجمة عيد الميلاد
ترمق العذراء من خلال الباب
وكأنها ضيف وافد .

١٩ ـ الفجر

كنت انت كل شىء فى حياتى
كنت قدرى !
ثم جاءت الحرب ، والدمار ..
وعشت زمنا طويلا ، طويلا ،
دون ثمة أثر منك ، ولا خبر .

بعد كل هذه السنين
عاد صوتك فهزنى
قضيت الليلة كلها اقرأ وصيتك
فأحسست انى أفيق من
اغماءة .

أريد أن أكون فى صحبة آخرين
وسط جمع فى غمرة جلبة
الصباح
انى متأهب لتحطيم كل شىء
كى أجبرهم على الركوع

انى اهبط السلالم عدوا
كأنى اخرج للمرة الاولى
الى الشوارع التى يغمرها
الجليد
بأرصفتها المهجورة .

وحولى فى كل اتجاه :
أضواء ، وحياة بغير كلفة ،
وأناس ينهضـون ، فيشربون
الشـاى
ويهرعون ليركبوا الترام
وبعد دقائق معدودة ..
لا تعود تعرف المدينة !
العاصفة الثلجية تنسج شباكا
من الجليد المتساقط بغزارة
والجميع يسرعون ليصلوا فى
موعدهم

تاركين نصف طعامهم
وقدح الشاى ناقصا .
انى أحس نحو كل منهم
كأننى أتقمص أشخاصهم
أذوب مع الثلوج حين تذوب
واعبس مع الصباح .
فى اهابى أناس بغير أسماء
أطفال ، مقعدون ، أشـجار
وقد هزمونى جميعا
وهذا هو انتصارى الوحيد .

٢٠ ـ المعجزة

كان يسير من (بيت عنيا)
الى أورشليم ..
وقد أنهكه أسى التوجس
النابع من شعور داخلى
ينذر بالسوء .
وكان العشب الشـائك على
السفح
تلهبه الشمس بشواظها ،
ولا أثر لدخان ينبعث
من مدخنة الكوخ القريب .
والهواء حار ساخن
وأعواد الغاب ساكنة بلا حراك
سكون (البحر الميت) .

وفى غمرة مرارة أساه
التى تبارى مرارة البحر
سار ، يصاحبه موكب صغير
من السحب ، كالاتباع ،
وكان الطريق المترب
يؤدى الى المدينة
حيث يجتمع تلاميذه
فى احدى الحانات .
ومضى ، مستغرقا فى أفكاره .
وانبعثت من الحقل الساجى
رائحة نبات « الشيح » .
كل شىء كان ساكنا ،
ووقف فى وسـط الطريق ،

وحيدا
وقد امتدت البرية أمامه
كرقعة منبسطة، أصابها الدوار
واختلط كل شيء : الحر ،
والصحراء ،
والسحالى ، والينابيع ،
والغدران .

وبالقرب منه كانت شجرة تين
عقيمة ، بلا ثمر ..
ليس بها سوى أغصان وأوراق
فقال يخاطبها : « أية بهجة
استمدها منك ؟ .. أى نفع
لك ، فى وقفتك هذه ،
كالنصب ؟ ..
« أنا ظمآن ، جوعان ، وانت
عاقر
« عقيمة ومجدبة ، ككتلة
من الحجر »
«لكم أنت عديمة الجدوى ،
مخيبة للامل !

« وستظلين كذلك ، الى
انقضاء الدهر »
فارتعدت الشجرة الملعونة
كمانعة صواعق ، دهمتها
الصاعقة !

وجفت من فورها ، وتهاوت
مضمحلة
الى أنقاض .. ورماد .

ولو أتيحت للاوراق، والاغصان،
والجذور ، والجذع ، نسمة
من الحرية
لتدخلت قوانين الطبيعة .
ولكن هكذا المعجزة ..
والمعجزة هى الله .

وحين يختلط فى ذهننا كل
شىء ،
وتصيبنا البلبلة
فى تلك اللحظة ..
تتدخل المعجزة .. لتنتشلنا !

٢١ ـ الأرض

فى بيوت موسكو العتيقة
يدخل الربيع مندفعا
فيفر العث من وراء خزائن
الثياب
ويزحف على قبعات الصيف .

وتدس معاطف الفراء فى
الحقائب
فى انتظار الشتاء التالى
وفى نوافذ الطوابق الخشبية
تظهر أصص ازهار القرنفل

و « البنسيه »
وفى الحجرات الفسيحة ،
تفوح رائحة الهواء الطلق .
أما المخازن فى الطابق العلوى
فتفوح منها رائحة التراب .

والرصيف يتحدث فى ألفة
الى النافذة شبه «المغمضة»
وعند النهر ،
يجتمع شمل الغروب والليل .

وفى المر يسمع ما يجرى
خارج الابواب ..
وثرثرة (ابريل) التافهة ،
مع المياه المتسربة من الميازيب .
ان أبريل يعرف ألف قصة
عن أحزان البشر .
وفوق السياج ، تبرد أطراف
الشفق
وهو يحيك خيوط القصة .

وفى الهواء الطلق ، وفى البيت
المريح
نفس الخليط : من الدفء
والقلق
فى كل مكان ، قلق وعدم
استقرار
وحيثما ذهبت ،
ترى أغصان الصفصاف
وحيثما مضيت ،
ترى البراعم المنتفخة
فى السهل ، وفى النافذة
فى الشارع ، وفى المصنع .

اذن لماذا ينتحب الافق
وتتصاعد دموعه ضبابا ؟
والسماد ينفث رائحة كئيبة ؟
انى هنا لانشر دعوتى
الى جمع قلوب البعيدين
وايناس وحشتهم .
انى هنا لابدد ضجر الارض
النائية ، خارج حدود
المدينة ؛

لهذا أحرص فى مستهل الربيع
على أن نلتقى ، أصدقائى وانا
فى أمسيات تشبه حفلات
الوداع
ومآدب نجدد فيها العهود
كيما نستمد من الآلام الخفية
دفئا يخفف من برودة الحياة .

٢٢ ـ الأيام الأخيرة

وفى الاسبوع الاخير
دخل أورشليم
وهرعت الجماهير تعدو خلفه
حاملة سعف النخل ،
هاتفة بصوت كالرعد :
« أوصنا ، مبارك الآتى باسم الرب »

وكان كل يوم
أكثر تهديدا من سابقه
فالقلوب لم يعد يلينها الحب
والحواجب عبست فى ازدراء
لقد جاءت الخاتمة . حلت النهاية .

وبكل أثقالها
جثمت السماوات على ضواحى المدينة

واذ اعوزت الفريسيين الادلة
رأحوا يتملقونه كالثعالب !

وقوى الشر فى الهيكل
أسلمته للغوغاء ليحاكموه
وبالحماسة التى أطروه بها
راحوا الآن يلعنونه .

وتجمع الحشد فى الخارج
وأطل من خلال الابواب
وتزاحم فى انتظار النتيجة
متدافعا الى الخلف والى الامام .

وسرت شائعة صغيرة بين الجيران
وتكاثرت الاقاويل من كل جانب
لقد تذكر الآن ، كما فى حلم
فراره الى مصر ، وطفولته .

تذكر الجبل الشامخ فى البرية
وتلك القمة التى منها
حاول الشيطان أن يجربه
ويغريه بالسلطان الدنيوى

ومأدبة العرس فى (قانا الجليل)
ودهشة القوم أمام المعجزة
والبحر الذى مشى فوقه ، فى الضباب
كما يمشى فوق أرض يابسة
متجها الى السفينة .

وتذكر اجتماع الفقراء فى كوخ
والهبوط الى قبو ، بصحبة شمعة .
وانطفاء الشمعة ، من الخوف
حين نهض الميت من القبر !

٢٣ - مريم المجدلية

- ١ -

عندما يأتى المساء ،
يجىء شيطانى
ليذكرنى بديونى القديمة .
وفى كل مساء ،
ينفتح قلبى ، وينزف
لذكرى تعاستى
والرجال الذين استعبدونى
وذكرى خطاياى ، وحماقتى
والشوارع التى قضيت فيها
ليالى .

بعد وقت قصير ، بعد لحظة
سيكون صمت القبر رهيبا
لكننى أبغى ، فى أقصر وقت ،
وقد بلغت ختام دنياى
أن أبسط أمامك
قصة حياتى بأكملها .
وأحطم عند قدميك
آنية هذه الحياة المرمرية
البيضاء .

آه ، أين كنت لاكون الآن
وماذا كان يكون مصيرى ،
يا معلمى ومخلصى ،
لو لم تنتظرنى الابدية
بالقرب من فراشى ، كل ليلة
كعميل جديد سقط فى فخ
مهنتى ؟

ولكن ، اهدنى الى معنى
الخطيئة
ومعنى الموت ، والجحيم ،
والنار !

ألم أصبح فى نظر الجميع ،
وقد طهرنى حزنى المميت ،
جزءا منك ، متحدا معك
اتحاد الغصن بالشجرة ؟

ولعلى يا مخلصى ،
وأنا أضع قدميك على ركبتى
أتعلم كيف أعانق الصليب
الذى سوف تسمر عليه .
وجسدك الذى ارتجف الآن
وأنا أدنو منه ،
غدا سوف أكفنه للدفن .

— ٢ —

فى المدينة ، يتأهبون للعيد
بعيدا عن الجلبة ،
بعيدا عن الزحام .
لكنى ، يا سيد ، لا أريد سوى
أن أسكب الطيب على قدميك .

انى أبحث عن نعليك فلا أجدهما
فلست أبصر شيئا
خلال الدموع التى تملأ عينى .
وخصلات شعرى المتهدلة
تغطى وجهى ، كنقاب .

دموعى تساقطت على قدميك
اللتين أضمهما على ركبتى
تغطيهما حبات لؤلؤ عقدى
وتجففهما خصلات شعرى .
وانى لارى المستقبل بوضوح
كأنك قد أوقفته .
فقد صارت لى فراسة العرافة
وبات فى وسعى رؤية الغيب .

غدا يمزق حجاب الهيكل
وينأى أصدقاؤك فى ركن قصى
وتميد الارض تحت أقدامنا
ربما اشفاقا على من ألمى .
وصفوف الحراس تعود فتلتئم
ويمضى الفرسان الى داورياتهم
والصليب فوق رأسى
يشرئب نحو السماء .
وسأرتمى عند قدمى الصليب
صامتة ، شاردة اللب ، أعض شفتى .
وذراعاك تنفرجان حتى نهاية ذراعيه
لتعانقا أكبر عدد من البشر .

فلأجل من ، على هذه الارض
يتسع عناقك ، الى هذا الحد؟
ولاجل من ، كل هذا العذاب
.. وكل هذا السلطان ؟
هل على الارض كلها
كل هذا العدد من النفوس ..
والنسمات .. والقرى ..
والانهار .. والغابات ؟

هذه الايام الثلاثة ستنقضى
لكنها ستلقى بى من حالق
الى هاوية الفراغ
بحيث أتطلع ، فى فترة الانتظار الرهيبة ،
الى قيامتك العتيدة
وأنمو فى المعرفة .

٢٤ ـ بستان جثيمانى

النظرات البـاردة ، من النجوم البعيدة
كانت تضىء منعطف الطـريق
الصـاعد الى جبل الزيتون .
وفى أسـفل ، فى قاع الوادى
يجرى نهر (قدرون) .
وفى منتصف التل
كان الطريق يتلوى
ويقود الى طريق « **المجرة** » .
وعلى البعـد كانت أشـجار الزيتون
وقد اختلط فى لونهـا الرماد والفضة
ترفع هاماتها نحو السماء
كأنما تنشد الفرار .
وخلال الطريق كان ثمة بستان خضر
فترك تلاميـذه خارج سياجه
قائلا لهم : « نفسى حزينة حتى
المـوت . امكثـوا هنـا
واسهروا معى . »
وبغير مقاومــة ، تنـازل عن سلطانه
وعن قدرته على صنع المعجزات
كما يعيد الانسان شيئا مقترضا
وصار بشرا فانيا مثلنا .
وبدا الافق الاسود
كأنه يعكس صـورة العدم ، والموت
بل بدت الدنيا **بأسرها**
مهجورة ، غير مسكونة ،
ولا مكان فيها للحياة
.. سوى هذا البستان .
ونظر الى الهاوية السوداء
الفاغرة فاها ، بغير قرار ..
وتصبب عـرقه ، وابتهـل الى أبيـه
أن يجنبه كأس **الموت** .
واذ روض جزعه بالصلاة
اتجه الى بوابة البستان
وهناك وجد تلاميذه جميعا نياما
على الحشـائش ، قد غلبهم النعاس .
فأيقظهم **منتهرا :**
« الله أعطاكم أن **تعيشـوا الى**
جانبى، وأنتم تنامون هكذا ؟
أما قدرتم أن تسهروا معى؟

ساعة واحدة ؟ .. هوذا الساعة
قد اقتربت ، وابن الانسان
يسلم الى أيدى الخطاة . »

ولم يكد يفرغ من قوله
حتى ظهر جمع من الغوغاء
عبيد، ولصوص، وقطاع طرق
مسلحون بالمدى ، يحملون
الشعلات
وعلى رأسهم يهوذا ، بقبلة
الخيانة .

وقاوم بطرس القتلة ،
وبضربة سيف ، قطع أذن
أحدهم .
لكنه سمع صوت المسيح
يخاطبه :
« رد سيفك الى مكانه ، لان
كل الذين يأخذون بالسيف،
بالسيف يهلكون . أتظن أنى
لا أستطيع الآن أن أطلب الى
أبى فيقدم لى أكثر من اثنى
عشر جيشا من الملائكة ،
فكيف تكمل الكتب انه
هكذا ينبغى أن يكون ؟
« ينبغى أن ابن الانسان
يتألم كثيرا ، ويرفض من
الشيوخ ورؤساء الكهنة
والكتبة ، ويقتل .. وفى
اليوم الثالث يقوم .
« فى اليوم الثالث سأنهض
ثانية ، وسوف تقبل الاجيال
القادمة الى ، من قلب
الظلمات ، كقافلة من
الزوارق تقبل على مجرى
نهر ..
« وسوف أدينهم . »

« تم الكتاب »

الاعداد التى صدرت حتى الآن من (مطبوعات كتابى) :

قصة مدينتين
تشارلس ديكنز

ذات الثوب الأبيض
ويلكى كولينز

الخالدون
ديل كارنيجى

الخاطئة
سومرست موم

حياة امرأة
جى دى موباسان
(جزءان)

الخطيئة الأولى
و فتاة من الاقاليم
البرتو مورافيا

أوديب
سوفوكليس واندريه جيد

مدام بوفارى
جوستاف فلوبير
(جزءان)

عاشقات فى الخريف
ستيفان زفايج

قلوب ضالة
رابندرانات طاغور

ديكاميرون
جيوفانى بوكاشيو

الظمأ للحب
ميكا والتارى

جين اير
شارلوت برونتى
(٣ أجزاء)

فاتنات الرجال
مارجورى كورجين

رجال ونساء
مكسيم جوركى

الثأر للوطن
جون شتاينبك

فرنسا الجريحة

على ضفاف النيل
ادوين جون ديفيز

الابن الضال
هنرى بوردو

أسرار الجاسوسية
برنارد نيومان

بيلا دونا
روبرت هتشنز
(٣ أجزاء)

بوشكين
ليديا لامبير

اعترافات روسو
جان جاك روسو
(٥ أجزاء)

قصص من الصين
أروع نماذج الادب الصينى
القديم والحديث

ليالى بلزاك
أونوريه دى بلزاك
(ألف ليلة وليلة الفرنسية)

الالياذة
هوميروس
(٣ أجزاء)

قصص من روما
البرتو مورافيا

المسبحة
فلورنس باركلى
(جزءان)

سفينة الملذات
موريس ديكوبرا

دم .. وخمر !
ليو تولستوى

تحت ظلال الليلا !
مبرورة سامى

أرواح هائمة
سومرست موم

القلعة
دكتور « ا . ج . كرونين »
(٣ أجزاء)

.. تلك هى قائمة الكتب التى صدرت حتى الآن من سلسلة (مطبوعات كتابى) .. **أما الكتب القادمة ، التى تعدها لك السلسلة للمستقبل ، وتطوى عليها صدرها ، فهى أقوى..وأمتع..وأروع ! وما خفى كان أعظم !**

أسعار بيع هذا العدد فى الاقليم الشمالى
والبلاد العربية الشقيقة

الاقليم الشمالى	**٣ ليرات سورية**
لبنان	**٣ ليرات لبنانية**
المملكة العربية السعودية	**٥ ريالات**
المملكة الاردنية	**٣٠٠ فلس**
الكويت	**٥ روبيات**
قطر	**٥ روبيات**
المملكة الليبية	**٥٠ قرشا**



لا تفرط فى هذا الكتاب الثمين بإعارته لغيرك ..

عزيزى القارئ ..

فى المجلد الأول - السابق - من هذه الرواية العالمية الضخمة ، تعرفت إلى أبطالها الرئيسيين ، ورافقتهم فى المرحلة الأولى من حياتهم ، إبان تلك الحقبة الهامة من تاريخ روسيا التى سبقت ثورتها الشيوعية الكبرى فى عام ١٩١٧ .. تعرفت إلى "يورى جيفاجو" .. و"لارا انتيبوفا" .. و"باشا" .. و"الكسندر الكسندروفتش" .. و"تيفرزين" .. و"جاليولين" .. و"مدام جيشار" .. و"كوماروفسكى" .. و"الخال كوليا" .. و"ناديا كولوجريفوف" ..

.. وعشرات غيرهم من الشخصيات التى أبدع المؤلف فى تصويرها بحيث جعلك تحس كأنك تعرف أصحابها منذ زمن طويل ، بل كأنك عشت معهم حياتهم الحافلة ، وخضت فى رفقتهم ما مر بهم من أحداث رهيبة !

وفى هذا المجلد الثانى والأخير من القصة ، تستأنف هذه الصحبة الممتعة لهؤلاء الأبطال .. حتى تبلغ ختامها الرائع ، فتفارقهم آسفا .. لكنك لن تنساهم !





فلا تهمل فى اقتناء أجزاء هذا الكتاب ..
واهد نسخة منه إلى صديقك المفضل ..

يصدرها
حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية